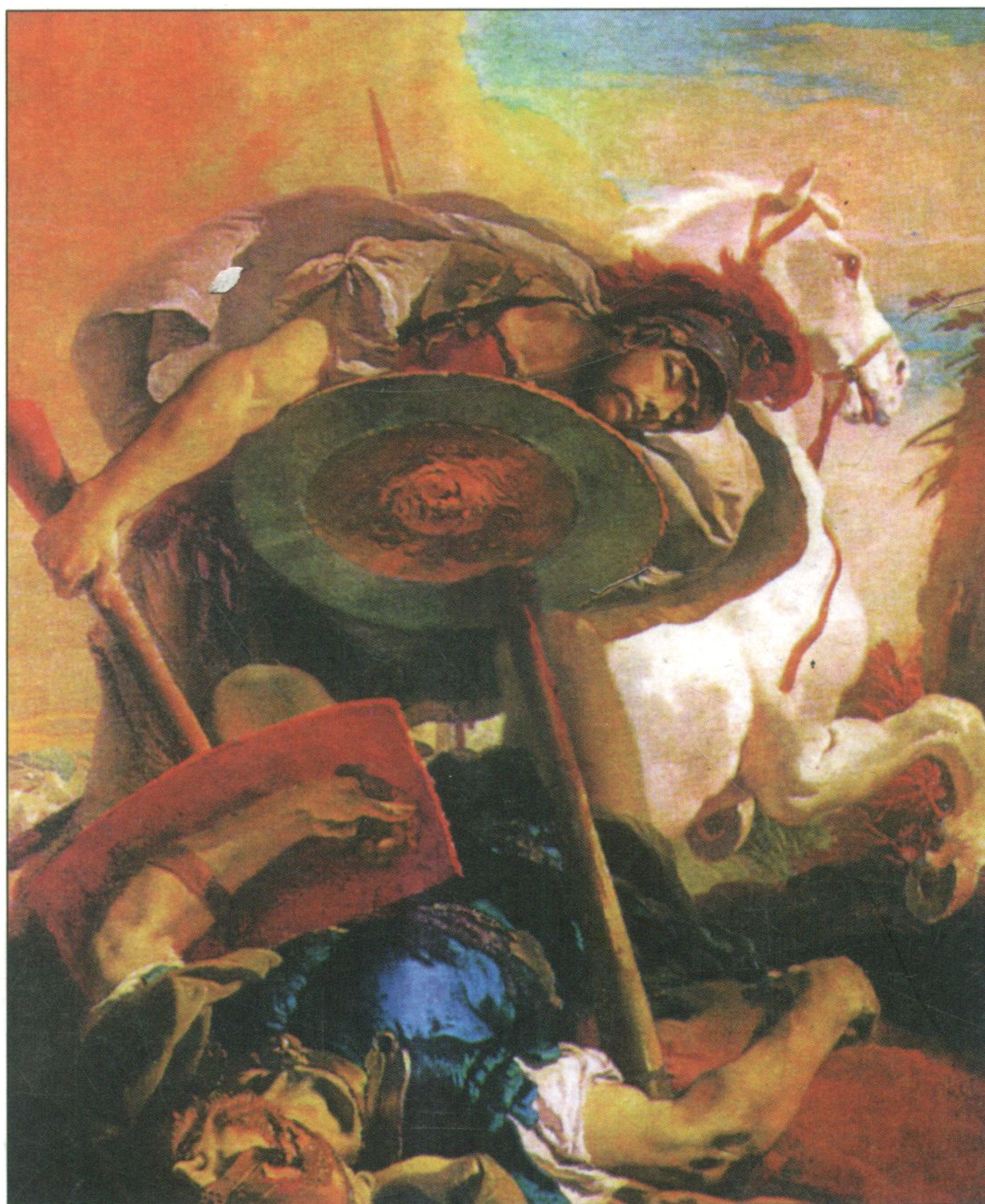
جان كلود بارو
غيوم بيغو

التاريخ الكامل للعالم

منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا





مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION



دار الفارابي

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت ـ الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

جان كلود بارو
غيوم بيغو

التاريخ الكامل للعالم

منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا

ترجمة: لحسن عيساني

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

الفارابي

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي
Toute L'histoire du monde

الطبعة الأولى
1429 هـ ـ 2008 م

ردمك 978-9953-71-366-3



tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae


دار الفارابي

وطى المصيطبة . شارع جبل العرب، مبنى تلفزيون الجديد
هاتف: 301461 ـ 307775 (1-961+)
ص.ب: 3181-11 بيروت 2130 1107 ـ لبنان
فاكس: 307775 (1-961+) . البريد الالكتروني: info@dar-alfarabi.com
الموقع على شبكة الانترنت: www.dar-alfarabi.com

المحتويات

فاقدو الذاكرة

منذ قرن مضى كان الذين يحسنون القراءة في فرنسا يعرفون أيضاً كيف يتموقعون في المكان والزمان. ويبيّن كتاب مدرسي ألفه أستاذان بارزان يحمل عنوان لـ"مالي إيزاك" (Malet-Isaac) المعالم التاريخية والجغرافية المعروفة لدى الناس الذين كانوا قد تجاوزوا الشهادة الابتدائية ولم يعد الأمر كذلك. وقد أصبح الفرنسيون وكذا جميع الغربيين، في معظمهم، أناساً بلا ماض، "فاقدي ذاكرة". وللمفارقة الساخرة، يجري الحديث عن "واجب الذاكرة" كما لم يحدث من قبل، في أزمنة النسيان هذه، إذ أنه من المعروف تماماً أنه لا يتم التركيز على ميزة إلّا إذا نسيت.

وإلى وقت غير بعيد، كنا نسمع الفرنسيين يهمهمون في ساعة الغضب: "لقد قمنا بالثورة من قبل، ونستطيع أن نعيدها"، مظهرين بأنهم واعون باستمرارية تاريخية جميلة. ترى ما الذي يمكن أن نجده في رؤوس أبنائهم (على الأقل أولئك الذين لم يدرسوا في دار المعلمين العليا). فارس مسلح من القرون الوسطى، في مكان غير مخدد، يمتطي بدل صهوة الجواد صاروخاً عابراً للقارات!

ويدل نجاح "سيد الخواتم" (Le Seigneur des Anneaux)، وهو فيلم مسلسل يصور ملحمة تجري في مكان غير معروف، على الجهل العام. وليس ذنب معاصرينا إن لم يُعتن بتعريفهم بالوقائع والأماكن. وقد أرادت موضة مزعجة أن تعوض دراسة التاريخ الكرونولوجي بدراسة المواضيع التي تراكب

القرون بعضها فوق بعض من قبيل "وسائل النقل عبر العصور". أمّا الأماكن فجميعها سواء في نظر تقنيين مستعجلين لم يعودوا يريدون أن يأخذوا المواقع بعين الاعتبار، فالمدن الحالية تصفّ في كل مكان أبراج الزجاج ذاتها. وفي غمرة هذه الفوضى تتلاشى المناظر وتنحل الثقافات وتمّحي التواريخ الجماعية.

ويقضي هذا الخليط على ما كان يسمح للأفراد بإعداد جردة لميراثهم.

ويضاف إلى هذا احتقار بورصي للمدى الطويل تقديس ثقافة "الفورية"، وسوف تفهمون أن حداثتنا تصنع مستهلكين متنقلين قابلين للتبادل و"أبناء إعلانات" أكثر مما تنتج مواطنين مسؤولين راغبين في الفهم والبناء.

وعليه وجب الحذر: فالدور الأكبر للحضارة هو نقل أمانة لأبنائها، وعلى هؤلاء أن يحتجوا أو يبددوا هذا الإرث أو يثمّروه.

فحين يسأل الشاب الإسرائيلي، في ليلة عيد الفصح، الكبار المحيطين به بطريقة شعائرية عن معنى الطقس الذي يحتفلون بها، فيجيبه الكبار بطريقة لا تقل شعائرية برواية تحرير الشعب اليهودي من العبودية المصرية. ويتعلق الأمر هنا بالفعل المؤسس للتربية، مُعبراً عنه بطريقة آسرة خلال وجبة الفصح اليهودية. وليس عبثاً أن حاول بول بوت (Pol Pot)، في كمبودياً، فصل الخمير جذرياً عن ماضيهم: فقد كان يدرك ما كان يفعله.

فمن دون هذا السؤال من المريد للمعلم، ومن دون هذا النقل من المعلمين إلى القادمين الجدد، لن تبقى أي حضارة ولن تبقى سوى البربرية ولن يبقى أي نوع بشري؛ وهو ما نشير إليه عند الحديث عن ما قبل التاريخ.

وقد دفعتنا هذه القناعة إلى محاولة سرد تاريخ البشرية. ونحن نعلم أن عدداً لا يحصى من المهنيين الملمين بهذه المسألة أو تلك يؤلفون عدداً من الكتب، تنشر كل سنة (على غرار ما يتم لدى ناشرنا) ومعظمها ممتازة؛ ولكن هؤلاء المؤرخين يتناولون مشكلات محددة وفترات بعينها وشخصيات معزولة. ولا يجد معاصرونا -الذين لم يتعلموا الكرونولوجيا في المدرسة - أي مقابل حالي لـ"مالي إيزاك" (صحيح أن هذا الكتاب قد أعيد نشره في طبعة جيب،

ولكنه كان يفترض أن تعليم التاريخ الذي لم يعد يقدم هو أمر معروف). ويواجه الناس اليوم صعوبات في عقد المقارنة بين المسائل، كي يتموقعوا هم أنفسهم في تسلسل الأزمنة. والحال أنه في غياب وجه للمقارنة لا تكون هناك مشكلات قابلة للفهم، كما يشرحه لنا مالرو في كتابه "أونتي ميموار" (Anti-mémoires) بقوله "التفكير معناه المقارنة".

هل يمكن حقاً تفكيك الأحداث دون مرجعيات تاريخية، والأحداث الأكثر حالية تتجذر دائماً في المدى الطويل؟ فعلى سبيل المثال، كيف لنا أن نحدد موقع حروب العراق دون أن نكون قد سمعنا عن حضارة ما بين النهرين؟ ففي غياب المعالم الكرونولوجية والجغرافية، تتحول نشرات أخبار الثامنة مساءً إلى قصص خيالية، وحلقات من "سيد الخواتم". فصورها تصدمنا دون أن تعنينا. و نحن نرى اليوم كل شيء فوراً وعلى المباشر، لكننا لا نفهم شيئاً. ونجد في المكتبات معاجم تاريخية، ولكن لكي يطلع المرء على معجم عليه أن يعرف كيف يدلف إليه. كما نجد على "شاشات الانترنت" كل ما نبحث عنه، ولكن أفضل الأشياء وأسوأها تتعايش على "الشبكة"، ومن دون ثقافة عامة يصبح من الصعب تمييز أحدهما عن الآخر.

ومن هنا جاءت هذه الفكرة البسيطة والطموحة في آن لتأليف كتاب موجز جداً يكون سرداً لتاريخ العالم، سرد ناقص لا محالة تحدوه وجهة نظر مؤلفيه، وبالتالي فهو قابل للنقاش ولكنه كرونولوجي بصورة حازمة. وإعادة لعنوان مجموعة شهيرة تحمل عنوان "التاريخ محكياً لابنتي أو لابني" – وهو محكي هنا أكثر، لجميع القراء الذين يتمنون أن "يجدوا أنفسهم فيه"، ويحددوا مصائرهم الشخصية (التي يقترح عليهم بشأنها كثير من "الأطباء النفسانيين" خدماتهم) في التاريخ الجماعي الكبير، البطولي والمأسوي، السخيف أو المليء بالمعاني، للنوع البشري.

وقد أردنا أن "نروي" قصة كرونولوجية: حكاية، فعلاً، وبأكثر قدر ممكن من التشويق (فالواقع يتجاوز الخيال)، ولكنها تستند إلى ما هو واقعي لا إلى

استيهامات الأدب الخيالي (نوع أدبي قد يروق لنا، ولكن فقط إذا كنا نعلم أنه "خيالي").

وليس هذا الكتاب كتاب علماء، ولكنه يرمي لأن يكون ملخصاً لتاريخ الإنسانية، وهو ناقص (أولي)، ولكنه مليء بالمقاربات المفاجئة والأسئلة غير الوقحة؛ قصة حقيقية يستطيع القارئ أن يجد فيها تفسيرات قابلة للمناقشة لوقائع ليست كذلك. وهو موجه للجميع، باستثناء من يمتهنون التاريخ.

ملاحظة: يشكر المؤلفان ساندرا مونوز على مساعدتها

ما قبل التاريخ

تبدأ مغامرة البشر قبل زمن طويل من تاريخهم. ويمكن أن نصنع تاريخ الشعوب التي كتبت.

لا نملك عن أسلافنا، قبل أن تخترع الكتابة، سوى وثائق أثرية : عظام، أدوات، رسومات، وبعد ذلك فقط، نستطيع أن نقرأ ما كانوا يروونه عن أنفسهم. والحقيقة أن الكتابة تستعمل منذ حوالى ستة آلاف سنة، مما يعني أن ما قبل التاريخ أطول بكثير من التاريخ.

والأرض كوكب صخري يقع على مسافة لا بأس بها من نجم متوسط هو الشمس، شبيه بمليارات النجوم الأخرى.

وعلى الأرض ولدت الحياة وتطورت منذ أكثر من أربعة مليارات سنة، مستفيدة من وفرة المياه (تغطي المحيطات ثلاثة أرباع الكوكب) ومن وجود غلاف جوي كثيف وآزوتي. والحياة موجودة بالتأكيد في أماكن أخرى، على كواكب تدور حول نجوم هادئة، لكننا لم نرها حتى الآن إلا عندنا رغم امتلاكنا المجسات الفضائية.

وربما كانت هناك مخلوقات من خارج كوكب الأرض تعيش في شساعة كون الفضاء الخارجي، ولكننا لا نملك أي مؤشر على أنها قد زارت عالمنا من

قبل. إذ ليس هناك من "الأدلة" على مرورها المحتمل ما يصمد حقيقة أمام التحليل العلمي.

ويمكن للمرء حتى دون أن يزور "معرض التطور" الرائع في متحف التاريخ الطبيعي بباريس، أن يلاحظ أن أكثر الحيوانات مهارة فكرية على كوكب الأرض كانت هي الرئيسات، وهي العائلة التي ننتمي إليها. والرئيسات هي كل القردة كبارها وصغارها، ولا تزال هناك على الأرض رئيسات كبيرة أخرى غيرنا : الشمبنزي والغوريلا، وإنسان الغاب. وهم ليسوا أسلافنا بل أبناء عمومتنا، فأسلافنا كانوا رئيسات كبيرة اختفت اليوم : إنسان بكين، إنسان جاوة، إلخ والثدييات هي أكثر الحيوانات تطوراً، وبشكل خاص بفضل طريقة تناسلهم في أرحام الإناث، التي تكون فيها البيوض محمية أكثر من بيوض الأفاعي أو الطيور.

والرئيسات هي أذكى الثدييات كما أن الحياة تتطور عن طريق الانتقاء الطبيعي بعد إقصاء العناصر الأقل تكيفاً. و الذكاء هو أفضل معايير الانتقاء، وليس التخصص الكبير بالمزية. فالفيل رائع ولكن دفاعاته تثقل كاهله، والحصان يعدو بسرعة ولكن لا قرون لديه. والنمر آلة قتل خارقة (كجميع السنوريات)، لكن بما أنه لا يحتاج إلى بذل جهد كبير لتحصيل غذائه، فهو غبي جداً. والرئيسات لا تملك دفاعات، وتعدو بسرعة أقل من الحصان، وهي عارية مقارنة بالأسود ولكنها تتفوق على الوحوش بحيلتها.

كما يجب على هذا الذكاء أن يستطيع أن يندرج أيضاً في البيئة المحيط: فالثدييات البحرية (الحيتان والدلافين) ذكية جداً، ولكنها بلا أيدي، والرئيسات لديها أيادٍ. لماذا يا ترى؟ لأنها تعيش في الأشجار ولأنها كي تعيش في الأشجار، يجب أن تكون قادرة على التعلق بها. لذا فإن الرئيسات رباعية الأطراف، وقد أعطتها أيديها إمكانيات هائلة للحركة. و الأنواع الحيوانية تتغير بالطفرة الوراثية، ويقصي الانتقاء الطبيعي العناصر الطافرة غير المتكيفة. وبعد مليارات السنوات من الطفرات والانتقاء، كانت الرئيسات الكبرى في العصر

الرابع أكثر الحيوانات تكيفاً: أقل قوة من الفيلة وأقل وحشية من النمور وأقل سرعة من الخيول ولكنها قادرة على كل شيء.

ومن هذا نستطيع أن نستخلص أنه، إن كان هناك في مكان من المجرة "بشر " آخرون فهناك احتمالات كبيرة أن يشبهوا بشريتنا: دماغ كبير، أيدٍ، ولا تخصص كبيراً. . .

وتجند دراسة ما قبل التاريخ آلاف العلماء والباحثين. ونحن لا ندعي هنا الدخول في التفاصيل -العصر الحجري القديم الأدنى، والأوسط والأعلى، والميزوليتي، إلخ-، وإنما الحث على التفكير في ما هو أهم. فعلى سبيل المثال، كم مضى من الوقت على وجود الإنسان؟

وهناك مدرستان تتواجهان بشأن هذا الموضوع.

فاختصاصيو الحيوانات يجيبوننا بأن الإنسان ظهر منذ مليوني أو ثلاثة ملايين سنة، انطلاقاً من رئيسات كبيرة اختفت اليوم، أكثر تطوراً من حيوانات الشمبنزي الحالية، قادرة على الوقوف على أقدامها وعلى صنع أدوات.

ولكن وضعية الوقوف التي تساعد على تلاؤم الحركة، لأنها تحرر الأيدي، ليست قاصرة على البشر، خلافاً لما يؤكده لنا الشريط المصور الشهير "راهان" الذي يعرّف البشر بأنهم "أولئك الذين يسيرون وقوفاً". فالغوريلا أيضاً تستطيع الوقوف، وصناعة الأدوات أيضاً ليست علامة بشرية مطلقة. فحيوانات الشمبنزي تعرف جيداً كيف تستخدم الأدوات. فعلى سبيل المثال، فإنها كي تأكل بيض مأرضة، فهي تثقبه بقصب مجوف مقعر ثم تمتصه فيما بعد.

وهكذا فإن الهياكل العظمية الكثيرة التي أعيد تشكيلها اعتماداً على عظام مبعثرة، ويعود تاريخها إلى مليون سنة، على غرار "لوسي" (Lucy) الشهير، لا تؤكد سوى أنه كان يوجد في هذه الفترة رئيسات كبرى عليا، وليس أن هؤلاء الكائنات كانوا بشراً بعد.

أما المدرسة الأخرى، ألا وهي مدرسة علماء الأنثروبولوجيا، فتعتقد عموماً أن ظهور الإنسان حديث جداً، مائتين أو ثلاثمائة ألف سنة ربما. ونحن

بالتأكيد قريبون جداً من القردة الكبيرة، وحتى من جميع الثدييات. ولهذا السبب نحب كلابنا، التي تشبه انفعالاتها انفعالاتنا. فالكلب يشعر بالحنان والمحبة، وبالغيرة، ولديه الغريزة التراتبية والإقليمية مثلنا، ومثل جميع الثدييات أيضاً.

غير أن خصوصية الإنسان لا تكمن لا في الذاكرة، ولا في وضعية الوقوف، ولا في صنع الأدوات و إنما تكمن في اللغة.

وليس للحيوانات لغة، إنما لديها صيحات. وإن كانت معقدة جداً، فهي صيحات أو إشارات معدة في الشفرة الوراثية لسلالاتها. كما أن الحيوانات لا تتغير إلّا بطفرات؛ و لن يتم انتقاء طفرة وراثية إيجابية إلّا خلال آلاف السنين. . .

إن الكلب العجوز، أو الحصان العجوز، يتعلم الكثير في حياته؛ لكنه حين ينفق، تختفي تجربته معه، لأنه لم يستطع أن ينقلها.

إن اختراع اللغة خاصية بشرية، فعن طريق اللغة، يستطيع العجوز أن ينقل ما تعلمه إلى الصغار، وقد قلنا أعلاه إن النقل، والعلاقة بين المعلم والتلميذ شكّلا البشرية. وبدونهما، نعود حيوانات، ومن هنا يأتي خطر الإيديولوجيات المخرفة التي تنكر هذه العلاقة.

وبسبب اللغة، لم تعد الطفرات البشرية "وراثية" إنما "ثقافية". وهي تحتاج إلى ألفيات، وإنما إلى سنوات فقط. وبسبب اللغة، انفجر النوع البشري على الأرض وتحول بسرعة مجهولة حتى الآن. ولم يعد الجنس البشري "طبيعياً" فقط، بل هو "ثقافي". صحيح أن الطفرات الوراثية استمرت بإيقاعها البطيء. وهكذا، فمنذ مائتي ألف سنة، تغيرت ألوان البشرة. ففي البلدان المشمسة جداً كأفريقيا أو الهند الجنوبية، فضل الانتقاء الطبيعي بقاء الطافرين ذوي الميلانين (البشرة السوداء)، وعلى العكس فُضلت البشرة البيضاء في البلدان الشمالية حيث يصاب السود بسهولة بفقر الدم. لكن هذه الطفرات سطحية، إلى درجة أننا عندما نكتشف هيكلاً عظمياً، لا نستطيع تحديد لون بشرته. ونحن نعثر على جماجم ممددة، "رؤوس مستطيلة" أو رؤوس مستديرة،

"عضدية رأسية"، ولكن هذا لا يتوافق في شيء مع ألوان البشرة. وقد كان لون البشر الأوائل على الأرجح "بنيّاً"، وهو ما يميل نسلهم إلى أن يعود عليه بسبب تدفقات الهجرة "ألوان بينيتون المتحدة".

وتعد طفرة وراثية مهمة تلك التي جعلت من المرأة أجمل أنثى ثديية. وعموماً، فإن الذكور لدى الثدييات أجمل من الإناث، وهذا صحيح بالنسبة للأسد وكذلك للأيل. و العكس لدى الإنسان، فلماذا يا ترى؟

لأن الانتقاء الطبيعي كان يواجه مشكلة متناقضة ينبغي عليه حلها، كان يجب أن يكون لإناث الإنسان حوض أضيق من حوض إناث رباعيات الأطراف، كي تستطيع الركض واقفة، وتنجو بذلك من الوحوش. ولكن كان يجب أيضاً أن يكون لها حوض أعرض كي تستطيع الولادة. ونحن نعلم أن التحف، في الهندسة المعمارية، تكون دائماً نتاج حل متطلبات متناقضة. وقد كان الأمر كذلك بالنسبة للهندسة الأنثوية، التي تعد منحنياتها الرائعة على شكل قيثارة نتاج ضرورتين متناقضتين لنوعنا وهما: الركض بسرعة والولادة أيضاً.

ولكن إذا كانت الطفرات الوراثية قد استمرت بإيقاع بطيء، فإن خصوصية الإنسان كانت الطفرة الثقافية ذات الإيقاع السريع عن طريق اللغة.

كيف لنا أن نتخيّل ظهور اللغة، ومنه ظهور الإنسان؟ إننا نعلم أن هذا قد تم في أفريقيا الشرقية قبل مئات الآلاف من السنوات.

ونعلم أيضاً أن مناخ كوكبنا يتغير عبر العصور، فهناك تغيرات منتظمة: دورة الفترات الجليدية وبين الجليدية التي تشمل مائة وعشرين ألف سنة تقريباً. وكانت الأرض خلال الفترات الجليدية، أكثر برودة، وطبقات الجليد تكسو الغرب الأوسط الأمريكي وتهبط إلى أوروبا وصولاً إلى بلجيكا. ولم يكن للصحراء وجود، وكان مستوى البحار أدنى ويمكن للمرء أن يسير على قدميه من آسيا إلى أمريكا (لا وجود لمضيق بارينغ (Bering) ومن فرنسا إلى انجلترا (لا وجود لبا دو كالي (Pas de Calais)).

ونحن نعيش اليوم فترة أكثر حرارة، "بين جليدية". (يعرف العصر "البين-

جليدي" هو أيضاً تغيرات مناخية، لكنها أكثر اعتدالاً، سنعود للحديث عنها لاحقاً.)

وقد انتهت الفترة الجليدية الأخيرة منذ ثلاثة عشر أو أربعة عشر ألف سنة. وربما كان ظهور البشرية يعود إلى حدث مناخي عنيف، طرأ منذ عدة مئات الآلاف من السنوات.

ولنتخيل قحطاً أو جفافاً يدوم عشرين سنة، تحترق فيه الغابات وتختفي. وتعيش الرئيسات وحيوانات الغابة وقاطفات الثمار طيلة مدة حياتها، في سهل كثير العشب. وتستهلك في الأشجار، الثمار والأوراق، واللحم استثناء إذا وقع سنجاب بين يديها. وفي السهول العشبية، قد نظن أن الغالبية ماتت جوعاً أو انزوت في الغابات الاستوائية. لكن مجموعة منها استطاعت اختراع الصيد. صحيح أن كثيراً من الثدييات تمارس الصيد، ولكن الرئيسات قاطفات ثمار، ولا تملك مهارة الصيد في شفرتها الوراثية. ولذا فقد وقفت على أرجلها لترى ما يوجد فوق الأعشاب، وهو ما كان بمقدورها فعله ولكنها لم تكن تمارسه قط في الأشجار. وبعد ذلك حاولت إيقاع الطرائد في مصيدات، وهي حفر كبيرة كانت تحفرها، أو حفر طبيعية (صخرة سوليتري (Solutré)). ولأنها كانت ضعيفة وعارية، فقد كانت مجبرة على تنظيم نفسها، وإرسال كشافي طريق ليحوشوا الطرائد(وهي تقنيات سوف يستعملها فيما بعد في المعارك جميع كبار القادة). ولتبليغ الأوامر بعيداً، كان عليها استعمال أصوات لا تنتمي إلى إرثها الصوتي. وولدت اللغة. وقد كانت لديها من قبل القدرة على الكلام، ولكنها لم تكن تستخدمها. ولحيوانات الشمبنزي الحالية القدرة على استعمال اللغة. ولأنها لا تملك أوتاراً صوتية فهي لا تستطيع الكلام، ولكن بعض الباحثين نجحوا في تعليمها لغة الصم والبكم.

وهكذا، اخترعت مجموعة أو عدّة مجموعات من الرئيسات اللغة، في مكان ما من أفريقيا الشرقية، قبل مائتي أو ثلاث مائة سنة.

وعلى الفور تغيّر عالمها.

وكان اختراع اللغة على الأرجح نفعياً: وكان الأمر يتعلق بنقل أوامر صوتية غير منصوص عليها في الشفرة الوراثية والغرض منها تنفيذ نشاطات صيد محددة.

لكن اللغة أدت في الوقت عينه إلى ولادة عُصاب نفسي: ألا وهو عصاب المستقبل.

وليس للحيوانات أي فكرة عن المستقبل ولديها ذاكرة الماضي، ولكن ليس لديها أي قلق على المستقبل. فحين تكون لدى الحيوان كفايته من الطعام والحنان، فإنه يكون سعيداً جداً في حاضر أبدي. وهو لا يتخيل أنه يمكن أن يموت وليس قلقاً ولا يختبئ إلّا إذا أحس أن هناك خطراً يتهدده "آنيّا"، من الوحوش أو الجوع أو المرض.

وبعد اختراع اللغة الرمزية، تحولت الرئيسات التي كانت تمشي واقفة إلى بشر قلقين؛ والعصاب البشري عصاب أصلي.

وفي المساء حين كانوا يتحدثون عن صيد يومهم، استطاعوا أن يدركوا أن أحد الصيادين قد اختفى: لقد قتله الأسد، ومات. وبتخيلهم عن طريق اللغة صيد اليوم التالي، أدركوا أنهم قد يموتون. كان هناك أيضاً المرض والشيخوخة. و فجأة انفتحت آفاق ميتافيزيقية لا متناهية ومقلقة أمام هذه "الحيوانات المشوهة" (حسب عنوان كتاب جميل لفيركورس (Vercors).

ما الإنسان؟ كائن يعرف أنه سيموت ويحتاج أن يروي لنفسه الحكايات. يروي لنفسه الحكايات كي يتحمل فكرة النهاية هاته التي لا تطاق، ويطرد ضرورة الموت الذي لا مفر منه.

يروي لنفسه الحكايات ليتقرب من نظرائه، ويتدفأ بأحاديثهم، ويصنع معهم إنسانية. ولأنه قادر على استشراف المستقبل وتنظيمه فإن الرئيس البشري يفلت في الآن نفسه من القانون الوراثي. وسوف يستطيع القيام بأفعال لا تفعلها الحيوانات-خيرها وشرها.

أما شرّها: فالحيوانات وحتى الثدييات الأكثر تطوراً، ليست لا خيرة ولا

شريرة، لأنها تفعل ما يمليه عليها" برنامجها الوراثي". وهناك الكثير من معارك القادة لتحديد التراتبية، ولكنها لا تنتهي إلّا مصادفة بالموت، وهي علامة خضوع كافية لتهدئة المنتصر.

وليس هناك قتل لدى الحيوانات: فالذئب الذي يفترس الحمل لا يقترف جريمة قتل، والذئب ليس ذئباً في نظر الذئب.

وعلى العكس، ففي الذكرى الأصلية لجميع الأديان، يؤكد لنا روني جيرارد (René Girard) في كتابه "أشياء مخفية منذ بداية العالم"، يوجد القتل، "الخطيئة الأصلية"، قتل الأخ (قايين) (Caïn)، وقتل الأب (أوديب) (Oedipe). فالإنسان يستطيع أن يخرق القانون الوراثي ويغتال أخاه. و"الإنسان ذئب للإنسان " كما يلاحظ المثل اللاتيني.

والاغتصاب أيضاً، مجهول تقريباً لدى الثدييات. ويظهر لنا وثائقي جميل لفريديريك روسيف (Frédéric Rossif)، عن سباق الأسد، بعنوان "الحفل الوحشي"، اللبؤة في حالة هياج جنسي وهي تستثير الذكر وتتظاهر بأنها استسلمت، ثم ترحل ولا ترضخ بعد أيام إلّا حين يصبر ذلك رغبته. والغرائز الوراثية -التراتبية و الإقليم والجنس- قوية لدى الإنسان. وكثير من منافسات المكتب تبعث بقوة على التفكير بمعارك ذكور. والحالمون الذين ينكرون الوطنية ينسون أن الإنسان حيوان إقليمي؛ وإذا كان الجنس لدى الإنسان يمكن أن يتسامى إلى حب، فإنه يحتفظ بالقوة الرائعة للشهوة الوراثية. غير أن الإنسان يتجاوز نظامه الوراثي. ومن هنا تأتي الضرورة بالنسبة للجماعات البشرية لسنّ قوانين أخلاقية أو دينية لسدّ نقائص القوانين الوراثية.

والإنسان هو هذا الكائن الذي أضاف إلى شفرته الوراثية شفرة ثقافية.

لكن اللغة تتيح أيضاً للإنسان ما هو أفضل.

فهو بإفلاته من البطء الألفي للطفرات الوراثية، سيستطيع أن يتغير بسرعة غير معقولة ويتكيف مع كل شيء. شريطة أن ينقل ما اكتسبه، بالطبع، عن طريق التربية.

وإنسان ما قبل التاريخ هو بعدُ كائن تاريخي يحكي عن الماضي لبناء مستقبله. وقد أشرنا إلى أن تدمير النقل من المعلّم إلى التلميذ سيكون تدميراً للإنسانية.

وليس هناك "طبيعة" بشرية؛ هناك، منذ ما قبل التاريخ، "ثقافة" بشرية مهددة دائماً بالنسيان. إن نقل المعرفة هو، في النهاية، الشيء الوحيد الذي يميز الإنسان عن الحيوان. وقد منحت اللغة الإنسان قدرة هائلة على التكيف.

وجميع الحيوانات سجينة محيطها، و"مداها الجغرافي"- ولكن الإنسان ليس كذلك. ولأن الإنسان ظهر في أفريقيا الشرقية في مناخ حار جداً، فليس له فرو، فهو "قرد عار". ورغم ذلك فسيحتل الأرض كلها، وحتى القطبين تقريباً.

لا لأنه يغيّر مناخه-، وإنما لأنه يحمل مناخه معه ويخترع الثياب والمأوى. وكان الاسكيمو حتى وقت قريب بشراً ما قبل تاريخيين (لأن ما قبل التاريخ استمر، في بعض الأرجاء القاصية من الأرض، حتى منتصف القرن العشرين). وقد استطاعوا العيش بطريقة شبه استوائية في القطب الشمالي باختراع تقنيات ذكية جداً، إلى درجة أنها صارت أسماء مشتركة في جميع اللغات : أكواخ الثلج القبية التي تقي من البرد باستعمال البرد، الأنوراك، زوارق الكاياك المقاومة للغرق.

وهكذا فالإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على القيام بأسوأ الأفعال وأفضلها معا: أما أسوأها فلأنه النوع الوحيد القادر على القتل وعلى تدمير الذات؛ وأما أفضلها فلأنه أيضاً النوع الوحيد القادر على التكيف مع كل شيء، وعلى اختراع كل شيء.

ونحن نستطيع أن نصنع نوعاً من التاريخ من ما قبل التاريخ.

أولاً، إن كانت قد وجدت عدة مجموعات من الرئيسات التي تحولت إلى بشر، فإنه لم يبق منها اليوم سوى نسل واحد، ألا وهو مجموعة السابيان سابيان (Sapiens sapiens). ومن ضمن المجموعات الأخرى هناك واحدة على

وجه الخصوص تضاعفت بما يكفي حتى أنه يمكن العثور على عظام حتى في أوروبا: ويتعلق الأمر بإنسان نيوندارتال (Sapiens néandertalensis).

كان مظهر إنسان نيوندارتال (Néandertal) أشبه بالقرد. فقد كان لديه على سبيل المثال نتوء عظمي فوق العينين يجعله شبيها بالغوريلات الحالية. غير أنه كان لديه دماغ أكبر من رؤوسنا. وكان يعرف الفن والدين. وكان يدفن موتاه وفق شعائر معقدة.

ولنشر بالمناسبة إلى أن الأغراض الفنية والقبور هي الأدلة الدامغة على الإنسانية. ولكن أقدم القبور التي اكتشفناها لا تتعدى أعمارها أربعين أو خمسين ألف سنة؛ أما الرسوم الصخرية، فهي أحدث من ذلك. ولكن هذا لا غرابة فيه: فالبدايات دائماً تستعصي إحصائياً على عالم الآثار، الذي يملك فرصاً أكثر للعثور على الأشياء وهي كثيرة.

والحال أن إنسان نيوندارتال (Néandertal) قد اختفى تماماً منذ عشرين ألف سنة، دون أن نتمكن من فهم الأسباب. نعلم أن السابيان سابيان (Sapiens sapiens) والسابيان نيوندارتالنسيس (Sapiens néandertalensis) قد تعايشا على الأقاليم ذاتها خلال بضعة آلاف سنة. هل اقتتلا؟هل تلاقحا؟ لا نعلم شيئاً عن ذلك. والأرجح أن أسلافنا الأكثر تكيفاً قد استحوذوا على الطرائد، حاكمين على جميع الباقين بالمجاعة. وأيا كان الأمر، فإن جميع البشر الذين يعيشون على الأرض حالياً، ومهما تنوعت مظاهرهم الفيزيائية، ينحدرون من بضع آلاف سابيان سابيان (Sapiens sapiens) أفريقي. وعلم الوراثة يؤكد ذلك.

ونعلم أيضاً أن أولئك السابيان (Sapiens) عمروا تدريجياً الأرض كلها. وبالطبع، لا يعني هذا أن نفهم هذه الهجرات على أنها أسفار كشوفات القرن الخامس عشر.

ويجب أن يكون هناك الكثير من الأراضي لقبيلة صيادين. وحين يكون هناك الكثير من المقاتلين الشباب، تنفصل مجموعة عن القبيلة الأم ببضعة عشرات من الكيلومترات كي تجد مساحة صيد عذراء، وهكذا دواليك. وكانت

هذه الأسفار تتم بإيقاع بطيء جداً إلى درجة أن نسل المهاجرين، عند وصولهم إلى أحد أطراف الأرض، كانوا قد نسوا المكان الذي انطلق منه أسلافهم قبل بضع ألفيات؛ فضلاً عن أنهم لم يكونوا يتقنون الكتابة، ونحن نعلم أن التقليد الشفهي يعود إلى ما لا يزيد عن أربعة أجيال سابقة.

وعليه فقد كان غزو إنسان ما قبل التاريخ لكوكب الأرض غزواً غير واع. غير أننا نستطيع أن نحدد منه بعض المراحل.

قبل ثلاثة آلاف سنة، كانت هناك كائنات بشرية في أفريقيا، وأوروبا، وآسيا، ولكن ليس في أمريكا. كانت الأمريكتان خاليتين من البشر. وقد وصلوا هؤلاء إلى هناك قبل عشرين ألف سنة، قادمين من آسيا وعبروا على الأقدام بما يسمى اليوم مضيق بيرينغ (Bering). كان ذلك خلال العصر الجليدي الأخير؛ وكان مستوى البحر أدنى.

ولذا فهنود أمريكا آسيويون، حتى اليوم، من خلال ملامحهم الفيزيائية ومن خلال اللغة التي يتحدثونها.

وفيما بعد ارتفع مستوى البحر، عازلاً هؤلاء البشر عن بقية البشرية التي لن تلتحق بهم في قارتهم لسوء حظهم، إلَّا في بداية القرن السادس عشر من عصرنا! وفي الفترة ذاتها، جاء السكان الأصليون الاستراليون من القارة سيراً على الأقدام، قبل أن ينعزلوا هم بدورهم.

وشيئاً فشيئاً، اختلفت الألسن. كانت الجماعات الأفريقية الأولى تتكلم دون شك لغة مشتركة. وعبر الألفيات، سادت البلبلة؛ ولكن بقيت هناك آثار لهذا الأصل اللغوي اللساني المشترك: فـ"ماما" على سبيل المثال، هو لفظ مشترك بين جميع لغات الأرض-ربما لأنها أول ما ينطق به الرضع.

ولم يكن السابيان سابيان المنتشرين في جميع أصقاع الأرض منذ خمسة عشر ألف سنة، والذين كانوا يبقون بمفردهم كثراً جداً. فالصيد يتطلب مساحات شاسعة ويعتمد على وفرة الطرائد أو ندرتها، وهذا يتوقف بدوره على عوامل بيئية أو مناخية غير متوقعة. لنقل إن البشرية في ما قبل التاريخ ظلت في

تلك الفترة، مثل الحيتان، نوعاً مهدداً، يتراوح عددها بين مائة ألف نسمة في سنوات المجاعة ومليونين أو ثلاثة ملايين فرد في سنوات الوفرة، فضلاً عن أن هؤلاء البشر لم يكونوا يعرفون كيف يحتفظون باللحم.

ومن السهل جداً تصور ما كانت عليه قبيلة ما قبل التاريخ، لأن ما قبل التاريخ استمر زمناً طويلاً جداً في كثير من الأماكن. كان هنود أمريكا وجميع "الشعوب الأولى" على العموم، بشراً ما قبل تاريخيين. ولا يحمل النعت "ما قبل تاريخي" أي حكم قيمي؛ فهو نعت تقني ينطبق على الشعوب التي لم تستعمل الكتابة.

ويبدو لنا أن القبيلة الهندية التي يصفها فيلم رقصة مع الذئاب، بمقاتليها، ومجلس قدمائها، وعرّافيها، تظهر بشكل جيد جداً الصورة التي ربما كان عليها إنسان ما قبل التاريخ.

لم يكن إنساناً غبياً. كانت القبائل تنقل ثقافات رصينة وزاهرة، وتقنيات مذهلة (وقد نوهنا إلى مهارة أكواخ الثلج القبية، الأنوراك، وزوارق الكاياك عند شعب الإسكيمو). كانت تستعمل بعدُ الأقواس والنبال والأدوات. فكان بمقدور الشاب من البابو (Papou) أن يسمي مئات النباتات بأسمائها ويميز بينها (وهو ما لا نستطيعه نحن، حاشا علماء النبات في متحف التاريخ الطبيعي).

لقد توصل إنسان ما قبل التاريخ منذ البداية إلى الفن المطلق. هل هناك تطور بين لوحة أستاذ والرسوم الجدارية لِلاسْكو (Lascaux)؟

و إنسان ما قبل التاريخ على وجه الخصوص، قريب جداً منا. فلديه قوانين، وشرف، ودين متطور جداً: الأحيائية، عبادة قوى الطبيعة.

"الإله يتنفس في النباتات ويحلم عند الحيوانات ويستيقظ في الإنسان" يقول مثل كومانش (Comanche).

القبيلة مجتمع معقد تلعب فيه التربية دوراً أساسياً. صحيح أنه ليس فيها مدارس، ولكن فيها نقلاً عن طريق القدامى وطقوس بلوغ، وانتقال إلى سن

الرشد، وتعليم الأولاد أو البنات، وهي طقوس لا تزال موجودة اليوم في كثير من المجتمعات.

وإنسان ما قبل التاريخ قريب جداً منا إلى درجة أننا قد لا نتعرف إليه لو التقيناه مرتدياً ثياباً في المترو. أقرب حتى مما قد نتخيله. والواقع أنه منذ ما قبل التاريخ، حدثت تطورات علمية وتقنية هائلة، ولكن لم يحدث أي تطور نفسي: فالإنسان هو ذاته كما كان يوم ظهر أول مرة.

ومن جهة أخرى، فإن البشر الذين مازالوا ما قبل تاريخيين، والذين اتصلوا في القرن العشرين بعالمنا الحديث (لم يعد هناك على الأرض اليوم على الأرجح أي قبيلة ما قبل تاريخية، ولكنها كانت موجودة في القرن العشرين و"الاتصالات الأولى" فيها كانت كثيرة: بابو (Papous) غينيا الجديدة، وهنود الأمازون) لم يكونوا يستغربون أبداً تقنياتنا المعقدة.

إذ لو فكرنا في الأمر، فليس هناك فرق في الطبيعة بين اختراع النار واختراع القنبلة الذرية، وبين التام-تام والانترنت، وبين سرعة عداء المفازة والقطار السريع.

ولطالما تمنى البشر الطيران وهم يتأملون العصافير، كما تشهد على ذلك أسطورة إيكار (Icare).

وقد فهم ستانلي كوبريك (Stanley Kubrick) هذا ووصفه جيداً في المشهد الأول من رائعته، 2001، أوديسة الفضاء. ونرى فيه مواجهة بين رئيسات. يحمل أحدهم عظماً كان مرمياً على الأرض ويقذفه باتجاه السماء باتجاه خصومه. عندئذ يحول، (fondu enchaîné) السينمائي بتقنية تلاشي صورة في أخرى، هذا العظم إلى صاروخ عابر للقارات. كان كوبريك (Kubrick) قد فهم أن قذف شظية عظم الساق الأكبر أو قذف صاروخ هما سيّان!

وعليه فإن ما قبل التاريخ ليس عالماً غريباً. ففيه طرحت بعض أسئلة كبيرة لا تزال حالية: التهديد بالقتل، ضرورة القانون، جمال الفن، الأهمية الحيوية لنقل المعرفة.

الأنهار المغذية

الدول الأولى

الأديان

إن إكراه المناخ هو على الأرجح ما حول بعض الرئيسات إلى كائنات بشرية. والإكراه نفسه هو الذي جعل التاريخ يلي ما قبل التاريخ.

وقد انتهى التجمد الأخير قبل حوالى أربعة عشر ألف سنة، وتراجعت الأنهار الجليدية، وارتفع البحر، وظهرت الصحراء.

وأحزمة الصحراء على كوكب الأرض هي ميزات الفترات البين-جليدية. فحين ننظر إلى صور الأقمار الاصطناعية، فإن الصحراء هي أول ما يرى على كوكبنا الأزرق. ففي نصف الكرة الشمالي، نميز الصحارى الأمريكية(التي جعلتها أفلام الويسترن مألوفة)، ثم هناك وراء الأطلنطي صحراء قارية كبيرة تبدأ في موريتانيا وتنتهي في شمال الصين. وهي تحمل أسماء مختلفة -صحراء في أفريقيا وصحراء عربية في الشرق الأوسط، صحارى إيران وغرب الهند، صحراء غوبي (Gobi)، ولكنها الشيء ذاته.

والصحراء تقل جمالاً أكثر فأكثر من الغرب إلى الشرق: فهو مطلق في تنزروفت (Tanezrouft) ونسبي في سهوب منغوليا. وخلال الفترة الجليدية

الأخيرة، كان البشر يصطادون في الصحراء، التي يغطيها العشب وتتخللها الأنهار. ونحن نعلم ذلك لأن أولئك الصيادين تركوا رسومات صخرية غنية بالخضرة والطرائد، وقد حكم عليهم التصحر بالمجاعة.

ولحسن الحظ، فإن الأنهار تعبر الصحراء القارية الكبرى في أربعة أماكن. ولا يجف ماء هذه الأنهار قط، لأنها تنبع من وراء الصحراء، في جبال مروية. وأشهر تلك الأنهار هو النيل الذي ينبع في أوغندا، في بحيرة فيكتوريا ويستقبل روافده من مرتفعات إثيوبيا وهي مناطق تهطل فيها الأمطار.

ولذا فهو يحتفظ دائماً بما يكفي من المياه ليعبر الصحراء من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر المتوسط.

والمنطقة الثانية التي تقطعها أنهار دائمة التدفق هي منطقة مابين النهرين. فهناك نهران ألا وهما الفرات غرباً ودجلة شرقاً، واللذان يلتقيان ليصبا في الخليج الفارسي. وهما يجريان من الشمال إلى الجنوب، وهما دائما الجريان لأنهما ينبعان من جبال كردستان المروية.

والمكان الثالث هو الصحراء الهندية التي يسقيها من الشمال إلى الجنوب نهر الهندوس الذي ينبع وروافده في الهملايا.

والمكان الأخير هو السهب الصيني الذي أنقذه من الجفاف النهر الأصفر الذي ينبع من الجبال ليصب في المحيط الهادي.

وبالطبع فإن صيادي ما قبل التاريخ كانوا يذهبون للاستقرار قرب هذه الأنهار. ولكن لم يكن بمقدورهم العيش من الصيد على هذه الضفاف؛ وإذ لم تكن هناك مساحة كافية. فقد اخترعوا الزراعة -ثورة رائعة تسمى بالمصطلحات العلمية "النيوليتيك" (néolithique) (العصر الحجري الأول).

وكانت تنمو قرب الأنهار زراعات برية. وكان صيادو ما قبل التاريخ يزينون طعامهم بالنباتات. فينتقون أفضلها بطريقة رائعة، ويزرعونها ويقتلعون النباتات الأخرى. و شرعوا في الوقت ذاته في تربية المواشي بدل صيدها.

وكان لهذه الطفرة التقنية نتائج رائعة.

لماذا يا ترى؟ لأن الزراعة في مثل هذا الإقليم تسمح بتغذية عدد من الناس يساوي مائة مرة ما يسمح به الصيد. فعلى سبيل المثال، فإن إقليم فرنسا الحالية، الذي يستطيع أن يعيل 300.000 صياد على أقصى تقدير يمكن أن يغذي 30 مليون فلاح!

وفجأة، صارت البشرية التي كان تعدّ خلال سنوات الخير على الأرض ببضعة ملايين من الأفراد على الأكثر، بعد الثورة الزراعية تعد ببضع مئات الملايين من البشر- وهو رقم لن يتغير حتى الثورة الصناعية للقرن التاسع عشر، بعد ثمانية آلاف سنة!

ولم تعد البشرية نوعاً مهدَّداً بل مصدر تهديد - وهذا، حتى بالنسبة للبيئة. فقد تبين للتو أن جزءاً كبيراً من الساكنة هو من أصل زراعي: انبعاث الميثان في تربية المواشي وحقول الأرز واستصلاح الأراضي، إلخ.

وكل هذا لم يتم بالتأكيد في يوم واحد (فقد كانت هناك أسواق زراعية بأسوار في أريحا حوالى سنة 8850)، وإنما بسرعة كبيرة على أية حال، بموجب السرعة الخاصة بإنسان النقل الثقافي. وخارج المناطق الأربع المذكورة، استمرت حياة ما قبل التاريخ. ولكن البشرية في هذه الأماكن الأربعة، تغيرت لا في نفسيتها وإنما في تنظيمها. فقبيلة ما قبل التاريخ كانت تمثل مائتي شخص- صيادون، نساء، أطفال، عرافون، قدامى- في تنقل أبدي؛ وبسرعة كبيرة كان في مصر ملايين الفلاحين ودولة.

وقد ولدت الدولة في مصر أولاً بسبب توزيع المياه. ولأن الأمطار لم تكن تهطل أبداً في هذا البلد، فإن الزراعة كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الريِّ. وبالطبع فإن الناس في المناطق الأعلى (d'amont) كانوا عادة يستهلكون الماء كله على حساب الناس في المناطق المنخفضة (d'aval). وقد تقاتلوا على الماء، ثم فكروا أنه من الأفضل أن يكون لهم ملك، "فرعون " كي يسهر على القسمة العادلة للمياه.

والعامل الثاني هو أن الفلاحين كانوا بحاجة ماسة إلى السلم.

وكان صياد ما قبل التاريخ محارباً. أما الفلاح فلم يكن لديه وقت كاف للحرب. إذ كان يستغل وقته في الزراعة والحرث وجني المحاصيل- وكان يعمل على المدى الطويل. ولكنه كان بحاجة للحماية: فلو أكل الرحَّل أو العصابات قمحه قبل نضجه أو قتلوا مواشيه لمات جوعاً. ومن هنا جاءت ضرورة وجود دولة تتولى النظام؛ بالفعل، فقد كانت الزراعة تدر فوائض غذائية تسمح بإطعام ملك وعساكر. صحيح أن الدولة كانت تقتطع ضرائب ولكن هذا ضرراً أخف مقارنة بضرر العصابات.

وليست هذه الاعتبارات عن مصر الفرعونية تخمينات ماضوية؛ بل هي حالية جداً. والمجاعات في العالم اليوم مرتبطة بالفوضى وبقطع الطرق وزوال الدول- في أفريقيا، على سبيل المثال والتي عاشت فيها الحروب الأهلية.

وحين يستتب النظام يهتدي الفلاح إلى طريق المحاصيل؛ ولكن الفوضى بالنسبة إليه أمر مروع فظيع!

والدولة قوة مسلحة متخصصة كذلك الإدارة. إذ يجب التكفل بتسيير المخزونات، وحفظ البذور في مخازن الغلال تحسباً للسنوات العجاف (قصة أزمنة "البقرات السمان" و"البقرات العجاف") التي ترويها التوراة. ولتسيير هذه المخازن تفرض الكتابة نفسها؛ ويجب وضع سجلات. إذن فالثورة الزراعية أدت إلى اختراع الكتابة.

وبمجرد أن وجدت الكتابة دخلنا إلى التاريخ، لأننا نستطيع أن نثق لا في علم الآثار فحسب، بل في كل كتب الماضي أيضاً.

وتعد الكتابة المعيار التقني الذي يميز التاريخ عن ما قبل التاريخ.

وهي تولد بشكل طبيعي من تعدد الرسومات الصغيرة المزخرفة التي تسمى رموزا (الهيروغليفية المصرية).

وهذه رموز سهلة الإدراك، ولكنها تتطلب ذاكرة قوية، لأن هناك الآلاف منها- ومن هنا ولدت طبقة النسّاخين.

وهكذا ولدت الكتابة في مصر، منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد،

أي منذ خمسة أو ستة آلاف سنة. وقد حافظ الصينيون واليابانيون على هذا النوع من الكتابة حتى يومنا هذا.

وقد ولدت الدولة أولا في مصر لأن الضرورة المناخية كانت ملحة، إذ كان النيل يجري وسط الصحراء.

وستستمر مصر المستقلة القديمة هذه خمسة وعشرين قرناً.

والأمر يتعلق بكثافة سكانية، 7 الى 8 ملايين نسمة، تحكمها دولة منظمة جداً. وتاريخ مصر القديمة تاريخ سهل الفهم : حين تكون الدولة قوية تعم الوفرة فإذا تفككت الدولة سادت الفوضى وحصل الغزو: بدو الصحراء، هيكسوس (Hyksos) القادمون من الشرق.

هناك أربع فترات قوة: الإمبراطورية القديمة، حوالى- 2800؛ الإمبراطورية الوسطى، حوالى-2000؛ الإمبراطورية الجديدة، حوالى-1500، والسلالة المالكة "سابيت" (saïte)، حوالى-القرن السابع قبل الميلاد.

وينتهي تاريخ مصر المستقلة بالغزو الفارسي عام- 525 (ولم يستأنف إلّا حوالى -1950مع ناصر). وتخللت فترات القوة هاته ثلاث مراحل طويلة من الفوضى.

كان الفرعون الأول للإمبراطورية القديمة يدعى ميناس وكانت عاصمته تقع في ممفيس (غير بعيد جداً عن القاهرة الحالية). والإمبراطورية القديمة هي التي بنت الأهرامات، وقبور الفراعنة خيوبس وخيفران وميكيرينوس. وأمامها نفهم الثورة التقنية العظيمة التي كانت تمثلها الثورة الزراعية. وحالما وجدت دولة وإدارة وجيش، نستطيع بناء أهرامات على شرف الملوك. وكان الفائض الزراعي يسمح بإعالة النسّاخين والجنود والحرفيين، وكلهم أفراد لم يعودوا فلاحين. وقد ظهرت المدينة لأن الملك كان بحاجة إلى إدارة وقصر.

وبلغت مصر ذروتها في ظل الإمبراطورية الجديدة التي أقامت عاصمتها في ثابس (Thèbes) في الجنوب. وقد استطعنا أن ندرس عن قرب جسد الفرعون رمسيس الثاني الذي حكم من 1301 الى1235 ومات في سن الخامسة

والتسعين. والحقيقة أن المصريين كانوا يحنطون أجساد أشرافهم، وقد جاءت مومياء الملك إلى فرنسا لفحصها. وتتيح لنا السن المتقدمة لرمسيس الثاني أن نفند فكرة دارجة مفادها أن مدة الحياة البشرية قد زادت. والواقع أن هذه المدة لم تتغير البتة. وتقول التوراة "نحن نعيش حتى عمر السبعين، أو الثمانين بالنسبة للأقوياء" . غير أن المسنين في الماضي كانوا نادرين(صحيح أنهم كانوا أكثر عدداً بين القادة منهم بين الفلاحين لأن الأولين كانوا يشربون الماء النقي وكانوا أقل عرضة للتعب الجسدي من الآخرين).

أما آخر أسرة مالكة مستقلة في مصر فقد أقامت عاصمتها في سايبس (Saïs)، في الدلتا.

والجميع يعرف الهندسة المعمارية المصرية العجيبة التي يمكن التمتع بمنظر آثارها الضخمة في الأقصر والكرنك. ولكننا نعرف أقل بأن القادة المصريين كانوا يعيشون في ترف بذخ عصري جداً.

وبعد مصر، ظهرت الدولة أيضاً في بلاد ما بين النهرين : أولاً في الجنوب، في سومر، حوالى - 2600؛ثم في الفرات الأوسط مع إمبراطورية بابل القديمة حيث حكم حوالى - 1730 الملك حمورابي الذي اشتهر بأنه ترك لنا منظومة قوانين على ألواح؛ ثم على دجلة العليا، التي سيطرت عليها انطلاقاً من عاصمتها نينوى (قرب الموصل الحالية) الأسر المالكة العسكرية والغازية للملوك الآشوريين الذين لأسمائهم وقع طبول الحرب (تغلات- فالازار؛ سارغون، من-669 إلى- 630؛ أشور بانيبال)؛ وأخيراً، وفي الجنوب مجدداً، إمبراطورية ما بين النهرين مع مدينة بابل الخارقة (قرب بغداد الحالية لكن على الفرات) والملك العظيم نبوخذنصر الذي لُعن في التوراة لأنه نفى اليهود خارج فلسطين (-587).

"على ضفاف أنهار بابل جلسنا نذرف الدمع وتذكرنا صهيون؛ وفي أشجار الحور المحيطة علقنا قيثاراتنا" يقول المزمور.

كما عرفت دول ما بين النهرين بدورها هندسة معمارية مدهشة. ولكن لأن

شعوب ما بين النهرين كانت تبني بالآجر لا بالحجارة كالمصريين فالعراق أقل غنى بالبنايات الضخمة من مصر، لأن الاحتفاظ بالآجر لم يكن سهلاً. لكن يكفي المرء أن يدخل إلى متحف اللوفر ويتمتع بمنظر التنينات المجنحة المعروضة فيه كي يقتنع بقوة الفن الآشوري.

وكان لدولتي مصر ومابين النهرين اللتين تتلامسان في فلسطين علاقات كثيفة سلماً ثم حرباً. وكانتا متنافستين ومازالتا. وكانتا في ذلك الزمن القوتين العالميتين العظميين.

وصعوداً أكثر نحو الشرق ومروراً بخمسة عشر قرناً، نجد حول نهر إندوس (Indus) الممالك الآرية. لماذا بعد خمسة عشر قرناً؟ لأن في منطقة الإندوس كانت هناك الصحراء ولكن الأمطار تهطل رغم ذلك. فصعوبة الجغرافيا كانت هناك أقل.

وتشتهر الدول الآرية على وجه الخصوص بتخميناتها الدينية. وديانة الهند هي البراهمانية. ولم يتأثر الدين أثناء الانتقال إلى الزراعة بالثورة التقنية الرائعة التي أدت إلى ولادة الدول. فقد بقيت الأحيائية هي الدين.

ولقد فكر الإنسان في نفسه منذ البداية باعتباره ضميراً، "عيناً منفتحة على العالم" ولذا فقد تخيل كل شيء "واعياً" والحس السماوي الرباني في كل مكان. ويميل الإنسان المعاصر المتأثر باليهودية- النصرانية إلى الاعتقاد بأن الدين بطبيعته دين توحيد، وهذا خطأ، فالدين الطبيعي للإنسان هو الآلهة المتعددة لأن التوحيد أحدث.

كما أن تعدد الآلهة لم يختف: فالهند مازالت متعددة الآلهة.

ولو أردنا أن نفهم ما كانت عليه ديانات العصور القديمة، فعلينا النظر إلى الهند الحالية. وحقيقة الأحيائية هي أن السماوي في كل مكان -وهذه حقيقة راسخة بقوة في الهند.

وبالاتجاه أكثر نحو الشرق، وفي الفترة ذاتها حول النهر الأصفر، ظهرت الدول الصينية.

وعليه ففي عام 1000 قبل الميلاد ولدت أربع حضارات : مصر، مابين النهرين، الهند والصين، وتجمع كل منها عشرات الملايين من السكان. وهي على اتصال بعضها ببعض: اتصال وثيق، كما رأينا، بين مصر وما بين النهرين، واتصال أكثر تمدداً، بين الهند والصين، اللتين تفصلهما مسافات شاسعة، ولم يتواجها قط في حرب مباشرة، ولكنه اتصال تجاري كثيف في كل مكان.

وبين هذه المراكز الأربعة، وحّدت طريق القوافل، ألا وهي طريق الحرير، عن طريق البر، عبر الصحراء القارية كلاً من مصر والهند والصين.

أما الدول الصينية فقد كانت بينها حروب ضارية. ولهذا فهي تعرف بالإسم الجامع "الممالك المحاربة". ولم تتوحد إلا فيما بعد، سنة 220، على يد الإمبراطور الأول تسين- تشي- هوانغ -تي الذي حكم من-246 إلى -216 والذي أطلق اسمه على البلاد: الصين، إنها بلاد تسين (Tsin)!

وبعده عام 202، أسس مغامر يدعى ليبو-بانغ أول أسرة مالكة صينية، ألا وهي أسرة هان.

وتاريخ الصين شبيه جداً بتاريخ مصر: فترات قوة ووحدة- إمبراطورية آل هان من -200 إلى 200 بعد الميلاد؛ إمبراطورية تانغ حوالى سنة 1000 في عصرنا؛ إمبراطورية سونغ في القرون الوسطى؛ الإمبراطورية المغولية عام 1206؛ إمبراطورية مينغ، الذروة الصينية، من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر؛ وأخيراً إمبراطورية ماندشو لسنة 1644في القرن العشرين-، تفصلها فترات انقسام وفوضى. وهناك فارق، فقد تعرضت الصين أكثر من مصر لهجمات المحاربين الذين ظلوا ما قبل تاريخيين، وراء "السور العظيم". وغالباً ما كان البدو يغزونها ويخربون كل شيء.

ولكن الصين تملك قدرة هائلة على الاستيعاب، فالمقاتل البدوي الذي يعتلي العرش بحد السيف لا يلبث أن يتصيّن تماماً إلى أن يحصل غزو آخر. وكان كبار ملوك المغول (كوبيلاي، حفيد جنكيز خان كما وصفه ماركو بولو) أو ماندشوس (الذي كان نموذجه المثالي آخر إمبراطورات الصين التي تسمى

تسو- هي والتي ماتت عام 1908) من أصول بدوية. وعليه، كيف يمكن أن نتخيل أحداً أكثر صينية من تسو- هي؟

وولدت الإنسانية كما نعرفها. ونحن قريبون جداً من هذا العالم الزراعي للدول الأولى. ولا تزال الصين والهند والشرق الأوسط في قلب الأحداث. وبالمقابل، لم تعد أفكارنا هي ذاتها.

ويجب أن نلاحظ(وهذا أحد دروس التاريخ) أن الأفكار هي التي تحرك الإنسان. والاقتصاد مهم، وقد أشارت الماركسية إلى ذلك، وبالفعل فإن ضرورة تسيير المياه ومخازن الغلال هي التي أدت إلى ولادة الدولة؛ ولكنها، خلافاً لما كان يعتقده ماركس، ليست الغاية القصوى للكائن البشري. إن جوهر الإنسان ميتافيزيقي، كما أشرنا إليه عند وصف ظهوره ما قبل التاريخي. والأفكار النيوليتية لها عواقب.

إن التقدم لا يكمن في هذه الحضارات. فهي تمثل في ذاتها تقدماً هائلاً، ولكنها حين تمّت الثورة الزراعية لم تعد ترغب في التغيير. والوقت فيها يدرك على أنه عجلة تدور، كعودة أبدية. و"السفاستيكا" (Svastika)، الصليب المعقوف هو رمز هندي (استعار هتلر هذا الرمز من البرهمانيين) : إنها عجلة الزمن التي تدور دوراناً أبدياً حول نفسها. ويعتبر التغيير بالنسبة للهندي التقليدي نوعاً من الخطيئة.

وقد اخترع هؤلاء الناس، شعوب مابين النهرين، والصينيون، والهنود، والمصريون أموراً كثيرة - الصفر، البارود، البوصلة-، ولكنهم لم يكونوا يفكرون في استعمال اختراعاتهم رافعات لتحويل العالم؛ ومن هنا جاء الثبات الرائع لهذه الحضارات، التي لن تتحول- مصر، وما بين النهرين، والهند- إلا عن طريق صدمات خارجية. فبالنسبة للصين، المعزولة، "إمبراطورية الوسط"، سوف تكون صدمة الغزوات البربرية ضعيفة جداً وتستوعب دائماً، إلى أن يصل الأوروبيون.

ولم يكن التمرد أيضاً موجوداً-على الأقل التمرد الفردي. ويجب أن ندرك

أن الفضيحة أمام الظلم فكرة يهودية-نصرانية وأن جميع الأحيائيات جبرية. وحتى اليوم، فإن البرهماني الذي يلتقي متسولاً يحتضر على قارعة الطريق لا يرغب في مساعدته. فهو يقول في نفسه: لا شك أن هذا الرجل، في حياة قبلية، كان قد اقترف أفعالاً سيئة. إن جزءاً من البؤس السائد في هذه المجتمعات مرده هذه الطريقة في تحمل الظلم. على حد قول إدغار مورين (Edgar Morin)، "ما لا يغتفر مغفور هناك بصورة لا تغتفر".

والآلهة القديمة ليست لا خيرة ولا شريرة. إنها متقلبة المزاج، ويجدر التهدئة من روعها بإغداق الهدايا عليها: معادن نفيسة، قرابين حيوانية وأحياناً بشرية. وتتلخص الأخلاق إجمالاً في الخضوع للسلطة. والفيلسوف الصيني الأكبر كونفوشيوس(-555/ -479) الذي طبع مذهبه المجتمع الصيني يدعو إلى احترام الأعراف والامتثال الاجتماعي. والعالم الروحاني الصيني لاو- تسو (-570/ -490) ينصح الحكيم بعدم التدخل. والفيداس (Védas)، وهي كتابات مقدسة براهمانية هي أنواع من "الإلياذات" التي لا يمكننا قط أن نستخلص منها أي علامة أخلاقية. وقد ظهر في الهند آنذاك الأمير سيدهارتا غوتاما (-560/ -480) الملقب ببوذا، وهذه أول ثورة بقيت في ذاكرتنا. ولم يكن والده، وهو أمير غني جداً يريد أن يكون لابنه علم بمآسي الوجود. لذا فقد عاش الشاب محاطاً بالجمال داخل القصر الأميري. وذات يوم جنح وخرج من القصر خفية مع خادم وتجول في المدينة. وهناك التقى بجثة كانت تحمل إلى المحرقة فسأل خادمه عما رآه، فأجابه الخادم: " أيها الأمير، هذا يسمى موتاً. " كما التقى أيضاً ببؤساء وفهم ما كان أبوه قد أخفاه عنه وهو أنّ العالم مأساوي وأن الموت والظلم موجودان.

وكانت ردة فعله ترك قصر أبيه والانزواء للصلاة والتأمل. وهذه الثورة لا تدفع إلى تغيير المجتمع؛ إنه تخل فردي وهروب. ويعد بوذا نموذجاً للراهب الانطوائي المتأمل. وهو بطريقة ما يعتبر الانتحار غاية البوذية، والعالم بأسره يعرف صورة هؤلاء الرجال الذين يضحون بأنفسهم حرقاً.

أما بوذا فسيحظى بتبجيل كبير وسيعيش إلى أن يصير عجوزاً، لأنه لم يكن يهدد النظام الاجتماعي(ولن يكون الأمر ذاته فيما بعد بالنسبة لسقراط عند اليونانيين والمسيح عند اليهود). ولكن بما أن البوذية كانت تهدد البراهمانية التقليدية فقد طُرد من الهند. غير أنه كان هناك أحياناً ملوك بوذيون ومن ضمنهم الشهير والحكيم أشوكا (-273/-237). وبعد أن طُردت هذه الديانة من الهند هيمنت على جنوب شرق آسيا. وتستهوي البوذية اليوم بعض المثقفين "الهيبي" لأنهم تحديداً يعتقدون مثل بوذا بأن العالم سيئ ويستحيل تغييره. وتعتبر البوذية ديانة خيبة الأمل. وهكذا فقد كان عالمنا مرسوماً جيداً من قبل في الألفية الأولى قبل عصرنا.

البحر المتوسط:
الكريتيون، الإغريق، الفينيقيون، اليهود

كان المصريون وشعوب ما بين النهرين والهنود والصينيون يخشون البحر، لأنه وسط غريب عن الفلاحين. وقد قلنا إنهم كانوا يتواصلون من واحة إلى واحة عبر الصحراء الكبرى بواسطة قوافل جمال بسنامين(أما جمل باكتريان-فهو جمل أفريقي وحيد السنام). وكانوا لا يمارسون إلا الملاحة النهرية نزولاً من النيل إلى دجلة والفرات والإندوس والنهر الأصفر.

وتواجه كل من الصين والهند أكبر محيطات الكوكب؛ وبالمقابل، نجد، بين الأشوريين ومصر، البحر المتوسط الذي يخترق السهوب بعمق.

ويعد البحر المتوسط عالماً خصص له المؤرخ الكبير فيرناند برودال (Fernand Braudel) عمله. ومناخه المميز جداً ناجم عن الاتصال بين الصحراء والأمطار المحيطية القادمة من الغرب. ويغطي هذا البحر صيفاً الإعصار المعاكس الصحراوي: وهو جاف وجميل، وفي الشتاء يتراجع الإعصار المعاكس مفسحاً الطريق لمرور الاضطرابات الأطلسية إلى البحر المتوسط:

فتهطل الأمطار وتكسو الثلوج قمم الجبال. لذا فهناك فصلان فقط قاسيان كلاهما ولكنهما مضيئان. وليس هناك سوى منظرين، البحيرة الشاطئية والجبل - بحيرات شاطئية في عمق الأدرياتيكي، من خليج سيرت (Syrte) في كامارغ (Camargue)؛ وجبال في ليغوريا (Ligurie)، في اليونان، وفي لبنان، إلخ. وفي كلا المنظرين نجد بسهولة موانئ طبيعية.

كان البحر المتوسط وسيبقى مركز العالم، وحتى اليوم، فإن أي قوة لا تعتبر مهيمنة إلّا إذا كانت تسيطر على هذا البحر. والولايات المتحدة البعيدة جداً عن المتوسط تجد نفسها مجبرة على المجيء إليه الآن وهي تريد قيادة العالم. وهو أيضاً بحر رائع، البحر بامتياز تالاسا (Thalassa).

وفي شمال الساحل المصري، نجد جزيرة كبيرة تسمى كريت، وقد أوجد سكان كريت الملاحة البحرية، قبل زمنٍ طويل من "شعوب البحر" التي اجتاحت مصر عام 1200. واخترع الكريتيون المركب الذي سيطر على البحر حتى عصر النهضة: ألا وهو القادس بمجاذيف. وهي باخرة قوية مصنوعة من أقواس عقدية قادرة على مواجهة الأمواج ومدفوعة بمجاذيف. وفي ذلك الزمن كان من المستحيل استيعاب أنه يمكن السير بعكس اتجاه الريح. ولم يكن القادس يرفع الشراع إلّا إذا تلقى الريح من المؤخرة وإلّا فهو يستعمل القوة الجسدية للمجذّفين.

كان الكريتيون أذكياء مثلنا تماماً، ولكن تصور السير مع الريح يتطلب تصور "ميكانيكا القوى"، وهو التصور الذي لم يتم التوصل إليه إلّا في عصر النهضة- وسمح باستخدام قوة ضد نفسها. وهنا نلاحظ أن الحقيقة "العلمية" هي حقيقة "تاريخية".

وتعتبر السفينة الشراعية مركباً ممتازاً، لكنها لا تستطيع أن تبتعد عن السواحل. لا بسبب العواصف، إنما لأن عدد المجذّفين -الكبير دون شك- وجهدهم البدني يتطلبان كميات كبيرة من الماء. وعليه فقد كان يجب سحب المركب كل مساء إلى الساحل حتى يشرب المجذّفون. وكان الأمر يتطلب وجود الكثير من المجذّفين وكان يستحيل حمل ما يكفي من الماء.

وتسمى فترة الكريتيين أيضاً "عصر البرونز". وسوف لن تصبح الأسلحة من الحديد والفولاذ إلّا بعد سنة 1000 قبل الميلاد.

كانت مصر معلمة كريت، وكان المركب ينطلق من الدلتا ويصل إلى كريت ليلاً وسوف تصبح كريت بدورها معلّمة اليونان القريبة جداً في الشمال.

وبين ضفتي المتوسط مارس الكريتيون التجارة البحرية، وبما أن التجارة تغني أسرع من الزراعة، فقد صاروا أغنياء جداً. وقلصوا الهندسة المعمارية المصرية الرائعة إلى قامة الإنسان، وشيدوا لملوكهم قصوراً رائعة، ويبقى أشهرها قصر الملك مينوس (Minos) في كنوسوس (Cnossos). وقد أطلق عليه الإغريق اسم "المتاهة"، إذ إن المرء يضيع فيه. ونخمن فيه أنه كانت هناك حضارة راقية جداً، من خلال رسومات بهيجة، ذات ألوان زاهية، تزينها نساء غاية في الحسن (وقد بلغت أناقة إحداهن حداً جعل علماء الآثار يسمونها "الباريسية").

وقد كان المعول المزدوج، اللابريس (Labrys)، شعار الملك مينوس. وقد أخذ الرومان هذا الرمز الذي يظهر حتى الآن على جوازات سفرنا.

وقصر مينوسوس فائق الجمال بوصيفاته وجدارياته وألعابه. وكانت التجارة الدولية في تلك الفترة تقوم على تبادل الجواهر المصرية والأواني الفخارية لرودس والعطور والقصدير والعاج والأرجوان والرقيق الأبيض والموضات. وتجدر الإشارة إلى أن الكريتيين اخترعوا الكوريدا، وكان مصارعو الثيران عندهم من النساء. والرمزية هنا واضحة: فقد كانت عبقرية الأنثى تقهر قوة الذكر.

ولكن هؤلاء التجار ذوي الذوق المرهف سوف يُحتلون في الألفية الأولى لعصرنا ويقعون تحت سيطرة الشعوب التي علّموها: الإغريق والفينيقيون. وربما عانوا كثيراً من الانفجار الهائل لجزيرة سانتورين (Santorin).

وكان الإغريق يحتلون بحر إيجا والفينيقيون يحتلون لبنان. وكان ميناء صور (Tyr) أكبر ميناء فينيقي. أما موانئ إيجا فكانت بأعداد لا تحصى. كان هذان

الشعبان البحريان متنافسين ولم يكونا ينتميان إلى العالم الثقافي ذاته. فقد كان الإغريق يتحدثون لغة أوروبية ("هندية أوروبية"، كما يقول اللسانيون، لأن الهندية تنتمي إلى العائلة ذاتها)، وكان الفينيقيون يكتبون لغة سامية (ومنها ولدت العربية).

وندين للفينيقيين -وهم تجار أفضل من الإغريق لأنهم تجار وحسب- باختراع أساسي: ألا وهو اختراع الأبجدية.

وكانت الكتابات المصرية أو الصينية غير ملائمتين جداً للتجار: فقد كانتا تحتويان على الكثير جداً من الرموز(عشرات الآلاف). وكي يسيّروا الصفقات بطريقة أفضل، فقد استعمل الفينيقيون، لا هذه الآلاف من الرسوم الصغيرة التي قدمتها لهم الهيروغليفية، وإنما حوالى عشرين رمزاً مجرداً، دون أي مدلول خاص. كان مبدأ الكتابة الأبجدية قديماً جداً من قبل، وتشهد عليه منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد نصوص أوغاريت، ولكن من المؤكد أن الفينيقيين هم من نشر استعمالها الملائم للتجارة، لأن الحروف المجمعة تستطيع أن تخدم جميع اللغات التي يمكن أن نتخيلها.

كانت الأبجدية تقدماً فكرياً رائعاً، والقراءة الأبجدية تتطلب جهوداً أكبر من فهم الرسوم الهيروغليفية. والحقيقة، أن الحروف وخلافاً للرسوم الرمزية لا تمثل شيئاً؛ وعليه فمن السهل جداً تعلم القراءة. لكن عندما يعرف المرء القراءة، فليس أروع من القراءة! ويجب أن نتأسف اليوم أن الناس يميلون إلى الرجوع إلى الصور والى عدم القراءة. ولم يعد مكتوباً الآن على لوح القيادة، "اضغط"، بل هناك رمز مرسوم.

ومع ذلك فالسلطة الحقيقة ستظل دائماً ملكاً، لا لأولئك الذين يتفرجون على الصور فحسب، بل لأولئك الذين يحسنون القراءة-رغم وجود الحواسيب. والفرنسيون على سبيل المثال (وينطبق ذلك على الانجليز وغيرهم)، يقرأون ويكتبون أقل من أجدادهم بكثير، وبشكل أقل تواتراً على وجه الخصوص.

وباستثناء الصينيين واليابانيين، فقد اعتمدت جميع شعوب العالم اليوم الأبجدية سواء كانت لاتينية أو سيريلية أو يونانية أو عربية، إلخ.

و لن يتقاتل الفينيقيون والإغريق في البحر المتوسط ولكنهم سيتقاسمون مناطق نفوذ. فكلاهما اتخذ له مستعمرات لا بالمعنى المعاصر للكلمة فقد كان ذلك بالنسبة لهم يعني إنشاء قواعد والانتشار كالنحل.

ففي مدينة ما، حين يصبح تعداد السكان كبيراً جداً، ترحل مائتان أو ثلاثمائة عائلة إلى شواطئ أخرى لتأسيس عائلة جديدة، بنت الأولى ولكنها مستقلة. حتى إنها لا تشعر بهذا على أنه منفى، فنحن في البحر المتوسط نجد في كل مكان الفلاحين ذاتهم، سواء كان ذلك في لبنان أو على كوت دازور (Côte d'azur). وكانت أقل شعوراً بوحشة البلد حتى إنها حملت معها أسلحتها وقوانينها.

وتقع المستعمرات الإغريقية على وجه الخصوص على الساحل الشمالي: بحر إيجة، بالطبع (فهو موطنهم الأصلي) وكذلك البحر الأسود (القرم تشبه اليونان)، الأدرياتيكي، إيطاليا، وجنوب فرنسا، النصف الشرقي من صقلية. و"نيس"، تعني باليونانية "النصر". ومرسيليا هي أيضاً قاعدة إغريقية هللينية: عندما يقرأ الرياضيون في صحيفة "ليكيب" (L'Équipe) عبارة "الحي الفوسياني" بشأن أولمبيك مرسيليا، فهذا يذكّر بأن مرسيليا قد أسستها مدينة من بحر إيجة، وفي آسيا الصغرى، باسم فوسي (Phocée). و"نابل " جاءت من نيابوليس، "مدينة جديدة". وكانت سيراكوس في صقلية عاصمة لامعة للإغريق.

ولم يستقر الإغريق على الساحل الجنوبي إلّا في سيرينابيك (Cyrénaïque) وكما هو الحال في القرم، فالأمر يتعلق بسلسلة من الجبال شرق-غرب تصد الرياح الداخلية الضارة. وهناك أسسوا خمس مدن لا تزال أطلالها رائعة: سيران، أبولونيا، بتوليمابيس، أرسينوي وبيرينيس (بنغازي اليوم).

أما المستعمرات الفينيقية، باستثناء سيرينابيك وغرب صقلية، فقد أسست على العكس على الضفة الجنوبية للمتوسط.

وفي عام 800 قبل الميلاد، أسست صور (Tyr) في تونس مدينة قرطاجة، التي ستصبح أقوى منها بكثير. وهنا أيضاً فالأسماء ("دراسة أصول الأسماء

تذكر بالماضي")، وهما هنا لبناني وسامي: قابس وكاديكس كلمتان فينيقيتان؛ وقرطاجنَّة في جنوب إسبانيا تعني "قرطاجة الجديدة"، إلخ.

ورغم المصاعب التقنية للسفن الحربية الشراعية، غادر هؤلاء الملاحون الكبار المتوسط بجسارة. أما الإغريق فبعد أن مروا بأعمدة هرقل (Mercule) (مضيق جبل طارق)، صعدوا السواحل المحيطية باتجاه الشمال حتى الجزر البريطانية، وحتى بحر البلطيق. أما الفينيقيون فنزلوا عبر البحر الأحمر باتجاه الجنوب، حتى الهند. حتى أنهم داروا حول أفريقيا لحساب الفرعون نيشاو الثاني، حوالى-600. وانطلقت السفن الحربية الشراعية الفينيقية من مصر وسارت إلى الجنوب متيمنة الساحل. وكان البحارة كل مساء يدفعون مراكبهم إلى الساحل للتزود بالماء والاتجار مع قبائل المنطقة. وبعد شهور من الإبحار، لاحظوا مندهشين، والساحل لا يزال إلى يمينهم، أن الشمس التي كانت تشرق منذ انطلاقهم على شمالهم باتت تشرق الآن إلى يمينهم. ففهموا أنهم قد داروا حول أفريقيا وأنهم كانوا يصعدون باتجاه الشمال. والحقيقة أنهم ما لبثوا أن عبروا مضيق جبل طارق.

وهكذا فقد انفتحت البحار الساحلية أمام الإنسان في تلك الفترة، ولأسفار طويلة بعد - أفريقيا، والهند، والبلطيق- حتى وإن كان الابتعاد عن السواحل ما يزال مستحيلاً. ويعود تاريخ أولى الخرائط البحرية إلى تلك الفترة. وكان لدى الإنسان آنذاك فكرة كاملة تقريباً عن العالم القديم: أوروبا، وآسيا وأفريقيا.

ولم يكن الإغريق تجاراً وحسب كالفينيقيين. ففي السياسة، اخترعوا وجربوا في مدنهم جميع أشكال الحكم الممكن تخيُّلها: الديمقراطية (من ديمو، شعب، وكراتوس، سلطة)، الملكية (من مانوس، وحيد، وأرخي، قيادة)، بلوتوقراطية (بلوتو، ثروة)، أوليغارشية (من أوليغوا، قلة)، إلخ.

كما لم تكن كل المدن الإغريقية مدناً تجارية. فأثينا، المدينة الكبيرة لإيجه، كانت دولة بحرية؛ لكن في قلب جبل بيلوبينيز، كانت مدينة اسبرطة، منافستها، أوليغارشية عسكرية وقارية- معسكراً حقيقياً للمحاربين وسط جيران

خاضعين، ألا وهم " الهيلوت" (hilotes). غير أن عشرات المدن الإغريقية في المتوسط كانت تتحدث اللغة ذاتها، وتعبد الآلهة ذاتها (زوس وأفروديت، إلخ) وكانت لديها معابد مشتركة مثل دالفيس. وكان لها تاريخ مشترك أيضاً، ميسيني ثم هيليني. وأدب مؤسس: إلياذة هوميروس وأوديسته.

وكانت المدن ترسل كل أربعة أعوام ممثلين إلى أولمبيا للمشاركة في الألعاب الأولمبية. ويتعلق الأمر بالطبع بالألعاب الأولمبية، وهي مسابقة للرياضة وللفصاحة أيضاً وللشعر والفلسفة. حتى إن الإغريق كانوا يحسبون الزمن وفق التجمعات الأولمبية : "منذ الأولمبياد الثالثة، أو الخامسة"، إلخ.

كان التأثير التاريخي للحضارة الهلينية أكبر منه اليوم، في معظم اللغات الأوروبية، فالكلمات العالمة كلمات إغريقية و: "هليوتيرابي" جاءت من" تيرابيا"، علاج، وهيليوس، شمس؛ "تالاسوتيرابي"، من "تالاسا"، بحر؛ "غالاكسي"، من غالا، لبن (تبدو مجرتنا في الليل مثل سلسلة نجوم لبنية)؛ "هيبنوتيك"، من هيبنوس، نعاس.

وباختصار، فاللغة اليونانية موجودة في لغاتنا الحالية من أولها إلى آخرها و"ألفا وأوميغا" (هما أول جرف وآخر حرف في الأبجدية اليونانية).

والإغريق هم أيضاً من اخترع الهندسة وصاغوا النظريات التي يعلم جميع القراء أسماءها: نظريات فيتاغورس، نظريات إقليدس أو أرخميدس، الذين كانوا علماء إغريق كباراً. كما اخترعوا الحرف بي (Pi) (حرف إغريقي) لحساب محيط الدائرة.

ويستحيل الحديث عن العالم المتوسطي لهذه الفترة دون الحديث عن شعب صغير كانت له أهمية إيديولوجية قصوى ألا وهو: الشعب اليهودي أو "العبري".

فمع أن اليهود لم يكونوا بحارة، فقد كانوا أصل البدو الذين كانوا يرتحلون بين مصر وبلاد مابين النهرين. بدأ تاريخهم بالخروج من مصر،

الخروج (الفصح)، وقد ميزه كما رأينا، المنفى الفظيع في بلاد مابين النهرين، "على ضفاف أنهار بابل".

وأخيراً، أصبحوا فلاحين في فلسطين، وتحديداً على حدود تأثيرات النيل والفرات. وهناك أسسوا، حول مدينة أورشليم المقدسة، دولة صغيرة دمرها عام -588 الملك البابلي نبوخذنصر، ولم تُستعد إلا عام 1948. واستمر المزارعون العبرانيون في السكنى في فلسطين، تحت حمايات متعددة. وتوجد في عشرات الكتب المقدسة التي تضمها التوراة تأثيرات بلاد مابين النهرين، وتأثيرات مصرية وفينيقية (كانت صور (Tyr) قريبة جداً) ويونانية. وقد اخترع اليهود التوحيد: إله واحد.

كانت فكرة الإله الواحد هذه قد ذُكرت عدة مرات، خاصة على لسان الفرعون المصري أخناتون (-1374/ 1354)، لكن من دون نجاح دائم.

واليهود هم الذين نجحوا في فرض الإله الواحد، والتأكيد على أن النجوم أو البحر ليسوا الرب، وعلى ترك الأوثان.

وقد انجرت عن هذا كثير من العواقب الإيديولوجية.

الطبيعة ليست إلهية؛ بل هي مخلوقة، والإنسان مدعو لتسخيرها. كانت هذه أولى كلمات التوراة، في كتاب سفر التكوين.

والزمن ليس حلقياً، وللتاريخ معنى هو معنى السلام، العالم المخلوق غير تام، لكنه في النهاية سينجح. وهذا هو ما يسمى المسيحية، ذات التضمينات الهائلة.

ويمكن أن يكون المستقبل أفضل من الماضي، والزمن ليس عجلة، وإنما هو سهم يتجه إلى مكان ما. والتغيير ليس ملعوناً؛ بل على العكس فإن الأنبياء (أولئك الذين يتحدثون باسم الرب) يدعونه بأمنياتهم. وهكذا ظهرت في تاريخ البشر فكرة التقدم.

وفرضت اليهودية كذلك فكرة الشخص: إذا كان الرب " كائناً مهماً" فالإنسان "كائن مهم" أيضاً. فالفرد لم يعد موضع احتقار، والظلم لم يعد مقبولاً.

ومن جهة أخرى فإن الإله اليهودي، يهوه، إله طيب، لا إلهاً متقلب المزاج كالآلهة الوثنية. فهو يحب شعبه وجميع الكائنات، كما يحب عاشق امرأة. ولنقرأ ما يقوله النبي إيزايي على لسان الرب :

"لهنيهة قصيرة، غضبت عليك. ولكن من الصعب أن ينسى الواحد امرأة شبابه. لذا، يغمرني حنان كبير، وأعود إليك."

ولنقرأ نشيد الأناشيد، وهو كتاب توراتي يصف في الأصل حالات الحب الشهواني لرجل وامرأة:

تقول المرأة: "ذراعا حبيبي أسطوانتا ذهب، وقضيبه كتلة عاج"، فيرد عليها الرجل:

"ثديا حبيبتي عراجين نخل، سأرتقي النخل لقطف العراجين. افتحي لي بابك، يا أختي، يا رفيقتي"، فترد الحبيبة:

"يمد حبيبي يده من شراعة الباب، فترتعش أحشائي بسببه. يا بنات أورشليم، أخبرنه أنني عليلة بالحب".

ويهدف هذا النص الشهواني إلى إفهام المؤمنين قوة الحب الإلهي. كما أنه ينتهي بهذا التأكيد الرائع:

"الحب أقوى من الموت. لا تطفئ ناره المياه الجارفة ولا تغرقه الأنهار".

وبينما كان التجار الإغريق والفينيقيون يقطعون البحار، كان مؤمنو فلسطين قد غيَّروا الشكل الديني للعالم.

الإمبراطورية الفارسية والعالم الإغريقي

حوالى القرن السادس قبل الميلاد، كان الإنسان يسيطر هكذا على الأرض في مصر، وفي بلاد ما بين النهرين وفي الهند والصين وكذلك في البحار الساحلية لأوراسيا.

في ذلك التاريخ، نشهد المحاولة الأولى للعولمة. كان حثيو الأناضول قد حاولوا غزو الشرق الأدنى. وقد هزمهم فرعون في قادش عام 1299. أما الفرس فسوف ينجحون، وسيصبح الفرس أداة هذه الكوننة.

كانوا بدواً هنديين-أوروبيين (والفارسية تشبه اليونانية والسنسكريتية)، ورثة السكيت (Scythes)، شعب السهوب الكبرى.

ومعهم فرض الحصان وركوب الخيل نفسيهما. صحيح أن المصريين وشعوب مابين النهرين كانوا يستخدمون الخيل، ولكن لم يفكروا في ركوبها. فعلى النقوش ضئيلة البروز في هذه البلدان، يظهر الملك دائماً على عربته، بينما يربط الحصان من عنقه، مما يقلص من سرعته. كما أن السكيت ومادس والفرس هم فرسان قبل كل شيء.

وستتحول الخيالة إلى سلاح عسكري رائع. ولكن يجب الإشارة إلى أن الرِكاب لم يكن موجوداً في العصور القديمة. ولأن الخيالة كانوا غير مستقرين، فإن سلاح الفرسان لم يكن سلاح خط أول. وقد كان الخيالة يكرون نحو العدو فإذا صاروا على مسافة قريبة منه أدبروا، ثم استداروا نصف دورة ورشقوه بحزمة سهام - وهو ما نسميه "سهم بارت" (Parthe).

وبفضل سلاح الفرسان شن الفرس، الذين تمدّنوا على يد جيرانهم، عمليات غزو خلال ثلاثين عاماً في عهد إمبراطورين: سيروس (-550/ -530) وولده كامبيس (-530/ -522) وقضوا على استقلال بلاد مابين النهرين، والدول الهندية ومصر. ويجب القول إن هذه الحضارات كانت عديمة الحس القومي، وقد نجح كبار الملوك الفرس في جعل الناس يتقبلونهم بسرعة. وانطلاقاً من عواصمهم المختلفة-إكتابان، بارسيبوليس-، الواقعة على الهضبة الإيرانية الواسعة التي تفصل دجلة عن الإندوس، وشقوا الطرقات لرسلهم وشيدوا مدناً، كانت في معظمها قصوراً ملكية. ولا تزال أطلال بارسيبوليس، في الصحراء الإيرانية، حتى اليوم أطلالاً مذهلة.

كان للفرس دينهم الخاص، المزدكية (على اسم إلههم، أهورا -مازدا)؛

وأنبياء ألهموا أنبياء اليهود، بمن فيهم زرادشت (زورواستر) (الزاراتوسترا لنيتشه)؛ وكتاب مقدس يسمى الأفستا (Avesta). وفيما بعد ظهر ماني، وهو نبي خارج جعل إله الخير وإله الشر في مواجهة بعضهما. وتسري هذه المواجهة بين الخير والشر، "المانوية" في عمق ديانة الفرس.

ولم يكن ملوك الفرس الكبار يريدون فرض ديانتهم على الشعوب التي يخضعونها وكانوا يحترمون تقاليدها. وكانوا متسامحين (فقد سمحوا على سبيل المثال، لليهود المرحلين عبر بابل إلى الفرات بالعودة إلى فلسطين). ولم يكن الحكام الإيرانيون، المرزبانات يقتطعون سوى ضرائب خفيفة.

غير أن المدن الإغريقية أفشلت عولمتهم اللطيفة، وعندما أرسل الإمبراطور الثالث داريوس سفنه إلى اليونان(كان الخيالة الفرس قد ضموا البحرية الفينيقية) وجيشاً صغيراً قرب أثينا، تحطمت حملته في ماراثون على يد الجنود الأثينيين، "هوبليت" (نصر معروف لأن اسمه أطلق على سباق أولمبي). والحقيقة أن الاستراتيجي الإغريقي أرسل إلى أثينا عداء، للإعلان عن هذا الخبر السار، ولكنه مات بسكتة قلبية لدى وصوله.

وفي جيش الملك العظيم، كان الفرس فقط متحمسين عكس الجنود الكثيرين المنحدرين من الشعوب المستعمرة. وعلى العكس كان الإغريق، المواطنون الأحرار، يتمتعون بحس وطني عال ولذا فقد كانوا أشرس في القتال. وتدعى هذه الحملة الفاشلة الحرب الميدية الأولى.

ولم يشأ ابن داريوس كسرى، (كسيركسيس) (-486/ -465) الذي كان منزعجاً أن يتوقف عند هذا الفشل. فعبأ جيشه وبحريته، ثم شن هجوماً براً وبحراً. وبدأت الحرب الميدية الثانية بعد عشر سنوات من الأولى، عام 480.

وعقدت المدن الدول الإغريقية تحالفاً، حتى اسبرطة وأثينا المتنافستين،. وخلال استعراض تارموبيلس، أوقف الاسبرطيون الغزو خلال بضعة أيام قبل أن يكتسحهم العدو. وهناك نقشت العبارة التالية: "سيقول باسون لإسبرطة إن أبناءها ماتوا وفاء لقوانينها" وقد تعرضت أثينا نفسها للغزو وأحرقت، وكانت

حكومتها قد أجلت السكان من الجزر واحتفظت ببحريتها بقيادة تيميستوكل. وقد كسحت السفن الشراعية الأثينية أسطول الملك العظيم في سالامين. وقد روى أشيل قصة هذه المعركة البحرية الكبيرة الأولى في مأساته التي تحمل عنوان "الفُرس". (لنلاحظ أن الأمر يتعلق في الواقع بمعركة بين الإغريق والفينيقيين - هي الأولى- إذ إن البحرية الفارسية كانت لبنانية، لأن الإيرانيين ظلوا خيالة سهوب.)

وهزمت إمبراطورية الفرس العظمى التي كانت تغطي نصف أوراسيا، في مواجهة بضع مدن حرة، وسقط آلاف الضحايا. كان ذلك انتصار المواطنة الحرة على الخضوع.

وبلغت أثينا آنذاك ذروتها، إذ إنها كانت هي، تحديداً، التي هزمت إيران. وصارت المدينة "المهيمنة" التي تفرض أساليبها على اليونان، وكذلك على الإمبراطورية الإيرانية التي واصلت مع ذلك مغامرتها الأولى على مدار قرنين.

وستكون هناك مغامرات أخرى: فستبرز إيران من جديد في التاريخ مع إمبراطورية بارت (التي تمتد زمنياً حتى عصرنا) والإمبراطورية الساسانية التي سيكون ملكها الأشهر كسرى الثاني (590-628). وقد حافظت إيران حتى يومنا هذا، على هندستها المعمارية (القباب البصيلية)، وعلى لغتها (فاللغة الإيرانية لا تزال هي الفارسية) وعلى خصوصيتها أيضاً.

كانت أثينا ديمقراطية. وكان جميع المواطنين الذكور الأكبر من ثمانية عشر عاماً يجتمعون في الأغورا (الساحة الكبرى) لانتخاب مجلس، يسمى بولي، كان ينتخب الحكومة. بيد أن أشهر قادتها ألا وهو بيريكليس (495-429) استطاع أن يظل" استراتيجياً" خلال ثلاثين سنة، إذ كان يعاد انتخابه باستمرار.

وقد منح بيريكليس مدينته مجداً عظيماً، فهو الذي أعاد بناء المدينة وشيَّد على يد النحات فيدياس صروح قلعة أثينا (الأكروبول).

وهي هندسة معمارية ذات حجم بشري وبارعة جداً أيضاً. فكل شيء في بارتينون، ضريح إلهة أثينا، على سبيل المثال مبني وفق المنظور. ورغم

المظاهر، فلا نجد إلّا القليل من الخطوط المستقيمة: وكي تكون مستقيمة يجب أن توجّه الأعمدة نحو المركز-وهي كذلك. والأعمدة التي تمتد باتجاه السماء يجب أن تكون أكبر من تلك الموجودة أمام الجدران-وهي كذلك. أما الأرضية، ولكي تبدو أفقية، فيجب أن تكون مقوسة، وهي كذلك. وكي نميزها جميعاً، يجب أن تفصل بينها مسافات متباينة-وهي كذلك. وهنا يكمن كل الفرق بين البارتينون وكنيسة المادلين في باريس!

وفي أثينا كان جميع الشبان يذهبون إلى المدرسة، والى الثانوية (قاعة الرياضة) ثم إلى الخدمة العسكرية ("الإيفيبي")، التي كانت كذلك بمثابة التعليم العالي، لأن الإغريق لم يكونوا أبداً يفرقون بين الجسدي والنفسي.

كان المواطنون يحسنون القراءة، وكانوا يتناقشون كثيراً، وقد اخترع المسرح والفلسفة، وكان أشهر فلاسفة التاريخ الأثيني سقراط، الذي عاش من سنة 470 إلى سنة 399. حتى أنه سيحكم عليه بالإعدام في السبعين من عمره، بسبب أفكاره المدمرة. ولأن أمه كانت مولِّدة، فقد كان سقراط يدعي أنه "يولِّد أفكار الناس" (ما يسمى المايوتية).

عندما كان سقراط يذهب إلى المسرح، كان يجلس على المدرجات محفوفاً بالعباقرة: سوفوكل، أوريبيد، أرسطوفان، ثوسيديد، وجميعهم معاصرون.

ويفيض التاريخ بالمآسي والفظاعات، ولكننا نجد فيه كذلك لحظات رائعة، حيث يعيش في ركن صغير في الآن ذاته عباقرة. (وسيحدث ذلك مجدداً في عصر النهضة. وسيتعايش في فلورنسا مايكل أنجلو، وليوناردو دافنشي وميكيافلي.)

وقد اخترع هؤلاء الرجال النزعة الإنسانية. كانوا يقولون: "اعرف نفسك وستعرف العالم وآلهته". وكانوا يقولون أيضاً: "الإنسان معيار كل شيء."

وقبلهم، كان العالم مخيفاً (آلهة برؤوس وحوش وقرابين بشرية)، والهندسة المعمارية مضنية (ماعدا في اليونان، معلمتهم).

ويعد البانتيون رسالة حبور، وقد تأمل المفكرون جميع آلام الإنسانية.

وتبين أسطورة أوديب أنهم أول من حللوا أنفسهم نفسياً. وقد نظروا إلى الإنسانية بعين خيرة. وكان الإغريق أول البشر الذين عشقوا ذواتهم (نرجس)، واكتشفوا جمالهم، وتنافسوا مع الآلهة (بروميثيوس). وهم لا يخافون من العالم، ولكنهم اجتهدوا في فك الأسرار الخفية التي هم قريبون جداً من فكها (فيثاغورث، إقليدس، طاليس).

في أثينا، في هذا الركن الصغير من المتوسط، يشعر الإنسان بأنه أخير في بيته على الأرض. والحداثة والفخر المشروع في خطاب بيريكليس، الذي نقله المؤرخ ثوسيديد، رائعان. إنه "الخطاب الموجَّه لموتى المدينة":

"يقدم دستورنا المثل الواجب اتباعه والدولة عندنا تدار لصالح الغالبية، لا لصالح الأقلية. ومنه، فقد حمل نظامنا إسم الديمقراطية. وفيما تعلق بالشؤون الخاصة، فالكنيسة مضمونة للجميع بالقوانين، لاسيما تلك التي تكفل الدفاع عن الضعفاء وتجلب لأولئك الذين ينتهكونهم احتقار العالم بأسره. وأما في الشؤون العامة، فلا أحد منزعج من فقره أو ظروفه الحالكة، إن هو استطاع أن يسدي خدمة للمدينة...

"لقد جمعنا بين الرغبة في الدراسة والطاقة وبين الرغبة في ما هو جميل والبساطة. ومدينتنا هي مدرسة اليونان والعالم.

"وحتى وإن انهارت الأمور جميعاً، فسيكون بمقدورك أن تقولي عنّا، أيتها القرون المقبلة، إننا قد بنينا أشهر وأسعد مدينة."

وبعد ذلك بخمسة عشر قرناً، نستطيع أن نؤكد أن بيريكليس كان على حق. وربما صار شعار، الإلهة أثينا التي حملت المدينة اسمها، "الشجاعة والثقافة" موضع تأمل عالمنا الحالي الذي لا تروق له أبداً الشجاعة البدنية ويزدري "الإنسانيات"! ولنذكّر بأن سقراط تتلمذ على يده أفلاطون، الذي تتلمذ بدوره على يده أرسطو، الذي تتلمذ أيضاً على يده الإسكندر الأكبر! بيد أن هناك عناصر مقلقة في الموضوع.

أولاً، لم يكن جميع البشر مواطنين وكان هناك عبيد في أثينا، وقد كان أرسطو نفسه يتساءل إن كانت للعبيد روح.

ولم تكن الكونية الإغريقية تعني الجميع وكانت تتجاهل المرأة على وجه الخصوص. كانت أثينا مدينة بلا نساء.

وإن كان التعليم إجبارياً بالنسبة للفتيان، فإن معظم الفتيات، باستثناء الجواري، لم يكن يعرفن القراءة. ولأنهن كن محصورات في دور المنجبات، فقد كن حبيسات "الحريم".

وفي هذه الظروف، لم يكن بمقدور الفتيان قط حب الفتيات اللائي كانت العائلة تزوجهم إياهن، بمجرد بلوغهم الحلم.

وهو تقليد حافظ عليه كثير من المتوسطيين، ونجده في الإسلام. وكان العالم القديم عالماً بلا نساء (باستثناء الشعب اليهودي كما رأيناه).

وكان الحب لدى الإغريق حباً مثلياً (أنظر "وليمة أفلاطون")، وكان اللواط ممارسة عادية: وكان الكبار يقعون في حب الفتيان ويربونهم في الوقت ذاته. وفي ثابس (اليونانية لا المصرية) كان هناك فيلق في الجيش يسمى "فيلق العشاق".

وسيدوم ذلك حتى انتصار اليهودية-النصرانية. ويوليوس قيصر كان خنثى. وبمناسبة انتصاره في روما كان جنود فيلقه يغنون: "هاهو جنرالنا الأصلع، عاشق كل النساء، وعشيقة كل الرجال."

وليس الغرض هو إصدار حكم قيمي، وإنما الإشارة إلى غياب النساء. هل يمكن لحضارة أن تكون متناسقة بتجاهلها نصف البشرية؟ وإن كان الرجال لوطيين، فإن النساء الذكيات القليلات كن عاهرات (على غرار رفيقة بيريكليس)، أو سحاقيات، واسمهن باللغة الأجنبية "ليزبيان" (Lesbiennes) (على اسم الجزيرة الإغريقية ليزبوس (Lebos)).

وعلى كل حال، فالمدينة الإغريقية التي كان مواطنوها أكثر ثقافة بكثير من رعايا الإمبراطوريات، كان لديها أيضاً جانب "كلوشميرل"، سيصنع شقاءها.

ونادراً ما نجحت الحواضر في الاتحاد. فقد بدأت بينها عام 431 قبل الميلاد حرب ضارية لن تنتهي إلّا عام 401 وهي حرب البيلوبونيز.

ولم تقاوم أثينا إغراء الامبريالية الحقيرة، ولم تتمكن اسبرطة من الخروج من عسكريتها.

والمدن الإغريقية ملأى بالعبر الحالية جداً عن الانهيار الممكن للإمبراطوريات. وكان أفلاطون قد كتب في "الجمهورية" عن هذا الموضوع صفحات يتوجب علينا إعادة قراءتها باهتمام بالغ.

ورغم هذه الظلال، ستنير اليونان القديمة العالم كالشمس فظلال العبودية وانغلاق المرأة لا يجب أن تنسي روعة الأكروبول.

وفي هذه الحقبة ولدت إذن القوتان اللتان جاءت منهما الحضارة الحديثة : الإنسانية الإغريقية في أثينا والتوحيد اليهودي في أورشليم.

الإسكندر أو العولمة الأولى

إذا انقسم بلد ما على نفسه كما كان عليه اليونان بعد حروب بيلوبينيز، أتت قوة أجنبية لترتب الأوضاع. وهذا ما حدث للمدن اليونانية. كان حظ الإنسانية لاهذه القوة الأجنبية كانت من قبل هيلينية بعمق. وكانت مقدونيا (والتي ما تزال موجودة، نصف مستقلة ونصف يونانية، والتي يعد ميناء تيسالونيك مدينتها الرئيسية، والتي تعني باليونانية ظافرة البحر") مملكة أحل فيها الملك فيليب ذو الثقافة الإغريقية السلام في المدن اليونانية بأن فرض عليها حمايته (معركة كيروني، -338)، رغم الخطب الملتهبة -"الفليبيات"- للأثيني ديموستان. وعند موت فيليب، عام 336، خلفه ابنه الإسكندر.

كان الإسكندر في العشرين من عمره، وكان ذا شخصية رائعة. وكان الفيلسوف الكبير أرسطو تلميذ أفلاطون مهذبه. وإضافة إلى كونه مثقفاً وشاعراً فقد كان الإسكندر فارساً لا يشق له غبار. وقبل أربع سنوات، كان قد نجح في ترويض جواد جامح لم يقو أحد على ركوبه. وسيحمله هذا الجواد، بوسيفال الشهير، حتى الهند وسيكون رفيقه طيلة خمس عشرة سنة.

كان الإسكندر ذروة الهلينية وخلاصتها، ووجد نفسه في أربعة نماذج: إله النبيذ، ديونيسوس؛نصف الإله الأسطوري لـ"الأعمال العشرة"، هرقل؛ أخيل، بطل حرب طروادة؛ وأخيراً سيروس، مؤسس الإمبراطورية الفارسية. وهكذا فسيحرك حياته سكر ديونيسوس، وقوة هرقل، والشجاعة العسكرية لأخيل والثقافة السياسية للملك العظيم.

وعند وصوله إلى السلطة، كانت مشكلته الأساسية هي السيطرة على المدن الإغريقية المضطربة. وبما أن أحسن طريقة لتوحيد المتنافسين هو أن نجد لهم عدواً مشتركاً، فقد خطرت للإسكندر فكرة إرسال القوة اليونانية والجيش المقدوني ضد الإمبراطورية الفارسية للانتقام لغزوات الحروب الميدية.

وفي البداية، شن المقدوني حملة هلينية على الفرس. وكلمة حملة كلمة وجيهة، لأن الإسكندر لم يتصرف بهذه الطريقة لمجرد غاية بعيدة، بل كان يؤمن بذلك. وفي أقاصي آسيا، كان يسأل دائماً: "ما ظنُّ الأثينيين بي؟" كان يريد أن يلتقي في كورينث بالفيلسوف الكلبي الشهير ديوجين، الذي أجابه ببساطة "أغرب عن شمسي!" ولم يكن اللقاء بين هذين الشخصين لقاء اعتباطياً، ولكن العباقرة يلتقون دائماً: مايكل أنجلو ويوليوس الثاني، غوته وبونابرت، مالرو وديغول، فريديريك العظيم وفولتير.

في عام 334، تجاوز جيش الحلفاء المضائق، وفي معركة الغرانيك، هزم الإسكندر جيش المرزبان الفارسي. ثم هبط إلى سوريا، بعد أن قطع "العقدة الغوردية" (من سيحل هذه العقدة سيصبح سيد العالم، هذا ما كانت تقوله الأسطورة المحلية). وفي إيسوس عام 332، سحق الملك داريوس الكبير الثالث ذاته، الذي انسحب نحو آسيا. كان المقدوني يريد أن يفصل الفرس نهائياً عن المتوسط (ونجح بالفعل: ولم يعودوا إليه حتى يومنا هذا)؛ واستولى على العاصمة الفينيقية صور. مدمراً بهذا، المنافسة التجارية، ثم دخل مصر التي استُقبل فيها بصفته محرراً، إذ إن البلد كان لا يزال يحن إلى استقلاله الذي قضى عليه الفرس.

وفي غرب الدلتا، أسس المدينة الشهيرة التي ما زالت تحمل اسمه، ألا وهي الإسكندرية، واعتمر تاج الفراعنة. وذهب في رحلة حج حتى أقاصي ليبيا، إلى سيوة، إلى معبد الإله آمون الذي كان يزعم أنه يمثله. كانت تلك سياسة ثابتة لديه وهي أن يستحوذ على آلهة وتيجان البلاد التي يخضعها.

وبعد حجه أُثير السؤال التالي: هل كان عليه أن يستمر؟ كانت الحملة اليونانية قد انتهت. وقال له الجنرالات: "لو كنا الإسكندر لتوقفنا هنا"، لكنه أجابهم: "وأنا أيضاً، لو كنت مكانكم" - واستمر.

وحلت محل الحملة الهلينية الرغبة في استبدال الملك الفارسي الكبير على عرشه. وفي عام 331 في غلغامش، غير بعيد عن بغداد الحالية، قضى على ما بقي من جيش داريوس الثالث، الذي لاذ بالفرار.

وهنا بدأت ملاحقة غربية (أو بالأحرى شرقية، إذ إنها كانت حملة نحو المشرق): فلاستبدال الملك الكبير، كان ينبغي أسره أولاً.

وفي طريقه، أحرق الإسكندر بارسيبوليس، انتقاماً لأثينا التي أحرقها الفرس في ما مضى. ولكن هذا كان تجاوزه الوحيد. وعموماً، فقد كان جيشه يحترم السكان ويترك ذكرى طيبة. وانتهت هذه الحملة قرب بحر قزوين.

وقبل أن يدرك داريوس الثالث، بادر مزربي، كان يعتقد أنه يعطي صورة جيدة عن نفسه، إلى اغتيال ملكه. وقد أعدم الإسكندر المزربي ونظم للملك جنازة مهيبة. وكان يعتبر نفسه خليفته.

وقاد جيشه إلى آسيا الوسطى، حتى أقاصي الإمبراطورية الفارسية، مؤسساً في طريقه مدناً، لايزال بعضها يحمل اسمه، على غرار قندهار (إسكندهار، الإسكندرية بالفارسية)، العاصمة السابقة لطالبان. بيد أن الإسكندر رفض التوقف عند هذا الحد، وحل محل الحملة الإغريقية واستبدال الملوك الكبار مشروع ثالث هو: إخضاع العالم.

ولم تكن هذه الفكرة سخيفة. ففي ذلك الوقت كان الجيش لا يقهر. ومن كان ليقاومه بعد انهزام الفرس؟ وكان كذلك جيشاً ديمقراطياً -كان الجنود

يرفضون أن ينحنوا أمام الملك على الطريقة الشرقية -وجيشاً عصرياً جداً. كان يضم في صفوفه المئات من التقنيين والمهندسين، طوبوغراف، علماء، آلات (تقريباً كما سيكون عليه جيش مصر في زمن بونابارت). وإضافة إلى ذلك، كان الإسكندر يعتقد أن العالم أصغر مما هو، وأن المحيط الهادي أقرب. لذا فقد تجاوز حدود الإمبراطورية الفارسية ودخل إلى شبه القارة الهندية، حيث هزم الملك بوروس (Poros)، رغم امتلاك هذا الأخير لفيلة الحرب. وكان ذلك في حدود دلهي الحالية. ولكنه هناك، لم يكن يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك. لماذا يا ترى؟

لأن جيشه شن إضرابا! كان المواطنون اليونانيون الأحرار قد طفح بهم الكيل. وفي عام 327، كان قد مر على مغادرتهم ضفاف بحر إيجه تسع سنوات. صحيح أنهم حافظوا على علاقاتهم بالبلد-رسل، تعزيزات-، لكنهم كانوا قد شبعوا من الغزوات. فغضب الإسكندر، ولكنه اضطر أن يخضع للأمر الواقع. فما الذي يستطيعه قائد إذا كانت الغالبية العظمى ترفض طاعة أوامره؟

وهنا نكتشف أحد دروس التاريخ : كل سلطة تقوم على رضى المحكومين، وهذا أيا كان تنظيمها (ديمقراطية أو استبدادية). والطاعة وهم. فإذا رفض شعب ما أن يطيع، فحتى الدكتاتوريات تنهار. (وهكذا سيختفي في ما بعد بكثير الاتحاد السوفيتي، الذي كان الخبراء يعدونه خالداً).

وقد خلص الإسكندر إلى القول في نفسه: "أنا قائدهم، وعليَّ أن اتبعهم"، ووفق جدلية السلطة والرضى. يستطيع قائد أن يقود، ولكن ليس أكثر من حد ما، ولا من دون الرضى عن رئاسته. كانت "الحماسة" قد صنعت تفوق الإغريق على الفرس. وفي الهند، لم يكونوا "متحمسين". وهكذا فقد كان الإسكندر مجبراً على توجيه الأمر للجيش بالعودة. وستكون عودة صعبة جداً: هبوط من الهند على متن باخرة، ثم عبور الصحارى الملتهبة في الجنوب الإيراني، أو الملاحة في المحيط الهندي. وفي الأخير عاد الإسكندر إلى بابل، حيث كان يريد تأسيس عاصمة العالم. وقد مات هناك عام -323، في سن

الثالثة والثلاثين، بحمَّى المستنقعات والتسمم الكحولي. وقد دامت هذه الملحمة الرائعة عشر سنوات وامتدت على أكثر من 25.000 كيلومتر.

كان الرجل عبقرياً وغريب الأطوار ومجنوناً قليلاً كما نقول بالعامية. ولأنه كان تلميذ ديونيسوس، فقد كان يشرب الخمر كثيراً. وقد قتل أحد أصدقائه بعد وليمة كثر فيها الشراب -وهو ما أسف له وندم عليه بمرارة. كان إذن "مفرطاً" في انفعالاته، لكنه كان خارق الذكاء. وكان إنسانياً أيضاً وليس في طبعه قسوة. وسيحتفظ له العالم بذكرى ساطعة ومبهرة. فبفضله انتشرت الحضارة الإغريقية عبر أوراسيا وأصبحت اللغة اليونانية لغة مشتركة، الكويني (Koiné) (نجاح لغة ما مرتبط دائماً بالقوة السياسية).

وقد تأثرت الهند بهذا تأثراً عميقاً. وتماثيل بوذا العملاقة في باميان (التي نسفها طالبان) تحمل قناع أبولون.

وكان الملك البوذي أشوكا (262-226) والذي سبق وتحدثنا عنه، متشبعاً بالهلينية في عاصمته تاكسيلا (شمالي باكستان الحالية).

وسوف تبقى الثقافة الهندية-البوذية، ثم الهندوسية، بعد تراجع البراهمانية، مرتبطة بالثقافة المتوسطية.

إلى ذلك، كان الملوك الهنود، في تلك الفترة قد احتلوا نهر الغانج، الذي أصبح مركز قوتهم، ثم شبه جزيرة دكان. وستشع الثقافة الهندية حتى كمبوديا (معابد أنغكور)، ومن خلال البحارة الهنود على طول السواحل حتى أندونيسيا (معابد بوروبودور).

ماذا كان سيحدث لو أن الإسكندر كان قد أخضع الصين؟

كان قد قطع من قبل ثلثي المسافة، ليس عبر الجنوب حيث تنفصل الصين عن الهند بأدغال بيرمانيا وإنما عبر الشمال. ومن آسيا الوسطى حيث كان الإسكندر قد أسس إسكندرية آسيا (طشقند اليوم)، لم يكن السفر على طريق القوافل يأخذ وقتاً طويلاً للوصول إلى النهر الأصفر.

وإنه لمن الصعب تخيل عواقب غزو الإسكندر للصين. مع أنه كان ممكناً:

ربما كانت الجيوش اليونانية ستسحق جيوش الممالك الصينية بالسهولة ذاتها التي سحقت بها جيوش فارس والهند.

والواقع أن الصين بقيت في عزلتها الرائعة -وسيدوم ذلك طويلاً-إمبراطورية الوسط التي لم تكن تتصل بالعالم الخارجي إلّا من خلال التجارة الرفيعة وقليل من الدبلوماسيين أو المسافرين.

وقد صنعت الصين وحدتها، وقد سبق وقلناه، إنما حول نفسها، مكتفية بالإشعاع على حواشيها: سينكيانغ، تونكين، كوريا، اليابان. وهذا يفسر، حتى اليوم، نفسيتها المتميزة جداً.

وبعد موت الإسكندر، تفككت إمبراطوريته. واقتسمها جنرالاته، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها كلها. فقد حلت إمبراطورية فارسية صغيرة محل إمبراطورية بارت. بيد أن الديادوك أسسوا، في مقدونيا، وسوريا ومصر، الممالك الهلينية. وكانت أكثرها إشعاعاً، في سوريا، مملكة السيلوسيد، (على اسم أحد ملازمي الإسكندر، ألا وهو سيلوكوس) بعاصمتهم أنطاكية (Antioche)، وفي مصر، مملكة بطليموس (كان مؤسس الأسرة المالكة من جنرالات الإسكندر أيضاً). وكانت هناك ممالك حتى آسيا الوسطى، في باكتريان.

حتى أن الإسكندرية عاصمة مصر البطلمية المهلّنة صارت أكبر مدن العالم وأكثرها إشعاعاً. وكانت مكتبتها تضم 700.000 كتاب (مخطوطات على لفائف البردي). كانت هناك مجموعة هائلة من العلماء. لا سيما إيراتوستان الذي حسب محيط الأرض حين لاحظ أن الظل الذي يرتسم في منتصف النهار على محور شمال-جنوب لم يكن في أسوان بنفس طوله في الإسكندرية، وهو ما لم يكن يمكن تفسيره إلا بكروية الأرض. وكذلك بيتياس، وهو بحار بلغ الدائرة القطبية وحسب معامل عمليات المد الأطلسية... وستصبح المنارة التي تنير ليلاً ميناء الإسكندرية، والتي اشتق اسمها اليوناني من المكان، فاروس، نموذجاً لجميع المصابيح على وجه الأرض... وإجمالاً، كان هناك مستوى ثقافي لن نجده إلا في عصر النهضة!

وستكون كليوباترا آخر ملكة لمملكة بطليموس(وستكون أيضاً حبيبة قيصر وأنطونيوس).

صارت الثقافة اليونانية آنذاك كونية عالمية ووحدها الصين هي التي لم تتأثر بها.

وكان الإسكندر إغريقياً نموذجياً: إنسانياً، وغير متطيِّر على الإطلاق، ومثلياً (وقد تزوج عدة مرات، إذ إنه كان يتزوج بنات الملوك الذين يهزمهم، على غرار روكسان الشهيرة، لكن ذلك كان لحسابات سياسية). وكان مقتنعاً بأنه كان يحمل الحضارة معه.

وكانت لدى اليونانيين هذه القناعة الراسخة: كانوا هم "المتحضرين"، وكل من سواهم "برابرة". ولم تكن مسألة عرق، إنما مسألة ثقافة. فالمرء يصبح هلينيا إذا تحدث اللغة وإذا كان يذهب إلى المسرح.

كانت تلك هي "العولمة" الأولى، من انجلترا إلى الهند، قبل ثلاثة وعشرين قرناً؛ وقد ظلت الصين على الحياد، رغم الأصداء البعيدة التي كانت تصلها عبر طريق الحرير. بيد أن العمل السياسي للممالك الهلينية ظل هشاً.

وأفلت الإسكندر من اليونان بغطرسته ("أوبريس" باليونانية)، وهي الخطيئة بامتياز في نظر مؤدبه أرسطو، الذي كان يعتبر أن الاعتدال علامة العقل ذاتها. صحيح أن الإسكندر جسّد جانباً غير معروف غالباً للهلينية: ليس النظام الأثيني وإنما الجنون الديونيسي.

العالم يميل نحو الغرب:
قرطاجة وروما
هنيبعل وقيصر

كانت القبائل في الفترة ذاتها، غربي المتوسط (في بلاد الغال، وإسبانيا)، قد انتقلت من الصيد إلى الزراعة. وقد أصبحت أيضاً أكثر كثافة سكانية، لكنها ظلت خارج التاريخ. ولم تتألق سوى حواضر أترووري وقرطاجة.

في شمال شبه الجزيرة الإيطالية، توجد توسكانا. وكان الأتروريون قد شيدوا هناك حضارة عبقرية، لكنها غير معروفة جيداً، لأننا لا نعرف كيف نفك كتابتهم. وكانت فولتيرا وأورفييتو وبيروج، وغيرها كُثُر، في الأصل حواضر أوترورية.

ويذكّر الأوتروريون بالكريتيين بقبورهم الدائرية والجداريات الرائعة وثقافتهم الغريبة والمتقنة: فرسوماتهم الملونة تتشابه. كانوا توليفة من الشعوب المحلية (إيطاليانية) والتأثيرات الإغريقية أو الفينيقية- كانوا يتشكلون في حواضر-دول، كهذه الشعوب الأخيرة.

غير أن البحر المتوسط الغربي كانت تسيطر عليه في الواقع قاعدة فينيقية، ألا وهي قرطاجة. كما أن قرطاجة التي بقيت مستقلة في حين كان الفرس قد أخضعوا حاضرتها الأم صور - كان الإسكندر نفسه قد توقف أمام سيرت - (Syrte) كانت قد أسست، على غرار أثينا، إمبراطورية بحرية- "تالاسوقراطية"-، لكنْ لها إقليم بري أكبر بكثير. وكانت أفريقيا الشمالية برمتها، من جبل طارق إلى خليج سيرت، تأتمر بأمرها والقبائل البربرية (كانت تسمى آنذاك "نوميدية") تحت حمايتها. وكانت تملك كذلك غرب صقلية، وكان الشرق خاضعاً لإغريق سراقصة. وإذا أردنا أن نتخيّل قوة هذه العاصمة، فعلينا أن نعيد قراءة "السلامبو" لفلوبير (Flaubert).

وفي الفترة الهلينية ذاتها برزت قوة روما.

كانت روما في الأصل مستعمرة أوترورية، تأسست عام -753 (كان الرومان يعدون السنوات ابتداء من تأسيس المدينة: آب، أوروبي، كانديتا)، وقد تحررت من الأوتروريين في القرن الخامس قبل الميلاد وتحولت إلى جمهورية نسخة عن أثينا. الرجال الأحرار فقط كانوا مواطنين. وكان هناك مجلس هو "مجلس الشيوخ" (لم تكن عضويته متاحة إلّا لمن بلغ الأربعين من العمر)، وفترات رئاسية دورية، لاسيما قنصلان كانا يتقاسمان السلطة التنفيذية كل عام، وقبائل تمثل الشعب (العامة). وكانت الآلهة هي آلهة الإغريق،

بأسماء مختلفة: فتحول زوس إلى جوبيتار، إلخ. كان الرومان يتكلمون اللاتينية ويستعملون أبجدية خاصة بهم (وهي اليوم عالمية). وتحولوا شيئاً فشيئاً أسياداً على شبه الجزيرة الإيطالية.

وفي عام 272، أتموا هذا الغزو بالاستيلاء على مستعمرة يونانية، ألا وهي تارنت. ودون أن تنتبه حاضرة قرطاجة الفينيقية الثرية، كان قدرها مذ ذاك قد ختم!

وكان هناك ما هو أتروري وما هو إغريقي لدى الرومان. ولكنهم احتفظوا دائماً من أصلهم بكره الملكية وحب الحرب، والطبع الحاد، ورغبة جامحة في الانتصار دائماً: و"الويل للمهزومين". كان الرومان مزارعين جنوداً، نهمين للربح، وأجلافاً وبخلاء. ولأنهم مهووسون بامتلاك الحقول، فقد كانوا يقيمون دعاوى بلا نهاية دفاعاً عن أملاكهم؛ ولكنهم كانوا مهووسين أيضاً بتعطش للسيطرة، لا السيطرة المتلاشية كسيطرة الإسكندر وإنما السيطرة الدائمة.

وقد اخترع الإغريق الفلسفة والمسرح؛ واخترع الفينيقيون (اللبنانيون والقرطاجنيون)، الأبجدية واخترع الرومان القانون، وأولاً قانون الملكية.

كما اخترعوا أيضاً أولية القانون، واكتشفوا اكتشافاً عبقرياً، هو التقادم. وكان "الانتقام" وسيبقى المشكلة الرئيسية للمجتمعات المتوسطية، التي تعيث فيها عمليات القتل من جيل إلى جيل. ومن خلال تقادم الجرائم (بعد عشرين أو ثلاثين سنة)، نجح الرومان في قطع سلسلة الانتقام الجهنمية. واليوم، وتحت تأثير القانون الأنجلوسكسوني الذي لم يُكيف جيداً مع روما، فنحن بصدد التخلي عن التقادم مع جنحنا "غير القابلة للتقادم". وسنعود إلى الانتقام. فالتخلي عن العقاب بعد مدة معينة لا يعني نسيان الجرائم السابقة. فيجب التذكر والعمل بالتقادم في آن واحد.

وكانت الفحولة الثقافية، القوة المعنوية للرومان، كبيرة لمدة طويلة: كانت تلك قوة سينسيناتوس، المسمى "ديكتاتور"، والذي بعد أن أتمَّ عمله، عاد إلى حقوله؛ أو قوة دنتاتوس وهو يجلب أعداءً لروما كانوا يريدون شراءها: "قولوا

لأولئك الذين يرسلونكم إن الرومان يفضلون أن يحكموا أولئك الذين يملكون الذهب بدل أن يملكوه."

وقد عاشت روما، وهي قوة قارية، في سلام مع قرطاجة حتى اليوم الذي أراد فيه الرومان الاستيلاء على صقلية التي كان القرطاجيون يملكون القسم الغربي منها.

وقد وضعوا أولاً يدهم على الحواضر الإغريقية لشرق صقلية. وقد ربح ملك إغريقي، جاء لنجدة هذه المدن، عدة معارك، ولكن بصعوبة. ونحن نعرف كلمة هذا "البيروس" (Pyrrhus): "نصر جديد كهذا، ونضيع "-ومن هنا جاء تعبير"نصر على طريقة بيروس". ولكن عندما هاجم الرومان غرب الجزيرة الكبيرة، اندلعت الحرب مع المدينة البونية (و"البونيون" كان الاسم القديم للقرطاجنيين)...

كانت قرطاجة تطل على البحر، ولكن الفيلق الروماني كان أفضل أداة عسكرية لتلك الفترة. ويمكن أن نقارنه بالفرقة الأجنبية أو بالمظليين. وفقد الفيلق الإغريقي، الذي كان مختل النظام، كل قيمة قتالية. ولم يكن هذا حال الجحفل. كان جندي في الفيلق يعرف القتال جماعياً، وكذلك القتال منفرداً.

ودارت الحرب البونية الأولى من 264 إلى 214. ورغم قيمة جنرالاتها، ومن بينهم واحد يدعى هاميلكار باركا (هو جنرال بسالامابو)، هُزمت قرطاجة واضطرت أن تتنازل لروما عن صقلية وسردينيا. لكن الحاضرة الفينيقية كانت أكثر إباء من أن تعترف بالهزيمة. وعوضت خسارة صقلية بالاستيلاء على إسبانيا، التي حكمها هاميلكار وفيها أسست قرطاجنة، "قرطاجة الجديدة".

وفي عام 219، كان هنيبعل، ابن هاميلكار، مستعداً للانتقام وأُعلنت الحرب. ومع الحرب البونية الثانية (التي ستدوم سبعة عشر عاماً)، ظهر نوع جديد من الحرب: الحرب بين الأمم، وليس الحرب بين الحواضر (حرب البيلوبونيز)، أو الحرب الإمبراطورية (الفرس، الإسكندر).

وكانت إيطاليا وأفريقيا الشمالية قد أصبحتا بالفعل "أمتين" : كان هناك

جانب من الحرب حتى الموت، "حرب 14" (بين فرنسا وألمانيا)، في الحرب البونية الثانية. وكانت العبقرية العسكرية على الجانب القرطاجني. وهنيبعل هو قائد كبير كنابليون. وكان يملك جيشاً من المرتزقة الغاليين والإسبان (وليس جيشاً وطنياً كالفيالق الرومانية) وسلاح فرسان نوميديا (جزائرياً) ممتازاً-دائماً دون ركاب.

وكانت الفيالق بالطبع تنتظر هنيبعل في الجنوب، في صقلية، وهي جسر بين تونس وإيطاليا. ومن خلال مسيرة اتسمت بجرأة خارقة للعادة، عبر من الشمال.

وبعد أن اجتاز البيرينيه، استطاع أن يعبر، مع فيلته الحربية، مرتفعات الألب. ولم تكن روما تملك فيلة؛أما قرطاجة فكانت قد تلقت من الهند سلاح الردع هذا (نتيجة اتصالات ثقافية أقامها الإسكندر). وانطلق هنيبعل من غراند-سانت -برنارد وفاجأ الرومان وصدهم إلى تريبي وتيسان. ثم هبط هنيبعل نحو جنوب إيطاليا، وطاف حول روما، ولم يستطع حصارها (لعدم توفر العتاد)، بعد أن سحق مجدداً الفيالق في بحيرة تراسيمان.

عندئذ عينت روما "ديكتاتوراً" رفض بحكمة أن يشن معركة وانتهج سياسة الأرض المحروقة، هو فابيوس المتريث.

لكن المزارعين الرومان لم يتحملوا طويلاً تخريب محاصيلهم. وفُصل فابيوس(كانت الديكتاتورية الرومانية منصب رئاسة قابلاً للإلغاء).

وفي عام 216، التحق القنصلان العامّان مسرعين بجيش هنيبعل الذي كان يستريح قرب كان (Cannes)، في جنوب إيطاليا. كانت معركة شهيرة. فقد ترك هنيبعل الفيالق تتقدم في وسطها، وحين رأى أنهم قد تقدموا بما يكفي، أرسل سلاح الفرسان النوميدي الذي أحاط بهم وعاد لمهاجمتهم من الخلف. وقد أبيدت الفيالق، وسقط آلاف القتلى، بمن فيهم القنصلان. ويجدر أن نشير إلى أن معارك العصور القديمة كانت توقع الكثير من القتلى مثل معاركنا العصرية. وكأنَّ (Cannes) هي هيروشيما. وكثير من الأرواح تسقط بالسيف. ففي رواندا،

قتل مئات الآلاف من الأشخاص بفأس الأدغال. وكان هو الشكل النهائي لمعركة التطويق التي سيتأملها في ما بعد جميع القادة الكبار، من نابليون إلى رومل.

كان هنيبعل موقناً أن روما ستستسلم.

وفي روما، بعد يومين أو ثلاثة، وصل ناجون مرعوبين. وخلا السيناتورات الذين فقد كثير منهم ولداً، بأنفسهم كي يفكروا في مجلس المشيخة، ألا وهي مبنى مجلس الشيوخ، الذي تجمع حوله حشد من الناس. ثم فتحت الأبواب البرونزية للمجلس، وخرج منه سيناتور عجوز وقال بصوت جهوري: "لقد هزمنا في معركة كبيرة". وكان الرومانيون، مثل الإسبرطيين القدامى، يمارسون فن "الكلام المختصر" لـ"اللاكونية" (على اسم بلد اسبرطة، لاكوني). ولكن روما لم تستسلم.

ونحن نلامس هنا سر الانتصارات الرومانية: الصلابة. ومع أن عبقرية هنيبعل تفوقت عليها، فإن روما لم تستسلم بل جندت فيالق جديدة. وخلال تاريخها الطويل لم توقِّع روما أبداً هدنة أو اتفاقية في غير مصلحتها.

وطالت الحرب. وفي يوم من الأيام أنزل جنرال جسور الفيالق في تونس، ففزعت قرطاجة واستدعت هنيبعل الذي غادر إيطاليا تاركاً فيها خيرة عناصر جيشه. وكان قد بقي فيها سبعة عشر عاماً! وفي عام 202، في زاما(قرب تونس الحالية)، مُني بهزيمة. وطلبت قرطاجة السلام، واستولت روما على إسبانيا، وجنوب بلاد الغال، وسهل بو (Pô)، وأجبر هنيبعل على المنفى فأنهى حياته انتحاراً في الأناضول، عند ملك بيثينيا، حين علم أن مضيفه سيسلمه.

وقد ختم هذا النصر مصير قرطاجة. فحتى وهي مهزومة، ظلت تخيف أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يقولون: "يجب أن تُدمّر قرطاجة". وسيكون ذلك عام-146 (الحرب البونية الثالثة)؛ ودمرت المدينة. وقد ظهرت روما أنها ما زالت بلا رحمة. وغيّرت هذه الحروب وجه الغرب، ولو كانت قرطاجة قد

انتصرت، على سبيل المثال، لكنا نتحدث لغات سامية وليس لغات تنحدر من اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والإسبانية).

وكانت الأمور قد حسمت بعد ذلك في البحر المتوسط. كانت الممالك الهلينية قد فقدت قيمتها العسكرية، وأخضعتها روما بسهولة. وتم القضاء على الملوك فيليب الخامس ملك مقدونيا وأنتيوكيس ملك سوريا واحداً بعد الآخر. وفي عام 168، فرضت روما حمايتها على العالم الإغريقي، ولكن دون حقد هذه المرة. لقد خافت من قرطاجة، ولم تخف من الملوك الهلينيين. وكان الإغريق من جانبهم يعتبرون الرومان أتباعهم ولم يقاوموا قط في حاضرة لاتيوم.

وإضافة إلى ذلك فقد فرضت الثقافة الإغريقية نفسها في روما، كما يلاحظ ذلك هوراس: "اليونان المهزومة أخضعت غالبها النبيل." "واتخذ الرومان المرفهون مؤدبين يونانيين وجلبت روما الفلاسفة والعلماء والتربويين.

وهكذا تمكنت الحاضرة الغازية، "المدينة" بامتياز، من توحيد العالم المتوسطي: ولنشر إلى تاريخ معين: ففي عام 63 قبل الميلاد، أخضع الرومان أورشليم. وظلت مصر البطلمية المهلنة على ما يبدو مستقلة؛والحقيقة أنها كانت محمية.

وللمرة الأولى والوحيدة -ولكن لقرون-، خضع حوض المتوسط، وهو مركز العالم لسيطرة دولة واحدة.

وهكذا لعبت روما دوراً أساسياً وقدمت للهلينية الاستمرارية التي لطالما افتقدتها. وسيكون بمقدور الثقافة الإغريقية أن تستمر، وفي ما بعد، تجد المسيحية مكاناً!

دولة واحدة وحضارة واحدة: وتحققت وحدة العالم المتوسطي لمدة طويلة جداً.

ولكن هذا لم يتم لروما دون مشقة: فجمهوريتنا لم تكن مصممة كي تقود العالم. وقد أصبحت روما التي زاد عدد سكانها عشرة أضعاف، أهم مدينة

تظهر حتى ذلك الوقت. فمليون أو مليونا نسمة هو رقم هائل بالنسبة للعصر القديم، الذي لم تكن فيه وسائل النقل الجماعي. ومع ذلك فقد كان القمح الروماني يأتي من البحر الأسود أو من مصر.

وقد أدى عدم تكيف المؤسسات والانفجار السكاني إلى اندلاع حروب أهلية مزقت الحاضرة طيلة قرن من الزمن: حرب الغراك (حوالى عام 122)، الذين كانوا يدعون الدفاع عن حقوق الشعب، وحرب ماريوس ضد سيلا (حوالى عام 88)، التي حولت الجيش الروماني، الذي كان حتى ذلك الوقت جيش تجنيد، إلى جيش احتراف.

والعجيب هو أن هذه الاضطرابات لم تضر بالهيمنة الرومانية. والحقيقة أنه كانت هناك ثورة العبيد، في إيطاليا، بقيادة سبارتاكوس. وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عن العالم الروماني في تلك الفترة، عن مجده وفظاعته، فعلينا بقراءة الكتاب المخصص لسبارتاكوس لمؤلفه هاوارد فاست (Howard Fast).

كما كانت هناك ثورات في إسبانيا وفي البحر الأسود (ميثريدات، ملك "الجسر "؛جسر أوكسين، وهو البحر الأسود)؛وظهرت قلاقل، ولكن لا أحد اتهم الهيمنة.

وتشهد على هذه القلاقل رسالة بعث بها ضابط في الكتيبة الثانية لفيلق أوغوستا (في الجزائر) إلى ابن عمه، تارتولوس الذي بقي في روما، والتي ذكرها سويتون. ويترجم هذا النص جيداً عقلية الرومان، وقناعتهم (الموروثة عن الإسكندر) بأنهم يحملون معهم الحضارة. وكان يمكن أن يكتبه ضابط فرنسي من حرب الجزائر:

"كانوا قد قالوا لنا إننا ذاهبون إلى أفريقيا للدفاع عن الحقوق التي يمنحنا إياها الكثير من المواطنين المقيمين هناك، سنوات كثيرة من الوجود، كثير من الأيادي البيضاء التي قدموها لسكان بحاجة إلى حضارتنا. وقد تمكنا من التحقق بأن ذلك كان صحيحاً. وقد دفعنا لأجل ذلك ضريبة الدم.

"ولسنا نادمين على شيء، ولكن قيل لي إن روما تعج بالدسائس والمؤامرات، وإن الكثيرين يحقّرون من عملنا.

"لا أستطيع أن أصدق أن هذا صحيح. أرجوك، طمئني. أكتب لي أن المواطنين يدعموننا كما ندعم نحن عظمة روما.

"وإن كان الأمر غير ذلك، وإن كان علينا أن نموت عبثاً على طرقات الصحراء، فعلينا إذن الحذر من غضب الفيالق!"

ولم يجرؤ الجنرال بومبي، المنتصر في ميثريدات، أن يستولي على السلطة بمفرده؛ فشكل عام 60 قبل الميلاد، "حكومة مثالثة" مع المصرفي كراسوس والنبيل قيصر.

وهنا برز في التاريخ يوليوس قيصر. وهو من أسرة ارستقراطية عريقة تسمى لا جانس جوليا، وكان بإمكانه أن يكتفي بأن يحقق مساراً مهنياً في مجلس الشيوخ. لكنه كان يدرك ضرورات الزمن وباشر مسيرته نحو السلطة التي أراد أن يصلها برضى الشعب.

وكان يحتاج إلى قيادة عسكرية كبيرة لموازاة مجد بومبي. وحصل على القيادة العسكرية لبروفانسيا، التي تربط إسبانيا بإيطاليا، ولكن هذا لم يكن كافياً لشهرته، فباشر حملة لغزو بلاد الغال.

كانت هذه المنطقة الكبيرة مأهولة من السلتيين الذين يتكلمون الغالية (اللغة السابقة للبروتون). كانوا مزارعين ذوي خبرة ومقاتلين باسلين، إلا أنهم كانوا ما يزالون يعيشون في الفوضى النيوليتية. وكانت قبائلهم التي لا تحصى تتقاتل فيما بينها. وكان من السهل على قيصر التدخل في خصوماتها. وخلال سبع سنوات، كانت بلاد الغال قد أخضعت وفي عام 52، اضطر القائد الغالي فارسينجيتوريكس، الذي كان سجيناً في أليسيا، إلى الاستسلام للجنرال الروماني، الذي أمر بقتله.

وكانت سرعة هذه الغزوة التي حكى عنها قيصر في كتاب دعاية، بعنوان "حرب الغاليين"، سرعة مفاجئة. ولكننا أشرنا إلى أن القبائل الغالية كانت تعيش

في ما قبل التاريخ؛ في حين كان قيصر يمثل الحداثة. إذن لم يكن الأمر يتعلق بحرب بين أنداد، كتلك التي واجهت فيها قرطاجة روما، وإنما بحملة غزو استعمارية بالمعنى العصري للكلمة.

ولم يكن الغاليون، رغم شجاعتهم، يعيشون ذات الفترة مثل الرومان الحديثين جداً. ولم تكن المقارنة ممكنة بين وضعية قيصر في بلاد الغال ووضعية هنيبعل في الإسكندرية، وقد كانا يقاتلان خصوماً على ذات الدرجة من التحضر مثلهم. وبالمقابل، نستطيع مقارنتها بوضعية لوتاي، في القرن العشرين، والذي أخضع المغرب الأقصى بقليل جداً من الوسائل وفي اللحظة نفسها. ومرة أخرى شكّل المغاربة دولة واحدة، ودولة تاريخية، ولكن "التفاوت الكرونولوجي" (مفهوم سنجده مراراً) هو ذاته؛ وكذلك القوات. وقد كان لكل من قيصر ولوتاي حوالى 30.000 رجل: أي من ثلاثة إلى خمسة فيالق.

أما بالنسبة للغاليين، فقد كان الرومان وكأنهم جاؤوا من المريخ، لذا لم يكن أمام المحاربين السلتيين مفر من الهزيمة أمام حضارة متفوقة تقنياً بكثير على حضارتهم. وكان الغاليون معنوياً وفنياً (كالمغاربة) متطورين جداً. لكن ما الذي كان بوسعهم أن يفعلوه أمام هؤلاء الغزاة القادمين من المستقبل؟

وخلافاً للمغاربة، فقد اندمجوا بسرعة في الثقافة الرومانية، وضيّعوا لغتهم (كان الفرنسيون في الحقيقة يتكلمون نوعاً من اللاتينية). وأسس قيصر على الرين مدينة كولونيا ونفذ اجتياحاً وراء المانش في بريطانيا العظمى.

ثم عاد مع فيالقه إلى روما واجتاز الروبيكون، وهو سيل جارف في إيطاليا. وكان الدستور الروماني يمنع الجنرالات من قطع هذا الوادي بأسلحتهم. وقد خرق الدستور قائلاً عبارته الشهيرة: "لقدم حكم القدر". وفي روما، استولى على السلطة، بعد معارك ضارية. وقد واجهه بومبي، لكنه انهزم خلال حرب أهلية حول المتوسط، ثم تعرض للاغتيال. وفي الإسكندرية في مصر، تودد لأسباب سياسية إلى سليلة البطلميين، كليوباترا الشهيرة، والتي

أنجب منها ولداً لم يعش طويلاً (سيزاريون). وظل قيصر السيد الوحيد للعالم المتوسطي.

ولم يجرؤ بسبب الرأي العام الروماني، أن يخلع على نفسه لقب ملك. لكنه كان حقاً القائد، الإمبراطور. وهو يجسد السلطة تماماً إلى درجة جعلت كثيراً من الشعوب تمنح ملوكها لقب قيصر: تزار بالروسية وكايزر بالألمانية... حتى أن "قيصر" سيصبح الاسم الجامع لكل الأباطرة الرومان: آفي كايزار (Ave Caesar)...

ولكن بقي في روما كثير من الجمهوريين، واغتيل قيصر عام 44 قبل الميلاد، في منتصف شهر مارس/ آذار، على يد بروتوس، ابنه بالتبني، ومن ثم جاءت العبارة: "حتى أنت يا بنيّ"، التي رفع صوته بها في وسط مجلس الشيوخ، ولا ندري إن كان ذلك باللاتينية أم باليونانية.

ومع قيصر تجاوز الرومان حدود العالم المتوسط، ووصلوا إلى نهر الرين، وحتى انجلترا، وتم تجاوز الأزمة المؤسساتية لروما.

الإمبراطورية الرومانية
أو الذروة التاريخية الأولى

اضطر أنطونيوس ملازم قيصر في بلاد الغال، بعد اغتيال قائده، إلى مواجهة الشاب أوكتافيوس ذي العشرين عاماً، الحفيد الصغير للجنرال الكبير، والذي طرح نفسه وريثاً معيّناً من الديكتاتور. وحاول أن يواربه بأن شكّل معه ومع شخص يدعى ليبيد حكومة المثالثة الثانية. وأمر هؤلاء الثلاثة بإعدام بروتوس وأنصار الجمهورية. غير أن هذا لم يمنع من اندلاع حرب أهلية بين أنطونيوس وأوكتافيوس. واعتمد أنطونيوس على مصر وعلى كليوباترا.

ويعد معركة أكتيوم البحرية (31)، قتل أنطونيوس اللاجئ في الإسكندرية، نفسه؛ أما كليوباترا، فانتحرت بدورها واضعة بهذا حداً للأسرة المالكة

للبطالمة. كانت الإمبراطورية قد قامت نهائياً. وأطلق أوكتافيوس على نفسه اسم أوغيست (Auguste) وحكم حتى عام 14 للميلاد، أي خلال أربع وأربعين سنة.

ومن الناحية الدستورية، كان النظام نوعياً. ولأن الرومان كان لهم رهاب من الملكية، فإن الإمبراطورية لم تكن كذلك قط (ولن تصبح كذلك إلا مع البيزنطيين). ولكن السلطة كانت مركزة على رأس شخص واحد: السلطة القنصلية (كان الإمبراطور يسمي نفسه قنصلاً)، سلطة الزعماء الشعبيين والسلطة العسكرية (الإمبراطور هو قائد الجيوش.) ولكن الإمبراطور لم يكن يحمل لقباً ملكياً. كان يدعى فقط، كما هو الحال اليوم في انجلترا، رئيس الوزراء، ("برنسيبس"، ومنه جاءت كلمة "برينس" : أمير).

وسيستمر مجلس الشيوخ دائماً، وكذلك خيال السلطة الشعبية: فالقوانين لم تكن تصدر باسم الإمبراطور، وإنما باسم"مجلس الشيوخ والشعب الروماني"، سيناتوس بوبولوسك ومانوس. وهذه الأحرف الأولى تشكل الشعار (QRSP) الذي كان معلنو الأحكام يرفعونه أمام الفيالق المتنقلة، والتي لا تزال محفورة على صفائح المجاري في روما الحالية.

ولتذكر أسماء الأباطرة الرومان للقرنين الأولين لعصرنا، كان الناس في القديم يستعملون عدية المقوية للذاكرة : "سيزوتيكا-كلونيغالو-فيفيستيدو-نيرتراها-انتماركو"، مما ينتج عنه: قيصر، أوغيست، تيبار، كاليغولا، كلود، نيرون، غالبا، اوتون، فيتيليوس، فيسباسيون، تيتوس، دوميسيان، نيرفا، تراجان، هادرين، أونتونان، مارك أاورال!

ونستطيع أن نقدر أن الإمبراطورية الرومانية كانت أهم دولة بناها البشر. صحيح أن إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الإسكندر، ثم في ما بعد إمبراطورية جنكيز خان أو الإمبراطورية البريطانية كانت أكبر، ولكنها استمرت مدة أقل بكثير. وحتى الصين كانت أقل منها. مع أنها كانت قد توحدت، في الفترة ذاتها، على يد العائلة المالكة لآل هان. كانت إمبراطوريتا العالم القديم تعرف

كل واحدة منهما الأخرى وتتاجران على طريق الحرير البري، وتتبادلان الدبلوماسيين. أما الممالك الهندية للهندوس والغانج، فقد ظلتا دائماً تقريباً منقسمتين، حتى وإن كانت حضارتاهما قد بلغتا برمانيا، وتايلاند، وإندونيسيا (وحتى اليوم، تعد جزيرة بالي هندوسية). وكان الفرس قد أعادوا بناء دولة، باسم البارت (Parthes)، ولكنها أصغر.

أما الرومان، فقد سادوا خمسة قرون، من اسكتلندا إلى جزيرة العرب، ومن القرم إلى شمال أفريقيا. وقد وضعوا لنفسهم حدوداً، عكس الإسكندر. ولم يستولوا إلّا على جنوب جرمانيا، وجلوا طوعاً عن اسكتلندا، لأنها كانت مطيرة جداً بالنسبة لهم، واكتفوا بأن شيدوا، شمال انجلترا "سور صين" (لايزال ظاهراً) لصد احتواء البربر. ويحيط هذا الخط الحصين، الليمس، بالإمبراطورية كلها. كان هناك ليمس جرماني في الشمال وليمس صحراوي في الجنوب، تدل عليه آثار تيمقاد.

وكانت كل من انجلترا، فرنسا، بلجيكا، ألمانيا الجنوبية، سويسرا، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا، النمسا، هنغاريا، كرواتيا، صربيا، ألبانيا، البوسنة، اليونان، بلغاريا، رومانيا ("أرض الرومان")، وتركيا، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، شمال العراق، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب تنتمي إلى الإمبراطورية (وهذا طبعاً دون حساب جميع الجزر المتوسطية). ولم يكن هناك حول الإمبراطورية، سوى قبائل ما قبل تاريخية من البدو أو مربي المواشي، باستثناء المشرق حيث تفصلها الدولة الفارسية (بارت) عن الهند.

وكان عدد سكان الإمبراطورية يقدر بين 50 و100 مليون نسمة: ثلث عدد سكان العالم في ذلك العصر.

وقد تركت حدود الإمبراطورية أثرها على التاريخ. فعلى سبيل المثال، فإن الفرق بين الانجليز والاسكتلنديين يتمثل فقط في أن الأوائل كانوا قد ترومنوا. وبعد ذلك بقرون، عندما تواجها بسبب مشكلات دينية، انقسم الألمان وفق مخطط الليمس (Limes) السابق: فأولئك الذين حافظوا على ذكرى روما خضعوا

بصورة طبيعية لسلطة الكنيسة "الرومانية"، وصار الآخرون بروتستانت. وتحتفظ الحدود الحالية بين الألمان الكاثوليك والألمان اللوثريين إجمالاً بمخطط الليمس الإمبراطوري.

وهذا يثبت عدم دقة الشعار الدارج: "عندما تُتجاوز الحدود." وقد كتب فيرناند برودال (Fernand Braudel)، على العكس، أن الحدود لا تختفي قط. والحدود تشبه الندب القديم: فهو لا يؤلم، ولكنه أحياناً ينفتح من جديد. والماضي يترك أثره ويفسر جيداً خصائص الحاضر.

وقد دشنت الامبريالية الرومانية فكرة مبتكرة ألا وهي: "الإدماج".

وقد كانت روما أمبريالية (وقد جاءت الكلمة منها)، لكنها لم تكن عنصرية. وقد مارست في وقت مبكر جداً الإدماج التام للشعوب المخضعة- أو على الأقل نخبها. وكان لجميع الأعيان الأهليين أن يأملوا في الحصول على المواطنة الرومانية (بولس الرسول، هذا الحاخام اليهودي، كان روماني المولد لجهة أبيه)، وحتى ممارسة الحكم: وسيكون هناك أباطرة غاليون، وإسبان وعرب.

كان الرومان قد أدركوا أن القوة بمفردها لا تضمن الدوام. وسيكرر ذلك تاليراند (Talleyrand): "نستطيع فعل أي شيء بالحراب، إلّا القعود عليها."

وقد أشرنا من قبل إلى أن شيئاً من الالتزام من المحكومين أمر ضروري للحكومة. وقد كانت روما تجلب إليها ثروات العالم، وتقتطع الضرائب وتسيطر، ولكنها بالمقابل كانت تضمن "السلم الروماني" أي : القانون، والأمن، والنظام، وشيئاً من الحرية المحلية (كانت "الحواضر" تحافظ على بلدياتها ونظمها الخاصة).

ومن الخطأ القول إن الولايات المتحدة هي روما اليوم. فهي ليست أمة إمبراطورية، كما كانت إيطاليا الرومانية (وكما كانت فرنسا وانجلترا أيضاً)، وإنما هي أمة "مهيمنة".

ولكي تكون هناك إمبراطورية، ينبغي أن يكون هناك تبادل "غير متكافئ"،

يأخذ فيه المسيطر الكثير من المسيطر عليهم، ويرد عليهم القليل. والحال أن الأمريكيين لا يشعرون أنهم مسؤولون عن هذه الطريقة. فهم مهيمنون في أمريكا اللاتينية منذ قرنين، لكنهم لا ينزعجون البتة إن قتلت حرب في كولومبيا مليون شخص في ثلاثين عاماً. كانت انجلترا أمّة إمبراطورية ولم يكن من الخطأ الحديث عن إمبراطورية بريطانية. ولا محالة أنها كانت تستغل الهنود، ولكن لم يكن ليخطر ببال أحد أن حرباً كانت ستوقع الآلاف والآلاف من القتلى، خلال أعوام، دون أن يتدخل جيش جلالتها الرقيقة.

وقد قلنا إن الرومان اخترعوا القانون. ففي أعمال الرسُل نستطيع أن نقرأ بهذا الخصوص قصة ذات مغزى:

كان بولس يعظ في إفسس (Ephèse)، وهي مدينة كبيرة في آسيا الصغرى فيها معبد للإلهة الأم المتوسطية (وهو طقس ما زال الناس يحيونه في مرسيليا تحت صبغة كاثوليكية تسمى "الأم الطيبة"). وكان تجار المعبد لا يستحسنون إعلان الإله الواحد الذي قد يهدد تجارتهم. واندلعت مظاهرة. واحتجز الحشد بولس، وعندئذ قالت الحكومة الرومانية للمتظاهرين (أعمال الرسل 19، 35):

"يا أهل إفسس، ما الذي تفعلونه هنا؟ إن كنتم تنقمون شيئاً من بولس، فهناك قوانين، ومحاكم، فارفعوا دعوى. وإلا فإن ما تفعلونه سوف يعتبر "تمرداً"، وصرف الحشد.

كانت روما كلها في الموضوع " ونحن نعلم أن بولس الذي كانت لديه مشكلات مع سلطات شعبه، قد استأنف لدى الإمبراطور. ولأنه مواطن روماني (وهو ما كان فخوراً به) فقد نُقل وبنفقات باهظة إلى العاصمة. وفي عام 212، منح منشور كركلا المواطنة الرومانية لجميع الرجال الأحرار.

كما اخترع الرومان أيضاً فكرة أولية السلطة المدنية على السلطة العسكرية. كانوا يهتفون: " ليفسح السلاح المجال للتوجة (والتوجة هي ثياب المدنية). وكان يوليوس قيصر نفسه عضو مجلس شيوخ. وكانت روما توكل قيادة جيوشها لمدنيين.

كانت روما تسيطر على العالم المتوسطي بواسطة اقتصاد وسائل كبير. ولم يكن لديها عموماً إلّا ثلاثون فيلقاً. وكان كل فيلق يقابل فيالقنا الحالية. وكان التجنيد يتم في سن العشرين ولمدة عشرين عاماً. لذا لم يكن جنود الفيلق شباباً صغاراً، بل بالأحرى جنوداً كباراً. وبعد خمسة وأربعين عاماً وعند تقاعدهم كانوا يحصلون على قطعة أرض ومبلغ من المال.

وكان لكل فيلق اسم (مثل غواصاتنا النووية). كان هناك "الصاعقة" و"الظافرة" و"الأوغيستا" (وقد ذكرنا رسالة ضابط من هذا الفيلق)، إلخ.

صحيح أن الجيش الروماني العلمي والمهذب كان أحسن جيش في العالم، وكان الفيلق يستطيع السير على الأقدام خمسين كيلومتراً يومياً (ويتحدث جوزي ماريا دو هيريدا عن "الوقع القوي لخطى الفيالق السيارة") وبناء تحصينات منيعة للعسكر.

وصحيح أيضاً أن الرومان كانوا بلا رحمة. وكانوا يريدون فعلاً إشراك الأهالي في حكومتهم، لكنهم كانوا يقمعون المتمردين بطريقة رهيبة. وفي عام 70 لعصرنا، سحق تيتوس الإمبراطور المستقبلي ثورة اليهود ودمر أورشليم. وكذكرى لهذا الانجاز فقد أمر ببناء قوس نصر في روما لا يزال موجوداً إلى اليوم، وعلى نقوشه يمكن أن نرى الشمعدان ذي السبعة أجزاء وقد جُلب غنيمة.

وفي ما بعد سوف يشتت الإمبراطور هادريان الإسرائيليين.

عندئذ غيرت اليهودية طبيعتها. فقد كانت ديانة تتمحور على الهيكل والكاهنة فصارت ديانة دون أضحية، موحدة في الشتات حول أسيادها الروحيين، الحاخامات. إلا أن أورشليم ظلت هاجساً: "العام القادم في أورشليم". وحين نشاهد على التلفزيون اليوم أحداث فلسطين، فإن ما نراه هو أطلال الهيكل الذي دمره تيتوس.

وقد كنا تحدثنا في البدء عن أهمية التاريخ: وكيف لنا أن نفهم صراعات فلسطين دون أن نعرف أن اليهود قد اقتُلعوا منها و"مُنعوا" من الإقامة فيها من تيتوس ثم من هادريان؟

وتقع ذروة الإمبراطورية في القرن الثاني لعصرنا، مع الأباطرة الكبار تراجان (117-137)، هادريان (131-161)، أنطونان (161-181) ومارك أوريل (161-180) وهم أربعة أباطرة في قرن. ولم يكونوا شباناً إذ كان الوصول إلى منصب الإمبراطور يتم في حوالى الخامسة والأربعين من العمر، ولمدة عشرين عاماً.

و كان موت الإمبراطور يطرح دائماً مشكلة : فلأننا لسنا في مملكة فلم يكن للإمبراطور خلف بالوراثة، ولتعيين الإمبراطور الجديد، يتدخل توازن هش بين مجلس الشيوخ والجيش (الحاكميون) و"البروليتاريون" (أدنى فئة من الرجال الأحرار).

وكانت هذه الذروة الرومانية ذروة تاريخية أيضاً، وقد توافقت مع ذروة الصين والهند.

وكانت روما تشيع السلم في هذا الفضاء الهائل بواسطة 200.000 رجل فقط و30 فيلقاً. وكان هناك فيلق واحد في شمال أفريقيا. وهذه أجمل علاقة بين النوعية والسعر في التاريخ: أقل قدر من القوة بأكبر قدر من التأثير.

وكانت هذه الذروة أيضاً فترة تعمير كثيف. فقد صارت المدينة بالنسبة للرومان (كما بالنسبة لمؤدبيهم الإغريق)، مكان" الحضارة "(وتأتي الكلمة الأجنبية من سيفيس (Civis)، وتعني "مدينة"). وهذه وضعية متناقضة بالنسبة لمزارعين سابقين! كما أن الإمبراطورية ضعَّفت الزراعة فيها.

كانت العاصمة تجمعاً سكنياً كبيراً، ولا تزال في روما الحالية أطلال رائعة وصروح من تلك الحقبة: الكوليزي، الفوروم، البانتيون، أقواس النصر، وقناطر الماء.

إذ إن الرومان كانوا يعشقون السباحة: وكانت الحمامات الكبيرة الفاخرة المفتوحة لجميع المواطنين بمثابة مكان اجتماعي بامتياز. وكان الناس يقضون فيها، كل يوم ساعة أو ساعتين على الأقل. وكان يجب تزويدها بالمياه بكميات

كبيرة ومن أماكن بعيدة جداً. ولذلك تعتبر قناطر الماء رمز الحضارة اللاتينية (جسر الغارد (Gard).

وفي كل مكان حول المتوسط، شيدت روما مدناً، وفق المخطط نفسه (محور شمال-جنوب، الكاردو وآخر شرق-غرب، الديكومانوس)، بميادين مصارعة ومعابد وميادين ومسارح وحمامات.

ولم تكن باريس التي كانت تسمى آنذاك لوتاس سوى مدينة صغيرة. بيد أن لوتاس كانت تملك حمامات وميادين مصارعة لا تزال ماثلة حتى اليوم.

وما زال بإمكاننا حتى اليوم أن نمتع أنظارنا، حول البحر الداخلي للإمبراطورية (ماريه نوستروم Mare nostrum)، كما كان يقول الرومان: "بحرنا")، بمعمار رائع وضخم على الطراز الإغريقي، ولكن بطريقة أكثر بُهرجاً: البتراء في الأردن، تدمر في سوريا، جميلة وشرشال في الجزائر، لابتيس ماغنا وسابراتا في ليبيا، سيغوفي في إسبانيا، آرل ونيم في فرنسا، سبليت في كرواتيا، إيفاس في آسيا الصغرى، وسنقتصر هنا على ذكر أشهرها. وكانت هناك في كل مكان طرق كبيرة يتنقل عبرها التجار والجنود. وكانت الطرق الرومانية، وهي "جدران مبنية على الأرض المنبسطة" تلتقي قرب العاصمة.

وقد استمرت الإمبراطورية لأنها، مثلما أخذت الكثير، جلبت الكثير.

وكانت الإدارة فيها فاعلة رغم المسافات. فحين كان يحدث شيء في العراق الحالي، كان الإمبراطور يعلم به، بعد ثلاثة أسابيع. وبعد الحدث بشهرين، كانت الأوامر تصل الليمس (limes). واليوم، حيث لم تعد اتصالاتنا تسير بسرعة الماشي (50 كيلومتراً في اليوم على أقصى تقدير)، ولا بسرعة الحصان (100 كيلومتر) وإنما بسرعة الضوء، فنادراً ما ينفذ قرار في الميدان قبل مرور أشهر...

وقد احتفظ الأعيان الرومان طويلاً بفكرة أن عليهم واجبات. وكدليل على ذلك، لدينا الملاحظات الشخصية لمارك أورال. ولم تكن هذه الملاحظات

موجهة للنشر إذ كان الإمبراطور يكتب بـ(اليونانية) "لنفسه". ما الذي كان يفكر به "أقوى رجل في العالم" (وهو لقب يحب الأمريكيون إطلاقه على رئيسهم، لكنه يعبر بشكل أدق عما يمكن أن يكون عليه مارك أورال)؟ ونقرأ في تلك الملاحظات التي وجدت مصادفة:

"حافظ على بساطتك، وطيبتك، ونزاهتك، وجديتك، وحبك للعدالة وللخير، ورفقك، وودّك ولكن كن حازماً في أداء واجباتك.

"نزّه الآلهة وأعن الناس. كن في كل شؤون حياتك تلميذاً لأنطونان [الإمبراطور السابق]. جار قوّته في التصرف وفقاً للعقل، وسويته الثابتة، وصفاء وجهه، ورقته، وازدرائه المجد الزائل، ونشاطه في العمل. ولم يكن يترك مسألة قط حتى يحلها ويتخذ قراراً بشأنها. وكان يصبر على المؤاخذات الظالمة. ولم يكن يستعجل في شيء. وكان يصد النميمة، ويدرس باهتمام الطباع والأفعال. ولم يكن يسب أحداً. ولم يكن لا خجولاً ولا شكاكاً. وكان يقنع بالقليل لنفسه. وكان ذا مروءة."

هل رسمت الكلمات صورة لحاكم أجمل من هذه؟ خصوصاً حين نعلم أن مارك أورال لم يكن يكتب هذه الكلمات للدعاية أو لتجميل صورته، كما فعل قيصر في "حرب الغال"، بل كتبها لنفسه...

لقد تركت روما إرثاً عظيماً: القانون الروماني والحكم الراشد وكرامة خاصة يحتفي بها مفكروها، الرواقية (كان مارك أورال رواقياً).

ونحن نسمي أيام الأسبوع بأسماء لاتينية: الاثنين، يوم القمر (منداي بالانجليزية)؛ الثلاثاء، يوم المريخ؛ الأربعاء، يوم عطارد؛ الخميس، يوم المشتري؛ الجمعة، يوم فينوس؛ السبت، يوم زحل (ساتورداي)؛ الأحد، يوم الشمس (صنداي).

وتعود روزنامتنا في أساسها إلى الإمبراطورية: عشرة أشهر، وكان سبتمبر سابعها وأكتوبر ثامنها، وقد أضاف إليها الرومان شهرين للوصول إلى اثني عشر: يوليو، شهر يوليوس قيصر، وأغسطس، شهر الإمبراطور أوغيست (ولا يزال هذا أبرز في الانجليزية: أوغيست).

ولم يسُد السلم والنظام، لا من قبل ولا من بعد في المتوسط، كما سادا خلال كل هذه القرون. كما أن هذه الفترة هي الوحيدة في التاريخ التي توحد فيها المتوسط. ولم يعد كذلك. فالمرء اليوم يغير العالم إذا غيَّر الضفة. وكانت هناك الحضارة ذاتها في تلك الفترة، من أنطاكيا إلى نابولي أو نيم، تحدها من الجنوب الصحراء، ومن الشمال الرين، والدانوب والغابات الجرمانية، التي ربطها الإيرانيون بالهند والصين. وقد انتصرت الهلينية على الزمن بفضل الرومان. بيد أن هذه العظمة الرائعة كانت لها أيضاً سيئاتها وضلالها وسفحها.

و كانت هذه الحضارة شديدة القسوة لا تعرف الرحمة. وحتى في اللحظة التي كان فيها الإمبراطور مارك أورال يكتب الأسطر الرائعة المذكورة أعلاه، فقد كان يذهب (مرغماً، في ما يخصه، أكثر منه حباً في ذلك) إلى ألعاب المسرح حيث كان مئات الرجال يتذابحون لدغدغة سادية المتفرجين: (Morituri te salutant)، "الذين سيموتون يحيُّونكم"... وللتعبير عن ثورة سبارتاكوس، كانت روما قد نصبت صلباناً من نابولي إلى ضواحيها، على الطريق الآبي-آلاف الصلبان عُرض عليها رجال منكَّل بهم.

وكان الصليب هو الطريقة التي يُقتل بها العبيد: وكانت روما تتعامل بالسيف مع أعدائها وبالسم مع أشرافها.

وهناك أمر غير مفهوم في هذه السادية- المازوشية ذات الإخراج الضخم، التي نقلها بشكل جيد فيلم ريدلي سكوت، "غلادياتور" (Gladiator)، غير المفهوم لدينا على الأقل نحن المتأثرون باليهودية-المسيحية. وحتى النازيين كانوا يخفون المعسكرات التي كانوا يمارسون فيها الإبادة والإذلال، وكأن الرذيلة تحتفي بالفضيلة. أما الرومان، فكانوا يتخذونها معسكرات هزء.

ولم تكن الفيلسوف سيمون فايل (Simone Veil)، "فرنسية حرة"، في لندن، تتردد في مقارنة الرومان بالنازيين. ولا تخلو هذه المقارنة، وهي مفرطة، من جزء من الحقيقة.

ثم إننا يجب أن لا ننسى الرق. والواقع أن عبيد البيوت كانوا يحظون

بمعاملة طيبة، وغالباً ما يُعتقون وعندها يستطيعون الوصول إلى أرقى المناصب. ولكن روما عرفت رقاً جماعياً، لم تكن تعرفه اليونان القديمة، وكان فيها الآلاف من الأموات الأحياء في عزبها ومناجمها- غولاغها هي.

بيد أنه، رغم هذه الفظائع، لم تترك الامبريالية الرومانية ذكرى سيئة جداً.

اليهودية-المسيحية

لقد سبق وأشرنا إلى أن اليهود فرضوا باستمرار فكرة الإله الواحد، وفكرة الشخص، وفكرة التقدم. وفرضوا المرأة أيضاً، لأن إلههم عاشق، وعلى وجه الخصوص، لأن صورة الإله لديهم كانت مذكرة ومؤنثة في آن معاً: "على صورة الإله خلقهم، رجلاً وامرأة خلقهم."

وظهر تصور جديد لعلاقات الإنسان مع الطبيعة. وقد وجد الإنسان ليسيطر على الطبيعة؛ ويتأمل فيها مباهج الخلق، لكنه يتميز عنها، مفلتاً بذلك من شرك السحر. ونحن نفهم هنا أن نوعاً معيناً من علم البيئة يرفض هذا التمييز بين الإنسان والطبيعة تهدد إرثنا اليهودي المسيحي. وينتمي الإنسان، بالنسبة لجميع المجتمعات التقليدية، إلى الطبيعة في السراء والضراء (الـ"ين "والـ"يانغ" الصينيين). أما بالنسبة للعبرية فهو يتميز عنها.

ونتجت عن هذا أيضاً "الوصايا العشر"- فكرة شريعة، لا قانونية كشريعة الرومان، إنما أخلاقية ولاسيما كونية وصدرت عنها: "حقوق الإنسان". وربما كانت عصيّة على الإدراك في ديانة أخرى غير اليهودية.

ونفهم هنا كم تغير الديانات رؤيتنا للعالم.

ولهذا السبب، يريد البعض تعليم الديانات في المدرسة العلمانية. وهذه النية حسنة؛ ولكن هؤلاء المفكرين لا يدركون إلى أي حد قد نُسي التاريخ العام نفسه. وإذا كنا عاجزين عن أن نحدد الديانات كرونولوجيا، فأنّى لنا أن نفهمها؟ وينبغي، في الحقيقة، أن ندرس الديانات من خلال رواية التاريخ العام-وهذا ما نحاول فعله.

كان اليهود المقيمون في فلسطين حول القدس والهيكل منذ عودتهم من بابل، قد اعتادوا منذ زمن بعيد عادة النزوح. ومع أنهم لم يكونوا ملاحين، فقد كانوا مهاجرين كباراً وكان "الشتات" موجوداً من قبل. وكان هناك في كل المدن الرومانية معابد يهودية وجماعات إسرائيلية. وكان ذلك موجوداً أيضاً على الهضبة الإيرانية، وحتى الصين وأفريقيا الشرقية-ومن ثم خرجت أول مملكة سوداء من ما قبل التاريخ، على جبال تيغري، في إثيوبيا.

ولكن كان لليهودية تناقضاتها.

وبقي يهوه بعد ذلك بقليل إلهاً قومياً: واختار الإله شعباً واحداً. وتعتبر الوصايا العشر خُلقاً كونياً، لكن القانون لم يُصنع سوى لليهود. وفوق كل شيء، كان هناك في إسرائيل خلط بين الطقوس -طقوس تطهر-طقوس غذاء (كاشروت) وبين جوهر الأشياء.

و كان يسوع الناصري أحد الحاخامات الذين حاولوا محاربة الطقوسية. وقد ولد في زمن الملك هيرودوس (مليك خاضع للرومان) في العام 6 أو 7، وكان يعظ في عشرينيات عصرنا في فلسطين. وكان يحب بحيرة طبرية، وهي مساحة زرقاء تحفها جبال صهباء، وكان حواريوه ينحدرون من طبقات بسيطة: حرفيون، صيادون (جابياً أيضاً). وكان يتحدث ثلاث لغات: العبرية، اللغة الطقسية للمعبد؛ الآرامية، اللغة الشعبية التي كان يعظ بها؛ واليونانية، اللغة الإمبراطورية.

ومع أنه كان تقياً "عابداً"، فإنه لم يكن يريد أن يظل حبيس الطقوسية. "أيكم إذا سقط حماره في بئر يوم السبت، لا يذهب لانتشاله؟" وقالت له امرأة غير يهودية: "تزعم أنه يجب دعاء الرب في القدس، لكننا ندعوه على جبل غاريزيم"، فأجابها : "الإله روح، نستطيع دعاءه في أي مكان" -وهو ما لم يكن يروق لكهنة الهيكل قط.

وكانت المحرمات الغذائية للكاشروت تبدو له خرقاء :"ما يدنس الإنسان، ليس ما يأكله. ما يأكله ينزل إلى جوفه، ثم يذهب إلى الخلاء. ما يدنس

الإنسان، هو الضغينة التي تصدر عن قلبه." وكان يعظ بأننا نستطيع أن نأكل كل شيء، وخاصة الخنزير(متى 16، 15).

لذا فقد كان يحمل عن المُثقل. وعلى غرار أنبياء آخرين من قبله، كان يؤمن بأن "الدين الحق هو دين القلب". وكان يعيب على الكهنة أنهم يربطون على كواهل الناس أثقالاً ينأون بها، دون أن يحركوا قيد أنملة" (متى23، 4).

كان يرفض رجم النساء الزانيات بالحجر، صائحاً في وجه جميع المنافقين: "المومسات سيسبقنكم إلى جنة السموات". فقد كانت الخطيئة الوحيدة في نظره هي الاحتقار.

وكانت هذه التجاوزات تزعج كهنة هيكل أورشليم، الذين قتلوه عن طريق الرومان (الصليب). ولأن إسرائيل لم تكن مستقلة، فلم تكن تملك في الواقع حق الحياة أو الموت. ولكن هذا المصير شبيه بمصير الفيلسوف سقراط، الذي أُعدم هو الآخر على أيدي قادة شعبه- ولا أحد يفكر في تحميل الإغريق مسؤولية موت سقراط. وهكذا فقد صُلب يسوع في السابع من أبريل /نيسان سنة 30.

ويسوع هو خلاصة اليهودية ومنتهاها كما أن سقراط خلاصة ومنتهى الهلينية. ولا أحد منهما غادر بلده قط؛ وقد بلغا الكونية من خلال التعمق.

وربما ليس هناك في التاريخ رجل دين أكثر جاذبية من المسيح. فبوذا ليس سوى راهب، وسقراط فيلسوف ومارك أورال قائد جيد وكونفوشيوس حكيم امتثالي. وحده يسوع الناصري استطاع أن يقول:

"طوبى لمن كانت لهم روح فقير...طوبى لمن يحسون بالجوع والعطش للعدالة، لأنهم سيشبعون...طوبى لأولئك الذين يصفحون، فسوف يُصفح عنهم...طوبى للطاهرين، لأنهم يملكون الأرض" (متى 5، 3).

وفي تاريخ البشرية الذي يكون أحياناً مظلماً ومأساوياً، تكون "العظات" شعاع نور. وبعد موت يسوع آمن اليهود به وأكدوا أنه قد بُعث من جديد. ولكن يسوع يظل نبياً يهودياً. فالأرض التي كان يتحدث عنها كانت أرض

إسرائيل، ؛و لم تكن تعاليمه تخرج عن اليهودية. وقد قُتل أنبياء آخرون. وكان حاخامات آخرون قد قالوا أقوال يسوع نفسها تقريباً في ذات الفترة (غمليال). وكان حواريو يسوع الذين يطلق عليهم "المسيحيين" في مدينة أنطاكية بسبب المسيح (المسيح تعني المبارك) كلهم يهوداً.

وكانوا يعظون في فلسطين ثم، بطبيعة الحال، وسط جماعات الشتات اليهودية.

وكان لهم في الإمبراطورية قبول واسع بين الناس.

ويجدر بنا أن نعرف أن عدداً معيناً من الإغريق اللاتينيين الذين تعبوا من الديانات القديمة قد استهواهم اعتناق اليهودية. وهم يسمون في التوراة "التقاة". وكانت اليهودية تقبل (ولا تزال) المُعتنقين المنحدرين من شعوب أخرى غير الشعب العبري.

بيد أن معظم "التقاة " كانوا يتوقفون على هذا الطريق بسبب إجبارية الإختتان. وكان الختان الذي يتمثل لدى الذكور قطع قلفة الحشفة يعتبر عند الحاخامات إجبارياً مطلقاً. ولكنه كان يبدو غير مقبول لدى الإغريق والرومان، فحضارتهم التي كانت تمجد الأجساد الجميلة لم تكن تستطيع فهم ذلك. لذا فقليل هم أولئك "التقاة " الذين كانوا يصبحون يهوداً.

وحول هذا الأمر انفصل حواريو يسوع اليهود عن بقية اليهود.

ومع أن مُحدث هذا الاختلاف كان حاخاماً (وفي الوقت ذاته مواطناً رومانياً)، ألا وهو بولس أو شاول الشهير، الذي سبق وتحدثنا عنه، فقد خطر له أن يطلب من الحواريين أن يتخلوا عن فرض الختان على الوثنيين الراغبين في اعتناق اليهودية. ألم يكتب النبي عيسى، قبل قرون، "أن الختان الحق في القلب"؟ وقد قبل الأحبار اقتراحه، أثناء ما يسمى مجمع القدس.

وابتداء من هذه اللحظة، حوالى عام 50، بدأت المسيحية في الانفصال عن اليهودية. ولكن في عام 67، حين أراد نيرون أن يجد كبش فداء لتحميلهم مسؤولية إحراق روما، لم يفرق الإمبراطور الشاعر يقيناً بين المسيحيين وغيرهم

من اليهود. ومع ذلك فقد صُلب في هذه المناسبة بولس وبطرس، رئيس الحواريين:

وكان بولس قد كتب في رسالته إلى الكورنثيين:

"الحب صبور، الحب خدوم، ولكنه ليس حسوداً، ولا يتبجح، ولا يتكبر، ولا يبحث عن مصلحته، ولا يُثار، ولا يحسب حساب الألم، ولا يستمتع بالظلم، وإنما يستمتع بالحقيقة. الحب يتحمل كل شيء، ويصدّق كل شيء، ويتمنى كل شيء."

صحيح أنها صفحة رائعة، وصدى لتعاليم يسوع؛ ولكن، وكما قلنا، فإن نشيد الحب كان من قبل شائعاً عند الأنبياء وفي التوراة (نشيد الأناشيد)، بيد أن المسيحيين من أصول وثنية، صاروا تدريجياً أكثر عدداً في مجتمعات الحواريين منهم بين أولئك المنحدرين من أصول يهودية.

و كان المفكرون المسيحيون بالأخص، كلهم يونانيين بمن فيهم الشهير أوغسطينوس (Augustin)، أسقف هيبون في أفريقيا الرومانية، الذي كتب "الاعترافات" التي نستطيع أن نقرأ فيها تلك الجملة الرائعة اللاتينية التي تصبح أجمل في ترجمتها الفرنسية التي معناها "لم أكن أحببت من قبل، لكني كنت أحب أن أحب."

وهكذا تمكّن الرومان من التمييز بين المسيحيين والإسرائيليين؛ وكانت المسيحية، التي كانت يهودية تماماً طيلة سنوات، قد خرجت من اليهودية.

وغيّر كثير من الإغريقيين اللاتينيين دينهم، وأصبحت الطوائف المسيحية أكثر عدداً من الطوائف اليهودية في الشتات. وقد تميزت عنها، ثم بعد قليل واجهتها. وزادت هذه الحركة حدة بتدمير القدس على يد تيتوس، عام 70. وكانت القدس، مركز اليهودية، مركزاً لليهودية المسيحية أيضاً. وبعد تدمير القدس، صار مركز المسيحية بالطبع عاصمة الإمبراطورية، التي قتل فيها بطرس وبولس. وعندئذ صار أسقف روما رئيساً للكنيسة، التي ستصبح في ما بعد مختلفة عن المعبد وأكثر "تبشيراً" أو تهوداً.

ومنذ القرن الثاني، شرعت الحكومة الإمبراطورية في اضطهاد المسيحيين. بيد أنها لم تكن إبادة منظمة. ففي البداية، كان الأباطرة حذرين جداً. ونحن نعرف في هذا الصدد رسالة من الحاكم الروماني لآسيا الصغرى، بلين الصغير (Pline)، الذي نصح رئيسه (وصديقه) الإمبراطور تراجان (Trajan) بالاعتدال. ثم أصبحت الملاحقات أكثر دموية. لكنها ظلت أنواعاً من "المذابح" أكثر منها ملاحقات من النوع النازي. (ونحن نطلق اسم "مذابح" على عمليات قتل اليهود التي اقترفتها روسيا القياصرة، بمساعدة الشرطة).

وكان مارك أوريل أيضاً الذي ذكرنا بعض أفكاره الرائعة، ممن اضطهدوا المسيحيين. وقد أصدر الإمبراطور ديس، عام 250، شهادات كفر. وكان الكفار كثراً.

لنطرح السؤال التالي: ترى لم اضطهدت روما المسيحية؟ ويجدر بنا أن نذكّر بأن الرومان (على غرار الإسكندر الأكبر) كانوا يحبون أن يكونوا متسامحين مع الأديان. وإن كانوا قد دمروا أورشليم في عهد تيتوس، وطردوا اليهود من فلسطين في عهد هادريان، فإن ذلك لم يكن لأسباب دينية، وإنما لأسباب سياسية خالصة: إذ كانت إسرائيل قد ثارت ضد روما وأرادت أن تستقل. وقد عولجت هذه المشكلة بالنفي، ولم تتعرض الطوائف اليهودية في الشتات للإزعاج. كما أن أجمل صرح في روما، والذي مازال على حاله، هو معبد لـ"جميع الآلهة" : وهو البانتيون.

إذن فروما لم تضطهد المسيحية بسبب لاهوتها. بل كان ذلك بسبب أفكارها المدمرة.

أولاً، العلمانية. فبعد أن فصل يسوع الدين عن السياسة (الإله عن قيصر)، كان المسيحيون، يريدون أن يكونوا، على غرار الرسول بولس، مواطنين صالحين، وكانوا في الوقت نسه، يرفضون أن يعبدوا الإمبراطور. والحال أن عبادة "القيصر الإلهي " هاته كانت الأساس الإيديولوجي للإمبراطورية. وحول هذه النقطة كان تراجان وبلين يتشاوران.

ثم لنأت إلى مكانة المرأة. فقد كان يسوع كما قلنا أكثر الرجال مناصرة للمرأة. وقد اخترع -وقد أوصى بذلك سابقوه من الرسل حقيقة-المساواة بين الرجال والنساء. وحتى وإن عادت الكنائس المسيحية من جديد معادية للمرأة، فما يزال شيء من ذلك. ويكفي السفر إلى بلدان لم تتأثر بالمسيحية كي نلاحظ ذلك. ففي كل مكان، ترزح المرأة تحت السيطرة والاحتقار. ففي الهند، كانت الأرامل تُحرق. وفي الصين، مازال القرويون يقتلون المواليد الجدد إذا كانوا إناثاً. وجميع الديانات التقليدية تحبس النساء. كان ذلك حال الإغريق مع حريمهم، وحال اللاتينيين كذلك. وحتى وإن كانت بنات الأعيان متعلمات ومتفتحات الأذهان، فحين كان المسيحيون يجتمعون رجالاً ونساء لسر القربان المقدس، كان الرومان يرون في ذلك خلاعة!

وأخيرا، مسألة العبودية. وكانت هذه أخطر، إذ إن المجتمع الروماني برمته كان يقوم على العبودية. ومع ذلك، فقد بدا المسؤولون المسيحيون حذرين جداً بشأن هذا الموضوع. وقبلاً، كانوا يمارسون الذمامة: يفترض مبدئياً أن جميع الناس سواسية، ولكن في التطبيق، ينبغي على العبيد أن يظلوا في خدمة أسيادهم (وهذا ما نجده في رسائل بولس الرسول الشعرية). لكن حتى المبدأ القائل بمساواة كونية نفسه لم يكن وارداً لدى الرومان. وكان القول بأن العبيد بشر كأسيادهم يزعزع أسس النظام الاجتماعي. و"الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الذي حرره بعد مدة طويلة بكثير غير المؤمنين الملحدين، باسم الثورة، ولم يكن ليوجد، خارج سياق مسيحي. ولم يكن ممكناً بالنسبة لبرهمي نظام الطبقات، وحتى اليوم، أن يتساوى البشر، وهكذا كان الرومان يفكرون.

بيد أننا نعلم منذ ترتوليان أن "دم الشهداء بذرة مسيحيين". وكي ينجح اضطهاد يجب أن تكون مذبحة وإلّا فستصل إلى نتيجة معاكسة لتلك التي يرجوها المضطهد.

وحوالى العام 300، كان عدد المسيحيين قد صار كبيراً جداً، بما في ذلك لدى ضباط الفيالق (أنظر قصة سانت مارتين الذي يتشارك معطفه) إلى درجة أن

الإمبراطور قسطنطين، من خلال منشور ميلان (313) اعتقد أنه من الفطنة سن قانون تسامح والتظاهر بأنه هو نفسه اعتنق الدين الجديد. وفي عام 320، أسس قسطنطين على ضفاف البوسفور المدينة التي ستحمل اسمه حتى القرن العشرين، ألا وهي القسطنطينية، ونقل إليها عاصمته.

وكان أول إمبراطور مسيحي حقاً هو تيودوس (379-395). فخلال سفرية إلى ميلان، حرمه أمبرواز أسقف المدينة، لأنه أمر باقتراف مجزرة في حق 7000 من سكان تيسالونيك المتمردة (390). فاستسلم وأعلن توبته. وللمرة الأولى، خضعت الدولة الرومانية أمام المسيحية، وقسوة الدولة أمام قانون البشر.

واتى تيودوس فعلة أخرى ذات عواقب وخيمة: ففي عام395، قسم الإمبراطورية بين الشرق والغرب، لدواعي اللامركزية، ولم يتم إصلاح هذا التقسيم أبداً. واليوم أيضاً، يستمر خط الشرخ تحديداً في سراييفو، في البوسنة.

فالناس غرباً، لاتينيون ويستعملون الأبجدية اللاتينية؛ وشرقاً، هم شرقيون ويستعملون الأبجدية السيريلية (Cyrillique). وعلى هذه الحدود، حيث لا تزال هناك منطقة هشة، ستكون هناك دائماً مآس. (وحرب البوسنة هي المأساة الأخيرة، لكن مأساة 14-18 اندلعت بالضبط في سراييفو.)

وهكذا انتهت الإمبراطورية بأن صارت مسيحية.

وبهذا، ربما كانت قد فقدت روحها. إذ إن المسيحية أضعفت روما لا محالة.

بيد أن الإمبراطورية كانت مكاناً لطفرات رائعة.

كانت العقلية الإغريقية حبيسة المدينة، وكانت العقلية اليهودية تدور حول الهيكل. وقد نشرت روما كليهما في العالم. وكانت الإمبراطورية أداة تركيب بين الحضارة الإغريقية والعبقرية السامية، بين الأثيني سقراط والناصري يسوع.

ثم إن الأفكار الرومانية كانت مستهلكة بالية. أما المسيحية التي تنضح

شباباً وإبداعاً، فكانت ستتكفل بإرث العالم القديم. إلى ذلك، فقد بدأ تدريجياً حساب السنوات انطلاقاً من يسوع المسيح، بينما كان الرومان يعدونها انطلاقاً من تأسيس روما. صحيح أن تقويمات أخرى استمرت في الوجود (في الصين واليابان وعند اليهود) وأخرى اخترعت في ما بعد (التقويم الإسلامي)، ولكن التقويم المسيحي هو اليوم التقويم العالمي.

الأزمنة البربرية أو الانفجار الداخلي

منذ بدء الأزمنة التاريخية، كان تقدم الإنسانية متواصلاً، ولم يكن الكائن البشري قد تغير، ولكن مع سقراط، ويسوع والعلوم الصينية والإغريقية، " تقدم "العالم؛ولا يتضمن هذا المفهوم أي حكم قيمي. وشيئاً فشيئاً ظهرت الأبجدية، ثم الهندسة، والفلسفة، والقانون الروماني، وأخيرا الرقة الإنجيلية.

وفي عام 410 من عصرنا، حدث حدثٌ مذهل.

ففي تلك السنة، احتل البرابرة روما.

ودشن سقوط روما فترة مريعة من التاريخ ستدوم ستة قرون.

ويجب أن نفهم أن ما نسميه القرون الوسطى لم يبدأ إلّا عام 1000. ويعطي المختصون تاريخاً مرجعياً له تاريخ تتويج ملك فرنسا، هوغوس كابيت، عام 987. وكثيراً ما نقول، للحديث عن التخلف، إننا نعود إلى "القرون الوسطى". وهذا سخيف! فالعصور الوسطى هي الكاتدرائيات والقوة والمجد. أحرى بنا أن نشير إلى الأزمنة المروفنجية (méroviagiens)، حيث كان الكسالى الثلاثة يحكمون قبائل متناثرة.

وبالفعل فلو نظرنا، بين أعوام 410 و987، إلى باريس فلن نجد شيئاً ذا بال. لا شيء بين حمامات كلوني والأديرة الأولى. وطيلة ستة قرون لم يبن فيها أي صرح أو مدرسة أو مكان عبادة.

ويخيل إلينا أن الحضارة اختفت حتى القرن العاشر: وهذا قول يكاد يكون لا مبالغة فيه. إذ كانت الإمبراطورية قد انهارت تماماً.

لكن لم يكن ذلك في كل مكان. فقد استمرت الإمبراطورية في البلقان وفي الأناضول، حول القسطنطينية. ونحن نطلق على هذا الاستمرار الشرقي للإمبراطورية اسم الإمبراطورية "البيزنطية"، لتمييزها عن العصور القديمة الحقيقية. لكن البيزنطيين، الذين كانوا واعين بالاستمرارية التاريخية، كانوا يسمون أنفسهم "الرومان". وكان اسم "روماني" يطلق أيضاً على بعض أباطرتهم. وستكبر هذه الإمبراطورية: يكفي أن نذكر جوستينيان (527-565)، جامع القوانين (قانون جوستينيان) ومشيّد القبة الرائعة لكنيسة القديسة صوفيا (كان مهندسها المعماري أنتيموس دو ترال)؛ رومان ليكابين (920-944)، أو بازيل الثاني الرهيب ("قاتل البلغار") (985-1025).

وستستمر الإمبراطورية البيزنطية حتى الغزوات التركية للقرن 15. لكن، في ما عدا العالم الإيجي، الذي حماه، فقد عصفت موجة بربريّة بكل شيء. وحتى الصين اكتسحها البدو: "الممالك الست عشرة للبرابرة الخمسة".

ويشير تعبير "الغزوات البربرية" إلى هجمة محاربين بأعداد لا تحصى، "الخنجر بين الأسنان". كان الرومان والصينيون يسمون بـ"البرابرة" أولئك الذين يعيشون وراء الليمس أو السور العظيم. وفي الحقيقة، لم يكن عددهم كبيراً: قبائل صيادين وخاصة مربي مواشٍ يتنقلون من البلطيق إلى منغوليا في السهب الأوراسي الكبير.

وأحدث الهونز (Huns)، وهم من الجنس الأصفر، في غمرة الاندفاع نحو الغرب بحدتهم حركات متسلسلة. وقد احتفظ العالم أجمع باسم أشهر قادتهم: أتيلا (Attila) (395-453). ويفسر الهونز الأسماء والملامح الآسيوية لبعض الأوروبيين: المجريين والبلغار وبعض الروس (كانت عينا لينين أيضاً ضيقتين). أما "الغجر" فهم شيء مختلف: فليسوا محاربين، ولكنهم مقاطيع جاؤوا من الهند وكانوا يعيشون دائماً في انسجام مع المجتمعات الزراعية.

وعرفت روما طيلة قرون كيف تحتوي كل تلك القبائل، وكان البرابرة أيضاً مفتونين بهًا. ولأنهم لم يكونوا يستطيعون غزوها فقد كانوا يهاجرون إليها. وقد

تجندوا في القرن الرابع في الجيش الروماني وصاروا مدافعين ممتازين عن الإمبراطورية.

فلم إذن حدثت كارثة 410؟ وهي حدث خارق ترك في نفس القديس أوغسطينوس انطباعاً عظيماً. ولم تكن روما في الحقيقة قد تعرضت للغزو منذ الانفجار القديم جداً لبلاد الغال، قبل ثمانية قرون.

ويجب أن نفهم أن التفوق العسكري لـ"المتحضرين " في تلك الفترة كان يعتمد على تنظيمهم (على "حداثتهم"). وكان الفيلق الروماني يستعمل الأسلحة نفسها التي يستعملها البرابرة الجرمان، لكن قيادته ونظامه كانا يضمنان له النجاح دائماً. وكان البرابرة على المستوى الفردي، أفضل حالاً. وقد استمر هذا التفوق الفردي للرحل على المقيمين إلى غاية استعمال هؤلاء البارود والمدافع، في القرن الخامس عشر.

ويكفي أن يفقد مجتمع مقيم تنظيمه، فيصبح تحت رحمة الغزاة. وبما أن روما كانت منظمة، بفيالقها الثلاثين، فقد صدت بسهولة البرابرة إلى الغياهب الخارجية. وكانت أعتى قوة في العالم. ولم يكن لها أعداء أنداد (إذا ما استثنينا الفرس -البارت، عدوها الوراثي). وانهارت الإمبراطورية لأنها دمرت نفسها.

والحقيقة أن روما بدأت تنهار منذ القرن الثالث. ونحن نعلم أن هذا المصطلح مجال انتقادات كثيرة، ولكننا لا نرى عنه بديلاً. وكان الانهيار في البدء حضارياً. فالطبقة الرومانية الحاكمة، ومهما بلغت درجة غناها وفسادها، فقد حافظت طويلاً على حس الملكية العامة، كما لاحظناه عند قراءة ملاحظات الإمبراطور مارك أوريل. وبداية من القرن الرابع، فقدت هذا الحس. والحقيقة أنه، ما من طبقة حاكمة تستطيع مقاومة الأنانية الفردانية. ويجب على الحكام على الأقل أن يعطوا الانطباع بأنهم يهتمون بالخير العام، بل أكثر من ذلك، عليهم أن يهتموا حقاً إن كانوا يريدون أن يبرروا المزايا التي يتمتعون بها. وقد كتب شاتوبريان، في "مذكرات من وراء القبر" بشكل قطعي:

وتعرف الطبقة الحاكمة ثلاثة عصور متوالية: عصر التفوق، عصر المزايا، عصر الزهو، وعند خروجها من العصر الأول، تتردى في الثاني وتنتهي بالأفول في الثالث. "

وحين تنهار طبقة حاكمة، فقد يؤدي ذلك إلى انهيار المجتمع إذا كان الحكام البدلاء غير مستعدين أن يحلّوا محلها. فحين انهارت طبقة النبلاء خلال الثورة الفرنسية، كانت البرجوازية مستعدة لتولي مقاليد الدولة (وراغبة فيها). ولم يكن شيء من هذا في روما القرن الخامس.

و كانت الفضائل التي صنعت قوة الإمبراطورية ونبلائها ألا وهي احترام القانون، والشجاعة العسكرية والشعور بالعظمة قد تبخرت. ولنقل إن الجيش لم يعد موجوداً، وحين لم يجد البرابرة أحداً أمامهم، اجتازوا الليمس-لا بصفتهم مهاجرين، وإنما بصفتهم غزاة، وشرعوا يغتصبون ويقتلون. وكان هذا تقهقراً فظيعاً للحضارة، وضرباً من الانفجار الداخلي.

ويجب أن نفهم أن التقدم ليس آلياً.

فخلال خمسة وثلاثين قرناً، ومنذ الفراعنة، كانت البشرية قد تقدمت، وكان كل قرن أكثر "حداثة" من سابقه. لكن بعد عام 410، انهار كل شيء. وحين لم تعد هناك دولة، لم يعد هناك أمن. والفلاحون الذين هم بحاجة إلى السلم كي يزرعوا أراضيهم فروا من الحقول، وحلّت المجاعة. وبما أن أي تجمع حضري لا يمكن أن يعمل دون فائض زراعي، فقد تحولت مدن الإمبراطورية الرومانية رائعة الجمال إلى حقول من الأطلال.

وتجدر الإشارة إلى أن الأطلال ليست "طبيعية". ونحن كثيراً ما نظن بأن الأطلال هي نتاج البلى، وهذا غير صحيح. وطالما ظلت حضارة ما حية، فهي تعتني بصروحها. فما تزال بعض المعابد الهندوسية في حالة جيدة بعد مرور خمسة آلاف سنة. وقد شُيدت نوتردام منذ سبعة قرون وهي تبدو و"كأنها جديدة". والصروح خالدة إذا رممناها. فهناك دائماً صقالة في نوتردام. ويوم تنهار الكاتدرائية، فسوف يعني ذلك أن حضارتنا قد زالت.

لذا فإن الآثار الرومانية الرائعة التي كانت تنتشر في حوض المتوسط لها مدلول مأساوي: فهي تذكرنا بالانفجار الداخلي للإمبراطورية. ومن الصعب أن نتخيل ما كان عليه تقهقر الأزمنة البربرية.

فقد انتصرت الفوضى. والفوضى تقتل أكثر من الحرب.

كانت الحروب الوثنية فظيعة، ولكنها لم تؤثر في الحضارة بشيء. وقد أدى سقوط روما إلى دمار المجتمع الغربي.

إن الفوضى، أي حين يغتال جار جاره وحين يصبح من المستحيل على المرء السير في الطرقات دون التعرض للأذى، لهي أشدّ فتكاً من المعارك المخططة.

ونحن نعرف اليوم كيف نصنع الديمغرافيا التاريخية. وعلى سبيل المثال، فإن التصوير الجوي يعطينا فكرة صحيحة عن التجمعات البشرية. وقد كان في بلاد الغال الرومانية حوالى عشرة ملايين نسمة. ولم تكن تعُد في القرن السابع، في عهد المروفنجيين، أكثر من ثلاثة ملايين، وهذا من دون أي حرب كبرى أو وباء! وتقلص عدد السكان بنسبة 7%. والخوف يجر الجوع وموت المدن والتجارة.

وربما كان أمر مماثل يحدث اليوم في بعض مناطق أفريقيا. فما كان يسمى الزائير غني جداً وفيه كل شيء: الماء العذب بوفرة من نهر الكونغو والكهرباء المولدة من سدود ضخمة والزراعات المختلفة (السهلية والجبلية) ومجموعة مناجم (ذهب، ماس، نحاس)، وكثير من النفط. ولكن هذا البلد يتردى في البؤس. وفي رواندا المجاورة، تقاتل الهوتو والتوتسي دون أسلحة عصرية. ومع ذلك، ففي "منحنى النهر"، جلبت الفوضى المجاعة واختفاء المدارس.

وقد حدث مثل ذلك في أوروبا (باستثناء الإمبراطورية البيزنطية) في الأزمنة المروفنجية. بيد أنه من المهم معرفة هذه الفترة.

وإذا كانت معارك برونهوت وفريديغوند (القرن السادس) مثل ممالك

أوستراسي ونوستري الغامضة لا أهمية لها، فإن البرابرة تركوا بصماتهم على العالم الحالي.

وقد منحوا أسماءهم لأمم أوروبا: هونز، جرمان وسلافيون.

وقد احتل الفرانك (Francs)، وهم قبيلة جرمانية، بلاد الغال، المسماة اليوم "فرنسا"، حتى إن كان جوهر الشعب يظل سلتياً وكان الناس هناك يتحدثون لغة لاتينية. وتدفق الوندال (Vandales) حتى أفريقيا الشمالية، ويدل اسمهم على السمعة البغيضة التي اكتسبوها جراء عمليات التخريب والسلب.

وكان الأونغلو والساكسون جرماناً حلوا ببريطانيا العظمى. ومن المستحيل اليوم أن نقرأ صحيفة دون أن نجد فيها إشارة إلى "الأنجلوساكسون"، والانجليزية لغة جرمانية، لُتْننة جداً بالفعل. وفي تلك الفترة ولدت "انجلترا". وقد ذهب بعض الغراند بروتون، هروباً من الساكسون، إلى غرب الغال ليؤسسوا "بريطانيا" الصغرى، منقذين فيها اللغة الغالية (البروتون). وتخلد "ألمانيا" اسم الألامان (Alamans)، وقد ترك فيها البورغاند اسمهم للبورغون، واللومبارد للومبارديا.

وقد تطرقنا من قبل إلى هنغاريا وبلغاريا اللتين أصبحتا أسيوتين (asiatisée). وقد ورّث السلافيون لغتهم لشرق أوروبا وحتى بوهيميا.

ولم يكن بعض البرابرة مربي مواشي، وإنما بحارة. وكان الفايكينغ جديرين بالاهتمام. وكان النورمانديون، "أهل الشمال" لصوصاً كالآخرين تماماً. ويقول دعاء من ذلك الزمن "إلهنا، احفظنا من خطر النورماند". ولكنهم عرفوا كيف يحسّنون القادس المتوسطي. وكانت دراكاراتهم، وهي قوادس ذات جؤجؤ على شكل ثعبان، أقوى المراكب في تلك الفترة. ونميز من بينها السويدية والنرويجية والدنمركية.

وستنجح السويدية في أن تصعد ثم تنزل أنهار الفضاءات التي تواجهها. وستعطيها اسماً. وكانت السويدية تسمى "الروس" وأصبح البلد يسمى "روسيا". وكانت التجارة بين البلطيق والبحر الأسود لوقت طويل حكراً عليها.

وستكون في القسطنطينية، تحت اسم "فاريغ"، وسوف تشكل حرس نخبة الإمبراطور البيزنطي.

وكانت للدنمركية منها أهمية تاريخية، ففي كل مرة كان فيها المعلقون، بشأن الاتحاد الأوروبي، ينعتون الدنمرك بـ"البلد الصغير"، كانوا يظهرون أنهم يجهلون كل تاريخ أوروبا.

وبنزولهم بالطبع نحو الجنوب، استقر الدنمركيون في المقاطعة التي تحمل اسمهم، ألا وهي نورماندیا، بلد رجال الشمال، والتي سيتركها لهم ملك كارولينجي في اتفاقية سانت -كلير- سور- إيبت عام 911. حتى أن كل التسميات في نورماندیا دنمركية، تارة بوضوح - رأس الهاغ و(كوبنهاغ) -وتارة بطريقة مموهة:

وصارت (fleur) في اللاتينية (Floor) وكلمة (Caudebec) ومن هنا جاءت كلمة (Beck) (bec) و(Honfleur Honfloor).

وبعد اعتناقهم المسيحية، سوف يشارك الدنمركيون مع غيوم الفاتح، عام 1066، في غزو انجلترا على بني عمومتهم الأنغلوساكسون. وتروي نجود بايو، وهو شريط مصور كبير في ذلك الزمن، هذا الحدث؛ ونرى فيها الدراكارات وهي تستعد للرحيل. وكان الدنمركيون قد تعلموا الفرنسية. وفيما بعد أيضاً، استقروا في صقلية وجنوب إيطاليا، حيث سيؤسسون ممالك. وفضلاً عن ذلك: فأثناء الحملات الصليبية، سيصبح هؤلاء النورمانديون العتاة رأس حربة العالم المسيحي، وسنجدهم فيما بعد في القدس!

وكان النرويجيون أقل حظاً. فإلى جانب بلدهم لم تكن تمتد لا روسيا ولا أوروبا، وإنما المساحات الأطلسية الشاسعة. بيد أنهم أبحروا شمالاً من جزيرة إلى أخرى وتمكنوا من السيطرة على المحيط الكبير.

وفي القطب الشمالي يضيق الأطلسي إلى عدة ضفاف. وقد استقر النرويجيون عبر جزر فيروي، ابتداء من عام 865 في أيسلندا، وهي أرض عرفها من قبل الملاحون الإغريق والرومان (أولتيما ثول) (Ultima Thule)،

ولكنها غير مأهولة، إلا من بعض الرهبان. ولا يزالون هناك، والأيسلنديون هم نسلهم. وكان النرويجيون قد جلبوا معهم عبيداً سلتيين وخيولاً صغيرة.

ومن أيسلندا، اكتشف كشاف نرويجي يدعى إيريك لوروج، عام 982، أرضاً شاسعة اجتذب إليها بضع مئات من العائلات. وأطلق عليها اسم غرونلاند، "الأرض الخضراء"، وهو ما اعتُبر طويلاً فكاهة سوداء، إلى أن فهم المؤرخون بأن المناخ في تلك الفترة كان حاراً أكثر بكثير من الآن: ما نسميه "الذروة المناخية القروسطية". والحقيقة أن الفايكينغ استطاعوا تربية الأبقار في غرونلاند وصناعة التبن، وهو أمر قد يكون مستحيلاً في أيامنا هذه رغم "الاحتباس الحراري". وقد حدث بعد ذلك برود جوي ولم يستطع الفايكينغ البقاء في غرونلاند التي حل فيها محلهم الإسكيمو.

ومن غرونلاند، ذهب الأيسلنديون طبعاً إلى اللابرادور ومصب سانت لوران وربما الكرايبب. وفي القرن السادس عشر، سيروي الإمبراطور الأزدكي مونتيزوما لكورتيس أن الإسبان كانوا قد سبقوهم إلى المكسيك، قبل ذلك بزمن طويل، ملاحون طوال القامة شقراً "كانت لبواخرهم رؤوس ثعابين". كيف لا نفكر في الدراكارات؟ إذن فالنرويجيون هم من اكتشفوا أمريكا، قبل كولومبس بخمسة قرون. لكن هذا الاكتشاف كان عبثاً. لأن الفايكينغ كانوا ملاحين مهرة ولكنهم كانوا جهلة بالجغرافيا العامة فلم يروا في هذه السواحل سوى ضفاف جديدة. وحتى أوروبا التي كانت في غمرة الفوضى لم تكن مستعدة لتتبعهم. بيد أن الملاحين تناقلوا هذه الروايات في الخرائط البحرية ويبدو أن كولومبس كان على علم بها. ونحن نلاحظ هنا بأن الاكتشاف ليس شيئاً دون محيط ذهني واقتصادي جيد.

ولأن الفايكينغ كانوا قليلين جداً، فقد استوعبتهم القبائل الهندية، أو قتلتهم. وبعد أن طردتهم برودة الطقس من الغرولاند، لم يستطع النرويجيون البقاء إلّا في أيسلندا، حيث وقعوا بسرعة تحت السيطرة الدنمركية، التي لم يتحرر الأيسلنديون منها إلّا عام 1941.

ولم يكن انهيار الحضارة، في أزمنة البرابرة، انهياراً كلياً. وسنرى ذلك: فابتداء من القرن التاسع، ستولد الحضارة في أوروبا الغربية من جديد. إذ بقيت الحضارة البيزنطية، التي احتفظت في القسطنطينية بكنز الثقافة الإغريقية الرومانية. كما بقيت أيضاً في الغرب ذاته، الكنيسة الكاثوليكية.

ولنطرح سؤالاً واحداً فقط: لو انفجر العالم اليوم، فمن ذا يعيد بناءه؟ أين إمبراطوريتنا البيزنطية؟ أين كنائسنا؟ من ذا الذي يحافظ على العلم، في حال حدث انهيار؟ من تراه يستطيع تسليم المشعل إلى عوالم جديدة؟

إن الحضارة لمعجزة؛ وإن إعادة بنائها لهي معجزة أكبر!

وكانت أزمنة البرابرة، تلك القرون التي عمت فيها الفوضى والمجازر، لا مدارس ولا تجارة، ولا مدن تقريباً (وروما ذاتها بقيت، لكنها لم يكن فيها أكثر من 10000 نسمة، بدل مليون نسمة، وتحول الكوليزي مدرج روما القديمة إلى محجرة)، فترة مروعة. وهذا لا يعني أن الناس كانوا فيها أشقياء دوماً: فالسعادة الفردية وسعادة الجماعات الصغيرة (كالفايكينغ)، يمكن أن تتحمل الشقاء الجماعي. ولكن هذا الشقاء كان كبيراً.

وكان يمكن لهذا الشقاء أن لا ينتهي أبداً. ومجدداً، يجدر بنا أن نشير إلى أن التقدم ليس شيئاً آلياً.

وهناك درس علينا أن نستخلصه من الانفجار الداخلي للإمبراطورية الرومانية: فعندما تفقد حضارة مبررات الوجود، والقتال، وإنجاب الأبناء، وتربيتهم، ونقل قناعاتها أو ثقافتها إليهم، أو إلى المهاجرين، فيمكن أن تنهار مثل شجرة ميتة، لا تزال تحتفظ بمظهر جميل ولكن تكفي نقرة صغيرة لتسقطها.

كانت هناك، في القرون الوسطى، موجة أخيرة من الغزوات القادمة من الفيافي : غزو جنكيز خان (أو تيموجين) والمغول. وقد نجح جنكيز خان، الوثني البدوي، في توحيد أسرع فرسان سيبيريا وأقواهم، طيلة فترة حكمه (1115-1227) ابتداء من كراكوروم في منغوليا. وقد جلس حفيده على عرش

الصين(حيث التقاه الرحالة البندقي ماركو بولو). لكن المغول أخفقوا في مواجهة أوروبا، التي كانت قد خرجت من الفوضى منذ زمن طويل.

كانوا حملة آخر أحلام البرابرة (قبل اختراع البارود والمدفع). ولم يكن جنكيز، خلافاً لسابقيه من القادة الرحل الجرمان أو السلافيين، مفتوناً بروما. وكان يريد أن يحول العالم إلى ميدان صيد كبير. وكانت هذه محض فكرة براقة. وحفيده كوبيلاي، الذي أصبح خاناً كبيراً على عرش بكين، ثم تحول إلى إمبراطور صيني. أما حلم "إمبراطورية الفيافي "فتبدد تماماً عندما فرقت مدافع قيصر روسيا فرسان "كتيبة الذهب": فبواسطة المدفعية، كان المقيمون قد هزموا الرحل نهائياً.

عصور الإسلام

كان يعيش شمالي الإمبراطورية الرومانية الجرمانيون، والسلافيون، والهونز، والمغول؛ وعلى الضفة الجنوبية للعالم المتوسطي، لم تكن توجد إلا قبائل رحل، وخاصة عرب شبه الجزيرة العربية.

و كان هؤلاء البدو، في الجنوب والشمال على السواء، متأثرين بالإمبراطورية. وكان بدو الشمال يتحكمون في طريق القوافل المتجهة إلى الصين؛وبدو الجنوب يتحكمون في الطريق التجارية البحرية من الهند إلى اليمن، ثم أيضاً طريق القوافل من حضرموت إلى الليمس (limes).

لكن غزواتهم كانت مختلفة تماماً. فلماذا يا ترى؟

لم يكن برابرة الشمال يمارسون إلّا ديانات "ضعيفة". وإن كانوا قد ساهموا في انتحار الإمبراطورية، فإن فكرتهم الوحيدة كانت تتمثل في أن يصيروا روما. (أو صينيين في الشرق).

أما العرب، فكان لهم دين"قوي". (و لا يتضمن مصطلحا "قوي" أو "ضعيف" أي حكم قيمي: فنحن نتحدث على سبيل المثال، في الفيزياء النووية

أيضاً عن تجاذبات"ضعيفة "أو "قوية".) ولم يكونوا يريدون أن يصيروا روما، إنما أرادوا صنع عالم جديد. إذن فقد كان عملهم أدوم.

وفي عام 571، ولد في مكة، وهي مدينة قوافل، رجل صار يسيّر قوافل لصالح أرملة غنية تدعى خديجة.

وفي حوالى الأربعين من عمره، تعرض هذا الرجل، ألا وهو محمد لأزمة روحية، إذ أصبح يضيق ذرعاً بعبادة أهل مكة للأصنام. وكان قد تعرف في رحلاته على يهود ومسيحيين، ولم يعد يلائمه دين أسلافه. كان قد صار موحداً، فحاول عبثاً أن يدخل سكان الواحة في دينه. وحين لم يلق قبولاً حسناً فرَّ برفقة العشرات من صحابته عبر الصحراء إلى المدينة. وهناك استطاع أن يدخل أهل المدينة في دينه.

وهذا الرحيل من المدينة الوثنية إلى الصحراء، باسم الإله الواحد، يسمى هجرة. وهي أيضاً مصدر التقويم الإسلامي، الذي يبدأ مع الهجرة عام 622.

وفي عام 630، عاد الرسول منتصراً إلى مكة.

وكان وثنيو مكة يعبدون في هذه المدينة حجراً أسود، كان يدر عليهم أرباحاً في موسم الحج. وقد كان محمد ذكياً في الاستحواذ على هذه العبادة الوثنية (تماماً كما استحوذت الكنيسة الكاثوليكية على معابد الأوثان). وهكذا ففي القلب المقدس للتوحيد الأكثر صرامة، مازال الناس يعبدون وثناً سابقاً.

وقد توفي النبي محمد وهو في قمة مجده، في مكة، في حزيران يونيو عام 632.

وإن كان النبي محمد قد جاء بعد ألف سنة من النبي إبراهيم، فهو يشبهه في الحقيقة إلى حد بعيد. فكلا الرجلين عاشا على ضفاف الصحراء ذاتها -أور في بلاد الكلدان، مكة في الحجاز-، وقد ولدت فكرة الإله الواحد بسهولة أكثر في الصحراء منها في الغابة متعددة الآلهة. وكلاهما هجر المدينة الوثنية استجابة لنداء الله: آل هو اسم سامي للإله : أليلوييا اليهودي، الله في الإسلام.

كما عرف محمد كيف يأتي بدين بسيط. فمن السهل أن يصبح المرء مسلماً، إذ يكفيه أن ينطق بالشهادتين أمام شاهد قائلاً: "اشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله." ومن اليهودية أعاد الإسلام المحرمات الغذائية (فعوض الحلال "الكشروت" بذات الهاجس تجاه لحم الخنزير)، إلا أنه أضاف إليه تحريم الكحول (مع أنه لفظ عربي!)

كان النبي محمد الوحيد من بين مؤسسي الأديان الذي كان في الوقت ذاته قائداً سياسياً وحربياً، وهي ثلاث وظائف تكون منفصلة عادة. ولم يؤسس محمد ديناً وحسب، وإنما أسس دولة أيضاً، موحداً قبائل العرب التي كانت من قبل متفرقة دائماً، وقاد الجيوش أيضاً.

وقد لاحظنا أن تفوق الشعوب المقيمة على الرحل يكمن في التنظيم فحسب. والحال أنه إضافة إلى إيديولوجية قوية فقد أعطى النبي محمد للعرب التنظيم. كما أن الخليفة في الإسلام، هو في الوقت ذاته البابا. ولا يعرف في الإسلام الفصل بين السلطتين المدنية والدينية. ولا يتصور فيه وجود معركة "الكهنوت والإمبراطورية". وحتى اليوم على سبيل المثال مازال الملك في المغرب هو أيضاً "أمير المؤمنين".

وكان النبي محمد قد قسم العالم إلى ثلاثة أجزاء: دار الإسلام (العالم بقيادة إسلامية، عالم السلم)؛ عالم الهدنة (ممكن مع المسيحيين واليهود)، ودار الحرب(مع الوثنيين). وتعد الحرب المقدسة أساساً في الإسلام. وقد تمكن علماء الدين والتصوف في الإسلام من أن يفسروا فيما بعد بأن الجهاد يمكن أن يكون أيضاً زهداً روحياً. والإسلام دين أبطال (أكثر منه دين شهداء). ففور وفاة الرسول، ستنطلق القوة الهائلة التي كان قد أنشأها لفتح العالم.

وبعد النبي محمد، تولى الحكم الخلفاء الأوائل-وفق الترتيب: أبو بكر، عمر، عثمان وعلي (وكان هذا الأخير قد تزوج فاطمة، إحدى بنات النبي). لكن حدث اعتراض على وراثة الخلافة. وفي كانون الثاني/يناير 661، قُتل

علي: فأراد قسم من المؤمنين أن يظلوا أوفياء لنسله، محدثين بذلك الانشقاق الشيعي.

وبعد ذلك، انتقلت العاصمة العربية إلى سوريا، التي فتحت على البيزنطيين، مع الدولة الأموية (التي حكمت من 650 إلى 750). وكانت مصر قد احتلت عام 639، وأسست القاهرة قرب ممفيس القديمة. وكان شمال أفريقيا قد أخضع منذ عام 707 (مع بناء القيروان). وفي عام 712، عبر العرب إلى إسبانيا. ومضيق جبل طارق ليس سوى جبل طارق، على اسم قائد بربري. وعما قريب، سوف يتجاوز جند الله البيرينيه غرباً.

وفي الشرق، استولت الجيوش العربية بسهولة على فارس الساسانية. بيد أن العالم الإيراني، ورغبة منه في المحافظة على فرادته، فقد تبنى المذهب الشيعي ونجح في أيرنة الإسلام بعض الشيء.

كان الفرسان المسلمون يبدون أنهم لا يقهرون، كما أنهم لم يكونوا يجلبون معهم الفوضى وإنما نظاماً جديداً.

كانوا قليلاً ما يحفلون بالمحافظة على الماضي. وعلى سبيل المثال، فقد هُجرت المدن الرومانية الرائعة في ليبيا أو سوريا (لابتيس ماغنا، تدمر). وكذلك الصروح المصرية. وبقيت الهندسة المعمارية الفرعونية "وكأنها جديدة" إلى غاية وصولهم في القرن السابع عشر. ورغم فقدان استقلالها، كانت مصر قد حافظت حتى ذلك الوقت على حضارتها. وكان الملوك الإغريق، والأباطرة الرومان أو البيزنطيون يشيّدون فيها معابد مماثلة. وانهار كل شيء مع الأسياد الجدد. لا لأنهم لا يبالون بالفن: فقد شيدوا في دمشق، وقرطبة وغرناطة، مساجد وقصوراً رائعة، ولكنهم كانوا يحتقرون كل ما كان قد حدث قبل النبي محمد.

فمعهم، وكما أشار إلى ذلك المؤرخ هنري بيران (H. Pirenne)، فإن العالم المتوسطي، الموحد طيلة خمسة قرون بواسطة الإمبراطورية الرومانية، انقسم إلى شطرين، ولا يزال كذلك اليوم! حتى أنه يمكننا القول إن هناك اليوم

ثلاثة بحار متوسطة: اثنان في الشمال (اللاتيني الكاثوليكي غرباً والبيزنطي الأرثوذكسي شرقاً) وواحد في الجنوب (العربي المسلم، الذي لم يعد يتكلم الإغريقية أو اللاتينية، بل العربية).

ويعتبر المتوسط، في أيامنا هذه، بحر مواجهة لا بحر وحدة. وكان الزحف العربي يبدو أنه لا يقاوم، بيد أنه توقف في القرن الثامن.

كان ذلك أولاً أمام القسطنطينية، عام 717، على يد جيش البحرية البيزنطي. إذ صد البيزنطيون العرب حتى مرتفعات طوروس (حيث قامت حدود طيلة قرون)، ولم يكن ذلك من دون التأثير الإسلامي، الذي يدل عليه نزاع محاربة الأيقونات. فالإسلام يحرم في الحقيقة عبادة الصور. وقد كان الأباطرة البيزنطيون يميلون إلى أن يفعلوا مثل ذلك، إلى أن نبّهم علماء لاهوتهم إلى أنه طالما أن الإله قد جعل من نفسه إنساناً في شخص يسوع، فإنه من المشروع تصوير الوجوه.

وبعد ذلك، في نواحي بواتيي (Poitiers)، عام 732، على يد سلاح الفرسان الثقيل للغزاة الفرنجة. ولا يمكن إنكار معارك بواتيي (حتى وإن كنا نحددها بالتقريب، وإن لم تكن تشكل المعركة الكبرى التي ضخمها مدونو الأحداث في المعسكرين لأغراض الدعاية).

وقد انتصر الفرنجة. فلماذا يا ترى؟ لأن هؤلاء الجرمانيين كانوا يركبون أحصنة حرث ثقيلة وكانوا يستعملون الرِكاب. والعرب الذين كانوا يركبون على الطريقة القديمة جياداً صغيرة، جاؤوا ليدقوا رؤوسهم على "الجدار الحديدي" لسلاح فرسان شارل مارتيل (Charles Martel) (وعبارة "الجدار الحديدي" مأخوذة عن المدونات العربية).

صحيح أن الفرنجة كانوا يقاتلون قرب السوم والرين، بينما كان العرب بعيدين جداً عن الجزيرة العربية. وسوف يشرح كلوسفيتز بعد ذلك، بأن الجيش الذي يحارب بعيداً عن قواعده يتضرر.

وربما كان غير دقيق تفسير نصر القائد الفرنجي شارل مارتيل بأنه نصر الحضارة على البربرية.

فحتى في تلك الفترة التي كانت لا تزال مروفنجية (mérovingienne)، كان الفرنجة بالتأكيد أكثر بربرية من العرب (لكنهم كانوا يخشون الحضارة الرومانية، خلافاً للعرب). وكانت بواتيي في الحقيقة معركة برابرة الشمال ضد بدو الجنوب، الذين وحّدهم الإسلام.

وبداية من عام 750، قلّ الخطر بالنسبة للغرب المسيحي. فقد فقدت مملكة الأمويين السلطة، وخلفتها مملكة العباسيين (نسل العباس، أحد أعمام النبي محمد). ونقل العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، على نهر دجلة، وهكذا ابتعد الخصم.

كما كان العباسيون الذين حكموا من عام 751 إلى عام 945، أقل قدرة على الحرب من الأمويين. وكان خليفتهم الأشهر هو هارون الرشيد، الذي حكم بغداد من عام 768 إلى عام 809 وهي فترة طويلة ميزها البذخ (كانت تلك هي فترة ألف ليلة وليلة).

وعرفت الخلافة الإسلامية آنذاك ذروة مجدها، رغم بعض الانشقاقات (وعلى سبيل المثال، فقد ظلت إسبانيا المسلمة أموية) ورغم بعض الفتن أيضاً. وبموجب صفة "الذمي" التي منحهم إياها الرسول، ظل عدد اليهود والمسيحيين كبيراً في دار الإسلام. ومازال كذلك إلى اليوم في الشرق الأوسط (ملايين)، في مصر (الأقباط)، وفي سوريا وفلسطين والعراق (كان وزير خارجية صدام حسين مسيحياً). واستمر الإيرانيون، المتشبثون بقوة بثقافتهم، حتى اليوم يتكلمون الفارسية. وهكذا انفصم الإسلام عن العروبة.

والعربية هي لغة العبادة المقدسة، ولكن الغالبية العظمى من المسلمين ليسوا عرباً ولا يتكلمون العربية.

بيد أنه، في القرن التاسع، كانت دار الإسلام تمتد من البيرينيه إلى أفغانستان. وقد بدأت الفتوحات الإسلامية في الهند حوالى سنة 1000.

وفي تلك الفترة، تولى محمود الغزني (في أفغانستان) فتح حوض الهندوس برمته، وهو النهر الأصلي للهنود، ثم نهر الغانج، وهو النهر المقدس للهندوسية.

كانت تلك الفترة عنيفة للغاية. وكانت من عمل تيمورلانك (1336-1405) الذي أُعلن إمبراطوراً مسلماً وغزا الهند عام 1398. فلم هذا العنف؟ لأن القرآن لم يقرر صفة للهندوس، الذين لم يكونوا وفق الفئات الإسلامية، سوى عبدة أوثان!

وقد أسست الإمبراطورية المغولية (يجب التمييز بينها وبين مغول جنكيز خان، الوثنيين تماماً) في الهند مدناً كلاهور وكان لها ملوك على غرار الملك أكبر (1542-1605) الذي تمكن من توحيد شبه القارة. غير أن الإسلام لطالما اصطدم بمشكلة الهندوسية، ولم يعرف كيف يتعامل معها.

ومع أن الإسلام دين قوي، بل وقوي جداً، إلّا أنه لا "يقبل كل شيء" كالمسيحية. فهو يثير حساسيات كبيرة على حدوده. وحتى اليوم، لا تزال التوترات قوية جداً بين باكستان المسلمة والهند الهندوسية: حرب في الكشمير واعتداءات متبادلة وقتل للكفار من جانب، وهدم مساجد من الجانب الآخر.

ويجب علينا أن نفهم أن شبه القارة، تضع التوحيد المطلق للإسلام في مواجهة الشرك المحيط "القوي على طريقته" للبرهمانية. وليس عجباً أن يُحدث هذا بعض الشرر"!

ولم يكن الأمر كذلك في الصين، إذ لم يستطع الإسلام أبداً فرض نفسه هناك. وهذا، لسبب بسيط جداً، ويكاد يكون تافهاً: فالصين حضارة الخنزير، ولن يتخلى الصينيون أبداً عن أكل لحم الخنزير! صحيح أن هناك أقليات مسلمة في الصين، لكنها تعيش على الهامش.

وفي نهاية هذه المغامرة الكبيرة والعلمانية، نستطيع أن نلاحظ قوة القيادة في الإسلام، وقوته العسكرية أيضاً (ففي كل مكان كان اعتناق الإسلام يتبع جند الله، عدا اندونيسيا التي دخلها دين الرسول من خلال التجار-الملّاحين،

والذين كان نموذجهم السندباد البحري) وعظمته التي تشهد عليها الصروح الرائعة.

بيد أن الإسلام كان دين قطيعة، يؤدي إلى الكبت ونسيان الماضي، كما حدث في مصر.

ولم ينجح أيضاً (ومرة أخرى، باستثناء العالم الخاص جداً للتجارة الماليزية أو الاندونيسية) في الخروج من "إطار بيئته" الأصلية، ألا وهي الساحل، الذي يحتل الإسلام شريطه الجغرافي من المغرب الأقصى إلى البنجاب. وقد حملته الرطوبة والأمطار على التراجع.

وهذا أحد أكبر رهانات التاريخ المعاصر: هل سيستطيع الإسلام التخلص من هذا الضرب من الحتمية المكانية، اليوم وقد حملت الهجرة ملايين المسلمين إلى أوروبا الشمالية والأمريكتين؟ كان صوم رمضان قد شُرع لبلدان يتعاقب فيها الليل والنهار (يمسك الناس عن الطعام نهاراً ويأكلون ليلاً). فما العمل في شمال الدائرة القطبية حيث لا ليل في الصيف؟ والحال أن بعض علماء الدين المسلمين قد وجدوا جواباً عن هذا السؤال - وهذه بارقة أمل.

ويجب أن لا ننسى أن الإسلام قد عرف حركات روحية: الصوفية. كان الغزالي(1058-1111) أكبر علماء الصوفية، وهي مذهب روحي إيراني على وجه الخصوص، لم تكن تروق السلاطين السنّيين الذين قمعوها. وعلى هامش دار الإسلام تماماً، جنوبي الجزيرة العربية، في جبالهم العالية والمروية جداً، أسلم اليمنيون ولكنهم قاوموا بصلابة الخلافات المتعاقبة للإسلام. وظلوا مستقلين، في جبال اليمن الموحشة، مع أنها قريبة جداً من مكة. ولم يكن ممكناً أن نجد في شبه الجزيرة ذاتها، تبايناً أوضح مما هو بين بدو الصحراء (فرسان الله) وسكان الجبل اليمنيين، الفلاحين الذي كانوا يزرعون آلاف الأسطح وشيدوا المدن الجميلة قبل العربية (بيوت عالية جداً دون أفنية!). وبين بدو محمد وسكان الجبال الذين حافظوا في ظل الإسلام السطحي، بالحضارة القديمة لملكة سبأ جنوب الجزيرة العربية. كان التعارض كلياً. وحتى الأتراك أخفقوا أمام صنعاء.

القرون الوسطى أو إعادة بناء العالم
الحملات الصليبية

كانت الفوضى سائدة في الغرب في القرن الثامن. ولم تستمر الحياة الحضرية إلا في روما على نحو صغير بسبب البابوية. ولكن وسط هذه الفوضى المروفنجية بقيت الكنيسة الكاثوليكية. ولم يكن الغزاة الجرمانيون والسلافيون يملكون ديناً "قوياً" خلافاً لعرب النبي محمد؛إذ كانوا يؤمنون بالخرافات كثيراً، وكانوا يحترمون عموماً رجال الدين المسيحي، الرهبان، والقساوسة، والأساقفة، الذين يشبّهونهم بعرافيهم. وقد باشرت الكنيسة التي كانت تحتفظ في معابدها بمخطوطات الثقافة القديمة وتؤكد أنها "رومانية"، بتنصير البرابرة وإعادة بناء الحضارة. واجتهدت في ذلك في القمة وفي القاعدة.

أولا "في القمة" بأن سيطرت على القادة. وأشهر مثال على ذلك هو الملك الفرنجي كلوفيس. وقد دفعت في سريره حسناء مسيحية، تدعى كلوتيلد، وفي عام 498 عمّد أسقف ريمس، المدعو ريمي، الملك ومئات من المحاربين. وهكذا أصبح الفرنجة كاثوليكيين وفي حماية البابوية.

ولأن المروفنجيين كانوا أغبياء جداً، فقد شجعت روما بيبان لو براف (Pépin le Bref)، ابن شارل مارتيل على الاستيلاء على السلطة وأيدت بقوة خلفه، الشهير شارلمان (742-814). وهكذا حل الكارولنجيون محل المروفنجيين.

وفي عام 800، أحضر البابا ليون الثالث شارل إلى روما، وتوّجه فيها "إمبراطور الغرب". وغزا شارل الأكبر أوروبا الغربية حتى أودر (Oder). وكان يحكم انطلاقاً من فيلته في إيكس لاشابيل. لكن بعد وفاته، قُسمت أملاك الدولة بين أحفاده كما لو كانت ملكية خاصة.

وفي عام 843، قسّمها لويس لو بيو (Louis le Pieux)، من خلال معاهدة فردان، إلى ثلاثة أقسام : حصل لويس الجرماني على جرمانيا شرق الرين؛

لوتير، البلدان الواقعة بين بحر الشمال وروما (حيث حصل البابا على دولة، جنين الدول الحبرية التي سوف تبقى حتى عام 1870)؛ وشارل الأصلع، غربي لاموز والساون والرون، المنطقة التي سميت في ما بعد فرنسا، والتي كانت معاهدة فاردان (Verdun) شهادة ميلادها الرسمية.

ولم يكن لهؤلاء الفرومنجيين حس الدولة. فقد ظل شارلمان بربرياً ونصف أمّي. وسمعته الطيبة التي اكتسبها من الكنيسة هي سمعة مبالغ فيها كثيراً.

ويميل الفدراليون الأوروبيون إلى مقارنة "الاتحاد الأوروبي" الحالي بإمبراطورية شارلمان. كان بإمكانهم إيجاد ما هو أفضل! فقد ظلت أملاك الدولة في عهد شارلمان بربرية. وعندما أراد شارلمان أن يخطب إيرين، إمبراطورة رومان القسطنطينية، ضج البلاط البيزنطي بالضحك: تقريباً كما لو أن موبوتو خطب ملكة انجلترا!

والحقيقة أن الكنيسة لم تكن غبية. فقد، استمر الملك الجرماني، أوتون الأول، بالطبع في الحلم بإعادة بناء الإمبراطورية الكارولنجية. وحصل من البابا عام 962، على التاج الإمبراطوري. وأسس بذلك "الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة". ولكن هذا اللقب الإمبراطوري كان وبالاً على إيطاليا، التي ظلت مقسمة طويلاً بين "الجيبليين" (Gibelins)، أنصار الملك الألماني، و"غالف" (Guelfes)، المعارضين لهذا النوع من "المحور" القروسطي. خاصة وأن غاية الإمبراطورية المقدسة كانت عامل ضعف للألمان. وبسبب الحلم الإمبراطوري، شتتوا قواهم إلى طموحات مفرطة عوض أن يكرسوها لبلدهم.

والواقع أن الكنيسة فضلت أن تساند ملكيات محلية. وفي عام 987، اختير دوق فرنسا هوغ كابيت ملكاً لفرنسا واختار باريس عاصمة لها. وبعد قرن، عام 1066، أصبح سيّد من الفايكينغ متفرنس يدعى غيوم الفاتح ملكاً على انجلترا (ومن هنا جاء شعار الملكية الانجليزية: "الله وحقي" في اللغة الفرنسية). وظهرت الدول القومية، بلغاتها "السوقية" (الشعبية): الفرنسية والانجليزية والألمانية، إلى جانب اللاتينية. وفي عام 1000، أصبح إيتيان

الأول ملك هنغاريا باختيار من البابا، وفي عام 1034 أقام كازيمير الأول في كراكوفيا مملكة بولونيا.

ولكن الكنيسة كانت تعمل على وجه الخصوص "انطلاقاً من القاعدة"، على المستوى المحلي. وقد عرفت كيف تقنع الزعماء الجرمانيين أو السلافيين بإرسال أبنائهم إلى مدارسها. وهناك كان الرهبان يعلمونهم القراءة والكتابة باللاتينية، وكانوا يمنحونهم تربية مدنية قوية: أن لا يقتلوا رجال الكنيسة، ولا النساء ولا الأطفال. وأفهم الرهبان هؤلاء الصغار أنه من الأذكى أن تُقتطع ضرائب من الفلاحين بدل أن يؤكل قمحهم قبل أن ينضج، وأنه من الأنفع أن تفرض على التجار الضرائب بدل أن يُمزقوا إرباً. ولم يكن الرهبان يستهينون بالقوة الذكورية لهؤلاء الأسياد الصغار؛ فكانوا يعلمونهم أن يسخّروا القوة لخدمة خير "الأرملة واليتيم ". وكان تحويل قُطاع الطرق هؤلاء إلى"فرسان" هو النجاح التاريخي الكبير للكنيسة الكاثوليكية.

والفارس (الذي يركب حصان حرب قوياً، ومنه جاءت العبارة "ركب أعلى خيله") يحمي (في الحالة المثلى، في الحقيقة كان هناك كثير من العنف، ولكن الغاية كانت في النهاية تجعل أولئك الذين يشتركون فيها يمتثلون) الفلاح بدل أن يقتله. ولأنه مترّس ومعتمد على ركابه (وهذا اختراع قروسطي)، فقد كان لا يقهر. وكان الفارس يكرم النساء بدل اغتصابهن. وله حقوق (سيّدية)، لكن عليه واجبات أيضاً: إقامة العدل، بسط السلم في "نطاق حكمه". وكانت "الضاحية" هي الإقليم الذي يسود فيه القانون (ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا المصطلح يدل على العكس اليوم!)، ومكان البان و(خلف البان). واللص وقاطع الطريق أو المبعد مقصيّ من البان.

ونميّز في قصر السيّد، بين المحكمة التي تقيم العدالة، و"فناء الدواجن" المفتوح للجميع. والسيّد نفسه يدين "بالولاء" للملك (فرنسا، انجلترا، هنغاريا، إلخ) وانطلاقاً من العالم الريفي، استعاد الإقطاع القانون. وبما أن التجار صاروا قادرين على ممارسة تجارتهم من جديد، فقد عادت المدن إلى

الحياة. ويقيم البابا في روما؛ والملوك في كل من باريس؛ وانجلترا؛ وكراكوفيا. . . وأخيراً تميزت السلطة السياسية عن السلطة الروحية. و"نزاع الكهنوت والإمبراطورية"، الذي لا يتصوره المسلم، يؤكد ذلك. وكان رفاه البابوية كبيراً إلى درجة جعلت الإمبراطور الجرماني، هنري الرابع، يأتي مرتدياً قميصاً ليلتمس عفو البابا في كانوسا (كانون الثاني/يناير 1077)، ولم يمنعه هذا من الاستمرار في معارضة الكنيسة فيما بعد.

كان باباوات تلك الفترة عمالقة: غريغوار السابع (1073-1058)، إينوسانت الثالث (1160-1216)، غير أن الملوك كانوا شديدي العلمانية. وكانت الأوامر الدينية تخرج من أديرتهم لتسير على الطرق الكبرى (كان الأمن قد استتب من جديد). وساهم الدومينيكان والفرنسيسكانيين بفاعلية في تحويل العادات. وقد وجد فرانسوا داسيز (1181-1226) على وجه الخصوص لكنات تكاد تكون إنجيلية- "كان حواري المسيح الوحيد" كما سوف يقول عنه نيتشه. وكانت الهيمنة (لا الإمبراطورية) في يد تاج فرنسا: وفي بوفين، عام 1214، هزم فيليب أوغيست (1165-1223) الإمبراطور الجرماني. وقد جسد سانت لويس (لويس الرابع، 1226-1270) مثال الملك المسيحي، الذي يقيم العدل ويوفر السلم؛فيما جسد فيليب لوبال (1285-1314) مثال الملك العلماني والسياسي، الذي يستند مشرعوه إلى القانون الروماني.

وهكذا، حوالى عام 1000، انتهت "العصور البربرية". وبدأت إذن "العصور الوسطى"، التي، وخلافاً لما هو شائع، يمكن أن تنافس في حضارتها العصور القديمة. ولكن، منذ سقوط روما (410) إلى تتويج أول كابيسيان (Capétien) (987)، تطلب الأمر خمسة قرون لبعث الحضارة من جديد.

كان النظام الإقطاعي، في بعض النواحي، أدنى من النظام الروماني: كان حس الدولة أقل قوة، وحلّت محله قنوات إقطاعية تنطلق من الأسياد الصغار إلى الملوك. وفي نواح أخرى، كان يضاهيه أو حتى يفوقه.

وسوف تستفيد إعادة البناء القروسطية من فترة طويلة حارة وملائمة للمحاصيل التي أشرنا إليها أثناء حديثنا عن غرونلاند. وقد دامت الذروة المناخية حتى نهاية القرن الثالث عشر.

واستفادت الزراعة من ذلك ومن عودة الأمن في الوقت ذاته. وبفضل السلم، استؤنفت التجارة الدولية (معارض الشمبانيا). واستطاعت المدن أن تعود إلى الحياة وظهرت كثير من "المدن الجديدة". وجاوز تعداد سكان العواصم الملكية أو الكهنوتية (باريس، لندن، روما، فيينا) والمدن التجارية الكبرى (جنوة والبندقية) 100.000 نسمة. وعادت أرقام العصور القديمة، وبذات الطريقة، انفجر تعداد السكان الكلي. وكان في فرنسا القروسطية بين 10و15 مليون نسمة.

ونشأت آنذاك هندسة معمارية جديرة بالعصور القديمة، ولكن بتصميم جديد. ونسخت في البداية عن هندسة بيزنطة، ولهذا السبب سميت بـ(الرومانية)، ثم وجدت صيغها المبتكرة. كان ذلك عصر الكاتدرائيات. وحول نوتردام دو باريس، كانت هناك عشرات الكاتدرائيات (75 في فرنسا و350 في أوروبا) : أميان، سانس، شارتر، رايمس، بورج، إلخ.

وحين ننظر إلى جناح كنيسة نوتردام، على ضفة نهر السين، نفهم أن بناء مثل هذه الصروح كان يتطلب السلم، وكثيراً من المال، ومعارف تقنية هائلة. وكانت أوروبا في اللحظة ذاتها، تتشح بـ"باقة من آلاف الكنائس البيضاء" كما تقول الأخبار، وكذلك القصور المحصنة والصروح. ولا تزال المناظر الحالية في أوروبا تطبعها إلى حد بعيد العصور الوسطى. وهذه الهندسات العمرانية ليست أطلالاً (باستثناء القصور التي هدمها الملوك لأسباب سياسية): وهذا دليل على أن الحضارة منذ ذلك الزمن لم تنهر مجدداً.

وهناك في وسط باريس، على سبيل المثال، في جزيرة لا سيتي (La cité)، القصر الملكي(قصر العدالة اليوم) والكاتدرائية. وشمال نهر السين، في بحيرة جافة (لوماري) (Le Marais)، حي الباعة ودار البلدية. وعلى شاطئ -لاغريف،

قبالة دار البلدية، كان الحرفيون والعمال الغاضبون يتجمعون، ومن هنا جاءت العبارة "شن إضراباً". وكانت جنوب النهر، مدارس راهبات واسعة والجامعة والحي اللاتيني(لأن الطلبة كانوا يتحدثون اللاتينية). والواقع أن الأساقفة فتحوا في المدن الكبيرة مدارس كهنوتية تدرس فيها الفنون والعلوم. وكان المدرسون فيها مشهورين وعلماء، والطلبة كثر ومشاغبون. وكما كتب فيون (Villon): "آه، يا إلهي، لو أني درست / في زمن شبابي المجنون/ ولو أني كرست نفسي للأخلاق الحميدة/لكان لي بيت وفراش وثير/لكن ما الأمر؟ كنت أهرب من المدرسة/كما يفعل الولد الشقي/وأنا أكتب هذه الكلمات يكاد قلبي يتفطر."

و كانت العصور الوسطى بفضل الجامعات، فترة اكتشافات علمية وتقنية كبيرة. ففيها اخترع المحراث الأرضي الذي عوض خير تعويض المحراث القديم، إذ كان يحرث أعمق. واخترعت أيضاً المداخن، وقد يبدو ذلك غريباً ولكن الرومان لم يكونوا يعرفونها وكانوا يسوّدون قصورهم بدخان مواقد الجمر، ومن هنا جاء تقليد إحصاء عدد السكان بعدد المداخن: "النار". واخترعت آنذاك أيضاً المناوبة الزراعية، وتتمثل في مناوبة الزراعات حسب طول الجذور.

وقد اتضح أن الزراعة القروسطية أكثر إنتاجية، وأقل "هشاشة" بكثير من الزراعة القديمة. وكان طوق الكتف يسمح باستعمال قوة الجياد، التي كان الأقدمون يربطونها من الرقبة -حتى أنهم لم يكونوا ليجرُّوها دون أن يختنقوا. وقد غيّر الركاب سلاح الفرسان الخفيف للعصر القديم إلى سلاح فرسان ثقيل، وسمح للفارس أن يشحن دون أن ينقلب.

وقد استعارت العصور الوسطى من الصينيين، البوصلة والرصاص. وصُبَّت المدافع الأولى. وإذا كانت قد وجدت معجزة إغريقية، فنستطيع أيضاً أن نتحدث عن "معجزة قروسطية".

كانت القرون الوسطى متفوقة على العصور القديمة في مجال حقوق الإنسان. واستمر فيها الرق، لكنه كان هامشياً فقط. وخلافاً للأفكار المسبقة،

لم يكن الفلاحون-المملوكون- عبيداً: كانت لديهم واجبات كثيرة، وكذلك حقوقاً. وكان معظم البشر في القرون الوسطى أحراراً.

ولكن المسيحية القروسطية اخترعت المرأة في القرن الثالث عشر.

وجاءت من القصور فكرة الرقة والحب الرقيق. وكان الفرسان قد تعلموا مغازلة النساء، وإغراءهن، ومعاشرتهن، بعد أن صار الاغتصاب فعلاً محتقراً وصارت روايات الفروسية مزينة بالحب الأفلاطوني، من لا نسلو دو لاك إلى دون كيخوته.

كانت هذه إذن هي الحضارة الأولى التي تدرس فيها المرأة. ولم تعد تقدم مائدة للرجال، بل "تترأسها". وتحدد حتى المنتصر في "الدورات". وعلى كل فارس أن "يحيي" "سيدة أفكاره". وأخيراً بدأت كتابة الرسائل الغرامية بين الرجال والنساء.

وإضافة إلى ذلك، حاولت الكنيسة أن تحرّم الزواج المبكر. وكان الإغريقي القديم، كما سبق ورأينا يتزوج طفلة أمّية في الثالثة عشرة من العمر. والشريف القروسطي، فتاة في سنه، ومثقفة غالباً. وقد أشرنا إلى أن المرأة خارج العالم اليهودي المسيحي، كانت ولا تزال حتى اليوم، مظلومة. فما تزال تُحَجَّبُ في الإسلام (حيث زواج البلوغ هو القاعدة)، ولا تزال تقتل في المهد في الصين.

كان المثال المبشر بهذه الثورة (لأنها كذلك لنصف نساء البشرية) هو الحب الشهير لأبيلارد وهيلوييز- ينبغي القول بالأحرى زواج هيلوييز بأبيلارد. كان هذا الأخير أعظم أستاذ في زمنه وكان يدرّس، على وجه الخصوص، في باريس، في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر. كان في السابعة والثلاثين من عمره حين أُغرمت به طالبة في السادسة عشرة تدعى هيلوييز وكان يقيم عند خالها. كانت هيلوييز من أسرة طيبة ومثقفة جداً وتقرأ باللاتينية، واليونانية والعبرية. ورزقا بطفل سمياه "أسطرولاب"، لكن أبيرلاد كان يريد أن يبقى زواجهما سراً، فجُن جنون الخال الولي، فدفع لجماعة من خاصي الخنازير ليخصوا

أبيرلاد (وقد أدين بسبب هذه الجريمة). وواصل الأستاذ التدريس وأصبحت هيلوييز رئيسة دير. واستمرا يتبادلان الرسائل. والرسالة التالية خطاب رائع خطته هيلوييز بعد ذلك بزمن طويل.

الرسالة رائعة والنص لا يقل روعة:

إلى سيدها، أو بالأحرى إلى أبيها-إلى زوجها، أو بالأحرى إلى أخيها-خادمته، أو بالأحرى ابنته- زوجته، أو بالأحرى أخته-إلى أبيلارد، هيلوييز.

"لو أن أوغيست، سيد الكون، قدّر أني جديرة بأن أكون زوجته، لكنت اعتبرت أنه أعزّ عليّ أن أدعى مومستك من أن يقال عني إمبراطورته.

" أي ملك، أي عالم يمكن أن يضاهي سمعتك؟ أي مدينة لا تصاب بهيجان كي تراك؟ الجميع يهرولون ويلاحقونك بعيونهم ورقابهم مشرئبة، حين كنت تظهر علناً. أي زوجة، وأي شابة لم تكن تشتهيك في غيابك وتتحرق في حضورك؟ أي ملكة، أي سيدة نبيلة لا تغار من ملذّاتي ومن مخدعي؟

"كانت لديك موهبة تنعدم عادة لدى الفلاسفة: كنت تعرف نظم أبيات وتغنيها. وتركت أغاني كثيرة، أشهر عالمياً من المعاهدات المعقودة، بين الأمّيين أنفسهم. وبفضلها، كان الجمهور الواسع يعرف إسمك. وبما أن الكثير من الأبيات كانت تتغنّى بملذاتنا، فقد كانت تلك الأغاني تشيع اسمي واسمك في آن معاً وتثير ضدي غيرة كثيرات من النساء.

"وكانت تلذ لي تلك المباهج العزيزة على العشاق والتي تذوقناها معاً. وحتى اليوم، لا أستطيع طردها من ذاكرتي. فهي تفرض نفسها بما تحمله من رغبات. وفي غمرة طقوس العبادة، وفي الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه الصلاة أطهر ما يكون، أنغمس في الملذات من جديد. وأتحسر على الملذات الفائتة. وأعيشها من جديد. . . "

ويجب أن نتذكر أن هذه الرسالة كتبتها رئيسة دير! لم يكن الدين القروسطي متشدداً إطلاقاً. وقد غنى فيون هيلوييز في أغنيته "جولة سيدات

الزمن القديم": أين هي هيلوييز العاقلة جداً/التي كان لها خصيّاً ثم راهباً/بيار أبيلارد في سانت دونيز/[...] ترى أين هي ثلوج الزمن الغابر؟"

وفي إيطاليا عظّم دانتي الصورة الأنثوية لبياتريس في رائعته الميتافيزيقية، الكوميديا الإلهية (1516).

كان هذا القرن الأنثوي أيضاً قرن الحملات الصليبية.

كان العرب قد أصبحوا مسالمين(في زمن العباسيين)، ولكن حوالى عام 1000، استولى على السلطة في بغداد بدو آسيويون اعتنقوا الإسلام، هم الأتراك وأعادوا إلى المسلمين قوة الفتح التي كانوا يتمتعون بها في الزمن الأول. وصارت رحلات الحج المسيحية إلى القدس صعبة.

وقد سحق الأتراك على وجه الخصوص، في عام 1071، في مانزيكرت، الجيوش البيزنطية وغزوا الأناضول التي كانت إلى ذلك الوقت مصانة. وتحولت آسيا الصغرى الإغريقية إلى "تركيا".

ودعا إمبراطور الشرق، ألكسيس كومنين (1081-1118) الذي روت ابنته حياته الرائعة في سيرة رائعة بعنوان، "الألكسياد" (Alexiade)، مسيحيي الغرب لنجدته- وهذا طبيعي. وبلغت استغاثته البابا أوروبن الثاني فدعا في كليرمون إلى الحملة الصليبية عام 1095. (كان الذين شاركوا فيها يحملون الصليب). وسارت حملات الفرسان التي أصرّ الملوك على المشاركة فيها (وسوف يكون القديس لويس وفريديريك بربروس الاستثناء)، بقيادة غودفروا دو بوييون، ودوقات أوكسيتان ونورمانديين. وأعادت فتح الأناضول الغربية لحساب البيزنطيين، ثم انتهت إلى سوريا، وتمكنت من الاستيلاء على القدس يوم 15 يوليو/تموز 1099، وقتلت سكانها. وأنشئت عندئذ مملكة لاتينية في القدس.

ولم يُطرد المزارعون السوريون، المسلمون أو المسيحيون من أراضيهم. وظلت المملكة المسيحية شأناً يخص الفرسان، وسرعان ما افتقرت إلى الجنود. ولمعالجة هذه المسالة، صدرت القوانين غير العادية للرهبان المحاربين ألا وهم الممرضون الرهبان عام 1113 وفرسان الهيكل عام 1118. وهم الذين شيدوا

القصور الفخمة التي لا تزال قائمة حتى اليوم في كل من سوريا والأردن-لأنها لم تتعرض قط للهجوم، ولكنها كانت تُخلى باتفاق، ولم يكن فيها ملك كي تُهدم (كما كان الحال في فرنسا). ونشير بشكل خاص إلى "حصن الأكراد" المنيع. ولكن المملكة اللاتينية، ولافتقارها للهجرة الأوروبية، ظلت هشّة.

وفي عام 1187، سحق سلطان مصر وسوريا، صلاح الدين الأيوبي (1138-1193) الحملات الصليبية في الجليل، ثم استعاد المدينة المقدسة، باسم الإسلام. وتظاهر ملوك الغرب آنذاك بالتدخل، على غرار الفرنسي فيليب أوغيست والانجليزي ريتشارد قلب الأسد. ولكنهم لم يكونوا يفكرون إلّا في ممالكهم واستعادوها بسرعة دون استعادة القدس. والوحيد الذي كان متحمساً كان الإمبراطور الجرماني، فريديريك بربروس، الذي غرق في نهر بصقلية عام 1190.

وقد جلبت الحملات الصليبية معها سمعةً غايةً في السوء لم يكن أكثرها من صنع المسلمين -إذ كان كل من صلاح الدين وقلب الأسد ينتميان إلى العالم الحربي ذاته وكانا يحترمان بعضهما البعض. (فضلاً عن أن صلاح الدين كان قد درس في مدارس مسيحية)-، وإنما من صنع مؤرخي أوروبا الحديثة المفتونين بالإسلام، ألا وهم "المستشرقون".

والحقيقة أن مفهوم "الحرب المقدسة" لم تخترعه المسيحية، ولكن كما قلنا، اخترعه الإسلام-الجهاد-، قبل ذلك بأربعة قرون. وهذا مزعج ولكنه أكيد. وقد تطلب الأمر كثيراً من الذمامة من علماء اللاهوت الكاثوليك كي يستعملوه. وفضلاً عن ذلك، يجدر التذكير بأن الحملة الصليبية الأولى كانت حرباً دفاعية، استجابة لنداء الإمبراطور البيزنطي الذي تعرض للتهديد والغزو- هجوم مضاد ناجح، على وجه الدقة. إضافة إلى ذلك، فقد أعاد الإسلام بسط سلطته في الشرق الأوسط خلال قرن من الزمن.

وان كانت الحملات الصليبية مجللة بالعار، فإن ذلك لم يكن ضد المسلمين، وإنما ضد يهود الشرق ومسيحييه.

وفي عام 1204، تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن دار الإسلام، على يد الدوج البندقي داندولو (الذي كان عمره آنذاك تسعين عاماً) واستولت على مدينة القسطنطينية المسيحية الرائعة التي كانت الحملة الصليبية الأولى، قبل مائة عام، لتدافع عنها! وأنشئت فيها إمبراطورية عابرة، قبل أن يعود البيزنطيون ويستقروا فيها عام 1261 مع ميشال باليولوغ.

وقد قضى الغرب الكاثوليكي على الشرق الأرثوذكسي. وسوف لن تصبح الإمبراطورية الإغريقية، بعد ذلك، أكثر من ظل لنفسها. ونسي الغرب هذا اليوم الكارثي وكبت جانبه البيزنطي (لو أن بلغراد كانت مدينة كاثوليكية، لما قصفت في نهاية القرن العشرين). أما الأرثوذكسية فتتذكر. وهذا جرح عميق يفسر تردد مسيحيي الشرق في التوحد في روما. فضلاً عن أن نهب الصليبيين للقسطنطينية كان بربرياً ودموياً. وإن عام 1204 لهو وصمة عار في جبين مغامرة الحملة الصليبية، وعارها الذي لا يوصف-وليس عام 1099، وهو الهجوم المضاد للمسيحية على المحاربين العرب-الأتراك.

وقد كانت للحملات الصليبية آثار جانبية مفيدة في أوروبا اللاتينية. إذ سمحت للملوك، الذين لم يشاركوا فيها إلّا بالنزر القليل (باستثناء، ويجب أن يقال هذا ثانية، فريدريك بربروس والقديس لويس اللذين قضيا، الأول في مياه نهر الأناضول عام 1190، والثاني قرب تونس عام 1270)، في التخلص من تابعيهم المشاغبين. وعاد السلم إلى الغرب، وكذلك السلطة الملكية.

ومن ناحية أخرى، فقد كان العالمان الجديدان الإسلامي والقروسطي، قد وُجدا ليتفقا، لأن الأسياد الترك كان لهم المفهوم نفسه للشرف الذي لدى الفرسان. كانت المبادلات الثقافية كثيرة. وقد اتخذ الإمبراطور الجرماني فريديريك الثاني، الذي حكم من عام 1220 إلى عام 1250، من باليرم عاصمة له (بعيداً عن ألمانيا إذن) وأحب كثيراً الفنون الإسلامية.

وفي هذا الشأن، علينا أن لا نخشى التخلص من الأفكار المسبقة الاستشراقية التي تمنح الإسلام دوراً مبالغاً فيه. ولا نقلل من عظمة الحضارة

العربية إذا قلنا إن الغرب لا يدين لها إلا بالقليل جداً. فإسبانيا العربية، "أندلس" قرطبة، كانت دون شك ساطعة وكذلك أندلس غرناطة (وجزئياً أيضاً بفضل اليهود). ولكن لأنها فُصلت عن العالم المسيحي بمناطق حربية، فلم تكن لها الأهمية التي تعطى لها اليوم.

وكان التأثير الأهم على العالم المسيحي هو تأثير بيزنطة، التي نكبُت دورها التاريخي. وإمبراطورية الشرق هي التي حافظت على الثقافة الإغريقية اللاتينية. وهي أيضاً التي حضّرت بدو النبي محمد الذين جاؤوا من الصحراء، فرسان الله الذين أخضعوا سوريا ومصر؛ إذ، لولا وساطتها، أنَّى لهؤلاء البدو أن يقرأوا أرسطو وأفلاطون؟

والواقع أنه من كل مائة معلومة استوعبها العالم المسيحي القروسطي، كان النصف يأتي من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (التي تأثرت هي نفسها ببيزنطة، التي انعقدت قربها المجامع الدينية المؤسسة للمسيحية)، وثلاثون تأتي من القسطنطينية (ساهم الصليبيون فيها بشكل كبير، وما انفكوا يعبرون الأراضي البيزنطية للذهاب إلى الشرق) وعشرون فقط تأتي من الإسلام-وحتى هذا كثير. ونستطيع أن نميز، تحت تأثير المبالغة في الدور الحضاري للإسلام، نوعاً من "كره الذات" لدى الغربيين. وعلى أية حال، فهذا غير علمي أبداً.

ولعل أهم أثر للحملات الصليبية كان إعادة التفوق البحري للغرب. وقد لعبت المدن التجارية وسفنها دوراً أساسياً. لا سيما جنوة والبندقية. وقد تطرقنا إلى الدور المشؤوم الذي لعبه دوج البندقية عام 1204. ولكن البحارة الإيطاليين لعبوا منذ البداية دوراً حاسماً في الحملات الصليبية.

والمدينتان تتعارضان في كل شيء، على غرار ضفاف المتوسط النموذجية التي توجدان فيها. وفي جنوة، يعانق الجبل البحر؛ أما في جنوة فعلى العكس، فالبحيرات الشاطئية تفيض على الأراضي المنبسطة. وكانت المدينتان تتنافسان واندلعت بينهما حرب (و شهدت أشرسها ألا وهي حرب شيوغيا (Chioggia)، بين عامي 1378 و1381، استقرار الجنويين حتى ضفاف البحيرة البندقية)،

ولكن البندقية انتصرت في النهاية. ويمكن أن نرى في هذا حتمية جغرافية :فقد كانت الجونات الصخرية الجنوية تفصل بين القرى، مؤدية إلى التشتت، في حين أن التحكم في فيضان مياه البحيرة الشاطئية يقتضي وجود سلطة قوية وممركزة.

وبعد عام 1204، هيمنت البندقية على إمبراطورية بحريَّة حقيقية، "دولة بحرية: "الدالماسي، سبليت، زارا، اليونان وجزرها. وامتلكت كريت وقبرص. وكان البيلوبينيز بندقياً حتى القرن الثامن عشر، وكذلك الجزر الإيونية إلى أن احتلها نابليون. وكانت البندقية تتاجر من الصين إلى البلطيق (وكان ماركو بولو بندقياً). وكانت تمارس المحاسبة بالقيد المزدوج والكمبيالة. وكانت ترسانتها، حيث تصنع السفن الحربية، لزمن طويل، أكبر مصنع في العالم. وقد تحدث عنه دانتي في "الكوميديا الإلهية". ولم تتمكن جنوة أبداً من تجاوز الممرات التي كانت تشرف عليها؛أما البندقية فكانت لها على العكس، أراض واسعة (فيرون وبادو).

وبقيت البندقية جمهورية قروسطية أرستقراطية: "سيرنيسيم جمهورية مسيطرة". ونحن نسميها بشكل عام بال"سيرينيسيم" (الحكيمة جداً)؛ وكان المعاصرون يسمونها عموماً "المسيطرة". بيد أن حكوماتها كانت تثير إعجاب الكثيرين. وكان مجلس الشيوخ قد فهم على وجه الخصوص أنه يجب دفع أجور سخيَّة للعمال، ولم تعرف البندقية النزاعات الاجتماعية التي مزقت المدن القروسطية الأخرى. كما نجت أيضاً من الاستبداد وظلت"جمهورية". وقد عرفت البندقية في النهاية كيف تخترع هندسة معمارية أثارت إعجاب فروسار (Froissart)، الذي تحدث عن "أكثر مدينة ظافرة" رآها في حياته.

وهكذا فقد سيطر البحارة الإيطاليون على المتوسط، كما فعل الفينيقيون والإغريق قبل ألفيتين من الزمن.

وانتهت ذروة المتوسط في القرن الخامس عشر.

وقد انتشر في البداية وباء الطاعون الفتاك ثم اكتسح "الطاعون الكبير" في البداية أوروبا من 1347 إلى 1352، دون أن يختفي تماماً أبداً بعد ذلك. وإليه

يعود تاريخ "رقصات الأموات". وقد فتك الطاعون خلال بضع سنوات بنصف سكان أوروبا وربما آسيا أيضاً (إذ بلغ الوباء الصين). ولم يكن الناس يجدون متسعاً من الوقت لدفن موتاهم، فكانوا يحرقونهم أو يكدسونهم في حُفر جماعية.

كانت تلك بحق كارثة مريعة. ولكن العالم المسيحي أثبت صلابته بأن صمد أمامها.

وفي الوقت ذاته، ولأن "المصائب لا تأتي فرادى" كما يقول المثل(وربما كانت فعلاً مرتبطة ببعضها)، فقد انتهت الذروة المناخية. وبرد الطقس العام، مخرجاً الفايكينغ من غرونلاند. وهنا بدأ طقس أشد قسوة. وهو ما يسميه المختصون "العصر الجليدي الصغير": لم يكن تجمداً بمعنى الكلمة، وإنما برودة قاسية. فتجمد نهير السين في الشتاء. وسوف يدوم هذا العصر الجليدي الصغير خمسة قرون، إلى غاية حرب 14-18. ولم يبدأ فعلياً الاحتباس الحراري الذي يحدثوننا عنه كثيراً، وليس ذلك اعتباطاً، إلّا ابتداء من عام 1960.

ومع الطاعون والبرد كانت الأزمنة المسيحية القروسطية السعيدة قد انتهت. ولكننا نستطيع اليوم أن نعتبر تلك القرون الثلاثة من أخصب قرون البشرية ونقارن "المعجزة القوطية" بـ"المعجزة الإغريقية"، وحتى أن نعطي الأفضلية للأولى (المرأة والتقنيات) على الثانية؛ خصوصاً وأن منحنى التقدم لم يتوقف قط من القرون الوسطى حتى يومنا هذا.

ميلاد الأمم

حرب المائة عام

عرف القرن الرابع عشر كارثة أخرى ألا وهي حرب المائة عام. وخلف هوغ كابيت في فرنسا خَلَفَه المباشر حتى عام 1328. وفي هذا التاريخ تواجه

متنافسان على العرش: وهما ابن أحد إخوة الملك الراحل، فيليب دو فالوا، وابن ابنته (حفيد) إدوارد، الذي كان قد صار ملك انجلترا تحت اسم ادوارد الثالث وطالب بتاج فرنسا عام 1337.

وكانت القرون الوسطى قد اخترعت الشرعية الملكية الوراثية، واضعة بذلك حداً لأكثر المواضيع إزعاجاً في الإمبراطورية الرومانية، ألا وهو الشك بشأن خلافة الحكم. إذ لم يكن هناك شغور سلطة في الملكية القروسطية : وكان المشرعون يقولون "مات الملك، عاش الملك"، مؤكدين بذلك على أن موت الملك يفضي تلقائياً إلى تقلد وريثه السلطة.

كان هناك ترتيب للتعاقب على الحكم. وعند موت شارل الرابع، عام 1328، كان أقرب أقاربه برابطة الدم هي ابنته، والدة ادوارد الثالث. وفي القانون القروسطي، لم يكن في القضية أي شك. ولكن بارونات فرنسا لم يكونوا يريدون ملكاً "أجنبياً". فاستندوا إلى قانون إفرنجي، هو شريعة الإفرنج التي كانت تقصي النساء من ترتيب وراثة الحكم. وقد كانوا مخطئين في نظر القانون الإقطاعي ولكن الرأي العام الفرنسي كان يراهم على صواب. كانت تلك بداية حرب المائة عام. فمن نزاع بسيط على الحكم لم يكن يشغل الشعوب كثيراً تحولت إلى حرب فرنسية انجليزية.

كانت مملكة فرنسا بسكانها الخمسة عشر مليوناً، أكثر بلدان أوروبا سكاناً؛ ولم تكن انجلترا تعد أكثر من أربعة ملايين نسمة. لكن المفارقة كانت تتمثل في أن تصور"الملك القومي" الذي كان "تقدمياً" في تلك الفترة كان يدافع عنه الجيش القديم للفرسان الذين كانوا يقاتلون "كل وشأنه " بينما كان التصور "الرجعي" للمطالب بالعرش في لندن مدعوماً من جيش عصري جداً من البرجوازيين المنضبطين.

وقد مني الفالوا (Valois) الطامعون في العرش بسلسلة هزائم دامية فتكت بسلاح الفرسان الفرنسي : كريسي عام 1346 وبواتيي عام 1356 التي زج فيها بجون لو بون (Jean le Bon) في السجن.

ومع الفالوا شارل الخامس وجنراله دو غاسكلين، حدث انتعاش، لكن ابنه شارل السادس كان مريضاً عقلياً وبهذه المناسبة وجد الطامعون في الملك من وراء المانش حلفاء لهم في القارة؛ خاصة دوق بورغونيا القوي (1404-1419)، الذي كان يبسط انطلاقاً من مدينته الجميلة ديجون إقطاعيته حتى الفلاندر. وكانت طبقة النبلاء "البُرغونية" التي كانت دارجة أكثر في فرنسا، تفضل صراحة الأسياد الانجليز على ملك باريس البائس المجنون. ولم يكن لديها أيضاً أي شعور قومي (وسوف يكون ذلك غالباً حال الطبقات الحاكمة في فرنسا).

في 25 تشرين الأول/اكتوبر1415، سُحق في أزينكورت ما تبقى من سلاح الفرسان الوفي للفالوا. وفي عام1420، وضعت اتفاقية ترُوي حداً نظرياً للنزاع السلالي بإقرار المطالب بالسلطة الانجليزي ملكاً لفرنسا تحت اسم هنري الخامس. ولأنه كان طفلاً صغيراً آنذاك، فقد استقر في باريس وصيٌّ على العرش انجليزي، هو الدوق بادفورد.

وظل هناك شخص فالويّ، هو النحيل شارل، المنفي جنوب لالوار، لكن فرنسا الأغنى، من لاسوم إلى لالوار، كان يحتلها الإنجليز-وكانت بُرغونيا شبه مستقلة.

كان هذا يعني نسيان الرأي العام، "رأي ناس المملكة الطيبين". إذ إن فرنسا كانت قد بدأت في الوجود في قلوبهم. وكان هذا الاندماج العبقري للمتوسط وبحار الشمال، والذي نشأ بطريقة تشبه الصدفة في اتفاقية فردان عام 834، قد نجح. وكان "محبوباً" من قبل.

وفضلاً عن ذلك، فإن السلطة الوحيدة فوق القومية الموجودة في تلك الفترة ألا وهي الكنيسة، كانت مقسمة بـ"الانشقاق الكبير": كان عدة باباوات يتنازعون السلطة الكهنوتية بين أفينيون وروما. واقتضى الأمر وجود مجمع كهنوتي عام1417، في كونستانس لإنهاء الانشقاق، ولكن هيبة البابوية كانت قد تزعزعت. وفي بوهيميا، كان بطل تشيكي يدعى جون هوس (1369-1415)،

قد جعل الشعب يثور ضد روما. وفي كل مكان تقريباً، كان الشعور القومي يتجاوز الشعور بالوحدة الكاثوليكية.

وكان الطامعون الانجليز في التاج الفرنسي قد ارتكبوا خطأ إنكار هذا الشعور القومي. ولأنهم سادة إقطاعيون كبار في المملكة (وفوق ذلك يتحدثون الفرنسية)، فقد كان باستطاعتهم أن يستخدموا الجيوش الفرنسية لدعم نزاعهم. ولدواعي السهولة (إذ كانت انجلترا خاضعة لهم أكثر) والحداثة (كان الجنود الانجليز رماة ومشاة أكثر انضباطاً)، فقد فضلوا استخدام الجنود القادمين من وراء المانش، والذين كان الفلاحون الفرنسيون يلقبونهم بـ"الغودون"، لأنهم كانوا يقسمون بالانجليزية بقولهم: اللعنة!.

وكان هذا خطأ قاتلاً وأدى إلى تدخل شخصية من أغرب الشخصيات في التاريخ: ألا وهي جان دارك. كان الفرنسيون يريدون أن يحكمهم قادة يشاطرونهم ثقافتهم. وكان لإغريق العصور القديمة ذات المطلب الذي برَّر حربهم ضد الفرس. ولكن الوطنية لم تكن قد جاوزت من قبل إطار المدينة، لأن الإمبراطوريات كانت متعددة الثقافات. وتمثلت المعجزة الفرنسية، وقد أشار إليها المؤرخ بيار شونو، في أنهم حولوا إلى حقيقة عظيمة (بالنسبة للعصر) الحماسة التي كان يظهرها المواطن الأثيني الذي كان يستطيع تأمل القلعة من منزله أو حقله.

كانت جان المولودة عام 1412 في دومريمي، في لاموز، على حدود المملكة ذاتها - ومنها جاء لقبها "لوران" - ابنة عائلة فلاحين وجهاء.

وفي هذا البلد، ظل القائد المحلي في فوكولور، مناصراً للفالوا، وكذلك كان الفلاحون. فالناس في القرية كانوا مطلعين جيداً. لم يكن هناك لا راديو ولا تلفزيون ولا جرائد، ولكن الناقلين كانوا يحملون إلى جانب بضاعتهم آخر الأخبار. وكانت جان تهتم بالسياسة أكثر من معظم الشباب في مثل سنِّها (السادسة عشرة) اليوم. وكانت ترثي "لحال مملكة فرنسا المزري".

وكانت العامة تردد هذه اللازمة التي تظهر إلى أين كانت عواطفهم تتجه:

"يا أصدقائي ما الذي بقي لهذا الدوفان الطيب جداً؟" (وكلمة الطيب تعني هنا "ودوداً" وكان الدوفان هو شارل). وتُعدد الأراضي النادرة التي لم يحتلها الانجليز: "أوليان، بوجونسي، نوتردام دو كليري، فوندوم."

ونفهم أن خبر حصار الغزاة لأورليان قد زعزع القرية. وظنت جان أنه يجب الذهاب لنجدة الدوفان (وهو إسم ولي عهد فرنسا: بحكم العادة "أمير الدوفيني"، كما أن وليّ عهد انجلترا هو "أمير الغال"). وهذا تفكير عادي بلا شك بالنسبة لمواطنة. ولكن الرائع، هو أنها اعتقدت أنها تستطيع وهي الفتاة ذات السبعة عشر عاماً أن تحرر البلاد. ولأن هذه الفكرة استبدت بها (أصواتها)، فقد ذهبت لتُبلغ بها الإقطاعي المحلي، سير بودريكور الذي أعادها إلى أبيها. ولكنها ألحّت مرات ومرات (كانت فوكور تقع على مسافة عشرة كيلومترات من دومريمي) حتى أعطاها القائد مرافَقة صغيرة العدد وحصاناً. وبثلاثة أو أربعة فرسان معجبين بها عزمت في شباط/ فبراير 1429 الذهاب للانضمام إلى الدوفان.

كان شارل يقيم آنذاك جنوب لالوار، في شينون. فارتدت جان ثياباً رجالية، وقطعت على صهوة جوادها (لأنها كانت تجيد ركوب الخيل كما يليق بابنة أشراف)، خفية وغالباً ليلاً - للإفلات من الجنود الانجليز-، وفي عز الشتاء وعبرت أرجاء فرنسا المحتلة، حوالى 500 كيلومتر في ثلاثة أسابيع. ووصلت إلى شينون يوم 8 مارس/ آذار 1429.

فأرسلها شارل إلى بواتيي لتفحصها دايات (فحص عذرية) وخبراء. ولم تكن عذرية جان مفاجئة: إذ لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة وكانت مخطوبة. ولم يكن ذكاؤها مفاجئاً أيضاً. ورداً على قانونيي الدوفان الذين سألوها تحديداً: إذا كان الرب يريد رحيل الانجليز فما حاجته إلى الجنود؟، كان جوابها: "المحاربون يقاتلون والرب يمنح النصر."

وفي الأخير عزم الدوفان على أن يلعب مع جان الورقة الأخيرة. فسمح لها بمرافقة الجيش الفرنسي الأخير إلى أورليان. كان هذا الجيش بقيادة رجال

أقوياء البنية. وذهل دونوا (Dunoit)، دعيّ أورليان، دوق ألنسون، وجيل دو رايس، من هذه الشابة (ولم يكن لقب"عذراء "يعني ببساطة "شابة"). وحررت أورليان وفي يوم 18 يونيو/ حزيران 1429، سُحق الجيش الانجليزي في باتاي (Patay).

ولكن جان كانت لها عقلية سياسية فأدركت أن النصر العسكري لا يكفي لتأسيس شرعية الدوفان. وأقنعت هذا الأخير بأن يذهب لكي يتوجّه مطران رايمس، ورافقته إليه.

وقد أحدث تحرير أورليون وشخص جان نوعاً من الثورة العامة للفلاحين. ومع أن رايمس كانت تقع في فرنسا المحتلة فقد تراجع الانجليز الذين كانوا يعانون إلى نورماندیا. وفي يوليو/تموز1429، تُوّج شارل في رايمس تحت اسم شارل السابع. وهكذا كانت المعركة السياسية قد ربحت.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد شارل السابع يحمي العذراء إلّا من بعيد. وبعد احتلال كومبيان، أسرها البورغينيون وباعوها للإنجليز. ولأن هؤلاء كانوا يودون إفقادها اعتبارها، فقد حاكموها في روان على أنها ساحرة. وتعد محاكمتها نموذجاً للمحاكمة السياسية. وأحرقت جان يوم 30 مايو/ أيار 1431. وكان عمرها آنذاك تسعة عشر عاماً. وبعد ذلك بعشرين سنة، أمر شارل السابع، الذي لم يكن يريد أن يأتيه عرشه من ساحرة، بتنظيم محاكمة إعادة اعتبار، وفي نهايتها تم الطعن في حكم الإدانة بسبب ممارسة السحر.

وقد كتب أندري مالرو عن جان تأبينية رائعة.

"كانت جان تفيض أنوثة. وأبدت مثلها من السطوة. وكان القادة ساخطين على هذه الفتاة البلهاء الثرثارة التي كانت تدَّعي أنها تلقّنهم فن الحرب. وفي هذا العالم حيث كان يسابو دو بافيار قد وقّع في تروي على موت فرنسا بأن دوّن في يوميته شراء قفص طيور جديداً، في هذا العالم الذي كان فيه الدوفان يشك بأنه الدوفان، وتشك فرنسا بأنها فرنسا، ويشك الجيش بأنه جيش، أعادت تشكيل الجيش، والملك، وفرنسا-ولم يكن هناك شيء: وفجأة بزغ الأمل-و بها تحققت الانتصارات الأولى التي جددت قوة الجيش. ثم بسببها

وضد جميع القادة العسكريين تقريباً، تم التكريس الذي أعاد الاعتبار للملك. . .

"وبعد عشرين سنة من وفاته، أمر شارل السابع، الذي لم يكن يعبأ بأنه كان قد كرّس بفضل ساحرة، بمحاكمة إعادة اعتبار.

"وجاءت والدته لتقديم رسالة البابا التي ترخص بالمراجعة. وجاء الماضي كله وخرج من الشيخوخة كما يخرج المرء من الليل. كان ربع قرن قد انقضى، وكانت صفحات جان قد صارت رجالاً ناضجين.

" كان الجميع قد عرفوا هذه الفتاة، والتقوا بها. وكان دوق ألنسون قد رآها، ذات ليلة، عارية أثناء ارتدائها ثيابها، حين كانت وغيرها كُثُر ينامون على القصب:

" قال إنها كانت جميلة، لكن لم يجرؤ أحد على اشتهائها. "

وأمام النسّاخين النابهين، تذكر القائد الحربي هذه الدقيقة، قبل سبع وعشرين سنة، على ضوء القمر. "

وليست قصة جان دارك بالأسطورة. إنها امرأة القرون الوسطى التي نملك بشأنها أفضل الوثائق لأنه كانت هناك قضيتان واحدة بالإدانة والأخرى بمراجعة الحكم. وهما "قضيتان كبيرتان" كما شعر بهما رجال القانون في ذلك الزمن والتي لا تزال لدينا عنها مئات الصفحات من القضية، وفي عدة نسخ: التحقيقات، الشهادات، إلخ.

وهذه المغامرة القصيرة والرائعة غنية بالعبر.

أولاً، أهمية الولاء الشعبي (وقد أشرنا إليه من قبل بخصوص أثينا بريكليس): كانت جان حاملة لواء الشعب الفرنسي. وقد حركت الرأي العام، وبعدها فوراً وُضع عنفوان الفلاحين الانجليز في وضع صعب. إنه لمن السخف التخلي عن صورة جان دارك واستبدالها بصورة لوبان (Le Pen). فجان كانت مقاومة قبل كل شيء. وان كان هناك شخص مغفل، فهو الأسقف كوشون (Cauchon) الذي حكم عليها في روان وليست هي. كما أنها لم تكن تكره الانجليز؛ وكل ما كانت ترغب فيه هو أن تراهم يعودون إلى بلادهم.

ويسمح دور النبوئية في القرون الوسطى بتفسير أهمية جان. وقصتها اليوم غير مفهومة لدينا. فقد لا تستقبل جان في الإليزيه. وقد لا يطيع الجنرالات أوامرها. ويحاول مؤرخون غريبو الأطوار أن يجدوا لقصة جان جوانب خفية. يقولون إنها كانت قريبة مخفيَّة للدوفان، وغيرها من الترهات. وكل هذا سخيف! كان الملوك القروسطيون يعتقدون أن الرب يمكن أن يخاطبهم بوساطة أي كان. وكانوا يعتقدون (مثل إسرائيل التوراتي) أن هناك أنبياء. كانت جان نبي الروح الوطنية الفرنسية. وكان قول مأثور كهنوتي يؤكد أن "صوت الشعب هو صوت الرب".

وأخيراً، تؤكد قصة جان، بعد قصة هيلوييز (التي كانت في عمرها، لكنها تنحدر من وسط أدبي باريسي، لا من وسط ريفي من الأقاليم) النسوية القروسطية الرائعة. ورغم المظاهر، فإن عصرنا أقل نسوية بكثير من عصر جان. وعلينا أن لا ننسى أنها لم تكن إلّا شابة في السابعة عشرة، في لحظة انتصاراتها، عام 1429. والحال أن هذه الفتاة قد غيرت فعلياً تاريخ العالم؛ وقد كانت فرنسا وانجلترا، أقدم أمم أوروبا، القوتين الأوليين في ذلك الوقت أيضاً.

ويمكن أن نضيف أن إفلاس النخب أمر شائع. ففي حين كان الجنرالات ورجال القانون والأساقفة والبارونات يتعاونون مع العدو أو ينامون استطاعت فتاة مغمورة أن تحيي فرنسا.

الاكتشافات الكبرى
وموت الحضارات
ما قبل الكولومبية

في القرن الخامس عشر يتغير ركح المسرح.

وأُعلن عن التغيير بخبر سيء بالنسبة للعالم المسيحي ألا وهو احتلال الأتراك للقسطنطينية في 29 مايو/أيار 1453.

ويتذكر بعض المؤرخين هذا التاريخ باعتباره نهاية القرون الوسطى وبداية "الأزمنة الحديثة" . وقد رأينا الأتراك، أولئك البدو الذين أسلموا يستولون على بغداد عام 1055 ويضعون سلطانهم على رأس الإسلام (السلاجقة) الذي منحوه مجدداً قوة الغزو التي شنت هجوماً مضاداً على الحملات الصليبية. ولكن لأن إمبراطورية الشرق كان قد أضعفها "السطو المسلح" عام 1204، فقد استأنف الأتراك الهجوم. ونجح السلطان محمد الثاني في احتلال القسطنطينية؛ وخلال الهجوم مات الإمبراطور البيزنطي الأخير قسطنطين الحادي عشر ميتة عظيمة.

والغريب أن الغرب، باستثناء بعض النجدات من البندقية وجنوة، بدا غير عابئ بسقوط بيزنطة. مع أن العثمانيين لم يكتفوا بالقسطنطينية، ولكنهم غزوا البلقان، في عهد أحد خلفاء محمد الثاني، هو سليمان الأعظم (1494-1566). وسوف لن يتوقف الأتراك إلّا قرب فيينا، عام 1529 على يد النمساويين. وسنراهم مجدداً يهاجمون فيينا عام 1683؛ وسوف لن تُدمر السلطنة العثمانية إلّا عام 1918. ولن نفهم شيئاً من المشكلات الحالية للبلقان إذا نسينا السلطنة العثمانية.

إن سقوط القسطنطينية ليبدو نصراً عظيماً للإسلام. بيد أن هناك ثلاثة تحديدات:

أولاً: إن العالم المسيحي في جنوة قد حافظ على هيمنته البحرية في المتوسط. وكان الأتراك جنود مشاة، ولم يكن لديهم من البحارة سوى القراصنة البربريين (مدينتا الجزائر وتونس)، الذين كانوا قساة على سجنائهم ومزعجين لموانئ الصيد، ولكنهم لم يكونوا خطرين حقاً. حتى أن جنوة والبندقية استفادتا من الهيمنة العثمانية على البلقان (فقد احتفظت البندقية بالجزر، البيلوبونيز، كريت، وقبرص). ولم يكن تجار الجملة هؤلاء يهتمون بالدين، وفي غير أوقات الأزمة، كانوا يتاجرون مع "الباب العالي" (وهو الاسم الرسمي للحكومة السلطانية) الذي كان في نظرهم يعوض ببساطة الإمبراطورية الرومانية للشرق.

ثم إن البيزنطيين، قبل أن يفقدوا استقلالهم، كانوا قد "سلّموا مشعل" ثقافتهم والأرثوذكسية إلى قادم جديد ألا وهو روسيا. بدايةً في كييف، التي كان ملكها فلاديمير قد اعتنق المسيحية، وتزوج أخت بازيل الثاني عام 988؛ ثم ابتداء من القرن الرابع عشر، في موسكو حيث انتهى إيفان الرهيب (1530-1584) بالاستيلاء على اللقب الإمبراطوري (تسار=قيصر).

وأخيراً، وعلى وجه الخصوص، فقد أطلق الأوروبيون أيدي الأتراك لأن الغربيين من هنا وصاعداً سوف يديرون ظهورهم للشرق القديم: وكانوا قد ذهبوا لفتح أقطار الأرض. ولم ينتبه المسلمون إلى أن عالمهم السهلاني قد حُوّر وأصبح، بطريقة ما، "محلياً".

وللمفارقة، فقد أثار سقوط القسطنطينية ما يسمى "النهضة".

وأثناء الحصار؛كان مئات المثقفين والزعماء الإغريق قد فروا من المدينة وذهبوا إلى إيطاليا. ونجح الكثيرون؛ ومنهم بيساريون (1400-1472) الذي أصبح كاردينالاً في روما وأسس مكتبة البندقية.

وقد أحدث هؤلاء المثقفون في الغرب ثورة حقيقية.

قد يقال إن الصفة المميزة لـ"الحداثة"، وما يميزها عن الحضارات "التقليدية"، هو تمجيد الفرد والروح النقدي والتغيير.وهي ثلاث خصائص لم تجتمع من قبل.

وقد كان العصر القديم يمارس اثنتين منها: إذ عرف الفردانيات اللامعة (الإسكندر، هنيبعل، قيصر) وحساً نقدياً قوياً إلى حد الكلبية (ديوجين)، لكنه لم يكن يدرك جيداً التغيير، لأن رؤيته للزمن كانت رؤية "العودة الأبدية" (التي نجدها حتى في التوراة: "لا جديد تحت الشمس"، كما كتب سفر الجامعة).

وفي القرون الوسطى اثنتان أيضاً: فقد كانت ملائمة للأفراد (والمغامرة الرائعة لجان دارك دليل على ذلك) وكانت تحب التغيير. وقد رأينا كم من الاختراعات الكبرى (البوصلة، المدفع) استطاعت أن تزدهر في تلك الفترة.

لكن القرون الوسطى لم تكن منفتحة جداً على الروح النقدية، بسبب تأثير الكنيسة الكاثوليكية.

وعندما توافد مئات المثقفين الإغريق الفارين من تركيا إلى إيطاليا حاملين معهم تحديداً هذا الحس النقدي الذي كان غائباً-وجزءاً كبيراً كاملاً منسياً من العصر القديم (ولا سيما أفلاطون، المثل الأعلى للكاردينال بيساريون).

وللمرة الأولى على وجه الأرض اجتمعت خصائص الحداثة: المبادرة الفردية وحب التغيير والحس النقدي. وكان الانفجار.

وهذا يؤكد ما حدسناه منذ البداية: فالتاريخ يتوقف إلى حد كبير على العوامل الايديولوجية أكثر منه على العوامل الاقتصادية. ورغم المظاهر، فإن الأفكار هي التي تقود العالم.

وكان لهذا الانفجار فاعلان أساسيان هما بلدان جديدان: إسبانيا والبرتغال.

ومنذ الغزوات العربية، كان تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية تاريخ معركة الأمراء المسيحيين الصغار، الذين حافظوا على استقلالهم قرب البيرينيه، ضد المسلمين - وهي معركة تسمى معركة الاسترداد (Réconquista).

في عام 1469، تزوجت إيزابيل دو كاستي، وهي عاهلة مملكة مسيحية قارية من فرديناند ملك أراغون، وهي مملكة بحرية حوالى برشلونة وفالانسيا. وقد ضاعف هذا الاتحاد قوة "الملوك الكاثوليك".

وفي عام 1492، استولوا على مدينة غرناطة العربية الرائعة (قصر الحمراء) وطردوا المسلمين منها (وكذا اليهود "السفرديم" الذين كانوا ينتشرون غالباً في السلطنة العثمانية). وكانت حرب الاسترداد قد انتهت، وتأسست القوة الإسبانية.

كان سلاح المشاة الأيبيري العظيم الذي عركته حرب الاسترداد يستعد لغزو المغرب والجزائر، عندما غيّر حدث طارئ مجرى السيل الإسباني: وشجعت إيزابيل دو كاستي إرسال بحار من جنوة (وقد نشأ منذ ذلك الحين انسجام بين

بحارة جنوة وإسبانيا) كان يريد اختصار طريق السلطنة العثمانية لتجارة "البهارات"، تلك البضائع النفيسة (حرير، فلفل) التي كانت تصل منذ الأزمنة الغابرة من الهند والصين. وكانت هناك بين الهند والصين وإسبانيا، السلطنة العثمانية، التي كانت تقتطع ضرائب ثقيلة على العبور.

وكان كريستوف كولومبس قد قرأ علماء العصور القديمة، وكان يعتقد، شأن مثقفي الإسكندرية الهلينية، أن الأرض كانت كروية. والأرجح أنه كان يعرف أيضاً "خرائط الفايكينغ البحرية". وكانت فكرته بسيطة وعبقرية: ألا وهي بلوغ الصين بالإبحار نحو الغرب عبر المحيط.

وكان يستطيع تحقيق هذه الفكرة، إذ إن الملاحة كانت قد حققت تقدماً كبيراً. وكان المركب السريع ذو الأربع صواري، وهو اختراع بندقي، يسير منذ عام 1415 بقوة أشرعته ودفة حاملة السكان. وهذا لأن البندقية كانت على اتصال بالصين، حيث كانت تسيّر في تلك الفترة خيزرانيات دون مجذّفين، مجهزة باثني عشر شراعاً حريرياً. ولكن معرفة "ميكانيكا القوى" هي وحدها التي سمحت للغربيين بمحاولة الإبحار عكس اتجاه الريح (تفوق الأفكار من جديد!). وهي وحدها التي تفسر أننا لا نرى أبداً الخيزرانيات الصينية تصل إلى الغرب. وقد تجسر الأيبيريون على الملاحة في قلب البحر، أي "ملاحة أعالي البحار".

والجميع يعلم أن مراكب كولومبس الثلاثة ذات الأربع صواري كان قد منعها من الوصول إلى الصين حاجز مفاجئ ألا وهو أميركا.

وقد وطئتها قدما كريستوف كولومبس يوم 12 أكتوبر/ تشرين الأول 1492.

ولم يدرك للتو أنه كان في قارة جديدة. ولكن جغرافيّاً ألمانيّاً هو الذي فهم الأمر وأعطاها خطأ اسم بحار بندقي (Amerigo Vespucci Amerigo = Amérique) في خدمة إسبانيا، ألا وهو أميريغو فيسبوتشيو. وهذا ما

جعل كولومبس الذي كان يتخيل نفسه في الهند، يسمي السكان الأصليين "هنوداً". ولا يجب الخلط بين الهنود الأميركيين وسكان الهند.

وكانت سنة 1492 سنة حاسمة شهدت احتلال غرناطة واكتشاف أميركا. وبدل الانتشار في شمال أفريقيا، تغيَّر اتجاه القوة الإسبانية نحو العالم الجديد.

بيد أن البرتغاليين هم من اخترعوا الملاحة في أعالي البحار.

كان البرتغال قد نشأ قبل قرن، ولأنه يميل بجغرافيته إلى عرض البحر، فقد اهتم بالمحيط الأطلسي قبل الكاستيانيين والكتلانيين. وكان المدرب الحقيقي على رحلات ارتياد أعالي البحار هو الأمير البرتغالي هنري الملّاح (1394-1460). ومن قصره في "مقاطعة "رأس ساغريس البرتغالية شجع الرحلات الاستكشافية البحرية. وفي عام 1445، كانت المراكب البرتغالية السريعة ذوات الأربع صواري قد تجاوزت الرأس الأخضر. وفي عام 1471، كانت قد تجاوزت رأس الرجاء الصالح، ملتفة حول أفريقيا من الجنوب (كما فعل الفينيقيون، كما يقال، قبل ألفي عام، ولكن في الاتجاه المعاكس). وبعد موت هنري، استمر التوسع: وفي عام 1498، رسا فاسكو دي غاما، في كاليكوت، في الهند.

وان كان الإسبان قد فضلوا طريق الغرب، فقد فضل البرتغاليون طريق الشرق. وأسسوا من عاصمتهم لشبونة "دولة بحرية" عملاقة بإنشاء محطات على طريق الهند: في الرأس الأخضر، وفي أنغولا (وحتى في البرازيل، حيث حرفتهم العاصفة)، وفي موزنبيق. وأنشأوا في الهند وكالة تجارية مزدهرة في غوا (وسوف تبقى برتغالية حتى عام 1962)، وفي الصين وكالة مكاو (التي لم تُرد إلى الصين إلّا عام 1999!). وبين الصين والهند، كانوا يسيطرون أيضاً على مضائق ماليزيا مع مالاكا.

وقد فرض كابرال في البرازيل (1500) وألبوكارك (1453، 1515) في أورموز تفوقاً بحرياً لوسيتانياً في المحيطات الأطلسي والهندي والهادي.

وكان البرتغاليون أكبر الملاحين في التاريخ. ونورد الملاحظة ذاتها

المذكورة آنفاً بشأن الدنمرك: فالبرتغال ليس "بلداً صغيراً". وكانت دولة محيطية لا تزال لغتها تستعمل في البرازيل وأفريقيا وحتى في تيمور (في أندونيسيا).

وقد بلغ قمة هذه الملاحة في أعالي البحار شخص برتغالي يدعى ماجلان- وإن كان مموّلاً من مملكة إسبانيا.

وقد أخذ ماجلان طريق غرب إسبانيا. وفي أكتوبر/ تشرين الأول 1520، نجح في الالتفاف في الجنوب على أمريكا عبر المضيق الذي يحمل اسمه. وفي يوم 28 نوفمبر/تشرين الثاني، دخل أكبر محيطات الأرض (وسماه الهادئ لأنه، ومصادفة، لم يواجه أي عاصفة). وقد قُتل خلال مشادة مع السكان الأصليين للفلبين (ويسمى كذلك بسبب الملك الإسباني فيليب الثاني). ولم يعد إلّا مركب واحد إلى إسبانيا عام 1522.

كانت أول رحلة حول العالم قد تمت، وقد دامت ثلاث سنوات!

كان هؤلاء الملاحون أجسر بكثير من رواد الفضاء الحاليين. وقد كان هؤلاء في الواقع، مرتبطين بعلاقة ثابتة بقاعدتهم، التي كانت تسدي لهم المشورة دائماً. أما بحارة ماجلان، فلم يكن لهم أي اتصال مع أحد طيلة شهور!

ولكن البرتغال لم يكن قوياً بما يكفي ليجعل دولته البحرية تستمر. وإسبانيا هي التي أسست إمبراطورية "لا تغرب عنها الشمس". واكتفى البرتغال بـ"وكالة تجارية"، أما الإسبان فكانوا سيغزون داخل الأراضي. وخلف "المغامرون" الملاحين.

وكانت تشغل داخل الأراضي الأمريكية حضارات جميلة، تسمى "ما قبل كولومبية" (ما قبل كولومبس).

وقد أشرنا إلى أن الأميركيتين كان يشغلهما منذ ما قبل التاريخ بشر عبروا سيراً على الأقدام مضيق بارينغ، وانعزلوا هناك بعد ذلك منذ صعود البحر.

ولهذا السبب مازالوا يتحدثون لغات جنوب شرق آسيا-وهكذا فإن الهندي الأحمر قريب من الخميري!

وقد اتبع هؤلاء في عزلتهم الأميركية المسار ذاته الذي اتبعه شعب أوراسيا، بـ"فارق زمني" كبير.

وفي شمال ريو غراندو، ظلوا صيادين بدواً؛ ولكنهم في الجنوب، كانوا قد شيّدوا حضارات زراعية متطورة.

وهم الذين اخترعوا النباتات المألوفة جداً لدينا: البطاطا الأميركية الهندية، كالشوكولاطة (الكاكاو)، التبغ والكوكا، وأيضاً الذرة والطماطم. ويشق علينا أن نتخيل الفرنسيين من دون بطاطا والمتوسط من دون طماطم (والتي كانت تجهلها العصور القديمة الإغريقية-اللاتينية).

وكان الأميركيون أيضاً، وللأسباب نفسها التي كانت في العالم القديم، قد أنشأوا دولاً.

وكان شعب المايا، الذي كان في تدهور عند وصول الإسبان، يعيش في غواتيمالا في مدن تشبه تلك التي كانت موجودة لدى الإغريق في زمن هوميروس.

وأنشأ الأزدك في غمرة توسعهم في القرن الخامس عشر، دولة محاربة تشبه كثيراً بهندستها والتضحيات البشرية ودور الحرب والدين، ما يمكن أن تكون عليه أشور سارغون وأشور بانيبال.

أما شعب الإنكا، فكانوا قد بنوا في أميركا الجنوبية إمبراطورية عظيمة(من الإكواتور الحالية إلى شيلي، مروراً ببوليفيا والبيرو) تُذَكّر، حتى ليلتبس الأمر، بمصر القديمة. كان الإنكا ضرباً من الفرعون، الملك الشمس. وكما كان على ضفة النيل، كانت الشمس تُعبد. كان هناك النسّاخون والجنود والفلاحون الذين وجدوا في وادي النيل. أما هندسة الإنكا، فكانت فرعونية تماماً: قلاع وطرقات ومعابد كبيرة. أما المايا والأزدك فكانوا يبنون أهرامات. وكان لإمبراطورية الإنكا ثلاث عواصم، كان الملك يتناوب على الإقامة فيها:

شمالاً، كيتو، وفي الوسط، كاجاماركا، وفي الجنوب المدينة المقدسة كوزكو- أصل السلالة التي أنشأها الملك باشاكوتي عام 1438، والتي بلغت ذروتها في عهد الإمبراطور الكبير هواينا كاباك (1493-1527)، الذي تنازع أبناؤه على السلطة في حرب إخوة انتصر فيها الإمبراطور أتاهوالبا.

كانت هذه الحضارات العظيمة تعرف الحساب وكانت قد اخترعت الكتابة. وقد خرجت من ما قبل التاريخ ودخلت عصراً نيوليتياً منتصراً. وكانت تتواصل فيما بينها، ومع بدو المراعي الأميركية الشمالية، ولكنها كانت تجهل وجود العالم الخارجي (باستثناء بعض الذكريات الأسطورية). وكانت حضارات زراعية، وكان المحيط بالنسبة لها كما كان بالنسبة لنا الفضاء البيكوكبي قبل بدايات غزو الفضاء.

كان"التواصل" بين الحضارات القبكولومبية والأوروبية تواصلاً فتاكاً. وفي عام 1519، أوكلت الحكومة الإسبانية في كوبا قيادة رحلة استكشافية إلى المكسيك إلى نبيل يسمى كورتيس. وبعد وصوله دون عناء إلى العاصمة الأزدكية لتينوشتيتلان (مكسيكو)، استُقبل كورتيس من الملك مونتيزوما، الذي اعتبره (لعدة أيام) إلّها. وعندما استدعي كورتيس إلى الساحل، اغتنم ملازمه الأول الفارادو للقضاء على الموظفين الكبار الأزدك، وأحدث انتفاضة قُتل فيها مونتيزوما. واضطر الإسبان إلى مغادرة المدينة يوم 30 يونيو/حزيران 1520، ليلاً (الليلة الحزينة). فعاد كورتيس بتعزيزات، وحاصر تينوشتيتلان؛ واستولى عليها يوم 13 أغسطس/آب 1521 وسمح بعمليات انتقام فظيعة. وأُخضعت المملكة الأزدكية! وزحف الإسبان حتى المايا جنوباً، وحتى كاليفورنيا شمالاً.

وفي عام 1531، أشرف قائد إسباني آخر هو بيزاري على رحلة استكشافية امتدت على ساحل المحيط الهادي لأميركا نحو البيرو.

وكان الإمبراطور أتاهوالبا يعلم أن الإسبان لم يكونوا آلهة. ولكن لأنه كان شغوفاً لرؤيتهم فقد دعاهم إلى زيارته قرب كاجاماركا حيث نصب معسكره. وفي 16 نوفمبر/تشرين الثاني 1532، "استقبل زواراً من عالم آخر"، على

عرشه، وسط حراسة مؤلفة من عدة آلاف من الجنود. ولم يكن تعداد الإسبان يتجاوز مائة وثلاثة وستين بعشرة جياد وبضع مدافع صغيرة. وفي المساء، وبحركة جسارة خارقة وخسة مطلقة (فقد كان ضيف الإنكا)، أخذ بيزاري الملك رهينة وانهارت الإمبراطورية.

وهذه واحدة من أبشع الصفحات في تاريخ العالم.

لماذا انهارت بهذه السرعة إمبراطورية إنكا العظيمة ذات الخمسة عشر مليون نسمة على يد حفنة من الكاستيانيين؟

الأسلحة؟ البارود لا يفسر شيئاً: فالقربينات كانت بصعوبة تطلق طلقة في الدقيقة (كانت أقواس الحراس الإمبراطوريين أكثر فاعلية) ولم يُخف دويها الهنود طويلاً.

الخيول؟ صحيح أن الأميركيين الهنود كانوا يجهلون الحصان. ولم يكن الإنكا "يركبون" أي حيوان، ولم يكونوا يستعملون سوى اللاما حيوانات للشحن. إن المرء لينسى بسهولة، وحين ينظر إلى هنود الويسترن يمتطون الحصان، أن الأوروبيين هم من جاؤوا به إلى أميركا. ولكن تحديداً فقد كف السكان الأصليون بسرعة عن الخوف من الخيول وتعلموا امتطاءها بمهارة.

والواقع، أن أتاهوالبا كان يمكن أن يذبح الإسبان. وبالطبع، كان سيأتي غيرهم، ولكن بالنظر إلى تنظيم الإنكا والى ابتعاد الإسبان عن قاعدتهم، لم تكن المعركة لتكون مختلفة.

ومرة أخرى، تكمن الإجابة في سيكولوجية الهنود، في "عقليتهم" وأفكارهم. وقد كانوا متحضرين جداً، ولكن جبريين، وجماعيين لم يكن للمبادرة الفردية مكان لديهم (الإمبراطور سجين، ما العمل؟). كانت حضارتهم عاجزة عن التصرف حيال ما هو طارئ. وكان سلوك بيزاري غير متخيل لديهم! كان الإسبان بالنسبة لهم ضرباً من "الكائنات من كوكب آخر". (وقد جاؤوا بالفعل من "عالم آخر").

كان "التفاوت الزمني" هائلاً بين الإسبان والأميركيين الهنود (أكبر بكثير

من التفاوت الزمني الملاحظ بين رومان قيصر وغاليي فرسينجيتوريكس!). وكان الإنكا قد خرجوا لتوهم من ما قبل التاريخ. أما المغامرون الإسبان فكانوا مغاوير فردانيين، رجالاً خارقين شبه نيتشيين (نقول هذا رغم المفارقة التاريخية) لا يخشون الله ولا الشيطان ويعرفون استغلال الطارئ.

وهكذا يمكن للحداثة أن تقتل. بين إسبان بيزاري وإنكا أتاهوالبا، ويمكن القول إنه كان هناك تفاوت بست ألفيات. وعلينا ألّا نخشى المفارقة التاريخية البيداغوجية: وكما أشرنا إليه، فإن إمبراطورية الإنكا تذكّر بحضارة الفراعنة. حسناً! لو أن إسبان عصر النهضة استطاعوا النزول إلى مصر في زمن رمسيس الثاني، فنعتقد أن الصدمة كانت ستكون مشابهة وأن الكاستيانيين كانوا سيدمرون مصر الفراعنة.

صحيح أن الإسبان كانوا قساة (وحين كانوا يقاتلون الفرنسيين، لم يكونوا أقل قسوة)، لكنهم لم يكونوا عنصريين. وغالباً ما تزوج المغامرون الإسبان أميرات هنديات، لدرجة أن جميع عظماء إسبانيا تجري في عروقهم دماء هندية. كان الإسبان "مريخيين". وقد بادت الحضارات العظيمة الأميركية الهندية وكأنه "بسحر ساحر" (أو بالأحرى "بتأثير روح شريرة").

وقد قتلت الحداثة الحضارات القبكولومبية، ولكن الشعوب الأميركية الهندية لا تزال موجودة إلى اليوم. ولا يزال الهنود، في أميركا الوسطى وأميركا الجنوبية، يُعدون بالملايين (ومعظمهم في البيرو وبوليفيا). غير أنه لم يبق من ماضيهم المجيد إلّا لغات محلية (الأيمارا والكيشوا) وبعض المعتقدات الشعبية. وقد أصبحوا كاثوليكيين وإسباناً؛ ويتكلمون اللغة الإسبانية.

واشتدت الكارثة بفعل ما يسميه الأطباء "الصدمة الجرثومية" (أو الفيروسية). وفي عزلتها، لم تتحصن شعوب أميركا ضد جراثيم أوراسيا. وقد كان للحصبة والأنفلونزا، اللتين قاومهما الإسبان، على الهنود الأثر الفتاك ذاته الذي كان للطاعون على الأوروبيين في القرن الرابع عشر. وماتوا بالملايين؛

خاصة وجهاؤهم الذين كانوا أكثر اتصالاً بالغزاة. ولا يزال البعض يهوّنون من الدور التاريخي للأوبئة.

وهكذا فقد كان غزو أميركا مأساة مروعة- على غفلة من الإسبان ذاتهم، الذين لم يكونوا يدركون جيداً ما الذي كان يحدث. حتى أن بعض الإسبان تعاطفوا مع رعاياهم الجدد، على غرار الدومينيكي برتولومي من لاس كاساس، الذي كتب إلى ملك إسبانيا "رواية وجيزة لتدمير الهند" عام 1542-ولكن دون جدوى.

ولم يكن الإسبان بطبيعة الحال أفضل من الهنود. حتى أنه يمكننا التفكير بأن الإنكا، من الناحية الأخلاقية، كانوا أكثر وداً. ولكن الإسبان كانوا عصريين. وقيم الحداثة-المبادرة الفردية، والحس النقدي، وحب التغيير- ضمنت في القرن الخامس عشر انتصار الأوروبيين على شعوب الأرض الأخرى. فهل هذه القيم كافية لإعطاء معنى للحياة؟ يقيناً لا.

إنها قيم الفعل. وحدها الأديان أو الحكم تسمح بالحياة. وإضافة إلى ذلك، فإن كان الإسبان يتصرفون تصرفاً "حداثياً"، فقد كانوا يستخدمون، كي يعطوا معنى لحياتهم، القيم الروحية المسيحية- التي تمثل بطريقة ما، "رأسمالهم الأخلاقي". ويمكن أن نفكر في القرن الواحد والعشرين، بأن العالم الحديث قد بدد رأس المال هذا، ولم يُبق من مرجعية سوى المتعة الفردية. ولكن هذه" قصة أخرى" سوف نتحدث عنها لاحقاً.

النهضة، تشارلز الخامس فرانسوا الأول

بينما كان الإسبان يغزون العالم الجديد، كان العالم القديم ينفجر على نفسه.

كانت إيطاليا بؤرة هذا الزلزال الثقافي الذي يسمى "النهضة". وقد أشرنا إلى دور المثقفين الإغريق المنفيين من بيزنطة-"نهضة " لأن عن طريقهم سوف يكتشف المعاصرون من جديد ومباشرة العالم القديم.

وقد اخترعت، إيطاليا كل شيء: المالية الحديثة، العلم الحديث، الفن الحديث، والنظرة الحديثة للعالم. وبالتأكيد، فإنها كانت لا تزال تلعب دوراً سياسياً وعسكرياً (جزء كبير من المفردات العسكرية إيطالي). وقد تصدت البندقية عام 1509 لأوروبا كلها المتحالفة ضدها(رابطة كمبراي) واستطاعت بتحالفها مع إسبانيا، القضاء على أسطول علي باشا التركي في ليبانت، عام 1571: وأغرقت مائتي قادس تركي وقتلت المئات من أشراف البندقية.

ولكن الدور الحاسم للمدن الإيطالية كان دوراً ثقافياً.

كانت تحكم فلورنسا عائلة مصرفيين غنية، هي عائلة آل ميديسيس، وكان أشهر أفرادها لوران الرائع (1449-1492). وكان رجال المال هؤلاء المثقفون جداً يقرأون باليونانية، أرسطو وأفلاطون. ولكنهم ربما شعروا بالعار لو أنهم لم يشيّدوا للشعب الساحات والمسارح والنافورات. وكانوا يطبقون المبدأ: "مقتضيات النبل."

ودون إصدار حكم أخلاقي، يمكن أن نفكر بأن رجال المال في أيامنا هذه لا يشبهون إطلاقاً رجال المال في فلورنسا. فهم لا يشعرون قط بأن لديهم واجبات اجتماعية وهم عموماً جهال تماماً: أي سقوط هذا من ميديسيس إلى ميسيي!

وفي عام 1532، كتب مستشار لحكومة فلورنسا، هو ماكيافيللي، معاهدة سياسية، لا تزال حالية إلى اليوم ألا وهي "الأمير"، وهو تفكير كلبي حول طريقة الحكم بذكاء ومكر. "مبرر الدولة " يسمح لمكيافيللي بأن يبرر، في حالات معينة، القتل والكذب-حرية تفكير ذات جرأة غير معقولة في فترة لا تزال مسيحية. بيد أن "الأمير" لا ينسى قط أن سلطته تقوم على رضى الشعب وأنها مبررة بالخير العام. والحقيقة أن هذا الهدف الأخلاقي كان يعرف كيف يلجأ إلى وسائل غير أخلاقية.

وكانت البابوية في روما تمارس عن طريق أحبار غير نقيي المسيحية: الإسكندر السادس بورجيا (1492-1502)، جول الثاني (1503-1513) وليون

العاشر (1513-1521). وهذا يبين أن مؤسسة كبيرة يمكن أن يسيرها أفراد لا يؤمنون بالرسالة التي تنشرها. (هل ما يزال القادة الصينيون، في القرن الواحد والعشرين، يؤمنون بالشيوعية؟) بالمقابل، كان باباوات النهضة إنسانيين وكانوا يجعلون كبار الفنانين يعملون لحسابهم: رافائيل، ليونارد، مايكل أنجلو.

ومايكل أنجلو، واسمه الحقيقي بووناروتي (1475-1564)، الذي كان في البداية في حماية آل ميديسيس (داوود ساحة الولاية)، عاش فيما بعد في روما (المنتحبة). وقد أوكل إليه البابا جول الثاني تنفيذ جداريات كنيسة سكستين، ثم سقفها (يوم الحساب). وقد رسم مايكل أنجلو هذا السقف مستلقياً على ظهره، على قمة صقالة : وعندما نفد صبر البابا من طول المدة التي استغرقتها الأشغال، أفرغ مايكل أنجلو ما كان في دلوه على رأسه. ولم يصدر عن الحبر المهيب أي احتجاج. ففي ذلك الزمن الذي كان يتميز برعاية الآداب والفنون، كان الفنان يتمتع بجميع الحقوق. كان مايكل أنجلو وهو نحات ورسام ومثقف (يحب قراءة أفلاطون)، وكان مهندساً معمارياً وهو من صمم ساحة الكابيتول في روما والقبة الرائعة لكنيسة سانت- بيار، أكبر من تلك التي بناها برونلليشي في فلورنسا. وعندما مات، في عمر التاسعة والتسعين، عقب سقوطه من على ظهر جواده (أي نعم!)، وكان مجده قد تكرس من قبل بكتاب لفاساري وسيرة لكونديفي.

ويعد مايكل أنجلو نموذجاً لعبقريات النهضة، وهي فترة مشعة شهدت تعايش مايكل أنجلو، ومكيافيللي وليوناردو دافنتشي (كما كان في فترة بيريكليس)، وكانوا يلتقون في مسرح سوفوكل وأرسطوفان وثوسيديد.)

وليوناردو دافنتشي، وإن كان عاش مدة أقل، كان عبقرياً أكثر كونية، وقد أضاف في الحقيقة، إلى النحت والرسم والهندسة المعمارية، الميكانيكا، وكان مهندساً منقطع النظير. وكدليل على تنوع مواهبه، نستطيع قراءة "مختصر السيرة" الذي وجهه إلى الأمير ليدوفيك لو مور، دوق ميلان، في حوالى سن الثلاثين:

"لدي الوسائل، كتب ليونارد، لبناء جسور أخف، ومنيعة، ووسائل نقل لملاحقة العدو وهزيمته، وجسور أخرى أصلب تقاوم النار والهجوم، سهلٌ نزعها وتركيبها. ووسائل لتدمير جسور العدو وحرقها. ولبناء موقع محصن، أعرف كيف أفرغ الخنادق من الماء وأبني كثيراً من الجسور، والمجانق وسلالم الصعود وغيرها من الأدوات ذات الصلة بمثل هذا العمل. وإذا كان موقع ما عصيّاً على الإتلاف من خلال القصف بسبب علو أحدُوره. ولدي الوسائل لتدمير أي قلعة أو موقع حصين، لا تقوم أسسه على الصخر. ولدي أيضاً طريقة لصنع مجانق مريحة وسهلة النقل، تقذف الحجارة كالزوبعة، زارعة الرعب في نفوس الأعداء بدخانها وما تحدثه من أضرار جسيمة وبلبلة. ولو اتفق وكانت الحرب بحراً، فلدي خطط لبناء عتاد ملائم جداً للهجوم أو الدفاع عن المراكب التي تقاوم نيران أكبر المدافع.

" كما سأصنع أيضاً دبابات مغطاة، آمنة وعصيَّة على الهجوم، تخترق صفوف العدو بمدرعاتها، ولا يستطيع أي سلاح مشاة أن يدمرها، ويكون بمقدور رجال السلاح أن يتبعوا هذه الدبابات بحُريّة دون أن يعترضها أي عائق. وعند الحاجة، سأصنع مدافع هاون جميلة جداً، ومجدية ومختلفة عن تلك المستعملة عادة. وحيث لا يمكن استعمال المدفع، سأخترع مجانق رائعة الفاعلية. وإجمالاً، وحسب الحالات، سأصنع عدداً غير محدود من العتاد المتنوع للهجوم والدفاع.

"وفي زمن السلم، أعتقد أن باستطاعتي أن أمنحكم الرضى التام، سواء في الهندسة المعمارية، لتشييد بنايات عمومية أو خاصة، أو لنقل المياه من مكان إلى آخر. وأخيراً، أستطيع أن أنجز منحوتات من الرخام أو البرونز أو الطين المشوي.

"وأضيف أن عملي في الرسم يمكن أن يضاهي عمل أي كان!"

والجملة الأخيرة لا تخلو من مبالغة، في ما يخص راسم الجوكوندا... وقد أنهى ليوناردو حياته على ضفاف لا لوار، حيث كان ملك فرنسا قد أتى به، بعد أن صمّم السلم المزدوج لقصر شامبورد.

وباختصار، فإن إيطاليا كانت، في القرن السادس عشر، مركز القوة والمجد. ولهذا نفهم لماذا كان كل ملوك تلك الفترة يريدون أن يسيطروا عليها.

وأولاً أقواهم ألا وهو تشارلز الخامس (1500-1556) (Charles Quint).

وكان تشارلز الخامس قد جمع على رأسها إرثاً رائعاً : دوق بورغونيا التي تقلصت حقاً إلى هولندا (بلجيكا الحالية-ولكن هولندا كانت متطورة جداً)، وقد ورث عن أمه، جين المجنونة، ابنة إيزابيل دوكاستي وفرديناند أراغون، التاج الإسباني (ومنه أميركا اللاتينية) وعن أبيه، فيليب لو بو (le Beau)، الأملاك الوراثية للهابسبورغ (النمسا الحالية). وأضيفت مملكة نابولي وصقلية هدية إلى هذا الإرث الخارق. وانتُخب تشارلز في النهاية إمبراطوراً جرمانياً.

وكان اللقب الإمبراطوري مستحق منذ زمن طويل لهابسبورغ، ولكن، لأن الأمر كان يتعلق مع ذلك بـ"انتخاب" (الأسياد الكبار الألمان)، فقد كان على تشارلز، هذه المرة، أن يحارب ضد ترشح ملك فرنسا. ولم يفز به إلا بشراء الناخبين بفضل مال مصرفي من فرانكفورت، يدعى جاكوب فوغير (الملقب بالغني).

وطبعاً، فبعد أن صَدَّ الأتراك أمام فيينا عام 1529، كان تشارلز يريد أن يسيطر على أوروبا-إضافة إلى أنه بعد زوال إمبراطورية الشرق، لم يكن هناك إلا تاج إمبراطوري واحد. كان تشارلز الخامس "أوروبياً" كبيراً (أكثر بربرية من شارلمان بكثير). كما أنه كان يقول: "أنا أتحدث الفرنسية مع الرجال، والإيطالية مع النساء، والإسبانية مع الله، والألمانية مع حصاني." ويجدر أن نشير إلى أنه كان يجهل الإنجليزية...

ولكن تاج الإمبراطورية المقدسة كان وهماً. وقد اضطر تشارلز الخامس إلى تشتيت قواه من الكاستي إلى بوهيميا. وخاب حلمه الإمبراطوري. وقبل وفاته بعامين، اعتزل في معبد إسباني، في يوست. وهو المثال الوحيد-مع ديوكليسيان، الذي كان قد تقاعد قبل ذلك بثلاثة عشر قرناً في سبليت (سبالاتو، القصر) في دالماسيا- الإمبراطور يغادر السلطة طواعية.

واختفى حلم تشارلز الأوروبي معه. وبعد وفاته قُسمت أملاكه بإنصاف قسمين: لفيليب الثاني ابنه، الأملاك الإسبانية؛ ولفرديناند أخيه، النمسا وتاج الإمبراطورية المقدسة. (وسوف تبقى الإمبراطورية في عائلة هابسبورغ حتى عام 1918).

كانت الإمبراطورية قد فشلت بسبب معارضة مملكة فرنسا، التي كانت تحتل موقعاً استراتيجياً وسط أملاك آل هابسبورغ. وكان هذا الموقع المركزي يجبر جنود الإمبراطورية التي كان عليهم الذهاب من النمسا إلى إسبانيا على القيام بالتفاف خطير عبر إيطاليا. وبما أن أولئك الجنود كانوا في معظم الأحيان مرتزقة ألماناً، فإن الإمبراطور الكاثوليكي جداً لم يستطع ثنيهم عن نهب روما عام 1527. كان ذلك تخريباً فظيعاً! وهكذا لم تستطع الإمبراطورية أن تهزم تاج فرنسا.

كانت الملكية الفرنسية قد ازدادت قوة منذ جان دارك. وكان ابن شارل السابع، لويس الحادي عشر (1423-1483)، قد نجح بضمّه بورغونيا، في إعادة تابع خطير (1482) إلى جادة الصواب بقوة المكر والصبر. كما وضع يده أيضاً على بروفانس. وفي عام 1491 تزوج ابنه شارل الثامن آن دو بروتان، وأدخل بهذا هذه الدوقية المستقلة جداً إلى أملاكه، ولكنه يبقى معروفاً خاصة بأنه بدأ "حروب إيطاليا"، لأنه كان مشدوداً إلى نور مدن شبه الجزيرة. ولم يستطع أن يمنع نفسه من ركوب الخيل فيها عام 1495. وكذلك فعل خلفه لويس الثاني عشر.

وفي عام 1515 أصبح فرانسوا الأول (1494-1547) ملكاً على فرنسا. وقد خلف أسلافه بالقوة: وفتح له نصر مارينيون عام 1515 (التاريخ الوحيد المعروف للفرنسيين) إيطاليا وضمن لفرنسا الدعم العسكري للسويسريين، الذين هُزموا ولكنهم طُوعوا (وسوف يشكل المرتزقة السويسريون بعد ذلك حرس لويس السادس عشر عشية الثورة). ولأنه ضيع التاج الإمبراطوري فقد اعترض فرانسوا الأول على الإمبراطورية. وهُزم على يد شارل الخامس عام 1525 في

بافي، ولكن فرنسا نجحت في الأخير في إفشال حلم آل هابسبورغ في الهيمنة. وانتصرت الأمة على الإمبراطورية، إذ لم يتردد فرانسوا الأول-وأمام شعور رجال الدين بالفضيحة الكبيرة-في التحالف مع التركي العظيم (سليمان الأعظم) ضد الإمبراطور الكاثوليكي جداً. ووضعت معاهدة كاتو-كامبريسيس حداً لحروب إيطاليا عام 1559.

وكان فرانسوا الأول ملكاً لامعاً، ورجلاً وسيماً، مثقفاً، "ولد من جديد" في هيئة شيطان. (وهو من استقدم إلى فرنسا ليوناردو دافنتشي.) كانت إيطاليا دارجة منذ شارل الثامن. وخرجت من الأرض قصور لالوار: أمبواز عام 1498، شونونصو عام 1520، شامبور (بسلّم ليوناردو) عام 1526-وكون هذا البناء لم يكن إلا "جناح صيد" يعطي فكرة عن قوة الملكية الفرنسية في ذلك الوقت. وتم بناء فونتانبلو عام 1528، وتم في باريس تحويل قصر اللوفر القديم إلى قصر نهضة (1549).

والتهبت فرنسا بالنور الإيطالي. وهناك برز كتّاب كبار جداً، ومنهم الشهير رابلي (1494-1553) (Rabelais)، وهو دكتور في الطب، وراهب، وأب لطفلين وأسقف مودون، وأبدع الشخصيات الرائعة لـ"غارغانتوا" (1523) (Gargantua) و"بانتاغروال" (1531) (Pantagruel)، التي تفيض حكمة وتفاؤلاً وفجوراً، "تنخر العظم لتجد لب النخاع ".

وقد جعل فرانسوا الأول من خلال منشور فيليرس- كوتري، عام 1530، استخدام الفرنسية إجبارياً في العقود القانونية. وقد أعطى شعراء "الكوكبة" لهذه اللغة وهجها الأدبي : رونسار (1524-1585)، وهو رجل ظريف من فوندوم، ممالق، وكاتب خليع نوعاً ما ("آه! يا خليلة، اقتربي/تفرين كظبية صغيرة ترتعش/على الأقل تحملي يدي/تسرح قليلاً في ثديك /أو أدنى قليلاً إن شئت")، ودو بالي التواق إلى الماضي، الذي كان صديقه منذ عام 1547، منشد عظمة الأمة ("فرنسا، أم الفنون، والأسلحة والقوانين")، التي كان يفضلها على إيطاليا (وقد كان دبلوماسياً في روما) وعلى كل أمجادها: " لواري

الغالي أكثر من التيبر اللاتيني/ليري الصغير أكثر من جبل بالاتين/وأكثر من هواء البحر، الحلاوة الأنجوية. "

ولم تخص النهضة إيطاليا وإسبانيا وألمانيا وفرنسا فقط. بل أيقظت أيضاً إنجلترا مع هنري الثامن تودور وتوماس مور، وهولندا (إيرازم، مديح الجنون، 1509) وحتى بولونيا.

وفي كراكوفيا، نشر عالم فلك يدعى كوبرنيك، عام 1523، باللاتينية، كتاباً هداماً، بعنوان "ثورة النجوم" أكد فيه أن الأرض ليست مركز الكون، وأن الشمس ليست هي التي تدور حول الأرض وإنما الأرض هي التي تدور حول الشمس. كانت تلك ثورة شاملة للطريقة التي كان الناس ينظرون بها إلى الكون (بمن في ذلك العلماء الهلينيون). "ثورة كوبرنيكية" لنظرتنا إلى العالم.

ولنشر في الأخير-ولكن هذا معلوم للجميع - إلى تعميم المطبعة بعد غوتنبورغ. وقد طبعت أول توراة عام 1455. وبتعويضها مخطوطات الرق المنسوخة باليد بالكتب المجلدة، أعطت المطبعة للمفكرين والعلماء الوسائل التقنية لنشر أوسع لكتاباتهم من ذي قبل"، إذ كان الطابعون يصدرون مائة كتاب في المدة التي يستغرقها الناساخون لنسخ كتاب واحد!

الإصلاحات والحروب الدينية

كانت أخلاق باباوات النهضة الذين كان لديهم خليلات وأبناء (قيصر ولوكريس بورجيا) والذين كانوا يعيشون بطريقة غير إنجيلية، تثير استياء الكثير من المؤمنين، إضافة إلى أنه كان من الواضح أن الكنيسة بحاجة ماسة إلى إصلاحات.

وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد عرفت من قبل إصلاحات، ودون انقطاع: الإصلاح الغريغوري، الإصلاح الفرانسيسكي. وإذا كان مسيحيو الشرق يكرهون مسيحيي الغرب، فقد كان هذا بسبب قضايا تتعلق بالأخلاق أو المبادئ، أقل

منه بسبب نهب القسطنطينية على يد البحارة البندقيين والفرسان اللاتينيين عام 1204، والذي ترك أحقاداً كبيرة.

وفي القرن السادس عشر، أحدث الإصلاح انشقاقات. ولكن هذا لم يكن مكتوباً مسبقاً. علينا أن نعي التشوه البصري الذي نعاني منه: ونحن نعرف نهايته، لكن معظم الأحداث كان يمكن أن تدور بشكل مغايرا لا شيء مكتوب والمؤرخون يتسلون، مذ وُجدوا، بإعادة كتابة التاريخ. "لو أن أنف كليوباترا كان أقصر. . . "

وكان راهب ألماني، على وجه الخصوص، يعتبر أنه من المعيب ما كان يحدث في روما، ولاسيما المتاجرة التي انخرط فيها الباباوات متحوّلين إلى تجار الهيكل، وعلى سبيل المثال تجارة صكوك الغفران (إلغاء العقوبات بواسطة المال). وقد علّق مارتن لوثر (1483-1586) يوم 31 أكتوبر/تشرين الأول 1517، على أبواب كنيسة قصر ويتنبارغ، خمساً وتسعين مذكرة لإدانة هذه التجارة. ولم تفلح الضغوط المختلفة في حمله على التراجع؛ بل على العكس، فقد نشر عام 1520 بياناً "إلى أشراف الأمة الألمانية" وأحرق ختم البابا الذي أدانه.

وكان احتجاجه مؤسساً جيداً، وكان باباوات عصر النهضة يكادون لا يشبهون يسوع الناصري. وكانت المأساة أن الأحبار لم يأخذوا لوثر على محمل الجد (وقبل ثلاثة قرون، عرف إينوسنت الثالث كيف يستقبل فرانسوا داسيز الذي كان يعظه). ومن هنا جاءت القطيعة وميلاد ردة فعل إنجيلية أطلق عليها اسم "البروتستانتية". ويجب أن نشير إلى أن لوثر كان قد أخذ من الإنجيل حب النقاء، وليس حب المساواة: فحين اندلعت في ألمانيا ثورة الفلاحين، عام 1525، اختار حزب الأمراء عندما قرر هؤلاء قمع هذه العامية في الصميم.

وقد وعت الأمة الألمانية بذاتها مع لوثر، الذي ترجم أيضاً التوراة إلى الألمانية. وقد لعب لوثر بالنسبة للألمان الدور الذي كانت قد لعبته جان دارك

بالنسبة للفرنسيين-مع هذا الفرق المتمثل في أن جان دارك كانت منشغلة بالفقراء، بينما كان لوثر "رجعياً" بشغف. وسوف يبقى أثر ذلك في الهوية القومية الألمانية. كما أن الجانب المطيع والمنضبط الذي نعرفه لدى الألمان، جانبهم المظلم (وتقول ألسنة السوء عنه" الجرماني") يدين بالكثير للّوثرية.

وانقسمت ألمانيا قسمين، شمال وجنوب الليمس الروماني القديم، بين كاثوليك وبروتستانت.

وقد وجد كثير من الأمراء الألمان في ذلك حجة للتخلص من روما ومصادرة أملاك الكنيسة. ولم يفلح الإمبراطور الكاثوليكي شارل الخامس، رغم نفي لوثر إلى دييت وورمز، في وقف الإصلاح، وأجبر على الاتفاق. واتخذ السيد الكبير، الكاثوليكي، من الصف العسكري للخيالة التوتونيين، ألبيرت دو براندبورغ، حجة اعتناقه للبروتستانتية كي ينشئ، عام 1525، دوقية بروسيا (وهكذا دخلت بروسيا التاريخ)؛ وأسس جامعة كونيغسبارغ (كالييننغراد). وأصبح كثير من الأمراء الآخرين لوثريين، بما في ذلك ملوك السويد والدنمارك. وفي عام 1530، أعلنت عقيدة أوسبورغ القاعدة التي تقول إن على الناس أن يكونوا على دين أميرهم. وتحولت ردة فعل الحرية ضد البابا والإمبراطور، السادة البعيدين، إلى تفاقم الخضوع لـ"الأمراء" الأسياد القريبين أكثر من اللازم!

وفي عام 1534، وجد ملك انجلترا هنري الثامن (1491-1547)، الذي كان يريد الطلاق رغم رفض البابا (وهو رفض سياسي وليس دينياً : كان هنري متزوجاً من خالة شارل الخامس، الإمبراطور الكاثوليكي) في اللوثرية مثالاً مناسباً. فقطع صلته بروما وأسس" الأنجليكانية ". والواقع أن الكثلكة الانشقاقية، الكنيسة الأنجليكانية - خاصة "الكنيسة العليا"-ظلت من النوع "الكاثوليكي".

وابتداء من عام 1588، ولد في لندن مسرح قوي مع شكسبير: ومثلت مسرحية "ريتشارد الثالث" عام 1592. وهكذا حققت انجلترا (في الوقت ذاته مع بروسيا) دخولاً قوياً في المنافسة الثقافية. ولكن هنري الثامن اصطدم في

مملكته بحزب قوي وفيّ لروما واضطر إلى إعدام مستشاره توماس مور، صديق ايرازم، عام 1535.

وفي فرنسا، انخرط جان كالفين(1509-1564) في الإصلاح واتخذ له منفى اختيارياً في سويسرا، ومنها كتب عام 1539 "المؤسسة الدينية المسيحية". ومن عام 1541 وحتى وفاته، كان ديكتاتور مدينة جنيف، حيث مارس بروتستانتية أكثر راديكالية من بروتستانتية لوثر ألا وهي الكالفينية.

وفي جنيف، في عهد كالفين، كان ضربٌ من الشرطة الدينية على ضفاف بحيرة ليمان يتحقق من أن المؤمنين لا يتلذذون في الحياة الدنيا، وبلغ بهم الأمر أن يتذوقوا أطباق المطاعم الريفية للتحقق بأنها ليست شهية جداً؛ وإلّا، كانت الغرامة أو السجن. إذن لم يخترع طالبان شيئاً جديداً. فالبروتستانت الذين تقدمهم التقاليدية المعاصرة اليوم على أنهم مسيحيون متنورون، لطالما كانوا متعصبين (على طريقة الطوائف الأميركية المتشددة). إلى ذلك، ففي عام 1553، لم يتردد كالفين (وهو فضلاً عن ذلك كاتب مقال رائع: ومؤلفه "مؤسسة"، تحفة في اللغة الفرنسية) في جعل صديقه ميشال سارفر يوضع على المحرقة بشبهة الإنحرافية!

وهكذا، ففي منتصف القرن السادس عشر، كانت أوروبا اللاتينية في عز الأزمة: وكان جزء كبير منها قد غادر الكنيسة الكاثوليكية وانضم إلى اللوثريين؛ وكانت انجلترا قد انشقت، وفي فرنسا، كان الفرنسيون يحاولون، من جنيف، أن يدفعوا البلد إلى البروتستانتية. وكان واضحاً أن الأمر كان سيحسم في فرنسا. وإذا مال إلى الإصلاح، فسوف تفرض البروتستانتية نفسها؛ وإن ظل كاثوليكياً، فسيبقى الإصلاح "جهوياً"، إذ إن فرنسا كانت آنذاك أكبر قوة في العالم (وستظل كذلك حتى واترلو).

وقد صنعت الكالفينية كثيراً من الأتباع في فرنسا، خاصة في وسط الأشراف المتنورين. وفي ليلة 23 إلى 24 أغسطس/آب 1572، فإن الوصية على العرش كاترين دو ميديسيس، وبعد أن حاولت أن تجعل أميرال كوليني

رئيس الحزب الذي تم إصلاحه يُقتل، انتزعت من الملك شارل التاسع، ابنه، الأمر بقتل الزعماء البروتستانت المجتمعين في باريس لحضور زواج هنري دو نافار ومرغريت دو فالوا (الملكة مارغو). وقد سقط أكثر من ثلاثة آلاف قتيل ومن بينهم، كولينيي. عندئذ توالت "الحروب الدينية" بين البروتستانت والكاثوليك. ولم يصمد الملك، الذي كان ضعيفاً ويسهل التأثير عليه، إلا بضعة أشهر (وكان والده هنري الثاني وزوج كاترين قد قُتل في مباراة بضربة حربة مشؤومة قبل ثلاثة عشر عاماً).

وكان هنري الثالث، شقيق شارل التاسع، يتمتع برجاحة عقل أكثر. وكان شخصية مركبة ومثقفاً ومثلياً، حفياً جداً بـ"عشاقه"، بيد أنه ظل يحتفظ بحس الدولة.

وبما أن الحزب الكاثوليكي صار قوياً بقيادة آل غيز (les Guises) (الرابطة)، فقد اغتنم هنري الثالث فرصة اجتماع مجلس الطبقات في بلوا عام 1588 واستدعى إلى غرفته دوق غيز، رئيس الرابطة. وكان هذا الأخير قد استرسل في كلام غير حذر، موحياً بأن الملك كان سيُستبدل وأنه سيتولى العرش. ولكن الوقت لم يمهله إذ قتله حراس هنري الثالث. وكان موته إعداماً أكثر منه اغتيالاً، وإن كان الناس يتحدثون عموماً عن "اغتيال دوق غيز". وقد أمر الملك الشرعي بإعدام متمرد-كاثوليكي بكل تأكيد ولكنه ليس زارع فتنة. وسيُغتال المسكين هنري الثالث فعلاً في العام التالي، على يد راهب عضو في الرابطة.

ووفق ترتيب التعاقب على الملك، ولأن أبناء كاترين دو ميديسيس لم يتركوا أي ذرية، فقد كان التاج سيؤول إلى هنري دو نافار. وكان هذا الأخير بروتستانتياً.

وتواجه مبدآن في هذه اللحظة الحاسمة: مبدأ الدين (مبدأ لوثر: الناس على دين أميرهم) ومبدأ الشرعية (مبدأ رجال القانون). إذ وإن كان هنري

بروتستانتياً، فقد كان لا محالة الملك الشرعي. والكاثوليك المتنورون يتفقون على ذلك. ولكن الجماهير الشعبية الفرنسية ظلت متشبعة بكاثوليكيتها.

وقد فهم ذلك هنري الثالث دو نافار بذكائه : فارتد عن البروتستانتية واستطاع بذلك عام 1594، أن يدخل باريس. وإليه تُنسب العبارة القائلة: "باريس تساوي قداساً". وإن كان لم يقلها، فقد فكر فيها بالتأكيد. وفي عام 1598، وبعد أن صار ملكاً ومقدساً، أصدر هنري الرابع منشور نانت الشهير الذي يمنح البروتستانت نوعاً من الحرية الدينية.

وإن كان المنشور قد ظل حذراً، فقد كانت عواقبه الإيديولوجية كبيرة. فمنذ إصداره صار بالإمكان الفصل بين الدين والمواطنة. وظهر البروتستانتي المرتد أخيراً على أنه أكثر تقدمية بكثير من لوثر وكالفين! ويمكن القول إن المفهوم الفرنسي للعلمانية لم يولد، كما نعتقد، عام 1905، وإنما عام 1598...

كان هنري الرابع ملكاً كبيراً أعاد، بمساعدة وزراء حكماء، أمثال سولي، إحلال النظام والقانون، ومنه الرفاه. ونحن نعلم أمنيته أن يتمكن جميع الفرنسيين من أن يأكلوا بهدوء "طبق دجاجهم" (هل كان "الشرخ الاجتماعي" قد حدث بعد!). وكان حيوياً، ونعم المحب ("هرم مقدام")، وقائداً سديداً، وقد اغتيل يوم 14 مايو/أيار 1610 بسلاح متعصب كاثوليكي يدعى رافاياك. ولكن مذهب الكثلكة (كثلكة متسامحة) كان قد ربح المعركة في أوروبا بفضله. ولم تتزعزع فرنسا.

وكان نصر الكنيسة هذا كبيراً إلى درجة جعلتها تفهم درس لوثر وباشرت في إصلاح نفسها. كان ذلك "الإصلاح المضاد". ومن عام 1544 إلى عام 1563، أرسى المجمع الديني لترونت (Trente)، الذي يجمع الأساقفة وعلماء اللاهوت الرئيسيين، قواعد هذا الإصلاح الكاثوليكي.

وافتتحت الكنيسة العديد من "الملتقيات" (وبمفارقة عجيبة، يطلق اليوم مصطلح "ملتقيات" على تجمعات مدنية تكون في معظم الأحيان تجارية)

وعرفت كيف تشكل مؤسسة دينية، فاضلة ومثقفة، يمكن أن تواجه القساوسة البروتستانت.

وبدأ البابوات يستعيدون إيمانهم (بيوس الخامس (Pie V)). وبرز من جديد كثير من الأبطال الكاثوليك، ومنهم إغناس دو لويولا(1491-1556)، وهو إسباني ولكنه أسس كهنوته في مونمارتر. وهناك أنشأ في 15 أغسطس/آب 1534، اليسوعيين، وهم رجال دين عصريين، عالمين، دارسين، وعلى وجه الخصوص نذروا أنفسهم كلياً للبابوية. وكانوا مرنين جداً، مكيافيليين نوعاً ما، وعرفوا كيف يستخدمون الوسائل الذكية "لمجد الله العظيم ". وقد كان كتاب "الممارسات الروحية" للقس إغناس الأكثر مبيعاً.

وكان كثير من المبشرين يسوعيين، إذ إن الكنيسة الكاثوليكية كانت تريد أن تنصّر العالم. وبما أن الأميركتين والفلبين كانوا كاثوليكاً من قبل نتيجة الغزو الإسباني، فقد ذهب اليسوعي فرانسوا غزافيي عام 1549 إلى اليابان، حيث لاقت الكاثوليكية نجاحاً كبيراً (قضت عليه في العام التالي حملات الاضطهاد). ثم أرسى يسوعي آخر، ألا وهو ماتيو ريتشي، قواعد المسيحية في الصين وأصبح أول"عالم بالحضارة الصينية". وفي بكين، عاصمة الصين منذ القرن الفارط، أُعجب كثيراً بالأبهة المستعملة في بلاط الأباطرة المينغ. واعتنق الكثير من المتعلمين الصينيين اليسوعية لأن ريتشي انتهج إزاء الطقوس الكنفوشيوسية موقفاً توفيقياً لم يكن مفهوماً دائماً في روما (صراع "الطقوس الصينية"). كان ريتشي يتوخى أن يعتبر نفسه شبه موظف كبير كاثوليكي. وفي الهند، كان مبشر آخر يسمى نوبيلي، يرتدي زي برهمي، ويعتبر نفسه معلماً روحياً. وفي باراغواي، نجح اليسوعيون بفاعلية في حماية الهنود الغوارانيين من الجشع الاستعماري (أنظر فيلم "المهمة").

ولكن في أوروبا أيضاً كانت الكنيسة الكاثوليكية تتقدم.

صحيح أن انجلترا التي أصبحت قوة بحرية كبيرة مع الملكة إليزابيث الأولى (1558-1603)-انجلترا "الإليزابيثية"-، قد أفلتت منها. وفي عام

1588، تشتت أسطول هائل أرسله ضدها ملك إسبانيا الكاثوليكي جداً فيليب الثاني، "الأرمادة التي لا تقهر"، بسبب الطقس السيئ أكثر منه بسبب البحارة الانجليز (دريك). ولم يصل إلى كاديكس سوى 63 مركباً من 130. وكانت هذه المعركة بداية التفوق البحري البريطاني.

ولكن ايرلندا تشبثت بولائها للبابا وانتصرت الكاثوليكية في أوروبا الوسطى والشرقية (بولونيا).

وعلى وجه الخصوص كان عباقرة كثيرون يشرفونها. أساقفة تقدميون: شارل باروميي (1538-1583) في ميلان، فرانسوا دو سالس (1567-1622) في آنيسي. علماء روحانيون ذوو موهبة أدبية : تيريز دافيلا، لا مادري (1515-1591)، وصديقه جون لاكروا (1542-1591)، مصلحو كارمز، كانوا شعراء كباراً. ويظل "كتاب الإقامات" لتيريز و"الليلة الظلماء "لجون، اللذان نُشرا عام 1588 (سنة هزيمة الأرمادة: الانتصارات الحقيقية هي انتصارات إيديولوجية!)، روائع من الأدب الكاستياني والروحي. وقد كان شارل الخامس محقاً إذ أراد أن يخاطب الله بالإسبانية! وفي اللحظة ذاتها أسس فيليب نيري في روما نظام الكنيسة.

في حين أن البروتستانتية، "المحاربة للإيقونات" قليلاً، لم تنجح في أن تخترع لنفسها هندسة، فقد أطلق اليسوعيون موضة انتشرت بكثرة : ألا وهي موضة "الغريب" (baroque). وسينتصر الغريب الذي دُشن في روما، عام 1568، مع كنيسة جيزو من سلمنقة إلى كراكوفيا وحتى المكسيك...

وقد تركت هذه الأحداث آثاراً. فالرئيس الأميركي بوش الابن بروتستانتي متطرف. وبالمقابل، يظل الاتحاد الأوروبي كاثوليكياً جداً إلى درجة أن علمه هو علم العذراء مريم، وأنه جرى حديث عن "أوروبا فاتيكانية".

وإذا كانت النهضة فترة نزعة إنسانية ومجد، فقد كانت أيضاً فترة مأساة : ففيها ماتت الحضارات القبكولومبية وعُرفت "الحروب الدينية".

ولم يكن هناك شيء أفظع من حروب الدين، ويجب أن نشكر الملك هنري الطيب لأنه وضع لها حداً في الزمن الغابر. ولعلها لا تعود اليوم!

القرن السابع عشر العظيم

عند موت هنري الرابع، مارست الوصاية على العرش في فرنسا ماري دو ميديسيس، باسم ابنها لويس الثالث عشر. واضطرت في مجلس الطبقات عام 1614، إلى تقديم تنازلات للنبلاء. وكانت قليلة الذكاء، ومتأثرة بمحيط مقيت (لي كونسيني)، وأرادت أن تحتفظ بالسلطة حتى بلوغ الملك سن الرشد، ولكن كان لها الفضل العظيم في إدخال روشيليو إلى المجلس.

وبعد إقالة الوصية على العرش، احتفظ لويس الثالث عشر بروشيليو وكان ذلك عام 1624. وكان الملك قد بلغ أربعة وعشرين عاماً من العمر؛ والوزير، الذي صار كاردينالاً، تسعة وثلاثين. وكان لويس الثالث عشر رجلاً قصير القامة، نحيلاً، ويتأتئ، ولم تكن علاقته بالنساء جيدة (وقد بقي ثلاثة عشر عاماً قبل أن ينجب طفلاً من زوجته، آن دوتريش).

بيد أن هذا الملك الخجول استطاع أن يحتفظ بالكاردينال وزيراً له طيلة عشرين عاماً، لأنه كان يعترف بموهبته. كان أرموند دو بليسيس يتمتع بحس الدولة، فقد حارب في الداخل كل ما من شأنه عرقلة السلطة الملكية. ولأن البروتستانت اغتنموا فرصة وفاة هنري الرابع ليفتحوا للانجليز لاروشيل التي كانوا يسيطرون عليها، فقد أمر روشيليو بوضع عائق أمام ميناء شارونتي وحمل جماعة (الدين المصلح المزعوم) على الطاعة، مع احترام الحرية الدينية. ودفع الملك إلى محاسبة زارعي الشقاق "الكبار". ولم يكن ذلك بالأمر السهل: فقد كان روشيليو يقول: "لقد كانت الأرجل الأربع المربعة لديوان الملك أشق علي في إخضاعها من ساحات المعارك في أوروبا". ولم يكن لويس الثالث عشر "ملكاً شرفياً" (Cinq-Mars) ولكن مونتمورنسي وسانمارس قُطعت رأساهما.

وفي أوروبا، طبق روشيليو سياسة ذكية لاسترجاع تفوّق فرنسا، ولم يتردد في التحالف مع الأمراء البروتستانت ضد الهابسبورغ الكاثوليك، وهذا ما أثار استياء الأنصار. ودعم بالمال ملك السويد، غوستاف أدولف، لجعله يتدخل في ألمانيا. وعرفت السويد آنذاك ستين عاماً من العظمة العسكرية.

وكانت لهذه السياسة الفعالة والمثمرة عواقب مدمرة في ألمانيا. وكانت حرب الثلاثين عاماً، من عام 1618 إلى عام 1648، والتي انتهت لصالح فرنسا والسويد بمعاهدة ويستفالي (1618)، بالنسبة لألمانيا مأساة فظيعة (دمار وقتلى)، لم تتعاف منها إلّا بعد وقت طويل؛ ونجت من الحرب بروسيا والدول الوراثية للهابسبورغ (النمسا).

وقد تدخل روشيليو أيضاً في الميدان الثقافي: إذ أسس الأكاديمية الفرنسية عام 1634، وأمر ببناء كنيسة السوربون والقصر الملكي لباريس. وكان معتل الصحة، رغم طاقته الجبارة، ومات عام 1642، ولحق به ملكه المصاب بالسل بعد بضعة أشهر عام 1643.

وقد وقع في هذه الفترة حدث غريب في انجلترا : ألا وهو إعلان جمهورية، عام 1649، بعد قطع رأس الملك تشارلز (طبعاً لا! لم يكن الفرنسيون أول من قطعوا رؤوس ملوكهم!) وبعد أن أصبح أوليفيي كرومويل ديكتاتور ("السيد الحامي") هذه الجمهورية، سيّرها بقبضة من حديد إلى حين وفاته (3 أيلول/ سبتمبر 1658). واستغل ذلك لإخضاع اسكتلندا وإيرلندا، اللتين ظلتا شبة مستقلتين حتى ذلك الوقت.

وكان أنصار السيد الحامي يدعون الطهريين، وهم بروتستانت متزمتون. وقد بقي الاسم. وكان ضم اسكتلندا، البروتستانتية كانجلترا، سهلاً جداً (رغم بعض الثورات). وسوف يصبح رسمياً فيما بعد بواسطة معاهدة وحدة عام 1765. ولهذا السبب نتحدث منذ ذلك الحين عن "المملكة المتحدة". أما ضم إيرلندا الكاثوليكية فكان دامياً. إذ أرسل إليها كرومويل طهرييه، الذين استولوا على أخصب الأراضي التي سرقوها من النبلاء الكاثوليك (الذين لجأ الكثير منهم إلى فرنسا). وقد تولد عن هذا بغض إيرلندي دام جيلاً بعد جيل تجاه الإنجليز اليوم، وقاد ايرلندا إلى الاستقلال عام 1920. وخلال الحرب العالمية الثانية، سوف تبقى أيرلندا محايدة، رغم هتلر، بسبب بغضها لإنجلترا.

إلا أن الانجليز المتجمعين في أولستر، قد احتفظوا بربع ايرلندا. ويفسر

هذا الاستمرار في الوجود هناك معارك الجيش الجمهوري الايرلندي (إيرا) التي نتمنى أن تنتهي، لأنه تم التوصل اليوم إلى إبرام هدنة. ومن المحتمل أن هذا الصراع الذي يستمر عبر الأجيال (والذي تلعب فيه الولايات المتحدة اليوم دور الحكم، لأن كثيراً من الأميركيين كاثوليك من أصول ايرلندية، على غرار الرئيس كينيدي) سوف يصل إلى إعادة توحيد الجزيرة، لأنه كان على بروتستانت أولستر أن يختاروا بين أن يصيروا إيرلنديين حقاً أو أن يرجعوا إلى البلد الذي جاء منه أسلافهم.

وعلى هذا، وخلافاً للفرنسية، سوف لن تدوم الجمهورية الانجليزية طويلاً. فمنذ موت كرومويل، عادت الملكية في بريطانيا العظمى. وهي لا تزال موجودة إلى اليوم.

وبعد وفاة لويس الثالث عشر، تسامت زوجته آن دوتريش التي كانت حتى ذلك الوقت غبية، إلى مستوى الظروف. وبدأت بأن احتفظت بالوزير الأول الذي كان قد اختاره روشيليو خلفاً له: جيوليو مازاريني، المدعو مازارين، وهو دبلوماسي حبري كان روشيليو قد "عاينه" ووظفه. وكانت لمازارين، المرن في ظاهره، شخصية قوية. وقد كان بحاجة إلى ذلك. فعند وفاة روشيليو ولويس الثالث عشر، انتفض النبلاء. ونحن نسمي "ثورة" هذا الانشقاق الأخير لـ"الكبار"، الذي ربما كان سبب الطلاق الموجود في فرنسا بين الشعب والنخب. ولم يتردد الثوريون في التحالف مع الأعداء الخارجيين؛ "حزب الأجنبي" الشهير، بعد!

وقد شكل مازارين وآن دوتريش زوجاً قوياً. فلم يكونا حبيبين (مع أن مازارين كان كاردينالاً علمانياً، فإن ارتباط سائق شاحنة وسليلة شارل الخامس لا يخطر على بال)، لكن كانت تربطهما صداقة قوية. وقد شكلا جبهة، وكانا يفران عند الضرورة (كما عاش ولي العهد أيضاً، لويس الرابع عشر المستقبلي، طفولة صعبة)، ويعودان دائماً. وفي عام 1653، كانت الثورة قد سُحقت. وكانت الدولة قد أنقذت على يد أجنبيين: إسبانية وإيطالي. وقد وضعت معاهدة

لي بيريني، المبرمة عام 1659، أيضاً حداً للاعتداءات الخارجية. ومع أن مازارين لم يميز بين المال العام وخزينته الخاصة (وربما اتُهم اليوم بـ"استغلال المال العام")، فقد استحق احترام الوطن.

وفي عهد روشيليو ومازارين، غطى المجد الثقافي لفرنسا على مجد إيطاليا. وكان روني ديكارت، الذي كان يقيم في هولندا -بسبب الرفاهية أكثر منه بسبب الحذر- ولكنه كان يقرأ بشغف وتصدر حوله التعليقات في فرنسا، قد نشر عام 1637 عمله الشهير" خطاب المنهج". وقد عاد أيضاً إلى باريس ثلاث مرات، حيث التقى عبقرياً آخر، هو بليز باسكال، وهو فيزيائي استثنائي صاحب دراسات علمية عن الفراغ، والجاذبية وميكانيكا السوائل. وكان الرجلان يشتركان في "المنهج التجريبي"؛ وكان باسكال من جهة أخرى عالماً روحياً، معروفاً بأفكاره المشهورة أكثر منه بـ"كتاب المثلث الهندسي".

وعند موت مازارين -عرّابه ومعلمه في السياسة-، عام 1661، كان الملك لويس الرابع عشر يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة. وكان الكاردينال طيلة حياته متساهلاً. ولم يكن أحد يعرف ما كان يدور في ذهنه (باستثناء مازارين، الذي كان يعتبر قدرات ابنه بالمعمودية وتلميذه قدرات كبيرة). وكان الناس في البلاط يعتقدون أنه سيواصل غرامياته (فقد كان الشاب وسيماً جداً، ويهوى السيدات كثيراً) ويدع الحكم لأمه.

وبينما كانت أوروبا تصلح نفسها، ما الذي كان يجري في آسيا؟

أما في السلطنة العثمانية والصين، فيمكن القول: لا شيء!

صحيح أن الأتراك ظلوا أقوياء عسكرياً: فظهروا أمام فيينا للمرة الأخيرة عام 1682، وشنوا على جمهورية البندقية حرباً دامت خمسة وعشرين عاماً (1644-1669) على جزيرة كريت. ولكن دولتهم كانت تدار بطريقة سيئة جداً، مما كان يهدد حجم الدولة: وكانت تمتد من صربيا إلى أرمينيا، ومن مكة إلى الجزائر (وكان المغرب يفلت منها دائماً). كانت دولتهم قد بدأت في رحلة انهيارها الطويلة.

أما الصين فكانت تدار بشكل جيد بواسطة موظفيها الكبار، لكنها ظلت مغلقة (باستثناء تجارة طرق الحرير الثمينة). وعرفت في هذه الفترة الطور الأخير-الذي يتكرر دائماً منذ ألفيات- من غزو بدو السهوب والتصيين السريع لهؤلاء الغزاة. أما بالنسبة للباقي، فقد استمرت في جمودها العظيم. وفي عام 1644، استقر البدو الماندشو (mandchou) في بكين. وفيها أصبحوا صينيين واستمرت سلالة الماندشو حتى عام 1911.

أما اليابان فقد انغلقت واضطهدت مسيحييها. وفي الهند، حاول إمبراطور مغولي، وإن كان مسلماً، ألا وهو أكبر العظيم (1542-1605)، أن يؤسس ديناً جديداً، "دين-إي-إيهالي"، بأن صنع توليفة بين الإسلام والمسيحية والهندوسية (الديانات الثلاث لشبه القارة). لكنه فشل وتمرد ابنه سليم. وبسبب هذا الفشل، أمر أورانغزاب، آخر سيّد مغولي كبير (من 1658-1707)، وكان مسلماً متعصباً بهدم عدد من معابد سيفا (Siva) واضطهد الهندوس: وعليه فقد كان 90% من سكان شبه الجزيرة يعادونه، مما سوف يشجع بشكل كبير مغامرات الأوروبيين اللاحقة.

وفي بلاد الفرس، بالمقابل، فقد شهدنا في هذه الفترة، مع سلالة الدولة الصفوية، نهضة للثقافة الفارسية التقليدية القديمة. صحيح أن الصفويين ظلوا مسلمين رسمياً، ولكن إسلامهم في الحقيقة لم يكن قوياً. وقد حدّث عباس العظيم (1571-1629) جيشه بمساعدة مستشارين انجليز وجعل بلده يتطور آخذاً بعين الاعتبار ما كان يجري في أوروبا. وأسس عاصمته في أصفهان، وهي مدينة ذات طراز روماني، كان لها كاردو وديكومانوس، وشوارع كبيرة وساحات جميلة وكانت لها مساجد ولكن كانت لها خصوصاً قصور. وشجع عباس العظيم (وهذا هرطقة في الإسلام!) الرسم وسباقات البولو. وفي شيهل سوتون يمكن حتى اليوم التمتع بمنظر الجداريات: تلك التي تصب فيها فتيات جميلات النبيذ لأمراء شباب. ونرى فيها أيضاً منحوتات جميلة. وكان متسامحاً، فقد منح الإقامة في عاصمته لكثير من المسيحيين الأرمن، الذين كان

يحب علمهم وحرفهم. وكان يقال إن "أصفهان هي نصف العالم". كما اجتهد في إيفاد سفارات فخمة إلى ملوك أوروبا، عارضاً عليهم تحالفاً خلفياً ضد الأتراك الذين كانوا يكرهونهم. وحذا حذوه شاهات الدولة (وهكذا سوف يستقبل نابوليون سفارة فارسية في بولونيا، خلال شتاء 1807).

بيد أن الوسيم لويس الرابع عشر جمع في باريس مجلسه، لأول مرة منذ وفاة عرّابه. وقال للوزراء:

"أيها السادة، حتى الآن، أردت ترك مهمة حكم دولتي للفقيد الكاردينال مازارين. ومن اليوم، سوف لن تكون الأمور كذلك، لن اتخذ رئيس وزراء وسأحكم بنفسي. وسأطلب مشورتكم عند الحاجة. يمكنكم الانصراف."

وكان في الوقت ذاته، قد اعتقل بواسطة جند مشاته، ناظر المالية القوي، نيكولا فوكي (Fouquet)، الذي كان يسرق منه الأضواء. وكان ذلك اعتقالاً ظالماً، بلا شك، لكن يمليه" مبرر الدولة "المحبب لمكيافيللي. وقد مات الناظر الباذخ باني قصر فو (Vaux)، دون أن يلتفت إليه أحد في القلعة الملكية لبينيرول.

وقد كشفت هذه الحادثة المفاجئة الحقيقية عن طاقة استطاع عرّابه مازارين تمييزها. وكان الملك قد خلف والده عام 1643 ("مات الملك، عاش الملك")، ولكن في تلك السنة 1661 بدأ حكم شخصي سوف يستمر خمسة وأربعين عاماً، وكان عظيماً.

وحدها هولندا هي التي استطاعت أن تحتوي فعلاً لويس الرابع عشر. وكانت هولندا، هذا القسم من الأراضي المنخفضة، قد وجدت في البروتستانتية، الكالفينية تحديداً، حجة للانعتاق من سيطرة إسبانيا التي لا تحتمل. وفي عام 1609، كانت إسبانيا قد اعترفت باستقلال شمال الأراضي المنخفضة، محتفظة لنفسها بالجنوب. ولهذا السبب فإن الفلمنديين الذين يتحدثون الهولندية، هم كاثوليك. ومنذ عام 1648، انتزعت أمستردام من البندقية التفوق البحري.

وقد أرسل الهولنديون كثيراً من المستوطنين إلى جنوب أفريقيا، إلى الرأس (ولا يزالون هناك، ولا يزال "الأفريقانيون" يتحدثون الهولندية). وقد غزوا أرخبيل أندونيسيا الكبير، الذي سوف يبقى تحت سيطرتهم إلى غاية عام 1945. وقد أسسوا في أميركا، في مصب الهودسون، "أمستردام الجديدة"، التي سوف تصبح نيويورك حين يحل الانجليز محل هولندا في السيطرة على البحار.

ويقلل الناس دائماً من أهمية دور الهولنديين.

وعلى الصعيد الثقافي، كان هذا الدور أساسياً. وكانت أمستردام قد استضافت إيرازم، وعاش فيها أيضاً ديكارت. وكان سبينوزا (1632-1677) الشخصية المسيطرة فيها. وقد حرمه المعبد بسبب عقلانيته، فذهب للعيش في لاهاي، وفيها كتب "الأخلاق" وصقل زجاج النظارات. وكان هناك في الوقت ذاته، إلى جانب الرسم الفلمندري، رسم هولندي.

وقد انتهت الحرب الفرنكو-هولندية (1672-1678) دون غالب ولا مغلوب وكانت الجمهوريات الباتافية قد عهدت بمهمة الدفاع عنها إلى أمير ألماني، كان أيضاً سيّد مدينة أورانج في فرنسا(ومنها جاء لقبه غيوم أورانج)، وقد قوّى مقاومتهم وأنقذ الهولنديين بفتح الحواجز (جزء من البلد يوجد تحت مستوى أعالي البحار). وبعد سلام نيماغ (1678)، دعي غيوم إلى انجلترا التي أصبح ملكاً عليها (لهذا السبب يسمى اليوم البروتستانت الملكيين في شمال ايرلندا، في أولستر، بـ"الأورانجيين"). ولا يزال البرتقالي هو اللون الهولندي.

وفي كل الأماكن الأخرى، انتصر لويس الرابع عشر. وكان قد أنشأ، مع وزير حربه لوفوا، أفضل جيش في أوروبا، وأكثرها عدداً (400.000 رجل، أي أكثر مما كان في أي وقت في الإمبراطورية الرومانية. كانت الحروب ضارية أحياناً، وكادت الحرب المسماة "إرث إسبانيا" أن تنتهي نهاية مأساوية واضطر لويس الرابع عشر أن يشحذ قوة إرادة رعاياه، من خلال رسالة قرئت في كل خورنيات فرنسا. وتعتبر هذه الواقعة ذات دلالة وتبيّن أن الملك الشمس ظل

رغم المظاهر، وفياً للتقليد الكابسياني واعتمد على الشعب. وكان النصر فرنسياً في دومان عام 1712 ونحج لويس في تنصيب حفيد له على عرش إسبانيا، واضعاً بذلك حداً لتنافس دام أجيالاً. ولا يزال البوربون حتى اليوم يحتفظون بالتاج الإسباني: إذ إن خوان كارلوس ينحدر من لويس الرابع عشر.

ورغم التكلفة المالية والبشرية، فقد كانت هذه الحروب، التي قادها جيش محترف، في محيط المملكة، أفعال ملك يرغب في توسيع ملكه أكثر منها مغامرات غزو. ولم تكن لتخطر على بال لويس الرابع عشر الفكرة السخيفة لاحتلال برلين! والحقيقة أنه أوشك على إتمام رسم خارطة فرنسا الحالية بضمّه إلى مملكة الأتروا، الفلاندر (les Flandres) (ليل)، الألزاس، لافرونش كونتي والروسيون.

وفي الداخل، كانت غلطته الوحيدة هي إلغاؤه، عام 1685، منشور نانت. وقد هاجر آنذاك كثير من الفرنسيين البروتستانت إلى بروسيا أو إلى جنوب أفريقيا الهولندية. كانت تلك خسارة فادحة للبلاد-لم يعوضها كما ينبغي وصول كاثوليك إيرلنديين.

أما بالنسبة للباقي، فقد كانت سياسته فعالة (إضافة إلى ذلك، فقد عاد سريان منشور نانت على يد من خلفوه). وكان لويس الرابع عشر قد احتفظ منذ طفولته في عهد الثورة بحذر عميق تجاه النبلاء. ويجب أن نفهم أن بناء فرساي كان عملاً سياسياً عظيماً. ولم يكن فرساي الذي دشن عام 1682، أجمل قصر في العالم فحسب، قُلد في كل أنحاء أوروبا؛ بل كان آلة لتدجين "الكبار"؛ جميع الـ"مهمين" الذين كانوا مجبرين على السكنى في المدينة الجديدة لتملق الملك. وينبغي أن نتخيل النبلاء مجتمعين في رواق المرايا وواحد من الحرس يهتف: "يا سادة، الملك! فينحني الجميع...

كما يبين لنا قصر المرايا هذا، الرائع والهش، إلى أي درجة كان النظام الداخلي سائداً: والحقيقة أنه لم يكن ممكناً حماية هذا القصر في حال حدوث مظاهرة-وسوف تثبت الثورة ذلك. أما النظام الخارجي، فكان ثابتاً، بكون

باريس لويس الرابع عشر(التي ظلت هي العاصمة) لم تكن لها أسوار. "السور الذي يسور باريس [الذي] يجعل باريس تثور" لم يكن سوى سور هبة تزينه أبواب جميلة: سانت دونيس، سانت مارتين. وقد جعل السلم الفرنسي أي هجوم من عدو أمراً لا يتصور. وسوف لن تتخذ باريس تحصينات إلّا في القرن التالي.

إن القائد يُعرف من محيطه: فالقادة الصغار لا يتحملون موهبة الآخرين ويختارون غير الأكفاء؛ أما القادة الكبار فيعرفون أن مجد مستشاريهم لا يظلّل عليهم بل يشع عليهم.

ومن وجهة النظر هذه، فلويس الرابع عشر هو ذاته لويس العظيم: كان شعاره "لا شيء من هذا لأحد غيري". وهو اليوم الشعار الرسمي للولايات المتحدة (والحكم شبه الرسمي لفرنسا بشأن نفسها).

وحول الملك الشمس، كان هناك المهندس المعماري مانسارت والموسيقي لولي ورسام المناظر لونوتر وكوكبة من رجال الأدب: كورناي، راسين، لافونتين، موليير، بوالو، لابروبار.

وينبغي التوقف عند حالة موليير. كان جان باتيست بوكلين (1622-1673) قد تخلى عن المحاماة في سبيل المسرح. وعيّنه لويس الرابع عشر "الممثل العادي للملك"، وخصه بمنحة وبإنشاء الكوميديا الفرنسية. وسمح له، على وجه الخصوص، بكتابة وتمثيل مسرحيات تحريضية، لا تزال حتى اليوم فاضحة-لِنفكر في "المنافق" (Tartuffe)، وهي سخرية لاذعة من طالبان في كل العصور. وفي نهاية عرضه، التزم التقاليديون المنزعجون صمتاً مطبقاً؛ فيما راح الملك يصفق بحرارة مما فجّر تصفيق الحاشية. وكان يمكنه أمام لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر، أن يقول على لسان شخصية من السّيد: "مهما عظم الملوك، فهم مثلنا ويمكنهم أن يخطئوا كغيرهم من البشر" وكان الملوك يصفّقون.

ويجب أن نشير أيضاً إلى عبقرية راسين وكورناي اللذين، ببضعة آلاف

كلمة، وبالتزام قواعد صارمة جداً، يقولان كل شيء عن كل شيء، وينفذان بدقة خارقة إلى النفس البشرية، معملين فيها مشرطهم كما لم يحدث من قبل، ومكتشفين في بضعة أفعال هموم الإنسان (الحب، الكره، الطموح، المجد، الشح، النفاق، الخوف). ونحن هنا نقارب عبقرية الإغريق القدامى: راسين، هو سوفوكل؛ موليير، أرسطوفان!

وتعبر البساطة "الكلاسيكية" عن تعقيد الأشياء. والفرز يوحي بالتألق، والخفة تكشف العمق. ويوجز بوالو هذه العبقرية الكلاسيكية كالآتي: "ما يُدرك جيدًا، يعبَّر عنه بوضوح." وهذه هي عبقرية فرنسا ذاتها، ألا وهي القدرة على بلوغ العظمة برصانة. وهنا يكمن أسلوب لويس الرابع عشر كله. وقد كتب راسين بتحفظ: "حسناً! إعرف إذن فيدر وجنونها كله. أحبّ!

وإذا نظرنا ملياً إلى الحكومة، فإن فرنسا لم تعرف إلّا القليل مما كان أكثر إشعاعاً منها. وقد ذكرنا لوفوا في الحرب. ولكننا نفكر بالطبع في كولبار، وزير المالية، والداخلية والاقتصاد. وقد أمر الملك ببناء مصانع شهيرة، لا يزال بعضها موجود إلى اليوم، على غرار الغوبلين، حيث ولدت مؤسسات رأسمالية كبيرة، مثل سانت غوبين. الـ"دولة الكولبيرتية" وجدت حقاً. ولا يزال يطبع أسلوب الحكم الفرنسي-خليط متناسق، مهما قيل، من المبادرة الخاصة وتدخل الدولة.

وكان فوبون أكثر هؤلاء الموظفين الفرنسيين تميزاً. وقد أمر فوبون، كما نعرف، ببناء حصون لا تعد ولا تحصى ذات تصميم جديد، قادرة على مقاومة المدافع. ولا نتذكر كثيراً أنه كان مختصاً في الجباية. وبطريقة ما، يمكن أن ننسب إليه إنشاء المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية لأنه كان مهووساً بالإحصاءات.

وكل أمّة أوروبية قد ميزت قرناً : فالقرن الخامس عشر إيطالي، والسادس عشر إسباني، والسابع عشر والثامن عشر فرنسيان. وكانت الفرنسية لغة كونية: ففي أوسترليز، كان جميع الملوك المعادين لفرنسا، يتحدثون الفرنسية في ما

بينهم. وفي القرنين التاسع عشر والعشرين سوف تفرض اللغة الانجليزية نفسها؛ أولاً بسبب انجلترا، ثم بسبب أميركا.

كان الملك "المسيحي جداً"، محباً للحياة. وكانت له كثير من العشيقات، منهن ثلاث تركن بصماتهن على فترات الحكم. كانت الآنسة دولافاليار امرأة البدايات الظافرة؛ والسيدة مونتيسبان، امرأة النضج المجيد، والسيدة مانتونون، امرأة الشمس الغاربة. وقد أسست هذه الأخيرة دار سانت سير لتربية الفتيات. ولكن هؤلاء العشيقات لم يكنّ يتخذن أي قرارات بشان الشؤون العامة. كان لويس الرابع عشر يركب الخيل ويصطاد الذئاب والأيائل بعد ذلك بساعتين؛ وفي المساء، يرأس مآدب العشاء محاطاً بالحسناوات، ولكنه كان في المقام الأول عاملاً، يجتهد في أداء "مهنة الملك" (كما كان يقول) ويدرس الملفات في مكتبه خلال عشر ساعات يومياً.

وإضافة إلى فرساي، فقد ترك لنا صروحاً رائعة. فجميع المدن الفرنسية مدينة له ببناياتها العامة الجميلة. وباريس التي نتخيل خطأً أنها أُهملت لأن البلاط كان في فرساي، مدينة للويس الرابع عشر بمستشفياتها الكبيرة، الواقعة على خط واحد في النهج الجنوبي: ليزانفاليد (les Invalides) (بالنسبة للجنود الشيوخ الجرحى)، الفال دو غراس والسالبيتريار، بقباب كنائسها.

ولم يكن ليزانفاليد، وهو ربما أجمل صروح باريس، سوى مستشفى. ولكنه يخبر عن فضل لويس الرابع عشر، أكثر من فرساي. وإذا أردنا أن نقيّم عظمة حضارة، فينبغي ألّا ننظر إلى بيوت الأثرياء، بل إلى ملاجئ الفقراء!

وكان جميع ملوك أوروبا، خصوماً أو حلفاء، يريدون تقليد ملك فرنسا.

وقرب فيينا، أمر إمبراطور هابسبورغ، ببناء قصر فرساي الخاص به في شونبرون.

وفي روسيا، على الطرف الآخر من أوروبا، أمر القيصر بطرس الأكبر، الذي هجر موسكو الأرثوذكسية، ببناء عاصمة جديدة ذات طراز كلاسيكي، متجهة إلى الغرب، هي بطرسبرغ، ذلك الحلم الأوروبي في عمق البلطيق.

وعصرن بلده بقوة (مقارنة بالقيصر بطرس، كان لويس الرابع عشر رقيقاً). وفي ظل حكم بطرس الأكبر (1672-1725)، أصبحت روسيا أخيراً قوة من المحفل الأوروبي.

وعندما مات لويس الرابع عشر "عجوزاً شبع من الحياة"، افتتح الأمير الإمبراطوري السابق لبراندبورغ، الذي أصبح ملكاً على بروسيا عام 1701، مجلس وزرائه في برلين بأن قال فقط، بالفرنسية "مات الملك." ولم يكن بحاجة إلى أن يحدد عن أي ملك كان يتحدث.

وأين الشعب الفرنسي من كل هذا؟ لقد أشرنا إلى أن لويس الرابع عشر توجَّه إليه خلال حرب التعاقب على عرش إسبانيا، وأن الشعب استجاب لرجائه (مساهمات، متطوعون، أوان، الخ).

كان البروتستانت (الذين سوف يعودون بأعداد كبيرة إلى المملكة عندما تعيد الملكية منشور نانت) يكرهونه، وكذلك كثير من النبلاء(على غرار دوق سانت سيمون). ولكن البرجوازيين كانوا يحبونه. أما العشرون مليون فلاح، فلم يكونوا في عهد الحكم الشمسي في الشقاء الذي تؤكده إحدى المدارس التاريخية المعاصرة. إذ كانوا ينعمون بالسلم (باستثناء مناطق الشمال الشرقي والشرق) وبإدارة جيدة. بيد أنه في الأزمنة الأخيرة، صارت الجباية التي أثقلت كواهلهم بصفة خاصة بطريقة ظالمة-منهكة. حروب، بنايات، دبلوماسية: كل هذا كان مكلفاً. وفي نهاية هذا الحكم الطويل-وأطول مما ينبغي-، نفد صبر الفلاحين. وكان موت الملك الكبير بمثابة الخلاص، وكذلك الأمر بالنسبة لـ"ذوي النفوذ" الذين ظلوا منذ نصف قرن تحت قبضته الحديدية.

عصر الأنوار

حذفت سلسلة من حالات الموت المأساوي نظام التعاقب على العرش (وقتمت السنوات الأخيرة للويس الرابع عشر)، وآل العرش عام 1715 إلى أحد

أبناء أحفاد الملك الراحل، وكان لا يزال طفلاً، والوصاية على العرش إلى ابن أخيه فيليب دورليان (من عام 1715 إلى عام 1723).

كان الأمر كأنه نابض خفف ضغطه. وكان النبلاء يتفجرون فرحاً. وكانت الوصاية على العرش حفلاً سجله جيداً فيلم برتراند تافارنيي الذي يحمل عنوان "ليبدأ الحفل".

كان يمكن لفيليب دورليان أن يكتفي بأن ينحني للعاصفة ولكنه اقترف الخطأ القاتل بأن نقض الحلف الذي دام أجيالاً بين الكابيسيان والشعب.

وتوخى لويس الرابع عشر، خاله، أن لا يحكم مع النبلاء الذين تراجعوا إلى وظيفة عسكرية. والحال أن فيليب منحهم السلطة التي سحقهم الملك الشمس عليها. وعيّن نبلاء في لجان كان رأيها ضرورياً حول كل شيء : ألا وهي "بوليسينودي".

وأثار هذا غضب البرجوازيين (الطبقات الوسطى)، الذين كانوا موضع ثقة الملوك الكابيسيين (ونحن هنا بصدد أحد الأسباب البعيدة للثورة) وأصبحت الحكومة قليلة الفاعلية.

والحقيقة أن القرن الثامن عشر بدأ عام 1715، عند وفاة لويس الرابع عشر. وقد كيفت المدة القرنية مع علم النفس ومع الحياة البشرية. والقرن يساوي أربعة أجيال. ويمكن للمسن أن يكون والده على قيد الحياة، ويكون له أحفاد. ولكن البداية والنهاية الاتفاقيتان للقرون لا توافقان الوقائع التاريخية.

كان القرن السابع عشر قد بدأ، عام 1610، باغتيال هنري الرابع، ودام حتى عام 1715. وبدأ القرن الثامن عشر عام 1715 وسوف ينتهي بعد ذلك بمائة عام، عام 1815، في ساحة معركة واترلو.

وفي أوروبا الوسطى والشرقية، استمر الملوك في ممارسة الملكية المطلقة للويس الرابع عشر (غير أن سلطتهم كانت محدودة بالاعفاءات البلدية، وامتيازات النبلاء ورجال الدين).

وكان يحكم بروسيا فريديريك الثاني الكبير (1712-1768). وعلى رأس

جيش باسل ومقدام، وسع الملك الاستراتيجي بروسيا، التي أصبحت قوة عسكرية، على حساب جيرانها. وفي الإمبراطورية -التي توسعت باتجاه شرق هنغاريا، بعد انتصارات على تركيا-، شيّدت ماري- تيريز (1740-1780)، التي تقاسمت السلطة ابتداء من عام 1765 مع ابنها جوزيف الثاني، إمبراطورية هابسبورغ التي استمرت إلى غاية 1918.

وفي روسيا، نجحت كاترين الثانية (1762-1796)، مع أنها امرأة، في الإبقاء على القبضة الحديدية لبطرس الأكبر.

واتفقت كل من بروسيا وروسيا والنمسا على اقتسام مملكة بولونيا البائسة، التي اختفت عام 1772 من مجموعة الدول المستقلة (ولم تعد للظهور إلا عام 1918).

غير أن الملكية في المملكة المتحدة صارت "دستورية". وبعد وولبول من عام 1721 إلى عام 1742، سوف يصير آل بيت (les Pitt) رئيسي وزراء (الأول من عام 1757 إلى عام 1760 والثاني من عام 1783 إلى عام 1789) في عهد سلالة تنحدر من هانوفر.

أما في فرنسا، فإن لويس الخامس عشر، الذي أصبح راشداً، لم يحكم حقيقة لانغماسه في ملذاته ومع عشيقاته (بومبادور ودوباري). كان أولئك الوزراء الأوائل غير أكفاء، باستثناء الكاردينال فلوري (1726-1743). وسوف لن يكون للويس السادس عشر، الذي تم إقراره ملكاً بعد وفاة لويس الخامس عشر، أيّ عشيقة، وكان يتصف بأخلاق صارمة؛ بيد أنه كان متردداً بدوره كسابقه.

وقد تميز القرن الثامن عشر بالتنافس البحري بين فرنسا وانجلترا.

و إن كانت انجلترا قد عوضت بسرعة هولندا على المحيطات، فقد كانت لفرنسا أيضاً بحرية قوية. وكانت أشجار السنديان التي زرعها كولبارت في الغابات الحكومية قد تحولت، في القرن التالي، إلى سفن حربية قوية.

كانت تلك الفترة ذروة البحرية الشراعية. وكانت السفن ثلاثية الصواري

الجميلة، المسلحة بعشرات المدافع في كل جانب، ويعمل عليها مئات البحارة (من كورنواي أو من التاميز، بروتان أو بروفانس)، تستطيع أن تطوف حول العالم بسهولة ناقلة أحمالاً ثقيلة (وكنا بعيداً جداً عن مراكب كريستوف كولومبس السريعة ذات الأربع صواري). كان ذلك زمن ارتياد البحار الجنوبية، التي صوّرها الانجليزي جيمس كوك والفرنسي لابيروز، اللذان اكتشفا أستراليا وأوسيانيا. وفي أميركا، انتشر الفرنسيون المقيمون على ضفة سانت-لوران منذ عام 1607 (تاريخ تأسيس مدينة كيبك على يد شامبلان) في القارة. وفي القرن الثامن عشر، كان الفرنسيون سادة على أميركا الشمالية كلها تقريباً، حيث لا تزال تشهد على وجودهم التسميات: مونتريال، ديترويت، سانت لويس، لا نوفال أورليان. وكانوا يملكون أكبر نهرين: سانت لوران شمالاً ونظام الميسيسيبي نحو الجنوب، اللذين قطعهما بحارة شجعان (كافوليي دو لا صال). كانت نيوأورليانز، عاصمة لويزيانا قد أُسست. بيد أن أميركا الفرنسية العظيمة تلك كانت لديها نقطة ضعف وهي قلة الرجال.

لطالما نفر الفرنسيون من التعبير عن أنفسهم. فلم تراهم يفعلون؟ ألا يقول المثل الألماني "سعيد كإله في فرنسا"؟ نعم للمغامرات العلمية أو العسكرية. أما الهجرة فلا!

والنتيجة: أن القارة الأميركية الفرنسية كان يسكنها أقل من 100.000 مستوطن، مجبرين على إقامة صلات ممتازة مع القبائل الهندية البدوية (الهورون). أما المملكة المتحدة فلم تكن تملك من أميركا إلا شريطاً ساحلياً رفيعاً (ثلاث عشرة مستوطنة)، يمتد من ماين إلى كاورلينا؛ ولكن هذا الإقليم الأطلسي كان يسكنه ما يقارب مليون مستوطن بريطاني، وفي معظم الأحيان طُهريون في نزاع مع الكنيسة الأنجليكانية (كان حجاج "مايفلاور" قد أسسوا بلايماوث عام 1620).

وقد نجح الفرنسيون في الهند، مع دوبلايكس، عام (1748)، باتفاق مع

ملوك مغول في غمرة الانهيار، في فرض حمايتهم، من بونديشيري، على الراجا أو أمراء المقاطعات الست لشبه جزيرة دكان.

وهكذا كان الفرنسيون، في عام 1750، يسيطرون على أميركا الشمالية وشبه القارية الهندية. ولم يكن الانجليز يستطيعون قبول هذا الأمر. فبالنسبة لانجلترا، التي لا تكتفي بنفسها، كانت السيطرة على المحيطات رهاناً حيوياً. ومن عام 1756 إلى عام 1763، تواجه في حرب السنوات السبع، في ما وراء البحار، الانجليز والفرنسيون. كان تباين القوى والسكان كبيراً؛ والفرق في حماسة الحكومات والشعوب أيضاً. وكانت فرنسا الغنية، المندمجة بقوة في القارة الأوروبية، والتي كان يحكمها ملك متقلب، هو لويس الخامس عشر، أقل انشغالاً بما وراء البحار من المملكة المتحدة. ولنتذكر الكلمة المحقرة التي قالها فولتير عن "فدادين الثلج" الأميركية.

ورغم شجاعة مركيز مونتكالم وموهبته (كان قد أحرز عدة انتصارات على الانجليز)، فإنه لم يستطع أن يمنع سقوط كيبك عام 1759، وهي المدينة التي جُرح قربها جرحاً بليغاً. وحدث الأمر ذاته في الهند. وانتقلت شبه الجزيرة إلى السيطرة البريطانية التي سوف تدوم حتى عام 1947. (وسوف يقضى على آخر مقاومة هندية، ألا وهي مقاومة رابطة ماراتس، عام 1818.) وصيغ "عقد الهند "عام 1784؛ وأصبحت الهند الـ"راجي" البريطاني. وفي عام 1763، كرست معاهدة باريس موت أول إمبراطور فرنسي من وراء البحار (باستثناء بعض الهنود الغربيين) والانتصار في محيطات انجلترا: "رول بريطانيا". ولو كان لويس الخامس عشر أكثر حباً للحرب لكان العالم ربما قد أصبح اليوم فرانكفونيا!

غير أنه إذا كان الفرنسيون قد تقبّلوا جيداً خسارة مستعمراتهم، فإنهم مازالوا يحقدون على الانجليز. وعندما ثار مستوطنو أميركا الإنجليز على عاصمتهم، هبوا لنجدة "المتمردين".

إذ إنه عام 1776، تمرد المستوطنون الانجليز لبوسطن ونيو-إنجلند على انجلترا، التي فرضت عليهم ضرائب ثقيلة على التصدير والاستيراد. وكالنار في

الهشيم انتشر التمرد في ثلاث عشرة مستعمرة وعُيِّن جورج واشنطن، وهو مزارع ثري من فرجينيا، جنرالاً فيها.

وقد أيَّد الرأي العام الفرنسي المنشقين خصوصاً وأن هؤلاء-على الأقل قادتهم- يفخرون بأفكار الفلاسفة الفرنسيين. ومنذ عام 1778، أُرسل بنجامين فرانكلين إلى باريس. وعبر الكثير من الشباب الأرستقراطي المحيط الأطلسي للقتال إلى جانب المتمردين، وكان أشهرهم لافاييت (1757-1834). في ذلك الوقت (وكما في زمن "حرب إسبانيا" في القرن العشرين)، عندما كان المثقفون الفرنسيون يؤيدون قضية، فإنهم لم يكونوا يكتفون بإبداء رأيهم في نشرة الأخبار المتلفزة بل كانوا يذهبون للقتال!

إلّا أن المتمردين بمفردهم لم يكونوا ليستطيعوا طرد الجيش الانجليزي. وهذا ثابت: إذا كان صحيحاً أن القوة البحتة لا تكفي لإنشاء سيطرة دائمة، فإن حرب العصابات تظل دائماً عاجزة عن هزيمة جيش نظامي.

كان يجب أن تعلن حكومة لويس السادس عشر الطالبة للثأر من انجلترا، الحرب عام 1778 على التاج البريطاني، وأن تفرض البحرية الفرنسية لدوغراس قانونها على البحرية الانجليزية (كانت تلك هي المرة الوحيدة: وقد حفظ الانجليز الدرس فيما بعد) وتظهر على أنها قادرة على أن تنقل إلى أميركا فريق استكشاف مؤلف من 30.000 رجل بقيادة جنرال روشامبو، كي يستسلم الجيش الانجليزي، المهزوم في يوركتاون عام 1781. ولم يكن بإمكان واشنطن ومتمرديها، من دون القوة العسكرية والبحرية الفرنسية، أن يهزموا جيوش ملك انجلترا.

وفي عام 1783، كرست معاهدة فرساي استقلال المستعمرات الثائرة، التي أخذت اسم "الولايات المتحدة الأميركية".

وفي عام 1783، وبعد عشرين سنة من معاهدة باريس، كانت معاهدة فرساي انتقاماً رائعاً للفرنسيين. بيد أنهم لم يجنوا منها أي فائدة، بينما تعزت المملكة المتحدة عن خسارة أميركا (واحتفظت بكندا، ولم تغتنم المملكية

الفرنسية الفرصة لتحرير الكيبكيين الخاضعين منذ 1763، من الهيمنة الانجليزية) بتعزيز سلطتها على شبه الجزيرة الهندية: عقد الهند تحديداً عام 1784.

ولكن فاعلاً جديداً كان قد دخل على الساحة ألا وهو الولايات المتحدة.

وأنشأ الدستور الأميركي، المعتمد يوم 17 أيلول/سبتمبر 1787، جمهورية فدرالية كان جورج واشنطن أول رؤسائها. والواقع أنه أنشأ أمّة : وكانت "نحن الشعب" أولى كلمات الدستور الفدرالي. وللمرة الأولى، رأت جمهورية النور، حسب أمنيات المثقفين الفرنسيين. إذ إن فرنسا كانت، في القرن الثامن عشر، أكبر بآدابها منها بأسلحتها.

والجميع يعرف فولتير (1694-1778) ورواياته، جان جاك روسو (1712-1778) وعقد(ه) الاجتماعي الشهير (1762). وأفكار روسو، أكثر من أفكار فولتير، هي موضة اليوم. وهو مخترع "الطفل- الملك" : وقد نُشر "الإميل" في السنة ذاتها مع "العقد". وقد ألهمت المبادئ الدستورية لمونتسكيو في "روح القوانين" (1750) -"فصل السلطات"- الدستور الأميركي كثيراً.

وتمثل الأجزاء السبعة عشر من "الموسوعة" التي نُشرت من عام 1791 إلى عام 1772، والتي كان ديدرو ودالومبير محرِّريها الرئيسيين، خلاصة عامة للمعرفة البشرية وتجعل من الفرنسية لغة كونية، مؤكدة في كل مكان تفوق العقل على المبادئ.

ولم يكن فلاسفة الأنوار، العقلانيين والإنسانيين، ديمقراطيين؛ وكانوا يفتخرون بـ"الاستبداد المستنير". وكان روسو يدرك لا محالة فكرة الديمقراطية، ولكنه كان منفرداً حول هذه النقطة.

وقد استقبل فولتير وديدرو من قبل الملوك الأجانب. وقد تخصصا حتى في نصيحة الملوك. كما يقال اليوم- وهو مصطلح مأخوذ عن الأميركيين وجاء من الفرنسية (coaching) الـ"وجّه" (cocher) (حوذي العربة). وكانا يكتبان إلى كاترين روسيا وفرديرك بروسيا ويتلقيان منهما عشرات الرسائل. والحال أن كاترين الثانية وفريدريك الكبير لم يكونا ديمقراطيين تحديداً. . .

ويمكن إيجاد رابط بين الاستبداد المستنير للفلاسفة والـ"تقاليدية" المعاصرة (ذات النوعية الأدبية الأدنى، حقيقة، من النوعية الأدبية للقرن الثامن عشر). والتشابه مدهش : المواطنية العالمية؛ فكرة أن الشعب من الجهل بمكان بحيث لا يمكن أن يكون حراً؛ الفسق؛ نقاء السريرة وإيثار القضايا الإنسانية، حقيقة، ومن الأفضل أن تكون بعيدة (زلزال لشبونة)؛ القابلية الاستثنائية للفارق الايديولوجي الكبير (إنساني، ولكن مالك بواخر رقّ)، وأخيراً، ميزة غريبة وهي تعجيل الكارثة من خلال السلوك.

عندما كانت الدوقات يعتبرن روسو "روحياً للغاية" ويضحكن من نزواته ملء أشداقهن، لم يكن يعلمن أنه سيأتي يوم يدفعن فيه حياتهن ثمناً لذلك. ومن المهم أن نلاحظ إلى أيّ مدى يمكن للمرء أن يُتجاوز من خلال تطبيق أفكاره. أكان يمكن لروسو أن يتخيل روبيسبيير؟

بيد أن "الأنوار" بالألمانية كانت حركة رائعة للحرية (Aufklärung) والانطلاق، وقد استمرت فكرة المساواة بين البشر مع كل الموضات. ونحن نعرف كلمة إحدى شخصيات رواية "زواج فيغارو" لبومارشي، وهو رجل من الشعب، وهو يرد على شريف كان يتعجرف بقوله: "لقد تجشمتم فقط عناء الميلاد!"

وقد وجدت هذه الأفكار الهدامة ملاذاً في الماسونية. وكانت الهيئات العمالية للعصور الوسطى، وعلى وجه الخصوص هيئة البنائين، تتمتع بحريات نقابية. وقد فكر بعض المثقفين في أن يلجأوا إليها ولقوا استقبالاً طيباً من البنائين (ومنه جاء المئزر والمسيعة). وتدريجياً، تحولت "المحافل" إلى مجتمعات ذات تفكير حر وفقدت طابعها المهني. وقد أُسس المحفل الكبير في لندن، والمسمّى "تخمينياً" (وليس عمالياً)، عام1717. وفي فرنسا، تطورت الماسونية انطلاقاً من منفِيين إنجليز ابتداء من 1725 وعرفت تمدداً سريعاً تحت تأثير اندفاع دوق أورليان، الذي كان السيد الكبير الأول للمحفل الكبير في فرنسا عام 1773.

ولعصر الأنوار جانبه المظلم. وكانت هذه في الحقيقة هي الفترة الكبرى لتجارة الرقيق الأسود، بموجب تطورات الملاحة تحديداً.

وقد بقيت أفريقيا (باستثناء المغرب، ومصر، وأثيوبيا) ما قبل تاريخية، قارة من القبائل البدوية أحياناً، ورعوية أو زراعية في معظم الأحيان، لكن لم يكن فيها شيء يشبه إمبراطورية الأزدك أو الإنكا. صحيح أن كلمة"ما قبل تاريخي"، وكما نوّهنا إليه من قبل، لا تحمل أي مدلول أخلاقي. كانت الحضارات الأفريقية تنتج الفن والدين والجمال ولكنها لم تنتج دولة بالمعنى التاريخي للكلمة. فقد كانت عزلاء أمام أولئك القادمين من الخارج، ولم يكن يحافظ عليها سوى غزارة القارة، وجانبها المنيع-الصحراء شمالاً والغابة الاستوائية الكبرى القاسية على البشر، في الوسط.

وكان الفينيقيون والبرتغاليون قد طافوا حولها، في اتجاهين متعاكسين، ولكن دون الدخول إليها، ولم يؤسسوا فيها سوى وكالات تجارية. أما فرسان الله، فقد أوقفتهم الغابة.

ومع ذلك، فقد ازدهرت هناك تجارة الرقيق، لأن القبائل الأفريقية كانت عاجزة عن مقاومة المغاوير المنظمة والمسلحة. ويجب أيضاً التحلي بالشجاعة للاعتراف بأن كثيراً من الزعماء الأفارقة استفادوا من ذلك وأخذوا نسبتهم المئوية.

كانت تجارة الرقيق في البداية إسلامية وعربية، عبر الصحراء والقوافل، أو عبر البحر من زنجبار إلى الخليج الفارسي.

وعن طريق الاكتشافات الكبرى، أصبحت تجارة الرقيق أوروبية أيضاً وبلغت ذروتها في القرن الثامن عشر. ولم تكن المستعمرات الهندية الغربية وفرجينيا تستطيع الاستغناء عن يد عاملة وفيرة. وكان عدد الهنود الأميركيين قليلاً جداً. ولم يكن هنود أميركا اللاتينية، الجبليون سكان المرتفعات (سلسلة جبال الآندس، الهضاب العليا المكسيكية) يطيقون الحر. لذا فقد تم استيراد السود.

كانت الملاحة الثلاثية تدر أرباحاً كثيرة. وكانت باخرة الزنوج تغادر لندن أو نانت، مليئة بالمصنوعات الزجاجية وترسو في خليج غينيا وتبادل سلعتها بالعبيد، ثم كانت تبيع هؤلاء العبيد في الهند الغربية أو في فرجينيا مقابل السكر أو القطن، وتعود إلى لندن ونانت. وكانت كل باخرة زنوج تنقل مئات العبيد، وكان المئات منهم يموتون على الطريق.

ونستطيع القول إن العبودية هي الخطيئة الأولى لأميركا، وقد جعلتها العنصرية القوية للطهريين مقبولة. وقد استمر احتقار السود طويلاً في الولايات المتحدة الأميركية، إلى غاية حركة الحقوق المدنية، ومارتن لوثر كينغ. وسوف لن يشارك في إنزال نورماندي في حزيران/ جوان 1944 إلّا الجنود البيض، باستثناء السائقين والخدم. وكان يُنظر إلى السود على أنهم ليسوا مؤهلين للقتال (حين حُولت الفرقة العسكرية الثانية للجنرال لوكلارك من المغرب إلى انجلترا بغرض الإنزال عام، طُلب منه أن (يتطهر) ووجد لوكلارك نفسه مضطراً للتخلي عن القناصة الأفارقة الممتازين الذين ساروا معه انطلاقاً من تشاد).

وقد اكتسحت تجارة الرقيق أفريقيا السوداء، وتسببت فيها بصفة مباشرة أو غير مباشرة في سقوط عشرات الآلاف من الضحايا، محدثة مجزرة حقيقية، خلال قرون. وكانت تجارة الرق العربية (التي سُكت عنها في معظم الأحيان تجملاً) وتلك التي سادت في القرن الثامن عشر، كلاهما فتاكة بالنسبة للقارة الأفريقية.

بيد أننا ندين لها بالفضل في وجود مجموعة سوداء كبيرة في الولايات المتحدة الأميركية (أو في البرازيل) وموسيقى الجاز ومزامير الروحي.

وباستثناء الكوارث التي أحدثتها تجارة الرقيق، فقد كان القرن الثامن عشر فترة سلم للشعوب؛ ولم تكن الحروب البحرية تعنيهم كثيراً، وحتى في الهند. (ويجب أن نستثني من هذا التقسيم الظالم لبولونيا بين روسيا والنمسا وبروسيا). وحققت الزراعة تطورات كبيرة، واهتم بها علماء ("الفيزيوقراط"). وارتفع المستوى المعيشي، وتراجع قطاع الطرق. وأصبحت الحريات أخيراً (باستثناء

حريات السود) محترمة جداً. وتأنسنت حتى الحرب ذاتها، وخضعت لـ"حق الناس" : قانون السجناء وغير المقاتلين، الخ.

ولم يبد الفكر أبداً من قبل، رغم حالات النفاق المشار إليها أعلاه، أكثر حرية، وأكثر نشاطاً. ويقول تاليراند: "من لم يعرف هذه الفترة، يجهل ما يمكن أن تكون عليه حلاوة الحياة.

"وكان عصر الأنوار أيضاً العصر الكبير للموسيقى السيمفونية.

وفي جميع بلدان العالم، تتشابه أنواع الموسيقى التقليدية، الرتيبة قليلاً. ومنذ القرون الوسطى، ازدهرت الموسيقى في أديرة الغرب والشرق، متعددة الأصوات، غناء غريغوري وغناء أرثوذكسي.

وقد سمحت الثورات التقنية لعصر النهضة باختراع آلات جديدة (معزف قيثاري، بيانو) ولوح قراءة محسّن (صولفاج).

وترافق الإصلاح المضاد بإبداع موسيقى باروكية عظيمة. وفي عصر الأنوار عاش وعمل ملحنون أفذاذ: في فيينا، وولفغانغ أمادوس موتزارت (1756-1791) وفي بلاط الأمير الإمبراطوري لكولونيا، لوديفيغ فان بيتهوفن (1770-1827)، ونكتفي هنا بذكر أكثرهم عبقرية.

وكانت باريس موطن الأفكار المبتكرة؛ وألمانيا والنمسا، موطن الموسيقى السيمفونية؛ وتبقى إيطاليا موطن الأوبرا، منذ أن ضبط مونتيفاردي (1567-1643) قالب النوع. والى هذه الفترة يعود تاريخ سلّم ميلان (Scala de Milan)، الذي بني بأمر من ماري تيريز دوتريش.

الثورة الكبرى

كان لينين يطلق على الثورة الفرنسية لعام 1798 "الثورة الكبرى". وقد كان محقاً، فثورة 89 في نظر المؤرخين، تعد حدثاً كبيراً-الثورة بامتياز.

وهي حدث غير متوقع للغاية ولهذا لم يفهمه أحد في البداية. وقد لاحظ شاتوبريان ذلك:

"عندما اندلعت الثورة، لم يفهمها الملوك: إذ إنهم رأوا ثورة حيث كان ينبغي أن يروا تغيّر الأمم. وأطروا أنفسهم لأن هذا لم يكن يعني بالنسبة لهم إلّا توسيع دولهم ببعض المقاطعات المبتورة من فرنسا. وكانوا يؤمنون بالتكتيك العسكري القديم، والمعاهدات الدبلوماسية القديمة، ومفاوضات الدواوين. . .

"وكان مجنّدو الثورة سيذهبون لطرد جنود ملك بروسيا، وكان الملوك سيأتون لطلب السلام في غرف انتظار بعض المحامين المغمورين. وكانت الفكرة الثورية الرائعة ستفك على المشانق عقد أوروبا القديمة. كانت أوروبا القديمة هذه تظن أنها لا تحارب سوى فرنسا، ولم تكن تنتبه إلى أن قرناً جديداً كان يزحف إليها!"

ولا يظهر عدم الإدراك هذا المصحوب بوصف دقيق جداً للوقائع يوماً بيوم (و لم يكن المؤلفون يعرفون توابعها) في أي مكان، أفضل منه في مئات البرقيات التي أرسلها السفيران المتتاليان للبندقية وباريس إلى حكوماتهم. (وقد جُمعت "البرقيات الدبلوماسية" هذه في مجلد واحد ونشرت عام 1997 في دار روبير لافونت).

ولهذا الحدث العصيّ على الفهم أسباب يمكن تحديدها.

أولاً، الإفلاس. وكانت حرب أميركا قد كلفت الملكية الفرنسية أموالاً طائلة. وخلافاً لما قد توحي به عبارة "الملكية المطلقة"، لم يكن ملوك فرنسا يستطيعون فرض رسوم جديدة دون موافقة ممثلي الشعب: مجلس الطبقات، المؤلف من ثلاثة مجالس منفصلة للنبلاء، ورجال الدين والشعب (المسمى "دولة ثالثة").

وفي انجلترا، ليس هناك إلا مجلسان: غرفة اللوردات، التي تضم النبلاء والكهنة، ومجلس العموم، الذي يضم منتخبي الشعب. ومنذ رجوع السلالة الملكية، لما بعد كروमويل، إلى العرش، كان هذان المجلسان ينعقدان باستمرار.

وفي فرنسا، لم تُستدع الطبقات منذ 1614، فقد كان لويس الرابع عشر

يفضل أن لا يكون لديه المال على أن يكون ملزماً على تقديم حسابات للنبلاء. والحقيقة أنه حتى ممثلي الشعب كانوا أعياناً وبرجوازيين وفلاحين أغنياء ومحامين وموثقين، أي أناساً دارسين. وكان جميعهم متشبعاً بالأفكار الجديدة للفلاسفة. وقد نوهنا إلى أن الأفكار تقود العالم. وقد فهم فيكتور هيغو جيداً أن المسؤولين الحقيقيين للثورة كانا فولتير وروسو، وكلاهما مات خلال الأحداث. وقد أجرى على لسان غافروش هذه الكلمات المشهورة: "وقعت أرضاً / والذنب ذنب فولتير/ أنفي في الساقية/الذنب ذنب روسوا!"

أما السبب الثاني للثورة فكان إيديولوجياً: ألا وهو التجسيد غير المتوقع للنظريات الفلسفية للأنوار.

وقد استدعى لويس الرابع عشر، تحت وطأة خطر الإفلاس، مجلس الطبقات.

وتمت الانتخابات، "بأوامر" (النبلاء، ورجال الدين، والشعب)، في جميع خورنات فرنسا-التي اغتنمت الفرصة وبعثت إلى الملك، وفق الإجراء التقليدي، "دفاتر شكاوى". وهي من الأهمية بمكان لنا لمعرفة حالة الرأي العام عام 1789. وقد كان إصلاحياً، ولكنه ظل ملكي النزعة.

وقد اجتمع مجلس الطبقات يوم 17 يونيو/حزيران، بحضور الملك، الذي لم يطلب منهم سوى التصويت على ضرائب جديدة. وعلى الفور تقريباً، ساءت الأمور.

وفي يوم 9 يوليو/تموز، قررت المجالس الثلاثة بألّا تشكل إلّا "مجلساً تأسيسياً". وأراد لويس السادس عشر طرد الممثلين، ولكن هؤلاء لم يستجيبوا له. ونعرف كلمة ميرابو: "نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا بقوة الحراب." ولم يجرؤ الملك على استخدام القوة.

وكان أمام لويس السادس عشر حلّان: وتمثل أولهما في القمع. وكانت الملكية، القوية بعشرات الفيالق المرتزقة (ألمان، سويسريون)، قادرة تماماً.

وقد نوّه إلى هذا خبير: قال بونابرت: " ولو أبدى الملك صرامة، لما اندلعت الثورة".

وتمثل الحل الثاني في ركوب الحصان الثوري، وتسلّم قياده لتحويل الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية-وهو ما كان قد فعله الملوك الانجليز. ولكن لويس السادس عشر كان يؤمن بنزاهة مفرطة بمبادئ النظام القديم، مما منعه من تبني هذا السلوك.

لذا لم يستطع الاختيار. وكان رجلاً عاجزاً عن السيطرة على الموقف.

وفي14 يوليو/ تموز، استولت مظاهرة باريسية على حصن الباستيل، الذي كان خاليا تقريباً من السجناء ويحرسه سويسريون متقاعدون. وهذا حدث عسكري تافه، ولكنه رمزي جداً. وفي ذلك اليوم، سوف يكتب لويس السادس عشر في دفتره الشخصي: "لا يوجد شيء." صحيح أنه كان يتحدث عن الطريدة التي لم يقتلها، إذ إنه كان في رحلة صيد حين كانت المظاهرة تهدر في ضاحية سانت-أنطوان.

ولم يكن نواب الجمعية التأسيسية يريدون سوى أمرين: إصلاحات معقولة والتحول، بموافقة الملك، من الملكية المطلقة إلى الملكية الدستورية، على غرار الملكية الانجليزية (قبل أن تصبح معادية للانجليز، كانت الثورة مهووسة بالانجليز).

وكانت الجمعية التأسيسية جمعية كبيرة عملت كثيراً. وأنشأت النظام المتري (الذي انتصر في الأخير في جميع أرجاء العالم، وحتى في انجلترا)، وكسرت المقاطعات القديمة وقسّمت فرنسا إلى دوائر. وأعلنت في الأخير "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن" الشهير يوم 26 أغسطس/آب 1789: "يولد الناس ويظلون أحراراً وسواسية أمام القانون."

وهذه هي "حقوق الإنسان" التي جعلتنا نسوية أسيء فهمها نسمّيها اليوم "الحقوق الإنسانية"- وكأن التأسيسيين، حين كانوا يتحدثون عن البشر، لم يكونوا يتحدثون عن البشرية جمعاء!

وقد ترك لنا شاتوبريان من جلسات التأسيسية وصفاً يليق بأفضل أنواع الصحافة:

"كانت جلسات المجلس تحظى باهتمام كبير، فكان الناس يستيقظون في ساعة مبكرة ليظفروا بمكان في المدرجات المزدحمة. وكان النواب يصلون وهم يأكلون. ويدردشون ويستعملون الإيماءات ويتجمعون في مختلف أرجاء القاعة حسب أفكارهم.

"وسرعان ما تغطي على هذه الضوضاء ضوضاء أخرى: وهي ضوضاء قارئي العرائض، المسلحين باللمز، حين يظهرون على المنصة. كانوا يقولون: "الشعب يموت جوعاً، حان الوقت لاتخاذ إجراءات ضد الارستقراطيين والارتقاء إلى مستوى الظروف." وكان الرئيس يؤكد لهؤلاء المواطنين احترامه لهم. كما كانت الجلسات المسائية تتفوق على الصباحية من حيث الفضائح: فالناس يتحدثون بشكل أفضل وبجرأة أكبر على ضوء الثريات. وكانت قاعة الألعاب آنذاك قاعة مسرح تمثل فيها أكبر درامات العالم.

"كانت الشخصيات الأولى لا تزال تنتمي إلى النظام القديم للأشياء؛ وبدلاؤهم الرائعون المختبئون خلفهم لا يتحدثون بوضوح. وفي نهاية النقاش، رأيت نائباً يعتلي المنصة وكان ذا ملامح عادية ووجه رمادي وجامد، وممشط الشعر ويرتدي ثياباً لائقة كأنه مدبّر منزل أو موثق معتن بنفسه. وقدّم تقريراً طويلاً ومملاً؛ ولم يستمع إليه أحد؛ وسألت عن اسمه: وكان روبيسبيير.

"كان أصحاب الأحذية يتأهبون للخروج من الصالونات، وكانت القباقيب قد بدأت بعد تضرب الباب."

وفي يوم 14 يوليو /تموز 1790، نظّم التأسيسيون حفلاً كبيراً، في باريس، على الشون-دو-مارس : ألا وهو حفل الفدرالية. وأحيى القداسَ تاليراند، الذي كان آنذاك أسقفاً؛ وكان الملك مستعِداً لأداء القسم على الدستور، وقررت وفود المقاطعات رسميا أن تؤسس معاً أمة "واحدة لا تتجزأ". ولم يقلل هطول الأمطار من حماستهم شيئاً.

وكان يمكن أن تسير الأمور على ما يرام لولا الأفكار المسبقة للويس السادس عشر، الذي لم يتقبل النظام الجديد. وفي يوم 21 يونيو/حزيران، استقل الملك وزوجته ماري أنطوانيت وأبناؤه، عدة عربات ليلاً إلى ألمانيا ليكونوا تحت حماية الجيوش الأجنبية. وكان هذا الهروب، وهو فعلاً كذلك، خيانة أيضاً لأيمانه التي أقسمها وللوطن. وكاد الهروب أن ينجح. كانت العربات، في تلك الفترة، تسير بسرعة، ولكن كان يجب تغيير الأحصنة كثيراً في مرابط. وبفضل النقود التي تحمل صورته، صار وجه لويس السادس عشر معروفاً كثيراً. وفي فاران، على بعد ثلاثين كيلومتراً فقط من الحدود الإمبراطورية، تعرّف أحد مسؤولي المرابط على الملك وطلب المساعدة. فأعاد التأسيسيون لويس السادس عشر وعائلته إلى باريس، وتظاهروا بأنهم قد نسوا الحادثة. وقالوا بأن الملك تعرض لمحاولة اختطاف.

ولكن يجب أن ننوه إلى أن هروب فارين قد قضى على الثقة التي كانت موجودة بين الملكية والشعب: فحين أعيد الملك إلى باريس، استُقبل بصمت مطبق وليس بالهتافات المعتادة. ومع ذلك فقد انفصل المجلس التأسيسي وحلّ محله "المجلس التشريعي". وكانت الملكية الدستورية قائمة وسوف لن تستمر إلا سنة واحدة. إذ كانت خيانة لويس السادس عشر قد هدمت أسسها.

وقد كان ظهور ملكية دستورية ذات تطلعات كونية، في وسط أوروبا (وليس في محيطها، كإنجلترا)، في الأمة الأقوى في القارة، أمراً لا يطاق بالنسبة للملوك.

وداخل المجلس التشريعي ذاته، كان حزب الحرب قوياً. وفي الأصل، كان جميع هؤلاء الرجال الـ89 مسالمين. وكان الجميع يرون أن الحرب هي طريقة تسوية نزاعات عفا عليها الزمن. وكانوا جميعاً يعتقدون أنه لن تكون هناك حرب أبداً. ومن الغريب أن نرى أناساً مسالمين يتحولون إلى دعاة حرب-وهي حالة دارجة في التاريخ. وتبقى الحقيقة أنه، يوم 20 أبريل/نيسان 1792، أعلن نواب أوروبا وملوكها الحرب على بعضهم بعضاً بفرح، موقنين

بأن السلاح يسوي كل شيء-نزاعاتهم الداخلية وتعارضهم الإيديولوجي معاً. والواقع أن رجال الثورة كانوا يحلمون بصنع سعادة الشعوب الأخرى وتصدير "مبادئ 89 الخالدة".

والحرب لا تلائم الديمقراطية أبداً وقد عصفت بالملكية الدستورية الفرنسية. وفي يوم 10 أغسطس/آب 1792، اكتسحت مظاهرة شعبية التويلري؛ وأطيح بالملك، الذي احتمى بالمجلس، وسُجنت العائلة الملكية في المعبد. وبعد الانتخابات، بالاقتراع الموسع، للمجلس الشهير المسمى "اتفاقية" يوم 20 أيلول/ سبتمبر (انتخابات صاحبتها اضطرابات ومجازر)، أُعلنت الجمهورية" الموحدة التي لا تتجزأ" يوم 22 أيلول سبتمبر 1792.

وقبل ذلك بيومين، حقق الفرنسيون نصراً في فالمي؛ وضُمَّت بلجيكا وكل الضفة اليسرى للرين إلى فرنسا، وفق مذهب الحدود الطبيعية. وفي 21 كانون الثاني/يناير 1793، وعلى سبيل القطيعة، أعدم الملك لويس السادس عشر بالمقصلة في ساحة الكونكورد أمام حشد كبير من الناس.

ولنلاحظ بالمناسبة أن اختراع الدكتور غيوتين كان يعتبر تقدماً للإنسانية : لأن الناس لم يكونوا يتألمون تحت الشفرة. وكانت المقصلة نظيفة عكس قطع الرؤوس بالفأس.

وكان لويس السادس عشر الذي أعيدت تسميته بالسيد كابيت (على اسم السلالة الحاكمة) قد خضع لمحاكمة منحازة. ولكنه كان دون شك مذنباً بجرم خيانة الأمة، وقد أثبت ذلك فارين، حتى وإن كان هو يرى التاج أو الدين أهم من الأمة. وقد نوّه إلى ذلك سانت-جاست (St Just) بقوله: "لا يحكم المرء ببراءة."

كان الشعب الفرنسي قد قتل الأب.

وتصرّف الملوك بشكل سيء إزاء هذا الاستفزاز الصارخ، وتم اجتياح فرنسا.

عندئذ علقت الجمعية التأسيسية في كل البلديات الخطاب التالي:

"ومنذ تلك اللحظة والى اللحظة التي سوف يُطرد فيها جميع الأعداء من إقليم الجمهورية، كان جميع الفرنسيين يستدعون باستمرار لخدمة الجيوش. وسوف يذهب الشبان إلى الحرب، وسوف يصنع الرجال المتزوجون الأسلحة وينقلون المؤن، وستصنع النساء الخيم، والثياب، ويخدمن في المستشفيات، وسوف يصنع الأطفال من الملابس القديمة خرقاً لتستخدم ضمادات."

وهذا الختام، الكبير كبر القديم:

"وسوف يُحمل الشيوخ في الساحات العامة لشحذ شجاعة المقاتلين، ويدعون إلى كره الملوك ووحدة الجمهورية."

وهذه نبرات نجدها في" نشيد الحرب لجيش الرين" الذي لحنها ضابط مهندس يدعى روجي- دو-ليسل، وصار شعبياً عن طريق مجندي مرسيليا (ومنه جاء اسمه، لا مارسييز، وهو اليوم النشيد الوطني الفرنسي).

كانت الجمعية التأسيسية قد اخترعت سلاحها المطلق: التجنيد.

والحقيقة أن الملوك كانوا مقتنعين بأن جيوشهم الممتازة المؤلفة من محترفين ستنتصر بسهولة.

لم يكن هناك جيش فرنسي. ومنذ ما قبل هروب فارين، كان كثير من النبلاء قد غادروا فرنسا، إما لأنهم أحسوا بقرب الخطر أو وفاء لمبادئهم. وفوق ذلك حرمت الهجرة الجيش من كوادره، إذ كان على المرء كي يصير ضابطاً أن يكون نبيلاً.

ووجدت الجمهورية المخرج في التجنيد العام. ومنذ روما الحروب الوثنية، لم يُعرف أي جيش مدني. والواقع أن تجنيد المدنيين (وهذا ما كان يفضله مكيافيللي) يفترض أن لديهم حماسة قوية (تفوق حماسة المرتزقة لأجورهم). ومن هنا جاءت النبرات العاطفية في لا مارسييز ضد الغزاة: "الذين يأتون، حتى بين أيدينا، يذبحون أبناءنا وزوجاتنا!"... وعندما كانت تغيب الحماسة كان التجنيد يصير مستحيلاً، بل غير منتج. وهذا ما حدث في فوندي، حيث

فضّل الفلاحون حمل السلاح ضد الجمهورية، في ظل قباب أجراسهم، بدل الذهاب لخدمة الدولة على ضفاف الرين. وبدت الانتفاضة الفوندية واسعة النطاق. ولكن الجمعية التأسيسية استطاعت في الأماكن الأخرى أن تجند وتجهز مليون جندي، وهو رقم لم يتحقق قبل ذلك في التاريخ.

وأحبطت الجيوش المحترفة بالجماهير التي واجهتها. وهذا يفسر فالمي: اصطدم 20.000 مرتزق بروسي ببزات استعراض مع 200.000 صيّاح ينشدون لامارسييز، فارتبك الضباط البروسيون وأمروا جنودهم بالتراجع.

وبسرعة كبيرة تحوّل الفلاحون والحرفيون إلى جنود بواسل، والبرجوازيون المدعومون ببعض النبلاء غير المخلصين للملكية، وإنما للجمهورية (وكان بونابرت أحدهم)، إلى ضباط جيدين جداً. وعرف وزير الحرب، كارنو، كيف يطبق "خليط" النبلاء والمجندين.

وقد فاجأ هذا التجنيد الكثيف الملوك. فخلال ثلاثة وعشرين عاماً، كانت الجيوش الفرنسية لا تقهر. (وبهذا المعنى فإن نابوليون هو وريث الثورة.) وقد اكتسحت جيوشه العالم من السويد إلى مصر، ومن إسبانيا إلى بروسيا والى روسيا.

وأصبحت فرنسا قادرة على أن تصُفّ ثلاثة ملايين من الرجال المسلحين.

بيد أن الوضع بدا، وللحظة، ميؤوساً منه تقريباً بالنسبة للجمهورية، التي غزتها الجيوش الأجنبية، في الشمال، والشرق، والجنوب، واكتسحتها الانتفاضات المهولة، في تولون، وليون وخاصة في فوندي. وكان أحد أكبر زعمائها، ألا وهو دانتون، يصرخ: "الجرأة، مزيداً من الجرأة، دائماً الجرأة! "وأنشأت الجمعية التأسيسية في داخلها لجنة الإنقاذ العام في أبريل/نيسان 1793. وقد تكونت جراء اندفاع دانتون، وروبيسبيير، وكوتون، وسانت جاست، وكارنو (من ضمن آخرين)، ومارست سلطة دكتاتورية أكبر فأكبر ومصابة بجنون العظمة. حتى أن دانتون نفسه قد أُعدم بالمقصلة للاشتباه في أنه

أصابه ضعف. فصعد إلى منصة الإعدام موجهاً إلى جلّاده هذه الجملة الرائعة: "فلتُرِ رأسي للشعب، فهو يستحق ذلك."

غير أن الانتفاضة الفوندية سُحقت، وفي نهاية شهر أيلول/سبتمبر، استطاع الجنرال واسترمان أن يكتب إلى الجمعية التأسيسية هذه الرسالة القوية، التي خطتها ريشة جسورة:

"لم تعد هناك فوندي، فقد قضت تحت نصل سيفنا الحر، بنسائها وأطفالها. وقد دفنتُها للتو في مستنقعات سافناي، تنفيذاً لأوامرك. لقد سحقت الأطفال تحت حوافر خيلي، وقتلت النساء، اللائي على الأقل، لن ينجبن قطاع طرق. وليس لدي أسير واحد يعتب علي."

كانت الثورة هي هذا أيضاً: عنف فظيع، يسمى رعباً؛ وتحولت مُثل الأخوّة إلى روح قتالية. وكان نشيدها الأكثر دلالة، هو لازمة الكرامانيول، التي يجدر تأمل كلماتها: "ما الذي يبغيه جمهوري أصيل؟ إنه يريد الحديد، والرصاص، والخبز. الحديد كي يعمل، والرصاص كي يثأر، والخبز لإخوانه. يحيا صوت المدفع! آه، ستكون الأمور على ما يرام!النرقص الكرامانيول! يحيا صوت المدفع! "

ولا نتصور أن اشتراكياً فرنسياً، في أيامنا هذه، يغني هذه اللازمة! بيد أننا ينبغي أن لا نبالغ في حجم الرعب فهناك في الأفق كثير من "التعديلية" بشأن هذا الموضوع. فعلى سبيل المثال، فإن الفكرة الدارجة والتي تقول إن الثورة ربما كانت ستميز بدايات الشمولية هي فكرة مغلوطة.

كان روبيسبيير يقيم عند عائلة حرفيين وكان يسير في الشارع، راجلاً ودون حرس. وتَعذِر مخاطر الفوضى والبلبلة، والغزوات، وخيانات النبلاء (من وجهة نظر قومية؛ وإخلاصها الملكي من وجهة نظر أخرى) جزئياً هذه الاختلالات التي لعب فيها خوف الملوك والأرستقراطيين دوراً هاماً كدور الحماسة.

وقد أرادت الثورة تغيير العالم. واخترعت روزنامتها الخاصة، أي الروزنامة

الجمهورية، ذات الأسماء الشعرية ("نيفوز" تذكر بالثلج، والـ"فانديميار" بقطاف العنب، و"البرومار" بالضباب و"التارميدور" بالحرارة) وهي تعُد، مثل روما، السنوات بداية من تأسيسها. وقد سرت هذه الروزنامة عشر سنوات.

وكان الهمّ الثوري المهيمن هو همّ المساواة، أكثر منه همّ الحرية: أي المساواة في الفرص، والمساواة الممنوحة للجميع للوصول إلى الحكم. (واثنتان من الكلمات الثلاث في شعار فرنسا الحالية تتصل بالمساواة: "المساواة "و"الأخوّة"). وللمفارقة، فقد كانت الثورة أيضاً مشتلاً رائعاً للمواهب السياسية، والعلمية، والعسكرية. ثم وصلت طبقة جديدة إلى السلطة: ألا وهي البرجوازية. ولم تكن قتامة الولادة، حسب أمنية بيريكلاس القديمة، تحد من الطموحات (ربما كان كثير من ماريشالات الإمبراطورية من أصول متواضعة).

وفي يوم 26 يونيو/حزيران، في فلوروس (Fleurus)، سحق جوردان الجيوش الملكية. وأمام دهشة الجميع، ورغم هجرة النبلاء، كان رجال جدد قد ظهروا في الشعب الفرنسي، وكانوا قد قضوا على التمرد والغزوات. والدليل على أن الثورة لم تكن اختراع الشمولية، يُستنتج من الوقائع: فحين أُنجز العمل، بدا أن الدكتاتورية ليست ضرورية للجمهورية. ولم تكن الثورة (خلافاً لجمهورية السوفييت التي سبقتها) هدفاً بحد ذاتها. ولأن روبيسبيير لم يفهم ذلك في أوانه، فقد أطاح به مجلس يوم 9 تارميدور من السنة الثانية (27 يوليو/تموز 1794) وأُعدم بالمقصلة في اليوم التالي.

وبعد أن أبرمت الجمعية التأسيسية الظافرة مع الملوك اتفاقية بال يوم 5 ابريل/ نيسان 1795 (التي جعلت من الرين والألب حدوداً لفرنسا) وقمعت ردات الفعل المتطرفة (20 مايو/أيار/ 1بريريال) والملكية (5 أكتوبر/تشرين الأول/ 13 فانديميير)، انفصلت في 20 أكتوبر/ تشرين الأول 1795 وطبقت دستوراً معتدلاً، ألا وهو دستور حكومة المديرين. ووعياً منها بالعمل المنجز، أفلتت الجمهورية إلى الأبد من الرعب.

الإمبراطورية

كان الوزير النمساوي ميترنيخ، الخبير الذي لا تجرح شهادته، يقول مراراً: "نابوليون، هو نفسه الثورة" وتمتد الفترة الثورية الفرنسية من 1789 إلى عام 1815؛ ومن السخف محاولة بتر الملحمة النابوليونية منها.

وكانت الجمعية التأسيسية التي لا ترحم (الرقاص يسير في الاتجاه المعاكس) قد أنشأت نظاماً ضعيفاً جداً يحل محلها، هو حكومة المديرين. وكان مؤلفاً من مجلسين -مجلس الخمسمائة ومجلس القدامى- وحكومة واهية متلاشية من خمسة مديرين (ومن هنا جاء اسمه)، وكانت حكومة المديرين لا تسيطر جيداً على عواقب العاصفة الثورية.

وقد بقيت الجمهورية مُهابة الجانب في الخارج، ولكنها لم تكن تستطيع السيطرة في الداخل، على الأزمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية.

وكانت بروسيا قد انسحبت من الائتلاف، ولكن النمسا وانجلترا لم تكونا قد توقفتا عن القتال.

وكان الائتلاف الثاني يهدد فرنسا : واستمرت الحرب.

وتميز ضابط شاب في هذه المعارك.

كان ذلك هو نابوليون بونابرت، المولود في 15 أغسطس/آب 1769 في أجاكسيو، في كورسيكا (عاماً بعد بيع مدينة جنوة الجزيرة لفرنسا)، وكان قبل كل شيء قومياً كورسيكياً، وقد كتب: "ولدت حين كان الوطن (كورسيكا) يموت". وكانت الملكية تريد التشبث بنبلاء الجزيرة. ووافق والد نابوليون الذي كان يعيل أسرة كثيرة الأفراد، على أن يستفيد أبناؤه من منح دراسية. وهكذا التحق الفتى نابوليون بمدرسة داخلية في بريان، في شامبان(كان رفاقه يلقبونه "قصبة الأنف")، وهناك تعلم الفرنسية (لكنه لم يفقد لكنته). وتخرج ملازماً في سلاح المدفعية في المدرسة العسكرية لباريس.

وكان فقيراً، ويقرأ كثيراً، ومنفتحاً على الأنوار، وتلميذاً شغوفاً بروسو، ثم

بفولتير حين كبر. وكانت الثورة حظه: وتمت ترقية النبلاء المخلصين للجمهورية الذين كان عددهم قليلاً. وساهم نابوليون، باستعماله البارع لسلاح المدفعية، في استرداد تولون من الانجليز. وعُيّن جنرالاً. وفي أثناء ذلك، توفي والده. ومن سخرية الأقدار أن بونابرت الذي عُيّن ملازماً بمرسوم موقّع من لويس السادس عشر، رُقي إلى رتبة جنرال من قبل روبيسبيير، بمشورة من أخ الدكتاتور، روبسبيير الصغير. وعند سقوط "العصيّ على الفساد" قضى بونابرت أياماً في السجن. وأُطلق سراحه بسرعة، وهام في باريس دون عمل.

غير أن الثورة كانت بحاجة إلى عسكريين أكفاء. فاكتشفه باراس وكلّفه قمع مظاهرة ملكية (ثورة فانديميار). وبما أن باراس كان يريد أن ينفصل عن عشيقته، فقد دفع بهذه الأخيرة في أحضان الجنرال الشاب. كانت تلك العشيقة هي جوزفين بوهارني، وهي نبيلة، مولدة بيضاء، من مواليد المارتينيك، كان زوجها قد أُعدم بالمقصلة في فترة الرعب، وهي أرملة أكبر سناً من بونابرت، وأم لطفلين، لكنها لم تفقد فتنتها. ووقع في حبها نابوليون الذي لم يعرف امرأة قط، عدا قصص الحب الأفلاطوني أو العادي (مع فتيات القصر الملكي)، وتزوجها. وكهدية زواج عهد إليه باراس بقيادة جيش إيطاليا؛ فترك الجنرال جوزفين والتحق فوراً بمنصبه.

و كان الجيش المسمى جيش إيطاليا (وكان في الواقع يرابط فوق نيس) قليل التعداد (30.000 رجل) دون بزات وسيء التجهيز. وكانت جميع قوات الجمهورية مركزة في الرين، حيث كانت تخشى الهجوم الإمبراطوري الرئيسي. صحيح أن النمساويين كانوا يحتلون سهل البو، ولكنهم لم يتحركوا. وحدث بونابرت رجاله حديث الحقيقة:

"أيها الجنود، أنتم عراة، ترتدون الأسمال، وجوعى، والحكومة عاجزة عن دفع أجوركم. فبدل أن تندبوا حظكم، انظروا إلى الجهة الأخرى من الألب: أخصب سهول العالم في انتظاركم. تعالوا معي. يا جنود الجمهورية، ألا تملكون الشجاعة؟"

كان الجيش قد وجد له سيداً. ومع ذلك فقد نظر ضباطه أيضاً: أي الجنرالات التابعين المرؤوسين، قدامى الحرب الأولى للثورة، كماسينا أو أوغرو، بحذر إلى وصول جنرال الصالون الصغير هذا، الأقل خبرة منهم. وقد قهرهم، واعترف أوغرو الذي لم يكن يخاف من شيء: "كاد ذلك الشخص أن يخيفني!"

وقد ظهر بونابرت في حملته الإيطالية خبيراً استراتيجياً. كان يقول إن "الجيش هو جمهوره المتضاعف بسرعته." لذا فقد ذهب بأقصى سرعة ممكنة، قاطعاً الأبينان، مكرهاً البييمونتي على الهدنة ودحر النمساويين في بضع معارك رهيبة. وكان هؤلاء دائماً يعتقدون أنه أمامهم، في حين كان هو خلفهم.

وفي كتابه لا شارتروز دو بارم *(La Chartreuse de Parme)* يلخص ستندال بجملة انطباع الرأي العام آنذاك :

"في يوم 15مايو/ أيار 1796، كان بونابرت، وهو يدخل إلى ميلان، على رأس جيشه الشاب، يبين للعالم أنه بعد قرون أصبح للإسكندر وقيصر خليفة."

وتقول رسالة كتبتها حكومة المديرين عن القيصر الجديد أكثر مما تقوله الكثير من التعليقات؛ وهي مؤرخة في "مركز القيادة في بليزانس، في 9 مايو/ أيار 1796" :

"وقد اجتزنا أخيراً البو... وبوليو [الجنرال النمساوي، الذي كان يكبر منافسه بأربعين عاماً] مضطرب. كان لا يجيد الحساب ويقع دائماً في الفخاخ التي تنصب له، ويكفي أن نحرز نصراً إضافياً لنصبح سادة إيطاليا.

"وفي اللحظة التي سوف نوقف فيها تحركاتنا، سوف نجدد بزات الجيش. وعلى الجندي أن يثير الخوف ولكنه يسمن. فهو يأكل خبز غونيس، والكثير من اللحم. وكان الانضباط يعاد كل يوم، ولكن ينبغي أحياناً استعمال الرصاص، لأن هناك رجالاً شرسين ولا يمكن التحكم فيهم.

"وما أخذناه من العدو لا يعد ولا يحصى. وكلما أرسلتم إلي المزيد من الرجال، كلما استطعت أن أطعمهم بسهولة.

"وسأرسل إليك عشرين لوحة للسادة الأول، من كوريج إلى مايكل أنجلو. وأنا مدين لك بشكر خاص للرعاية التي أرجو أن تولوها زوجتي. وأوصيك بها: فهي وطنية نزيهة، وأنا أحبها بجنون. . .

"وقد استطعت أن أرسل إليكم حوالى دزينة من الملايين. ولن يضيرك هذا من أجل جيش الرين. أرسل إلي بأربعة آلاف فارس دون خيول؛ وسأجهزهم هنا. ولا أخفيك أني منذ مات ستنجال لم يعد لدي ضابط خيالة أعلى يقاتل. أتمنى لو استطعت أن ترسل إلي بثلاثة جنرالات مساعدين لديهم السلاح وتصميم قوي على أن لا ينفذوا انسحابات بارعة."

إن هذه الرسالة لتقول كل شيء. فبونابرت يتحدث مع الحكومة بحزم، ولا يخفي ولعه بجوزفين، ويستولي على كنوز إيطاليا، إذ إنه كان رجلاً ذواقة (كثير من أعماله توجد في متحف اللوفر). وقد أعاد النظام. وأرسل المال إلى الحكومة بدل أن يطلبه منها-وهو أمر غير معقول بالنسبة إلى جنرال!وأظهر قوته بحديثه عن ضباط سلاح الفرسان" يكون لديهم السلاح " ويسخر من "الانسحابات البارعة" التي تحبها الجيوش التقليدية.

وفي سلسلة من المسيرات والمسيرات المضادة - كان جنوده يقولون "إنه يحارب بأقدامنا"؛ والواقع، أن تغيير الأحذية سوف يصير انشغالاً ثابتاً لنابوليون-، وقد جمع انتصارات يحرص على"تلميعها". وكان فناناً في الاتصال. فعبر الألب فوق البندقية وذهب ليعسكر على بعد مائة كيلومتر من فيينا. وجُن جنون الإمبراطور، ففرض عليه بونابرت دون أن يستشير الوزراء كثيراً، سلام كامبفورميو في أكتوبر/ تشرين الأول 1797. ثم دخل ظافراً إلى باريس، حيث سميت لأجله ساحة الانتصارات؛ بيد أنه راح يتظاهر بالتواضع.

كانت حكومة المديرين سعيدة بالنصر، ولكنها كانت خائفة من الجنرال المنتصر. عندئذ صاغت الحكومة فكرة غزو مصر. وكانت الضربة مزدوجة: مزاحمة انجلترا التي ظلت بمفردها في الميدان، بقطع طريق الهند عليها؛ وإبعاد الجنرال الذي كانت هناك خشية من أن يستولي على السلطة.

كان بونابرت ماكراً جداً ولم يفته ما كانت تضمره الحكومة من أفكار، كان يعلم أيضاً أن ساعته لم تحن بعد. وفوق ذلك، فقد كان مفتوناً بالشرق. وباختصار، فقد وافق. وهكذا كانت، من شهر مايو/أيار 1798 إلى أكتوبر/تشرين الأول 1799، حملته الشهيرة على مصر.

ورغم الأسطول الانجليزي لنيلسون، استطاع الأسطول الفرنسي الذي ينقل الجيش، عبور البحر المتوسط دون عناء، وأخضع في طريقه مالطا، وأنزل جيش الحملة قرب الإسكندرية، التي استولى عليها بسهولة. ثم أخذ طريق الصحراء، متجهاً إلى القاهرة. وعلى سفح الأهرامات، كان ينتظره سلاح الفرسان "المملوكي". وكان المماليك يشكلون حكم أقلية، في ظل التسلط الاسمي جداً للسلطنة العثمانية. كانوا أفضل فرسان العالم. وكان كل مملوك يقاتل ببطولة (الإسلام دين بطولة، كما نوهنا إلى ذلك)، ولكن دون رباط حقيقي مع الآخرين: ويمكن أن نقول إنه كان يسود منطق كل إنسان وشأنه والله للجميع.

كان القادة المماليك قد تركوا الفرنسيين، الذين كانوا يسيرون على الأقدام، يتقدمون حتى القاهرة ليسحقوهم بصورة أفضل. وكانوا يستهينون بجند مشاة الثورة الكفار ويحتقرونهم. وكانوا يهاجمون وهم يشهرون سيوفهم هاتفين الله أكبر. وأمامهم، لم يكن بونابرت بحاجة إلى استراتيجية. كانت معركة الأهرام هاته في شهر يوليو/تموز 1798 صدمة لجيش فرسان القرون الوسطى ولجيش من نهاية القرن الثامن عشر. كان "التفاوت الزمني" أقل من ذلك الذي كان يفصل المغامرين الإسبان لبيزار عن جنود الإنكا. بيد أنه كان كاسحاً. وقد شكل المشاة الثوريون المجتمعون في مربعات جبهة. وكنا نسمع الضباط يعطون أوامرهم بهدوء: "دعوهم يقتربون. صف أول، أطلق. صف ثاني، أطلق. مدفعية واحد، أطلق. مدفعية اثنان، أطلق...أوقف النار. - وللتنقل من المربع بمائة متر إلى اليمين، اقرعوا الطبول، الخ". وأصيب

المماليك الذين ظلوا على قيد الحياة بالذعر ولاذوا بالفرار. ودخل بونابرت إلى القاهرة سلطاناً منتصراً، "السلطان الكبير".

كانت لهذه المعركة التي كانت محدودة الأهمية العسكرية أهمية نفسية كبيرة. واكتشف الإسلام فجأة وبذهول أن الأوروبيين غزوا العالم دون أن ينتبه إليهم.

كان نابوليون هو الاسكندر الجديد. ورجل الأنوار والثورة، "ديدرو على حصان"، كان قد استُقبل بعد إيطاليا في معهد فرنسا. وكان قد جلب معه العشرات والعشرات من العلماء الأعضاء في المعهد. واكتشف هؤلاء الباحثون ثانية، مذهولين، معالم مصر القديمة المردومة في الرمال. فأنشأوا الدراسات المصرية ونظموا وادي النيل. واكتفى الجنود البسطاء بحفر أسمائهم على أعمدة الأقصر أو أسوان. ولا تزال ظاهرة إلى اليوم: "العريف ديبون، نصف الكتيبة الثانية"، الخ.

وحاول الانجليز والعثمانيون أن يفعلوا شيئاً. فأغرق نيلسون في أبوقير الجزء الأكبر من السفن الفرنسية وتكوّن جيش تركي في سوريا. وذهب بونابرت للقائه، ولأن أسطوله سوف يصبح غير صالح للاستعمال، فقد كان لديه مشروع للعودة إلى فرنسا مروراً بالقسطنطينية (ولِمَ لا إعلان نفسه سلطاناً هناك)، أو السير إلى الهند الانجليزية (التي لم تكن تبعد سوى ثلاث وثلاثين مرحلة من مصر). واستولى على أورشليم، ولكن لعدم امتلاكه لوسائل الحصار، فقد توقف أمام قلعة عكا. وهو حصن في الجليل كان الأتراك والانجليز قد تخندقوا فيه (والذي كان يقودهم، لسخرية الأقدار، هو أحد زملائه في الدراسة في بريان، وهو نبيل مهاجر).

وعاد بونابرت إلى القاهرة وهناك علم أن الوضعية في فرنسا قد تحسنت: وتعاظمت الفوضى الداخلية في النمسا التي عادت إلى الحرب، وطُردت الجمهورية من إيطاليا. وترك بونابرت لكليبر قيادة جيش مصر (الذي سيعاد إلى

فرنسا لحظة اتفاقيات الهدنة)، وقدّر أن ساعته قد أزفت، فركب سفينة وعاد إلى فرنسا.

وفي وقت وجيز، وقعت السلطة بين يديه. كان ذلك يوم 18برومير (9 الى10 نوفمبر/ تشرين الثاني 1799) -كان خلافاً أكثر منه انقلاباً: كان الثوريون يبحثون عن سيف جمهوري؛ فوجدوا سيداً. وفي الوقت ذاته حُلت حكومة المديرين وبدأت حكومة القناصل. وفي الثلاثين من عمره، أصبح بونابرت قنصلاً أولاً، أي رئيس الدولة.

وبقي عليه أن يكمل إجراء واحداً: وفي مارينغو هزم الجيش القنصلي النمساويين في معركة شاقة (يونيو/حزيران 1800)، مات فيها الجنرال الشاب دوزاكس. وفي مارس/آذار 1802، بدا أن انجلترا نفسها قد استسلمت (سلام أميان). كان السلم قد عاد ورسّم في الوقت ذاته الحدود الطبيعية لفرنسا.

وبقي توجيه مجرى السيل الثوري الجارف. وقد نجح القنصل الأول في ذلك تماماً، وأنقذ مكتسبات الثورة (المساواة في الحقوق، الترقية على الاستحقاق، تقسيم أملاك الكنيسة) وردّ تجاوزاتها. وتجرأ على القول: "لقد توقفت الثورة في الحدود التي حددتُها لها"-وكان ذلك صحيحاً.

وعرف كيف يطبق "الاستبداد المتنور"، الذي كان قد تعلمه من فولتير. وفي يوليو /تموز 1801، وبتوقيعه معاهدة مع البابا، أعاد السلم الديني.

لم يكن بونابرت مسيحياً، لكنه كان يعرف كيف يقدر أهمية الفعل الديني. وكان يقول هو نفسه: "أنا مسلم في القاهرة، يهودي في أورشليم، كاثوليكي في فرنسا." وأنشأ الدولة الجمهورية الحالية : مجلس الدولة (حيث كان يذهب كثيراً)، ومجلس المحاسبة، والمحافظين، والثانويات، والإدارات الحديثة، والفرنك الجرمينالي (العملة التي ظلت ثابتة خلال أكثر من قرن). وحرر على وجه الخصوص المكاسب الثورية في القانون المدني الشهير.

ومزج في الجيش والإدارة والحكومة، بين النبلاء والرجال الجدد. وقرر كثير من المهاجرين العودة.

ولكن علينا أن لا نخطئ : فقد ظل بونابرت تجسيداً للثورة. وفي مارس/ آذار 1804، اختطف دوق إنغيان (البريء على الأرجح) وأعدمه وراء الرين ليكون عبرة. بيد أنه أعاد السلم إلى فوندي. لكن الملوك الأوروبيين كانوا ينظرون إلى نابليون الذي صار إمبراطوراً - وعذراً على المفارقة التاريخية-على أنه ضرب من قائد الجيش الأحمر! ويجب رفض اعتبار هذا التناقض التاريخي حقيقة، كما قلناه، لكنه يمكن أن يشكل مقارنة.

ومن ناحية أخرى، كانت انجلترا قد نقضت سلم أميان منذ مايو/ أيار 1803 وفي عام 1805، نجحت في جمع الممالك القارية في ائتلاف ثالث. وحلت الإمبراطورية محل القنصلية في مايو/ أيار عام 1804، ولم تكن هذه فكرة سيئة: كانت الإمبراطورية الرومانية قد حلت محل الجمهورية الرومانية!

ولكن نابليون أراد أن تُكرّسه الكنيسة كالأباطرة القدامى، واشترط لذلك، لا أسقف ريمس، وإنما البابا شخصياً. ونفذ بيوس السابع. وتمت المراسم يوم 2 ديسمبر/كانون الأول 1804 في كاتدرائية نوتردام. وكان التكريس مبالغة محدث نعمة. وهناك طرفة تكشف المعنى الخفي لهذا.

كان نابوليون في السكرستيّا مع أفراد من عائلته. وفي أثناء ذلك، كان كبار العالم، ومنهم البابا، ينتظرون في جناح الكنيسة. عندئذ قال لأخيه البكر: جوزيف، غيوسيبي، لو أن أبي كان يرانا!

والواقع أن الإمبراطورية الناشئة عن الثورة الأهلقراطية، كان لا يمكن أن تُتوارث (ولا كانت الإمبراطورية الرومانية). ومبدأ الوراثة مناقض تماماً لمبدأ المساواة، أساس الثورة! وبشأن هذه المسألة فقط، أخطأ نابوليون. وحتى عندما صار أباً، لم يفلح أبداً في أن يستحوذ على الوراثة. وهذا دليل إضافي على أنه كان يجسد الثورة. ورغم التكريس فإن الملكية الحقيقية كانت تفلت منه دائماً.

وفي انتظار ذلك، حاول غزو انجلترا. ولأن أسطوله كان قد دمره نيلسون في ترافالغار (وقتل فيها الأميرال الانجليزي)، لم يستطع بونابرت تجاوز البحر.

ومن بولون حيث كان قد جمع الجيش العظيم، ارتد على النمساويين والروس، ثم البروسيين وصعقهم.

وفي 1806 و1807، أصبح بونابرت إلى الأبد نابوليون-"إله الحرب ذاته" كما كتب كلوزفيتز، الذي حاربه في كتابه "عن الحرب" (De la guerre).

واعتقد الفيلسوف الألماني هيغل الذي رآه يعبر، أنه رأى "روح العالم يتركز في نقطة، على صهوة جواد"!

وبعد أسابيع من تحديه انجلترا في بولون دون جدوى، كان نابوليون في بافيار. وتوصل بمناورات سريعة إلى احتجاز الجيش النمساوي في مدينة أولم، حيث استسلم وعلى رأسه جنرال إلى الإمبراطور. ثم دخل الغازي إلى فيينا، العاصمة الإمبراطورية.

وكان جيش نمساوي آخر وجيش روسي يتركزان في مورافيا (جمهورية التشيك الحالية). وأمام أوسترليتز، نجح نابوليون في أن يجعل القيصر الإسكندر والإمبراطور فرانسوا الثاني يعتقدان أنه كان خائفاً: فتخلى لهم عن مرتفعات براتزن، ورسخ في ذهنهم شيئاً فشيئاً فكرة تحوير الجيش الفرنسي من ميمنته. وحين رأى الجنود الروس والنمساويون يسيرون فوق هضبة باتجاه طريق فيينا صرخ : "هذا الجيش لي!"، ودفعه من جناحه وصعد الهضبة وسحقه. وانسحب القيصر. وجاء الإمبراطور الجرماني إلى معسكر القائد الثوري صاغراً يستجدي السلام.

وتعد معركة أوسترليتز التي دارت يوم 2 ديسمبر/كانون الأول 1805، تحفة إستراتيجية تضاهي معركة هنيبعل في كان، قبل عشرين قرناً، والأرجح أنها كانت فتاكة بالنسبة للمهزومين-آلاف وآلاف الموتى.

كما أن بروسيا التي دخلت في الوقت غير المناسب في الائتلاف، متحمسة جداً بذكرى فريدريك الثاني وخطابات ملكتها، سُحقت في أكتوبر/ تشرين الأول 1806، في يينّا وآويرستاد.

وفي يوم 27 أكتوبر/تشرين الأول 1806، أجرى الجيش العظيم وعلى

رأسه نابوليون، استعراضاً احتفالياً تحت باب براندبورغ، قرب البرلينيين المذهولين. وباستثناء الحرس، الذي كان يرتدي لباس الحفلات الرسمية، فقد كان الجنود الفرنسيون يسيرون بخطى طريق، معفرين بالغبرة، وعلى حرابهم رُشق دجاج مشوي.

وبقيت روسيا. واستُقبل الفرنسيون استقبال المحررين في فارسوفيا، المدينة التي وقع فيها الإمبراطور، بمناسبة حفل، في حب فتاة ارستقراطية في الثامنة عشرة من العمر تدعى ماري فالفسكا. ولعدة أيام ظلت ماري ترفض تودد الرجل الأقوى في أوروبا. وكان المدلّه، يرسل إليها خطابات ثانوي خجول. وفي الأخير خضعت ماري لتودد نابوليون تحت تأثير الإلحاح المتكرر لأرفع الأسياد البولونيين، الذين كانوا يعتقدون أن التضحية بها ستُحسّن من مصير بولونيا. ثم إنها أُغرمت في ما بعد ببونابرت، وأنجبت له ابناً وظلت وفية له في الشدة. ولم تكن قصة الحب هذه لتكون لها مكانة في التاريخ لو لم تكن تُصور تلك الحقيقة في أروع صورها: فحين نتحدث عن الحب، فلا نعني به السيطرة. ففي تلك الأيام الفارسوفية، وفي قمة مجده، لم يكن "الغول" الظافر سوى عاشق معلّق بموافقة فتاة.

وكان الأمر صعباً جداً بالنسبة للروس. وفي إيلو (Eylau)، تحت الثلوج، في شهر شباط/ فبراير1807، دارت ما يشبه المباراة المتعادلة الدامية. واستدرك نابوليون بسحق الجيش الروسي، في يونيو/ حزيران، في فرايدلاند. فطلب القيصر السلام. وجرى بين المبدأ الملكي والمبدأ الثوري، الميلاد والموهبة، أي قيصر جميع روسيا، والإمبراطور الفرنسي، لقاء شهير على عوامة راسية في وسط نييمان. ويسجل هذا السلام في تيلسيت في يوليو/تموز 1807، ذروة مجد نابوليون. منذ أحد عشر عاماً (كان قد تسلم قيادة الجيش الإيطالي عام 1796)، كان بونابرت قد أنجز مساراً لا كبوة فيه. وبفضله تكللت الحروب الثورية في تيلسيت، بالانتصارات.

لنتخيل لثانية لو أنه توقف هناك وأن الجيش العظيم عاد منتصراً إلى باريس (لو أن أنف كليوباترا. . .)، ماذا تراها انجلترا كانت ستفعل؟

في تلك اللحظة بالذات، كان الإمبراطور مسكوناً بالمغالاة "أوبريس" الإغريق. ولم يكن هناك شيء يجبره على التدخل في إسبانيا، التي كانت آنذاك حليفة لفرنسا. ولكنه أراد طرد البوربون ووضع أخيه جوزيف على عرش مدريد. كانت هذه غلطة قاتلة!

وخلال الحملات السابقة، كانت شعوب إيطاليا، التشيك، بولونيا، بافاريا (عدا بعض الاستثناءات) تعتبر الجنود الفرنسيين محررين، يحملون على فوهات بنادقهم المساواة وإلغاء الحقوق الإقطاعية. حتى أن بونابرت كان يقول: "الثورة فكرة وجدت حراباً." وهناك دليل ملموس على هذا الإحساس: ففي جميع هذه البلدان، كان الجنود يستطيعون في فترة استراحتهم أن يناموا في بيوت السكان.

غير أن الشعب الإسباني، الذي لم يكن منفتحاً على الأنوار، اعتبر الفرنسيين محض غزاة. واستطاع الشجاع جوزيف أن يصل إلى مدريد، ولكن "حروب العصابات" (ومن هنا جاءت الكلمة) ظهرت في كل مكان، وقضت على الفرنسيين المنعزلين. ولم يكن وارداً نوم الجنود في بيوت السكان؛ وإلا لذبحوا هناك.

وفجأة تمكن الجيش الانجليزي من الإنزال. وبالطبع فقد ربح نابوليون المعارك شخصياً، ولكن الجيش العظيم وجد نفسه محصوراً في إسبانيا، وندم إمبراطور النمسا على أنه حظ من قدره وقال في نفسه إن مدريد بعيدة عن فيينا. فاخطأ نابوليون وترك الجيش العظيم في إسبانيا، وانطلق ومعه جيش من المجندين، نحو فيينا "بقبعتي وسيفي وجنودي الصغار"، قال، مضيفاً إلى عرف جنرالاته هذه التعليمة الإجبارية: "نشاط، نشاط، سرعة..." وفي واغرام، في يوليو /تموز 1809، اضطر الملك الجرماني المهزوم أن يزوج ابنته ماري لويز لـ"الغول" (وفي أثناء ذلك كان بونابرت قد طلق جوزفين) -سليل شارل الخامس يدفع بابنته إلى فراش ثوري فرنسي! وأنجبت ماري لويز لنابوليون ابنه الشرعي الوحيد (وقد مات أميراً نمساوياً).

ربما استطاع الإمبراطور، مرة أخرى، كما كان بعد تيلسيت، أن يتوقف؟ ولكن، لأنه لم يستطع قهر انجلترا رغم الحصار الذي فرضه عليها (الحصار القاري)، فقد نقض السلام مع القيصر وفي عام 1812، هاجم روسيا.

وكما في إسبانيا، فقد نهض الشعب الروسي الثائر على فولتير، ضد الغزو. وفي 14 سبتمبر/أيلول 1812، تمكن نابوليون من النوم في الكرملين. ولكن القيصر، الذي رفض الرضوخ، أحرق المدينة. واضطر الجيش العظيم، الخارج لتوه من إسبانيا، إلى التراجع وتاه في شتاء "الانسحاب من روسيا".

وهذا يدل، كما كتب كلوزفيتز، على أنه من المستحيل إخضاع روسيا. على الأقل حين لا تستسلم حكومتها ويقاوم شعبها. كان ذلك البلد كبيراً أكثر مما ينبغي! وقد اجتذب الجيش الغازي بعنف بعيدا جداً عن قواعده. وكان الجيش العظيم قد تاه في الثلوج (أنظر "الحرب والسلم" لتولستوي).

وقد نجح نابوليون في العودة إلى باريس بزلاجة. ومكّنه تجنيد جديد- "مجندو 1813" أو الـ"ماري لويز"، على اسم الإمبراطورة-من قيادة حملة في ألمانيا. وكان منتصرا في البداية (لوتزن، بوتزن)، ثم هزم في ليبزيغ، بعد ارتداد جنود حليفه ملك ساكس. وكان الشعور القومي للشعوب يعمل الآن لصالح الملوك وضد الفرنسيين. وكان فيتش قد كتب "خطاب(ه) إلى الأمة الألمانية". وتجرأ الملوك آنذاك على غزو فرنسا من جديد واستطاع نابوليون أن يشن ضدهم، عام 1804، "حملة فرنسا" الرائعة (الأروع ربما) -ولم يكن فيها شيء: كان الشعب مرهقاً، ولم يعد ماريشالات الإمبراطورية في العشرين من العمر... كانوا ممتلئين.

وفي فونتانبلو، وافق الغازي الخائر القوى على التنحي وربح جزيرة إلب، في البحر المتوسط، التي تم التنازل له عنها. جزيرة صغيرة، بعد إمبراطورية كانت قد امتدت من جبل طارق إلى نييمان ومن نابل إلى السويد...

ودخل أخ لويس السادس عشر إلى باريس، لأن مبدأ الوراثة لم يكن

يستطيع أن يعمل إلّا لصالح البوربون. وقد ترك لنا شاتوبريان، هنا أيضاً، وصفاً يليق بصحافي كبير:

"في 3 آذار/مارس 1814، ذهب لويس الثامن عشر (كان الرقم 17 قد خصص لابن لويس السادس عشر الذي مات في السجن) للنزول في نوتردام. كان يراد إعفاء الملك من منظر الجنود الأجانب؛وهم فيلق من الحرس القديم الذي كان يشكل السياج من بونوف، على طول رصيف الأورفيفر. ولا أظن أن وجوهاً بشرية كانت قد عبّرت من قبل عن شيء منذر كهذا. كان رماة القنابل اليدوية المثخنين بالجراح، وهم منتصرو أوروبا، الذين كانوا قد رأوا الآلاف من الرصاصات تمر فوق رؤوسهم، وتفوح منهم رائحة النار والبارود؛هؤلاء الرجال أنفسهم الذين حرموا من قادتهم، مجبرين على تحية ملك عجوز، أعاقه الزمن لا الحرب، ومراقبين في العاصمة التي غزاها نابوليون بجيش من الروس، والنمساويين والبروسيين.

"كان بعضهم يفركون جلد جباههم، منزلين قبعاتهم الوبرية على عيونهم كي لا يروا؛ وآخرون يقلبون شفاههم في ازدراء عنيف؛ وراح آخرون من خلال شواربهم، يبرزون أسنانهم كالنمور.

"وعندما كانوا يقدمون الأسلحة، كانوا يفعلون ذلك بحركة هياج، وكان صوت تلك الأسلحة مخيفاً. وفي نهاية الصف كان هناك جندي خيالة شاب على حصانه، كان يمسك بسيفه المجرد. . .كان شاحباً. . . فلمح ضابطاً روسياً: ولا يمكن وصف النظرة التي أطلقها. وعندما مرت سيارة الملك أمامه، جعل حصانه يقفز، ولا شك أنه شعر بالرغبة في أن يهرع إلى الملك ويقتله. "

كان يبدو أن تاريخ الحرب قد انتهى. ولكنه لم يكن كذلك. وبدا الملكيون في السلطة غاية في الطيش والازدراء، "لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً"، لدرجة أن الشعب الفرنسي عاد ثورياً من جديد. ومن جزيرة إلب، كان بونابرت يلاحظ هذا التحول. وانتظر تسعة أشهر.

وفي الفاتح من مارس/ آذار 1815، نزل في بروفانس مع بعض الناقمين الذين تُركوا له وارتمى في الألب. فأرسل لويس الثامن عشر فيلقاً لاعتقاله.

وقد تم اللقاء أمام غرونوبل، ولكن الأمر كان يتعلق بفيلق كان تحت إمرة الإمبراطور. ولأن نابوليون كان يجازف بكل شيء ليربح كل شيء، فقد تقدم بمفرده أمام الجنود وصاح فيهم: "من منكم يريد أن يقتل إمبراطوره؟" وحمله الجنود على الأكتاف، ولم تكن بقية الطريق إلى باريس إلّا إجراءً شكلياً. وانضمَّ ناي. وفر الملك. ورجع بونابرت إلى تويلري وسط الحبور الشعبي وعلى وقع الكارمانيول. وأعيدت آنذاك الجمهورية الإمبراطورية. وتسمى هذه الواقعة "المائة يوم". ولأن الملكيات لم تكن لتقبل هذا، فقد أعادت تسليح نفسها.

وفي 18 يونيو/حزيران 1815، خسر نابوليون، رغم إستراتيجية بارعة، معركته الأولى في واترلو فغادر ساحة المذبحة ليلاً وعاد إلى باريس. وإلى أن تقبل أنه قد خسر كل شيء، فقد طلب ضيافة الانجليز واختلى في إحدى بواخره. ولوضاعة الانجليز فقد أرسلوه ليتعفن في عرض أفريقيا، في جزيرة سانت-هيلين الصغيرة الموبوءة، حيث مات عام 1821 (على الأرجح بحمّى المستنقعات). كان لويس الثامن عشر قد عاد إلى باريس. وأضافت سانت-هيلين إلى المجد العسكري والمدني لنابوليون مجد الشهادة: فلو مات بونابرت عجوزاً في أميركا لما اكتملت الأسطورة. ولنلاحظ أن 18 يونيو/حزيران هو تاريخ مميز بالنسبة لفرنسا: 18 يونيو/حزيران 1429، جان دارك، 18 يونيو/ حزيران 1815، واترلو، 18 يونيو/حزيران 1940، ديغول. وهذا ما كتبه شاتوبريان عن المائة يوم (مؤلف "مذكرات من وراء القبر" كان ملكياً، لكنه حساس للعظمة):

"في الفاتح من مارس/ آذار، في الساعة الثالثة صباحاً، رسا نابوليون على الساحل الفرنسي في خليج خوان، ونزل وقطف بعض البنفسج وخيّم تحت أشجار الزيتون. وارتمى في أحضان الجبال. . .

"وفي سيستيرون، كان يمكن لعشرين رجلاً أن يعتقلوه. ولم يجد أحداً فتقدم دون عوائق... في الفراغ الذي يتشكل حول ظله العملاق، ولو دخل جنود، فسينجذبون إليه بقوة... فأعداؤه المفتونون به لا يرونه... والأشباح الدامية لأركول، لمارينغو، لأوسترليتز، لإينيا، لفرايدلاند، لإيلو، لموسكوفا، للوتزين، لبوزين ستصنع له موكباً من مليون ميت... وحين عبر نابوليون النييمان على رأس أربع مائة ألف من جنود المشاة ومائة ألف حصان لنسف قصر القياصرة في موسكو، كان أقل دهشة منه حين فر من المنفى ورمى أغلاله في وجوه الملوك، وجاء بمفرده إلى باريس، لينام بهدوء في التويلري.

ما عسانا أن نضيف إلى هذا؟

كان القائد الأكبر في التاريخ، "إله الحرب عينه"، رجل دولة محنكاً أيضاً، ورجل القانون المدني. كان "تواصلياً" عبقرياً، (دون حاجة إلى مجلس اتصال) فرض شعاره "الخالد" : وسط الماريشالات المزركشين، ذوي البزات البراقة (ناي، مورات)، رجل قصير القامة يرتدي معطفاً رمادياً، دون شارة (باستثناء وسام جوقة الشرف الذي أنشأه)، بقبعته الشهيرة. كان والينغتون يقول: "هذه القبعة بمائة ألف رجل."

ومن السخف مقارنة نابوليون بهتلر، حتى وإن كانا قد سيطرا على أوروبا بالطريقة ذاتها. ولم يكن نابوليون عنصرياً متعصباً، كان رجل أنوار، فولتير وديدرو بخوذة. ولم يقتل أبداً خارج ضرورات الحرب (باستثناء دوق إنغيان) ولم يفتح محتشدات وكان أعداؤه -شاتوبريان، مدام دوستائيل- يعشقونه.

ويعد نابوليون نموذجاً لترقية الاستحقاق، وإيقونة النجاح الفردي، وهو عصري بعمق ويمارس سحراً كبيراً.

ورغم سقوط مئات الآلاف من القتلى في المعركة، لا يحمل الفرنسيون له ضغينة، لأنهم اعتبروه معطوب حرب. وبفضله استمرت مبادئ الثورة وكانت المرحلة الامبريالية في فرنسا لامعة.

وأتلفت القسوة الإمبراطور. لكن هل كان يمكن لبونابرت، من دون شيء من القسوة، أن يصبح نابوليون العظيم؟

"ارتدادات" الثورة.

الاسترداد المخفق

يعرف الزلزال الكبير، بعد هزته الرئيسية المدمرة، سلسلة "ارتدادات" أقل حدة. وهكذا فقد ضُبط القرن التاسع عشر على إيقاع "ارتدادات" الثورة الكبرى. وقد بدأ القرن بعد واترلو، في مؤتمر فيينا؛ وانتهى بحرب 14. وفي فيينا، اجتمع منتصرو الثورة في المؤتمر -البروسيون، النمساويون، الروس والانجليز- يفكرون في تقطيع فرنسا.

ولحسن الحظ، كان تاليراند يمثل البلد المهزوم. وكان شخصاً غريباً ومُهاب الجانب. وكان قد عبر وسوف يعبر أيضاً بجميع الأنظمة: وزير الشؤون الخارجية لبونابرت، وخان في الوقت المناسب ليصبح وزير الشؤون الخارجية للملك بوربون. وقد كتب عنه فيكتور هيغو: "كان نبيلاً كغونندي، وتاركاً للرهبانية كفوشي، وروحانياً كفولتير وأعرج كالشيطان." وفي فيينا، تمكن تاليراند من إثارة الملوك المنتصرين على بعضهم، حتى أن فرنسا استعادت تقريباً الحدود التي كانت لها في عهد لويس السادس عشر، ولم تخسر سوى الضفة اليسرى للرين وبلجيكا.

وقد تميز القرن التاسع عشر بالتفوق البحري البريطاني (الذي سوف لن يتوقف إلَّا بعد بيرل هاربور، عام 1941)، وبالتهديد الثوري الفرنسي. وكان الملوك يراقبون فرنسا عن قرب، ولكن في تلك الفترة، كانت باريس الشاسعة عصيَّة على السيطرة. كانت انجلترا تسيطر-وفرنسا تثير القلق!

وقد فرض لويس الثامن عشر، الذي تعلم من تجربة المائة عام السيئة، خلال عودته الثانية، تنازلات حاسمة على الملكيين. وتخلى بهذا عن إعادة النظر في الإصلاح الزراعي الثوري الذي كان قد منح فرنسا طبقة فلاحين متوسطين. ولننوه في هذا السياق إلى أن هذا هو السبب الذي جعل من الصيد هناك نشاطاً شعبياً، وهو ما لا يفهمه علماء البيئة. وفي عام 1789، حصل

الفلاحون الفرنسيون على الحق في الصيد وعلى بنادقهم؛ وهم لا يريدون التخلي عنها. وقد ظل الصيد، سواء في انجلترا أو في بروسيا، امتيازاً للنبلاء (ملاك الأراضي، اليونكر)، ولم يكن الشعب يعبأ به.

وإضافة إلى ذلك، فقد عرف لويس الثامن عشر كيف يحافظ على التنظيم النابوليوني للدولة (مجلس الدولة، مجلس المحاسبة، المقاطعات، المحافظات)، وكان الميثاق يستلهم من دستور المائة عام (غرفة سفلى منتخبة باقتراع دافعي الضرائب، وغرفة عليا -الأعيان-ووزارة)، القانون المدني. وقد كوفئت حكمته: وفي عام 1824، مات لويس الثامن عشر على العرش.

وخلفه شارل الخامس. ويجدر التذكير أن لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر وشارل الخامس كانوا إخوة.

وفي أميركا اللاتينية حدثت "الهزة الارتدادية" الثورية الأولى. وثورات أميركا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثورة الفرنسية. وقد سبقتها ثورة الولايات المتحدة وتلتها ثورات أميركا الجنوبية.

وفي سنوات 1820، كان المثقفون والضباط والنبلاء الصغار لأميركا اللاتينية متشبعين بأفكار الثورة الفرنسية. وقد أطلقوا منذ ما قبل واترلو، في كل مكان تقريباً ثورات ضد إسبانيا، التي كانت لا تزال تسيطر على القارة، من كاليفورنيا إلى شيلي. وأشهر هؤلاء "الجمهوريين" المحررين-يسمون بوليفار (1783-1830)، هم سوكر وميراندا وسان مارتين.

وفي عام 1824، قضي على الجنود الإسبان، في البيرو، وفي أياكوشو. وهذا الاستثناء على القاعدة التي تكلمنا عنه أعلاه لإخفاق حروب العصابات، يفسر بانحراف الملكية الإسبانية: والكاستيانيون الذين كانوا متحمسين جداً لقتال نابوليون، لم يعودوا كذلك للدفاع عن إمبراطوريتهم. ومع ذلك فقد تمكنت إسبانيا من الحفاظ على ثلاث مستعمرات مهمة: كوبا، بورتوريكو و، في المحيط الهادي، الفلبين. بيد أن هذه الثورة الأميركية الجنوبية كان فيها عيبان خطيران.

أولاً، الانشقاق: لم تستطع المحافظة على وحدة الإمبراطورية، التي تجزأت إلى جمهوريات مستقلة ومتنافسة: المكسيك، البيرو، كولومبيا، فنزويلا، شيلي، الأرجنتين، بوليفيا، وسنقتصر على ذكر أهمها.

وبعد ذلك، على وجه الخصوص، "الأبارتيد" (التمييز): كانت هذه الانتفاضات ضد الوطن الأم ثورات مستوطنين (كما في الولايات المتحدة)، و"أقدام سود"؛ ولم يتورط فيها الهنود قط. وكان عددهم في أميركا الشمالية قليلاً؛ ولكنها كانت مشكلة كبرى في أميركا اللاتينية، حيث نجا من الموت ملايين الفلاحين المكسيكيين أو الإنكا.

ولا تزال هاتان المشكلتان قائمتين. وقد بقيت أميركا اللاتينية مقسمة إلى عشرين دولة، ولا يزال السكان الأصليون (الهنود) لا يشاركون في الحكومة إلّا قليلاً. وهكذا فإن كثيراً من الانشقاقات المعاصرة "إثنية"، من الدرب المنير البيروفي إلى الشياباس المكسيكي. والكنيسة الكاثوليكية معنية جداً (إذ إن السكان الأصليين صاروا كاثوليكاً)، وممزقة بين السلطات و"عقيدة التحرير" التي دفعت بعض الرهبان إلى الالتحاق بالمقاومة. وحققت الطوائف البروتستانتية الأصولية نجاحاً كبيراً.

وفي البرازيل، أميركا البرتغالية، كانت الأمور أفضل. وقد نوّهنا من قبل إلى الغياب شبه التام للعنصرية لدى المحتلين البرتغاليين. وكان الملك البرتغالي، لحظة احتلال لشبونة، قد فرَّ من ريو. وبعد واترلو، عاد الملك براغانس إلى لشبونة، لكنه ترك في البرازيل ابنه ملكاً.

وقد كان دوم بيدرو حكيماً إذ أعلن البرازيل مستقلة منذ عام 1822، وكان البرتغال حكيماً إذ لم يعترض على ذلك. وسوف لن تعوض الملكية في البرازيل بجمهورية إلّا عام 1888. وهكذا لم تنقسم أميركا البرتغالية. كما كان تمازج الأعراق أكثر تناسقاً منه في أميركا الإسبانية: البرتغاليون، الهنود، والأفارقة السود الكثيرون الذين حطتهم هناك تجارة الرقيق. وربما تفسر هذه الأسباب أن البرازيل هي اليوم القوة العالمية الوحيدة لأميركا الجنوبية: فالمواطنون، رغم

المعارك الاجتماعية الدامية، مندمجون قومياً هناك أكثر. والسوق والصناعة يستفيدان من هذا الاندماج. البرازيل تبيع القهوة، لكنها تصنع الطائرات، وإن كان الظلم الاجتماعي هناك كبيراً.

واليونان أيضاً بنت الثورة.

ومنذ زمن طويل، ثار مسيحيو البلقان الأرثوذكس ضد أسيادهم الأتراك، وظلت أوروبا غير مبالية تماماً بمصيرهم.

وبمجيء الثورة، فإن "حق الشعوب في تقرير مصيرها" وصعود الذكريات القديمة جعلا المثقفين الأوروبيين حساسين لآلام اليونانيين. وعندما ثار هؤلاء عام 1821 وأنشأوا مجلساً في إبيدور، انتصر كُتاب فرنسا (فيكتور هيغو) وبلدان أخرى لليونانيين. وقد قُتل الشاعر الانجليزي الشهير لورد بايرون إلى جانبهم عام 1824، في ميسولونغي. وتأثرت الحكومات، وسحقت بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا الأسطول العثماني عام 1827، في نافارين. وأعلن جزء من العالم اليوناني استقلاله عام 1830-وهذا أول خرق في الحلف المقدس المناهض للثورة. فحق الشعوب في تقرير مصيرها خطير جداً على الملكيات القديمة، إلّا أن القوى فرضت على اليونان أميراً بافارياً ملكاً.

وفي بلجيكا دار سيناريو مماثل وبعد واترلو، كانت هولندا قد ضمت البلد. ولكن البلجيكيين، الذين كانوا تحت سيطرة الفلونيين الفرانكفونيين والفلمندريين الكاثوليك، لم يتكيفوا مع هذا الوضع.

وقد طالب مجلس طبقاتهم بالانفصال عن هولندا. وفي 4 أكتوبر/تشرين الأول 1830، تم الاعتراف بهولندا دولة مستقلة-وكان ذلك خرقاً ثانياً لمبادئ مؤتمر فيينا. بيد أن الملكيات توصلت إلى أن يكون البلد مملكة لا جمهورية. ووُضع التاج على رأس أمير من ساكس-كوبورغ، وصار ملك البلجيكيين: ألا وهو ليوبولد. كانت انجلترا قد قبلت ببلجيكا دولة حاجزة ضد فرنسا. وقد منحت هذه الدولة التي أُعلنت دولة محايدة للبريطانيين في الحقيقة ضماناً بأن مرفأ أنفير-"مسدس مصوب إلى قلب انجلترا "لن يهدّدهم.

وسوف لن تنجح الدولة البلجيكية في تجاوز الخلاف بين الفلمندريين الذين يتكلمون النيورلاندية والفلونيين الذين يتكلمون الفرنسية. وتسمى الساحة الكبرى في لياج "ساحة الجمهورية الفرنسية". ولايزال هذا الخلاف مستمراً إلى اليوم.

وفي فرنسا، كان شارل العاشر، آخر من تبقى من الفرع الفرنسي من البوربون، أقل ذكاء بكثير من أخيه لويس الثامن عشر. وكان وسيماً وفارساً ولكنه غبي. وقد أحدث بمحاولته إعادة بعض قوانين النظام القديم، "هزة ارتدادية" للأيام الثورية الغابرة: "الماجدات الثلاث". وفي أيام 25 و26 و27 يوليو/تموز 1830، انتفض شعب باريس ضد الأوامر التي أصدرها الملك. ولم يستطع هذا الأخير قمع المظاهرة. وكان قد أرسل جيشه لإخضاع مدينة الجزائر يوم 5 يوليو/تموز الماضي. فاستسلم شارل العاشر وأخذ طريق المنفى وسجل سقوطه نهاية حكم بوربون فرنسا.

وحملت البرجوازية الليبرالية، آنذاك، إلى العرش أميراً من أورليان، كان يُعتقد أنه ليس مناهضاً للثورة، هو لويس فيليب. ولم يكن ملوك أوروبا مستعدين بعد، في ذلك التاريخ، لقبول عودة الجمهورية إلى فرنسا.

وتُعد ملكية لويس فيليب توافقاً. ولم يكن قد كُرّس "ملكا لفرنسا" (كما كان شارل العاشر)، ولكنه عُيّن "ملكاً للفرنسيين". وقد ضمنت كفالة لافاييت للمثقفين الطابع الليبرالي لـ"ملكية يوليو/تموز". وسوف ينجح لويس فيليب في البقاء في الحكم ثمانية عشر عاماً مع رؤساء وزراء موهوبين-على غرار غيزو، الناطق باسم أوساط الأعمال، والذي بقي شعاره مشهوراً، ويقول: "اغتنوا."

وقد توافق حكم الملك البرجوازي مع طفرة تقنية رائعة: الثورة الصناعية الأولى. أصبحت الآلة البخارية لدونيس بابين (Denis Papin) قاطرة. وكانت خطوط السكة الحديدية (باريس-أورليان) قد دُشنت بفضل قوة البخار. وتحولت المعامل إلى مصانع ذات مداخن-انتصار الفحم، الذي يوفر الطاقة، والحديد، الذي عوض الخشب في كل مكان.

وغادر كثير من الفلاحين الفقراء الحقول ليتحولوا إلى عمال في المصانع.

والى غاية لويس- فيليب، كان هناك عمال بناء أو حرفيون؛ ومن هنا ظهرت في فرنسا وانجلترا وألمانيا "الطبقة العمالية". وكانت حياة عمال المصانع هؤلاء، الذين كان الاشتراكيون يسمونهم "بروليتاريين"، حياة شاقة.

ولكن الملك البرجوازي وغيزو كانا غير مباليين بالشأن الاجتماعي. وكان سيقضي عليهما: ففي يوم 24 شباط/فبراير 1848 اندلعت انتفاضة باريسية كبيرة. وقد هزت هذه "الهزة الارتدادية"، ثورة 48، أوروبا برمتها، تقريباً على غرار الهزة الكبرى لعام 1789.

وفي باريس، تجرأ البعض على إعلان الجمهورية (الثانية بالإسم). وأسس جمهوريو بودابست، مع كوسوث، جمهورية هنغارية. ففر البابا إلى روما، حيث استولى الثوريون على السلطة. وحدثت هناك مظاهرات إلى غاية فيينا، حيث استسلم الإمبراطور فرديناند.

وفي باريس، كانت حكومة مؤقتة قد قامت في دار البلدية، وهي حكومة أعلنت عن نفسها وكان من ضمنها الشاعر لامارتين. وهذا ما قاله عنها فيكتور هيغو في كتابه "أمور رأيتها" *(choses vues)*.

"قادني لامارتين إلى نافذة وقال: "ما كنت أود أن أعطيك إياها، إنها وزارة: فيكتور هيغو وزير التثقيف العمومي، سيكون ذلك جيداً."

"وبما أنني كنت ألفت انتباه لامارتين إلى أنني لم أكن معادياً للويس- فيليب، فقد قال لي: "الأمم فوق السلالات."

"وقد قاطعنا دوي إطلاق نار... وجاءت رصاصة وكسرت زجاج نافذة كانت فوق رؤوسنا." ما هذا؟ صاح لامارتين متألماً. وهرع أناس إلى ساحة دار البلدية ليروا ما الذي كان يحدث.

"آه، يا صديقي! واصل لامارتين، إن هذه السلطة الثورية لمسؤولية ثقيلة! لدينا مثل هذه المسؤوليات، والمفاجئة للغاية، علينا أن نتحملها... منذ يومين، لا أعرف ما الذي أعيشه..." وخلال بضع دقائق، عاد من يقول له

إنها كانت مناوشة لم يُفهم معناها، وإن إطلاق النار كان تلقائياً، ولكن كان هناك قتلى وجرحى.

"جاء فتى صغير يحمل صحناً فيه فخذ دجاجة: كان ذلك غداء لامارتين."

وفي اللحظة ذاتها أو تكاد، نشر شخص يدعى كارل ماركس (مع صديقه انجلز) بيان الحزب الشيوعي، كي يطرحا، لا المشكلة السياسية وحسب، بل المسألة الاجتماعية: وطالب لا بالحريات العامة، وإنما بالعدالة الاجتماعية.

وفي باريس أيضاً تحولت الثورة إلى مظاهرة عمالية: في يونيو/حزيران، حطم العمال كل شيء، مطالبين بأجور أفضل. فخافت البرجوازية وجعلت الجيش يطلق النار على الشعب. وسحق الجنرال كافينياك المظاهرات الاجتماعية. وأمام "الخطر الأحمر"، تجمع المعتدلون. والحقيقة أن راية 1848كانت راية حمراء. وقد كان من الصعب على لامارتين أن يحتفظ بألوان الثورة والإمبراطورية ألا وهي الأزرق والأبيض والأحمر راية وطنية.

وفي 10 كانون الأول/ديسمبر 1848، ضمن الجمهوريون المعتدلون المتجمعون في حزب النظام، الانتخاب بالاقتراع العام لمرشح غير متوقع ضد كافينياك ولامارتين، ألا هو ابن أخ نابوليون العظيم : لويس نابوليون بونابارت. وعاد النظام.

وفي باقي أوروبا، انتهز الجيش النمساوي الفرصة لسحق الانتفاضات في منبتها، ببعض التنازلات فقط للقومية الهنغارية. واعتلى الإمبراطور الشاب فرانسوا -جوزيف عرش الهابسبورغ (وظل متربعاً عليه حتى وفاته، عام 1916). وعاد البابا إلى روما.

وقد وضع النصف الأول للقرن التاسع عشر هذا حداً للانتفاضات الثورية. وكان لويس نابوليون رئيساً في فرنسا. وكان النظام قد عاد، وكانت انجلترا تسيطر على البحار، وولدت دول أميركا اللاتينية، والبرازيل واليونان، وكان هناك كثير من الأبناء للثورة الفرنسية.

أوروبا الأمم

كان رئيس الجمهورية الجديد، لويس بونابرت، ابن لويس، أخ الإمبراطور، وابن أورتونس دو بوهارني، بنت جوزفين. وهو من مواليد عام 1808، وكان عمره ثلاثة وأربعون عاماً. وكان حتى ذلك الوقت يعيش حياة منفى ومؤامرات (مع الكاربوناري (Carbonari) الإيطاليين أو ضد الإصلاح). وكان مسجوناً في حصن هام (Ham) وفرَّ منه-باختصار، كان شخصية مغامرة.

وفي يوم 2 ديسمبر/كانون الأول 1851، أعلن الرئيس الإمبراطورية الثانية وأخذ اسم نابوليون الثالث (لأن الرقم اثنين كان مخصصاً لإبن الإمبراطور، الذي مات في فيينا).

وكانت حركة 2 ديسمبر/كانون الأول استغلالاً للنفوذ، لأن لويس نابوليون كان بعدُ في السلطة، أكثر منه انقلاباً. وعلى غرار عمه، فقد حول لويس الجمهورية الديمقراطية، المنبثقة عام 48، إلى جمهورية استبدادية، أراد لنفسه أن يكون ديكتاتورها "على الطريقة الرومانية".

وكان هناك معارضون. وقد اعتُقلوا أو لاذوا بالفرار. وأقام فيكتور هيغو طوال مدة الإمبراطورية الثانية، في غيرنيساي -(Guernesey) وكانت عائقاً فظيعاً للإمبراطور الجديد أن يكون في معارضته الشاعر العبقري، وإن كان من أشد المعجبين بعمه.

ويستحق نابوليون الثالث أفضل من هذه الصورة المحقرة التي يرسمها الكاتب لـ"نابوليون الصغير". كان رجل دولة، على الأقل خلال الجزء الأول من حكم دام عشرين عاماً. ويمكن القول إنه أرسى نظاماً اجتماعياً-رأسمالياً.

والدور الكبير لرأس المال واضح. كان نابوليون الثالث محاطاً بمصرفيين، أمثال الأخوين بيرير أو فولينسكي (غالباً من أصل بروتستانتي أو إسرائيلي). وأنشأ مؤسسات القرض وبنوك الأعمال، كالكريدي ليوني (Crédit lyonnais). وشجع تمويل الأشغال الكبرى: زرع غابات لاندز، إصلاح السولون، السكة الحديدية. وكان الإمبراطور يثق في فرديناند دو ليسيبس ليشق له قناة السويس، التي دشنتها زوجته: وهي مجرى مائي استراتيجي يختصر نصف طريق الهند.

وكان أتباع سانت- سيمون كثيرين حول الأمبراطور. وكان لسانت- سيمون هذا (لا يجب الخلط بينه وبين سلفه الذي كان في عهد لويس الرابع عشر) تأثير كبير: فقد أعطى بـ"عقيدة الصناعيين" *(Catéchisme des industriels)*، للثورة الاقتصادية طوباوية متفائلة.

وولدت تجارة التجزئة في عهد الإمبراطورية الثانية: لوبرانتون (Le Printemps)، لاساماريتان (Ka Samaritaine)، لوبون مارشي (Le Bon Marché). ونابوليون الثالث هو أيضاً من اخترع الإطار القانوني للرأسمالية الجديدة: رأسمالية الشركة المغفلة. وقبله، كان المقاولون يملكون الشركات العائلية. وكانوا لا يفصلون بين مالهم ومال شركتهم. وقد سمحت الشركة المغفلة بظهور رأسمالية المساهمين. وقد قنَّن هذا التقدم القانوني عام 1867. وفي السنة ذاتها ظهر "رأس المال"، الذي حرص فيه كارل ماركس على انتقاد العيوب اللصيقة باقتصاد السوق.

بيد أن الإمبراطور كانت له دائماً أهداف اجتماعية. وفي السجن، في حصن هام، كان قد ألف كتاباً بعنوان موح: "إخماد الفقر". *(L'Extinction du paupérisme)*. كان منشغلاً بمستوى الأجور وكان دائماً يستطيع الاعتماد على تصويت العمال والفلاحين، إذ إن نظامه "الشعبوي" كان ينظم دائماً انتخابات تزكية.

كانت الحركة العمالية قد ولدت وكانت تحاول تنظيم نفسها من خلال زعماء (فوريي، برودون، ماركس)، وأحزاب اشتراكية ونقابات (في انجلترا

"الاتحادات العمالية"). وظهرت الأممية الأولى في لندن في 28 أيلول/ سبتمبر 1864. ولم يكن الإمبراطور معادياً لها.

ونتحدث في هذا الصدد عن "القيصرية الاشتراكية"(socialisme Césaro).

وما يلخص هذا الحكم بصورة أفضل، هو تحول باريس الذي عهد به الإمبراطور إلى اليد القوية للمحافظ أوسمان (Haussemann). وقد منح عمل أوسمان، الاتجاهي جداً، لباريس وجهها الحالي لباريس ذات العشرين دائرة، بعد ضم بلديات الضواحي الواقعة بين السور الخارجي الذي بناه تيير (Thiers)، والمجلس البلدي.

بنايات جميلة من طراز رفيع، منافذ واسعة (كانت تسهل حركة المرور وأيضاً تدخّل الجيش في حالة المظاهرات): وللمفارقة، فقد ساهم العمل العظيم للبارون أوسمان، نظراً للمضاربة العقارية، في طرد العمال خارج الأسوار وفي جعل مدينة الأنوار (تعبير عن الفترة، إذ كان أوسمان قد ركّب الإنارة العمومية التي تعمل بواسطة الغاز) مدينة برجوازية. وتعد أوبرا غارنيي الرائعة شاهداً على هذا التحول.

كانت السياسة الخارجية للإمبراطورية الثانية في البداية ذكية جداً. وكانت فرنسا، منذ واترلو معزولة ومثار شبهة. وقد نجح نابوليون الثالث في التحالف مع انجلترا، وفي عهده انتقلت بريطانيا العظمى من دور العدو الوراثي لفرنسا إلى دور حليفها المفضل.

وكان قيصر روسيا يريد أن يستولي على القسطنطينية والمضايق، فاعترضت انجلترا التي كانت قوة بحرية. وكانت حرب القرم، عام 1855. وأرسل نابوليون الثالث جيشاً استكشافياً، وتم احتلال الحصن الروسي لسيباستوبول.

ووقعت معاهدة السلام، سمة الأزمنة، في باريس عام 1856. وتخلت روسيا عن الاستيلاء على البوسفور. وتعويضاً لها، انتُزعت مقاطعتان من السلطنة العثمانية: ألا وهما رومانيا وصربيا، وهما بلدان أرثوذكسيان وخاضعان للنفوذ الروسي. وهكذا دخلت صربيا المضطربة التاريخ المعاصر.

كانت فكرة نابوليون العظيمة تقضي بأن لكل شعب الحق في وحدته واستقلاله القوميين. وكانت إيطاليا التطبيق المثالي لذلك.

كان نابوليون الثالث يعرف إيطاليا لأنه خالط مناضلين من "الريزورجيمونتو" *(Risorgimento)*، كانوا يقاتلون من أجل الوحدة الإيطالية. وفي تلك الفترة، كانت شبه الجزيرة لا تزال مقسمة. وكانت النمسا، منذ أن دمر نابوليون الأول جمهورية البندقية، تهيمن على شمالها-ماعدا مملكة بييمون (Piémont). وواصلت مملكة نابولي (أو الصقليتين) في الجنوب حياتها اللامبالية البليدة. وظل البابا ملكاً زمنياً.

كانت مملكة بييمون، التي سادت عليها سلالة سافوايية (بيت سافوا La Maison de Savoie)، تمتد على جانبي الألب، وانتقلت عاصمتها من شامبيري إلى تورينو. كان الملك فيكتور- إيمانويل قد حظي، في شخص كافور (Cavour) (1810-1861)، بوزير أول ممتاز كان قد حدّث البلاد.

وقد قرر نابوليون الثالث تحقيق وحدة إيطاليا حول مملكة سافوا. وفي بلومبيير، وعد بمساعدة كافور، الذي أعلن الحرب على النمسا، مدعوماً بالجيوش الفرنسية التي قادها نابوليون الثالث بنفسه في ماجنتا وسولفيرينو (يونيو/حزيران 1859). وبمناسبة هذه المعارك، أنشأ السويسري هنري دونانت الصليب الأحمر. وانسحبت النمسا، المهزومة، من إيطاليا. وشجع البييمون آنذاك حملة "القمصان الحمراء"، التي حركها غاريبالدي الذي ذهب للإطاحة ببوربون نابولي.

كانت الوحدة الإيطالية قد تحققت تقريباً. وتعبيراً عن شكره، أعطى ملك بييمون، الذي صار ملكاً على إيطاليا، لفرنسا السافوا وكونتية نيس. وقد صادق دعاة حرب على هذا الضم. وكانت السافوا التي تقع على الجانب الفرنسي من الألب وتتحدث الفرنسية، مهيأة للتطلع إلى باريس أكثر منه إلى شبه الجزيرة. وبالمقابل كانت نيس فعلاً مدينة إيطالية، تتحدث الإيطالية. ومنها ينحدر

غاريبالدي، بطل ريزورجيمونتو. ويدل الاندماج السريع لنيس على قوة جاذبية فرنسا الإمبراطورية.

كان يمكن لهذه العملية أن تكون أفضل أعمال الإمبراطورية الثانية: أي الضم السلمي للمقاطعات الجميلة؛ وإنشاء قوة صديقة على الحدود. وقد أفسدتها "المسألة الرومانية". وكانت روما، في الواقع، العاصمة الطبيعية لإيطاليا الجديدة. ولم يجرؤ نابوليون الثالث على منحها إياها، إذ إنها كانت ملكاً للبابا ولم يكن الإمبراطور يريد أن يغضب الكاثوليك الفرنسيين. ولذا رفض منح روما للإيطاليين وأقام فيها حامية فرنسية. وسوف لن تضم إيطاليا المدينة إلا عام 1871 (إذ كان البابا معتكفاً في الفاتيكان). وفجأة، تحوّل الإيطاليون من الامتنان لفرنسا إلى الحقد عليها.

وهذه الطريقة في عدم المضي في أفكاره الجيدة إلى مداها هي ميزة نابوليون الثالث، الذي ظل تردده يتفاقم مع تقدمه في السن. وعلى سبيل المثال، ففي الجزائر، التي أخضعتها فرنسا منذ 1830-في الواقع، منذ العمل العسكري القوي والدامي غالباً للماريشال بيجو (Bugeaud) في عهد لويس-فيليب (كان الأمير عبد القادر قد استسلم للفرنسيين في ديسمبر/كانون الأول 1847)-، صاغ الإمبراطور، متأثراً بالسان سيمونيين، في البداية سياسة حماية ليبرالية. وحرر الأميرَ (الذي أقام في دمشق التي توفي فيها عام 1883) وحلم بـ"مملكة عربية" تكون فيها للسكان الأصليين والفرنسيين الحقوق نفسها؛ ولكنه كان يفتقر لاستمرارية القرار الضرورية لفرض هذه السياسة الذكية على الأوروبيين. وفضلاً عن ذلك، فقد تملكته القسوة.

ولم تتم بيريزينا (Bérésina) ابن الأخ كما كان الأمر بالنسبة للعم في روسيا؛ فقد حدثت في المكسيك. وكانت الولايات المتحدة الأميركية قد أصبحت دولة قوية، بتعداد سكان كفرنسا (32 مليون نسمة). وفي عام 1848، وكانت قد شنت الحرب على المكسيك المستقل كي تتمكن من ضم كاليفورنيا، وأريزونا وتكساس. وقد أراد نابوليون الثالث، مستغلاً حقد المكسيكيين على

اليانكيز، أن يؤسس في المكسيك إمبراطورية تحت النفوذ الفرنسي، تحول دون التقدم الأنجلوسكسوني.

ونصّب الجيش الفرنسي لبازايين (Bazaine) على عرش مكسيكو، ماكسيميليان، أحد أقارب إمبراطور النمسا. ولكن وإن لم يكن المكسيكيون يحبون اليانكيز، فإنهم لم يكونوا يحبون أيضاً أن يغزوهم الفرنسيون. ولعجز الجيش عن السيطرة على حروب العصابات، فقد اضطر، خلال بضع سنوات، إلى الرحيل، تاركاً خلفه مكسيميليان المسكين، الذي قُتل رمياً بالرصاص.

وسوف ينسى المكسيكيون هذه المغامرة، ولكنها على الأرجح هي السبب في حذر الولايات المتحدة تجاه فرنسا-فالجيش الأوروبي الوحيد الذي جاء ليستقر على أبوابهم كان فرنسياً! وكي يزيد الأمور سوءاً، كان نابوليون قد ساند الجنوبيين.

وليس من الغباء مواجهة الهيمنة الأميركية، ولكن كان من الغباء فعل ذلك بعيداً جداً عن أوروبا، على ضفاف الوادي الكبير *(Rio Grande)*.

وبينما كان الفرنسيون يتورطون في المكسيك، كانت هيمنة مهدِدة بصورة أخرى قد تكوَّنت وراء الرين.

والعمى الذي أبداه نابوليون الثالث إزاء التهديد الألماني هو عمى مفاجئ. فقد كان "مبدأ القوميات" يزعجه على الأرجح -هو صانع الوحدة الإيطالية - كي يعترض على الوحدة الألمانية. لكن، إلى ذلك، فقد كانت النمسا، منذ قرون، وفي عهد عمه أيضاً، ألدَّ أعداء فرنسا. ولكنها، تحديداً، لم تعد كذلك. كان نابوليون الثالث قد عرف كيف يتقرب من النمسا ضد بروسيا. ولم تكن فيينا، الإمبراطورية العجوز متعددة الأعراق والهشة، بعد أن تحققت الوحدة الإيطالية، تمثل أي خطر على باريس.

وكانت بروسيا، على العكس، تشكل تهديداً خطيراً.

وفي عام 1862، كان ملك بروسيا، غيوم الأول، قد عيّن مستشاراً له رجلاً حديدياً: ألا وهو بسمارك (1815-1898). وأراد هذا البروسي المنحدر

من أسرة من اليونكر (Junkers)، بشغف أن يحقق الوحدة الألمانية حول بروسيا. كان بصورة ما غاريبالدي جرمانياً. وبقدر ما كان غاريبالدي رومانسياً، فقد كان بسمارك وقحاً وبارداً. ولم يكن يردعه وازع-وكان يستغل، بطريقة ما، ثقة ملكه بطريقة دكتاتورية.

وإضافة إلى ذلك، وعلى غرار انجلترا وفرنسا، صارت ألمانيا تلك الفترة قوة صناعية عظمى، وقوة عسكرية ضخمة أيضاً -الوحيدة في أوروبا، في النهاية. كانت بريطانيا العظمى تعتمد على أسطولها. وكان للجيش الفرنسي وهو جيش احترافي صغير جداً، قيادة غير مؤهلة، وغير عصرية كثيراً ومنخرطة على وجه الخصوص في مغامرات ما وراء البحار (الجزائر، المكسيك). وكانت حرب إيطاليا لعام 1859 استثناء. وخلافاً لذلك (فكرة مأخوذة عن الثورة، ولكن هَجَرتها الإمبراطورية الثانية) فقد كان الجيش البروسي جيش تجنيد، قومياً، مجهزاً جيداً بالمدفعية الحديثة (مدافع كروب (krupp)، الشهيرة).

بالنسبة لبسمارك، كان العائق الأول الواجب إزاحته هو النمسا. وكانت فيينا وبرلين منذ زمن طويل تتنازعان حكومة الألمانيتين. ويمكن أن نلاحظ من ناحية أخرى، أن فيينا كانت قد جلبت إلى العالم الجرماني كثيراً من الألق والسلام (موتزارت، الخ)، بينما سوف تجرّ عليه برلين الحرب والويلات.

ولتحقيق الوحدة الألمانية حول برلين، فإنه كان يجب القضاء على فيينا. وهذا ما فعله بسمارك. وفي سادوفا (Sadowa)، يوم 3يوليو/تموز1866، سحق البروسيون بسهولة، بقيادة الملك غيوم والجنرال، جيش هابسبورغ القديم (وحولت النمسا إلى تابعة حتى عام 1918).

وكانت الأمور ستسير بصورة مختلفة لو أن الجيش الفرنسي ظهر على الرين. واستخفافاً بفرنسا، كان بسمارك قد ركّز قواته ضد النمساويين. وكان التدخل الفرنسي في هذه اللحظة سيكون حاسماً. وفضّل نابوليون الثالث أن لا يفعل شيئاً، مطالباً في الوقت نفسه ببعض التعويضات (كضم لكسمبورغ على

سبيل المثال) التي أطلق عليها بسمارك بازدراء "إكرامية"- وهي الإكرامية التي رفض أن يعطيها. ومنذ ذلك الحين كانت الأمور قد حسمت.

وكان العائق الأخير الذي يمنع الوحدة الألمانية حول بروسيا هو، في الحقيقة، فرنسا. فلم تكن قوية كما ينبغي، بجيشها الاستعماري الصغير، ضد جيش المجندين الألماني القوي. وفضلاً عن ذلك، فقد راح نابوليون الثالث بحماقة يشن الحرب أولاً. وكان هذا الرجل، الذي هو إداري عبقري في بعض الجوانب، غبياً دائماً في الشؤون العسكرية-عكس عمّه. وكانت قيادته كارثة. وخلال شهرين، كان الجيش الفرنسي قد سُحق، وزُج بنابوليون الثالث في السجن في سودون (Sedan)، يوم 2 أيلول/سبتمبر 1870. وبسجن قائدها، انهارت الإمبراطورية الثانية.

كان بسمارك يعتقد أن الحرب قد انتهت بسحق الجيش النظامي. وقد كان مخطئاً. وظن الفرنسيون، أمام الغزو، أنهم قد عادوا إلى عام 93. وفي 4 أيلول/سبتمبر في باريس، حملت مظاهرة نواب العاصمة إلى دار البلدية، المركز الرمزي للسلطة الثورية. وأعلنوا أنفسهم "حكومة دفاع وطني" وأعادوا الجمهورية (والحقيقة أنها الثالثة اسماً، حتى وإن كان التصويت على الدستور لن يتم إلّا عام 1875). وكان من بين هؤلاء النواب رجل قوي، كان قد حصل حديثاً على الجنسية الإيطالية: ألا وهو ليون غامبيتا (Gambetta).

وتحت وقع المفاجأة، غزت الجيوش الألمانية باريس، ولكنها حرصت على أن لا تهاجم معسكرها الكبير المتخندق. كان بسمارك يعوّل على الجوع وكان يقول في نفسه إن هذه الجمهورية، خلافاً لجمهورية عام 93، لم تكن تملك جيشاً.

وقد كان مخطئاً. فقد غادر غامبيتا، وزير الداخلية والحرب، المدينة المحاصرة بمنطاد، يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول 1870، وذهب لتنظيم المقاومة في الريف. واستقر في تور (Tours)، واشترى بنادق من الخارج وجنّد جيوشاً ارتجالية (جنود الاحتياط (mobiles)، وهي كلمة مأخوذة من (mobilisation)

وتعني التعبئة) وأجبر البروسيين على التوغل في قلب الإقليم القومي. حتى أنهم قد هُزموا في كولميي (Coulmiers)، في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1870، وقاد الجنرال شانزي على اللوار انسحاباً ذكياً. بيد أن جنود الاحتياط ربما كانوا بحاجة إلى الوقت كي يتعودوا على الحرب. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. كانت باريس، المحاصرة منذ أشهر، ستموت جوعاً.

وحتى بعد خسارة باريس، كان غامبيتا يعتقد أن المقاومة كان لديها حظوظ: إذ صارت الجيوش البروسية، البعيدة عن قواعدها، في عز الشتاء، ضعيفة. ولكن تطلّب الأمر، للقيام بذلك، العودة للعمل مع الجمعية التأسيسية، شن الحرب بإفراط. ولم تكن الحكومة المؤلفة من معتدلين، وبرجوازية الريف، تريد ذلك، خشية حدوث هزات اجتماعية محتملة.

وفي 28 يناير/كانون الثاني 1871، طلبت الحكومة الهدنة. فمنحها بسمارك إياها (كان خائفاً)، واستغل الموقف ليجعل الملوك الألمان المجتمعين في فرساي يقبلون بملك بروسيا، إمبراطوراً على ألمانيا.

وخلال قرون، وباستثناء النمسا، لم يكن يُحسب حساب لألمانيا المقسمة إلى دويلات صغيرات. وهاهي تبرز، مدججة بالسلاح، مهدِدة، ملوِثة بدخان المصانع. بيد أن بسمارك بدوره وقع في فخ القسوة.

وطلب ضم الألزاس (الفرنسية منذ 1683) وجزء من اللورين (الفرنسية تقريباً منذ القرون الوسطى). وهذا خطأ قاتل ووخيم العواقب: ولو أن بسمارك كان قد اكتفى بتحقيق الوحدة الألمانية دون ضم أي بلد، لكانت فرنسا وألمانيا قد تصالحتا بسرعة دون شك. ولكن بسمارك لم يكن رجل أنوار؛ وكان جرمانوياً. وكانت الأمة بالنسبة للفرنسيين، تقوم على القوانين، وأما بالنسبة للجرمانويين ولبسمارك، فكانت تقوم على العرق. ومن الواضح أن ستراسبورغ مدينة جرمانية؛ ولكن لأنها متفرنسة، فقد تعايشت منذ قرون مع مرسيليا المتوسطية أو كيمبر السلتية. وكان قانون الأرض يؤسس فرنسا وقانون الدم

يؤسس ألمانيا؛ (ولم تتخل عنه جمهورية ألمانيا الفدرالية (RFA)، إلّا مؤخراً جداً). وسوف تبلغ هذه الفكرة العرقية للأمة أوجها في عهد هتلر.

وفي أثناء ذلك، غادر ربع الألزاسيين كرومهم ومنازلهم ليحتفظوا بالجنسية الفرنسية؛ وسوف يستقر كثير منهم في ما بعد في الجزائر. وقد جعل هذا الضم المصالحة بين فرنسا وألمانيا أمراً مستحيلاً. وبقيت الألزاس- لورين، في خاصرة فرنسا، جرحاً مفتوحاً وهوساً، حتى حين لم تكن تستطيع الحديث عنها خوفاً من ألمانيا: "التفكير فيها دائماً، وعدم الحديث عنها أبداً". وعن هذا الخطأ الجرمانوي سوف تنجم حرب 14 وفظائع القرن العشرين.

إلى ذلك، كانت هدنة يناير/ كانون الثاني 1871، مؤلمة جداً ولم يستسغها في فرنسا كثير من المواطنين، بداية بالباريسيين. وتشهد على ذلك رسالة من ضابط محترف، هو لويس روسيل، إلى وزيره، من معسكر نافيرز (Nevers):

"يشرفني أن أخبركم أنني ذاهب إلى باريس لأكون تحت تصرف القوات التي قد تتشكل فيها. وقد علمت عن طريق برقية[...] أن هناك طرفين يتحاربان في البلاد، فانحزت دون تردد إلى من لم يُبرم اتفاق سلام ومن لا يضم في صفوفه جنرالات اقترفوا ذنب الاستسلام. وباتخاذي قراراً خطيراً ومؤلماً كهذا، فأنا آسف أن أترك خدمة عبقري معسكر نافيرز [...] (Nevers) معلقة.

"يشرفني أن أكون، حضرة الجنرال، خادمكم المطيع والمتفاني.

"ل. روسيل."

وبعد الهدنة، أفرزت الانتخابات أغلبية يمينية اجتمعت في مجلس في فرساي، وأصبح أدولف تيير (Adolphe Thiers)، رئيس دولة فعلياً.

ولكن باريس، التي لم تُقهر بعد أربعة أشهر من الحصار، لم تقبل الهزيمة بسهولة. وحين أرادت حكومة فرساي أن تسترجع المدافع، الموضوعة على تلة

مونتمارتر، تمردت العاصمة يوم 18 آذار/مارس 1871 وأعلنت نفسها "كومونة حرة"، مستقلة عن حكومة السيد تيير.

وقد عاش كارل ماركس في كومونة "ديكتاتورية البروليتاريا" الأولى.

وخلال شهرين، ظلت الراية الحمراء ترفرف فوق دار البلدية. كانت الكومونة حقيقة انتفاضة اجتماعية ولكنها كانت أكثر من ذلك انتفاضة وطنية. ووضع ضباط مثل روسيل (Rossel) أنفسهم في خدمتها. وواجه ضباط فرنسيون ضباطاً فرنسيين آخرين، من الدفعة نفسها، كما تبينه هذا الرسالة الموجزة التي كتبها روسيل، الذي أصبح قائداً عسكرياً للكومونة، إلى ضابط من فرساي:

"أيها الرفيق العزيز،

"في المرة القادمة التي ستسمح فيها لنفسك بأن ترسل إليّ بإنذار وقح كرسالتك الخطية التي أرسلتها في الشتاء، سأطلق النار على برلمانيكم، وفقاً لتقاليد الحرب. . .

"رفيقك المخلص روسيل، مندوب كومونة باريس. "

كانت الأسابيع الضائعة قد سمحت لحكومة فرساي بأن تحضر من الريف جنوداً مخلصين. وفي 21 مايو/أيار دخل هؤلاء باريس واستولوا عليها بعد ثمانية أيام من المعارك الضارية-"الأسبوع الدامي"، من 21 إلى 28 مايو/أيار 1871-والمذابح الحقيقية. وردّت على الاعدامات الجماعية التي نفذتها جيوش فرساي، مذبحة الرهائن (ومن بينهم رئيس أساقفة باريس، مونسينيور داربوي) وحريق التويلري ودار البلدية. وأطلق الرصاص على آخر سكان الكومونة، وعددهم 147، في مقبرة بير لاشيز (Père-Lachaise)، كان القمع قد أوقع آلاف الضحايا.

وانتهت الإمبراطورية الثانية، لا بالهزيمة فقط، وإنما بحرب أهلية حقيقية في "زمن الكرز". وكانت الحكومة الشرعية لأدولف تيير قد انتصرت تحت أنظار البروسيين.

الولايات المتحدة والانفصال

كانت الولايات المتحدة الأميركية، بمعزل عن التاريخ العام، بيد أنها استفادت من صراعات العالم القديم لتتوسع. وفي عام 1800، شيدت عاصمة فدرالية تسمى واشنطن، على مخططات صممها المعماري الفرنسي بيار لونفون (Pierre L'Enfant).

ولم تمسّها حروب التحرير، وإن كان الانجليز قد أحرقوا واشنطن عام 1814، إلّا مصادفة. ومع ذلك فقد استفادوا منها ليشتروا من نابوليون، عام 1803، إقليم لويزيان الكبير (الميدل واست والمسيسيبي) وفي عام 1819، اشترت من إسبانيا فلوريدا. وبعد نقاشات ساخنة مع البريطانيين، اعترف لهم هؤلاء عام 1846 بملكية أورغون (Oregon)، التي تتحكم في الدخول إلى المحيط الهادي. وقد قلنا إنهم بعد سلسلة صراعات مع المكسيك، منذ ألامو عام 1836 حتى الحرب المفتوحة عام 1848، استولوا على الأريزونا، من تكساس إلى كاليفورنيا، التي ظلت أسماؤها إسبانية (لوس أنجلوس، سان فرانسيسكو، سان أنطونيو).

وقد استفادت الولايات المتحدة خلال القرن كله من هجرة جماعية: في ستين سنة، عبر عشرون مليون أوروبي المحيط الأطلسي ليستقروا فيها. كانت هذه التنقلات الكثيفة للسكان قد أصبحت ممكنة. وقد خلفت البحرية الشراعية للقرن الثامن عشر البحرية البخارية للثورة الصناعية الأولى، التي كانت تُدفِق على السواحل الأميركية آلاف المهاجرين العازمين على أن يبدأوا فيها حياة

جديدة. وكثير من هؤلاء الوافدين أتوا من الوطن الانجليزي القديم (في عز الانفجار الديمغرافي)، وكذلك من أيرلندا (التي أفقرتها الهيمنة البروتستانتية ودمرتها المجاعة)، ومن ألمانيا (وقد تحدث الناس طويلاً الألمانية في الميدل ويست) ومن اسكندنافيا. وجاء أيضاً مئات الآلاف من الأوروبيين الجنوبيين (الإسبان، الإيطاليون، البرتغاليون) والشرقيين (البولونيون، الروس، اليونانيون).

عندئذ ولدت "أسطورة أميركية"، يصورها تمثال الحرية، الذي نحته بارتولدي (Bartholdi)، وأهدته فرنسا لينصب أمام مانهاتن عام 1886. وقد غيّرت الهجرة طبيعة السكان، الذين كانوا إلى ذلك الحين يتشكلون أساساً من الانجليز البروتستانت والعبيد السود. وقد أصبحت الكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص قوية جداً (الطائفة الأميركية الأولى).

في ذلك الوقت، انفجرت أكبر أزمة للتاريخ الفتيّ للولايات المتحدة. وبقيت ولايات الجنوب، التي لم تمسها الهجرة إلّا قليلاً، بين أيدي المزارعين الذين ربما كانوا يشبهون ما كانت عليه واشنطن؛ فكانوا يستخدمون في مزارع القطن التي يملكونها عبيداً تأتي بهم تجارة الرقيق. وكان يسكن في ولايات الشمال فلاحون أحرار، وعمال، وتجار وكانت فيها مدن كبيرة : نيويورك، بوسطن. وكانت مصالح الشمال والجنوب متضاربة: كان المزارعون يريدون تصدير قطنهم؛ وصناعيو الشمال يريدون حماية صناعاتهم من المنافسة الأوروبية. وكانت العقليات على وجه الخصوص، تختلف تماماً. كان ارستقراطيو الجنوب يحتقرون مهاجري الشمال، والعكس بالعكس.

وقد أدى انتخاب مناهض للعبودية أبراهام لينكولن للرئاسة إلى القطيعة. ففي عام 1860، انفصلت الولايات الجنوبية وشكلت اتحاداً من اثنتي عشرة ولاية جنوبية برئاسة جيفرسون دايفيس.

وخلافاً لما تقوله الأسطورة، لم يكن رفض العبودية السبب الرئيسي للحرب. وكانت القضية المركزية التي طرحها الاتحاديون هي قضية حق الانفصال، ولم يكن الدستور الأميركي قد نص على هذه الحالة.

وفي الاتحاد الأوروبي اليوم، تستطيع دولة ما إن تنفصل بالتخلي عن المعاهدات. وقد رفض "الاتحاد" الأميركي لذلك الزمن، الذي كان يدرك بحق أن بقاء الولايات المتحدة نفسه كان على المحك، منح الاتحاديين الحق في الانفصال عنه. كانت تلك بداية حرب طويلة ودامية، من 18 أبريل/نيسان 1861 إلى 14 أبريل/نيسان 1865.

وكانت المعركة ظاهراً غير متكافئة: 23 مليون من الشماليين مقابل 9 ملايين من الجنوبيين (بما في ذلك كثير من العبيد السود غير المستنفرين). وكان للشمال أيضاً سككه الحديدية، وصناعاته، وموانئه الكبيرة. بيد أن نصر الجنوب لم يكن مستحيلاً، فقد كان المزارعون قد تعودوا على الحرب وكان جنرالاتهم ممتازين.

وبالفعل، حقق الجنوبيون سلسلة من النجاحات؛ غير أن مسيرة الجنرال لي (Lee)، إلى واشنطن قطعتها معركة غاتيسبورغ (Gettysburg)، من الفاتح إلى الثالث من يوليو/ تموز 1863. ومنذ ذلك الحين، كان تفوق الشمال كبيراً إلى درجة أنه كان يستطيع أن يربح الحرب الطويلة يقينا: واستحوذ شيرمان (Sherman)، على أكبر مدينة جنوبية، ألا وهي أطلنطا، وأضرم فيها النار في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني 1864. واضطر لي (Lee) إلى الاستسلام في 9 أبريل /نيسان في أبوماتوكس (Appomattox). واستقال جيفرسون دايفيس. واغتيل أبراهام لنكولن على يد متعصب جنوبي، لكن الاتحاد كان قد انتصر. وسوف لن يشكك فيه أحد.

كانت حرب الانفصال أول حرب "حديثة": استعمال كثيف للسكك الحديدية، والمدافع، وأسلحة الطلق السريع. وقد أودت بحياة 600.000 إنسان: 350.000 جنوبي و250.000 متمرد.

ألغيت العبودية في كل أرجاء الاتحاد، ولكن العنصرية و"الأبرتايد" بقيا حيين (إلى غاية حركة الحقوق المدنية لمارتن لوثركينغ). ومن هنا يستمد الحزبان الكبيران الحاليان جذورهما، وإن كانت قاعدتاهما الانتخابيتان قد

تغيرتا. وبفضل حرب الانفصال وحدها، استطاع نابوليون الثالث المجازفة بمغامرته المكسيكية.

وكانت المشكلة السوداء في طريقها إلى الحل في الولايات المتحدة. بقي هؤلاء السكان السود أفقر من أولئك المنحدرين من أصول أوروبية أو آسيوية؛ فعلى الأقل هم كثيرو العدد وفي طريقهم إلى الارتقاء الاجتماعي.

وكانت هناك أقلية أخرى على العكس قد دمرت: ألا وهم "ذوو البشرة الحمراء". ومازال هناك حوالى مليون هندي، المندمجين اليوم، لكن في نهاية القرن التاسع عشر لم يكن عددهم يتجاوز الـ100.000.

ولمَ يكن الأميركيون الهنود، شمال الوادي الكبير (Rio Grande)، من فلاحي الأزدك أو الإنكا، وإنما صيادين بدواً. فاستولى الأميركيون على أراضي صيدهم ليحولوها إلى أراض زراعية، وقضوا على طرائدهم (كان هناك ربما 20 مليون بيسونا حوالى عام 1815، مقابل أقل من مليون عام 1880) وقتلوا القبائل دون وخز من ضمير. وقد ترك توكفيل (Tocqueville)، الذي زار أميركا قبل حرب الانفصال، عن سلوك الأميركيين تجاه الهنود صفحة آسرة في كتابه "الديمقراطية في أميركا" *(Démocratie en Amérique)*:

"أطلق الإسبان كلابهم على الهنود كما لو كانوا حيوانات مفترسة؛ ونهبوا العالم الجديد ومدينة أُخذت عنوة، دون تمييز ولا رحمة، ولكن لا يمكن تدمير كل شيء، والرعب له نهاية : فمن تبقى من السكان الهنود الناجين من المجازر، اختلطوا في النهاية بغالبيهم وتبنّوا دينهم وتقاليدهم.

"أما سلوك أميركيي الولايات المتحدة تجاه السكان الأصليين، فهو على العكس يظهر أخلص الحب للأصول القانونية والشرعية. وتوخياً لأن يبقى الهنود في حالة وحشية، فإنهم لم يتدخلوا أبداً في شؤونهم... وأخذوهم بروح أخوية من أيديهم وقادوهم بأنفسهم إلى الموت خارج بلاد آبائهم.

"ومع أن الإسبان اقترفوا فظائع لا مثيل لها، وجروا على أنفسهم عاراً لا يمحى، فإنهم لم يستطيعوا القضاء على العرق الهندي، ولا حتى منعه من

مشاطرتهم حقوقهم. وحقق أميركيو الولايات المتحدة هذه النتيجة المضاعفة بسهولة خارقة وبهدوء وشرعية وتجرد، دون انتهاك أي من المبادئ الأخلاقية الكبرى في نظر العالم.

"ولا يمكن تدمير البشر إذا احتُرمت قوانين الإنسانية بصورة أفضل!"

وبعد حرب الانفصال، أظهرت الولايات المتحدة توسعها. وفي عام 1867، اشترت إمبراطورية قياصرة ألاسكا، التي كانت إلى ذلك الحين محتلة من الروس. ولنتخيل كيف كانت ستكون الحرب الباردة لو أن الاتحاد السوفياتي امتلك ألاسكا!

وفي عام 1898، وللمرة الثانية، شنّت الولايات المتحدة الحرب على قوة أوروبية. وكانت إسبانيا قد احتفظت من إمبراطوريتها القديمة بكوبا، وبورتوريكو والفلبين. ولم يجد الأميركيون صعوبة في هزيمة هذه المملكة التي كانت آنذاك في حالة انحطاط. ولا تزال بورتوريكو ملكاً لهم. وبقيت الفلبين التي استقلت منذ عام 1946، تحت تأثيرهم. ولم تتخلص منهم سوى كوبا، ولكن واشنطن احتفظت بقاعدة غوانتنامو التي أرسلت إليها أسرى طالبان.

وفي عام 1901، صاغ الرئيس ثيودور روزفلت نظريته التي لا تزال سارية، عن العصا الغليظة، التي ينبغي أن تُستعمل ضد أعداء الولايات المتحدة. وكان الرئيس مونرو، قبل ستين سنة، قد تخلى عن الشعار الشهير "أميركا للأميركيين"، الذي يعني دائماً أن "أميركا اللاتينية لأميركيي الشمال."

وتم في الوقت ذاته توسع صناعي رائع، سهّله وصول المهاجرين ورؤوس الأموال، وشساعة المساحة العذراء ذات المناخ المعتدل وحرية المبادرة.

وفي عام 1869، ربط أول خط حديدي قاري، ألا وهو الغراند باسيفيك رايلويز، نيويورك بسان فرانسيسكو. كان قطب النقل بالسكك الحديدية هو فان دوبيلت (Van de Bilt)، ثم ظهر النفط في تكساس، صانعاً ثروة عائلة روكفيلر وشرعت مصانع الصلب لكارنيجي ومورغان في إنتاج الصلب بوفرة.

وفي حربها على أرباب العمل العدوانيين هؤلاء، تطورت حركة نقابية

وعمالية بفضل مظاهرات اجتماعية دامية. (ومن هنا جاء أصل عيد العمال للفاتح من مايو/أيار). ونشأت نقابات كبيرة، كـ (الاتحاد الأميركي للعمال) (AFL)، وأخيراً توصل أرباب العمل والنقابات إلى اتفاقات كانت دائماً صعبة.

ولم تمنع ضراوة المعارك الاجتماعية لما بعد الانفصال من استيعاب المهاجرين ووطنية-معهودة لدى العمال وأرباب العمل، وعصابات شيكاغو ورجال مال وول ستريت -(Wall Street) جعلت هذا الإدماج ممكناً: "الامتزاج الاجتماعي." وتعتبر الوطنية ميزة أميركية. وحين يصير المرء مواطناً أميركياً فإنه يصير ملتزماً. ويحصل على حقوق، ويقبل أن يخضع لواجبات. ويقسم على الدستور وعلى العلم. وفي المدارس أيضاً، وحتى سن الرابعة عشرة، يعبر كل أميركي صغير عن ولائه لعلم الولايات المتحدة، وللجمهورية التي تمثلها. أمة واحدة أمام الله، مع العدالة والحرية للجميع".

وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت دولة قوية جداً. بيد أنها لم تكن تتدخل إلّا قليلاً في العالم القديم. وعندما نقول إن أميركا "انعزالية"، فلا يمكن أن نقدّر إلى أي مدى هذا صحيح. فأميركا جزيرة -أكثر بكثير من انجلترا التي، يجب أن تستورد أو تصدر. وأميركا جزيرة قارية كبيرة جداً ليست بحاجة إلى العالم الخارجي. وحتى النفط، فإنها تملكه ولا تستورده إلّا لدواع "استراتيجية". وقد يختفي العالم الخارجي دون أن تتأثر أميركا. فهذه الدولة-القارة تكتفي بنفسها. وإضافة إلى ذلك، فهي مأهولة بأناس كان أسلافهم جميعاً، لسبب أو لآخر، قد فروا من القارة العجوز!

ولا يهتم أميركي الميدل ويست بالعالم الرحب. فعندما يريد المثقف الباريسي أن يقيس أهمية فرنسا بعدد الخطوط المخصصة لها في صحف مينيابوليس (Minneapolis)، فإنه يتجاهل أن "الخارج" عموماً وفرنسا خصوصاً، لا تهم بأي حال الأميركي العادي، الذي كان يجهل في زمن حروب الخليج حتى وجود العراق. (وبالعكس ففي عهد الإمبراطورية البريطانية، لم تكن هناك عائلة بريطانية ليس لها قريب في جيش الهند.) وفي الحقيقة، فإن الملحمة الأميركية "داخلية" تماماً : وهي ملحمة غزو الغرب، صورها "الويسترن".

الحملة الاستعمارية

اليابان

منذ الاكتشافات الكبرى للقرن السادس عشر، انطلق الأوروبيون لغزو العالم. وقد روينا المغامرات البرتغالية والإسبانية (التي ساهم فيها بحارة البندقية وجنوة)، ثم الهولنديون والفرنسيون؛ وانتهت المملكة المتحدة بالانتصار على منافسيها-مقابل، وهذا صحيح، استقلال الولايات المتحدة. كان ذلك ذروة الدولة البحرية الانجليزية، "الإمبراطورية البريطانية".

وفي أفريقيا، فضل البويريون (Boers)، والأفريقانيون التخلص من الهيمنة الانجليزية. وغادروا مع عائلاتهم، وعرباتهم وثيرانهم الرأس (Cap)، بين عامي 1834 و1838، وذهبوا ليؤسسوا دولاً حرة في أورانج وترانسفال.

وفي آسيا، استطاعت هولندا أن تحتفظ باندونيسيا.

وفي أميركا، كانت الولايات المتحدة مهيمنة، باستثناء كندا التي ظلت وفية للندن.

وبعد حرب الانفصال، والحرب الفرنسية الألمانية، (أي بعد 1870)، أرادت جميع القوى الأوروبية أن تحضر قسمة العالم -حتى الولايات المتحدة (بورتوريكو، الفلبين وكوبا).

بيد أن الإمبراطورية البريطانية بقيت، والى حد بعيد، أول إمبراطورية استعمارية أوروبية.

كانت الهند قد أصبحت مستعمرة فلاحية مزدهرة، أُعلنت الملكة فيكتوريا إمبراطورة عليها عام 1877، وعاصمتها كلكوتا، ثم نيودلهي، وميناؤها الرئيسي بومباي، المتجه نحو العاصمة. وكانت دولة الهند، التي سماها الانجليز راجيح *(Radjih)*، أكبر حقيقة استعمارية للقرن التاسع عشر. وكانت الثورات فيها نادرة (كانت ثورة السيباي (Cipayes) عام 1857 أولاً تمرداً عسكرياً). كان الانجليز يمارسون الحكم غير المباشر من خلال الأمراء والراجا، وحرصوا أن يظلوا بعيداً عن السكان الأصليين، الذين لم يكونوا يحتكون بهم، خلافاً للبرتغاليين والإسبان - ولكنهم كانوا يجهزون شبه القارة (سكك حديدية، بنى تحتية) لمصلحتهم الكبرى وكانوا يضمنون السلم بمساعدة جيش من السكان الأصليين قوامه 300.000 رجل، يؤطرهم 20.000 انجليزي، ألا وهو "جيش الهند".

وقد حاول البريطانيون أن يحموا شبه القارة (الموحدة للمرة الأولى والأخيرة) بحماية مسيراتها: في الهملايا، والسكيم، والبهوتان، والنيبال، نحو الشرق، برمانيا، نحو الجنوب، ماليزيا. وفشلوا في الاستقرار باستمرار في الغرب، في أفغانستان، التي كانت تطمع فيها أيضاً إمبراطورية القياصرة. وصارت أفغانستان آنذاك فضاء حاجزاً بين الروس والانجليز. وقبالتها، في المناطق القبلية (التي لا تزال موجودة)، كانت هناك حاميات بريطانية قوية تسيطر على الجبال. ويمكن أن نرى، عند عبور مضيق خيبار (Khyber) لوحات مثبتة على الصخور تحمل أسماء فيالق جلالتها.

كان الانشغال الكبير لانجلترا الإمبراطورية هو السيطرة على الطرق البحرية التي تربطها بالهند، من الجنوب، ومنه جاء غزو الرأس (Cap)، أو من الشمال، عبر قناة السويس. وكانت السويس التي شقّها الفرنسيون، وبين أيديهم، تمثل مشكلة للانجليز. وقد تم حل هذه المشكلة بشراء الجزء الأكبر من حصص الشركة، ووضع مصر تحت الوصاية. وأصبحت القاهرة، إذا جاز التعبير، بعد لندن، ثاني عاصمة للإمبراطورية البريطانية. وقد رأينا ذلك جيداً خلال الحرب العالمية الثانية. ولم تنته هذه السيطرة (على مصر والقناة) إلّا عام

1956. ووراء السويس، استقر الانجليز في عدن. ووراء ماليزيا، أسسوا في الصين الوكالة التجارية الغنية في هونغ كونغ. وللسيطرة على مضايق جنوب شرق آسيا، أنشأوا المدينة المرفأ سنغافورة، وهي تعتبر بطريقة ما ثالث عاصمة إمبراطورية.

وفي أفريقيا، امتدت الإمبراطورية البريطانية جنوباً انطلاقاً من مصر، وشمالاً انطلاقاً من الرأس. وأخضعت السودان، بعد الثورة الدامية لمهدي الخرطوم وموت غوردون (1884)، عن طريق حملة كيتشنر (Kitchener)، عام 1898. وانطلاقاً من الرأس، وسّع سيسيل رودس (Cecil Rhodes)، نفوذ انجلترا نحو الشمال، بفكرة ربط الرأس (Cap) بالقاهرة.

وإضافة إلى ذلك، فقد سكن الانجليز كندا (دون أن يتمكنوا من القضاء على الكيبكيين، الشاهدين على الوجود الفرنسي)، واستراليا ونيوزيلندا. وأصبحت هذه البلدان دومينيونات (dominions)، "دول شريكة"، تتمتع بحرياتها الخاصة.

وفي البحر المتوسط، كانت انجلترا تسيطر على جبل طارق، ومالطا، وقبرص (التي غُزيت على يد الأتراك). وفي أفريقيا الغربية، ضمنت مصبات نهر النيجر (نيجيريا).

ولسوء حظ الإمبراطورية، كان الأفريقانيون (Afrecaners) قد استقروا على الطريق من الرأس (Cap) إلى القاهرة، منذ عام 1834، في أورانج وترانسفال. ولم يخش المستوطنون الهولنديون مواجهة الانجليز. وكانت حرب البويريين (Boers)، من عام 1899، إلى عام 1902. وقد حقق البويريون، بقيادة رئيسهم، نجاحات كثيرة ولم يهزمهم كيتشنر إلّا بعد حملة شاقة في نهاية عام 1901. وانتصر الانجليز، ولكنهم كانوا مكرهين في سلام عام 1902، على أن يقدموا تنازلات كبيرة للأفريقانيين. ولاسيما التخلي لهم عن السلطة في الدومينيون الجديد لجنوب أفريقيا-وهو ما أحدث، في القرن التالي، مع "الأبرتايد"، كثيراً من الصراعات. ولكن في عام 1899، كان البويريون

يحظون بالتعاطف العام. وأرعب مغاويرهم "كوماندو" (ومنهم جاءت الكلمة التي انتشرت كثيراً) جيش الاحتلال الانجليزي، وكان يُنظر إليهم على أنهم مدافعون عن الحرية.

كانت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية أبعد من أن تضاهي إمبراطورية انجلترا، ومع ذلك فقد كانت الثانية من حيث الأهمية.

وقد أسست فرنسا، التي استقرت في مدينة الجزائر منذ عام 1830، الجزائر. ولم يكن هناك في شبه جزيرة المغرب، بين الصحراء والمتوسط، منذ القدم، إلا بلدان: في الشرق، أفريقيا الرومانية، أفريقيا العربية، التي أصبحت تونس، وفي الغرب، المغرب المسلم، وهو الذي لم يستطع الأتراك احتلاله.

وقد صدت فرنسا العالم التركي نحو الشرق بالاستيلاء على قسنطينة، ثم العالم العربي-البربري نحو الغرب بوضع يدها على وهران. وكانت الجزائر قد ولدت. وقد ترددت فرنسا طويلاً. وبعد حلم "المملكة العربية " لنابوليون الثالث، جعلت الظروف المتمثلة في نزوح الألزاسيين، ترحيل الكومونيين، الهجرات الطبيعية للإسبان والصقليين، من الجزائر مستعمرة استيطانية. وقد أنشأت فيها جمهورية 4 أيلول/سبتمبر مقاطعات فرنسية. ولكن وإن كانت قد أرادت ونجحت في إدماج الجزائريين ذوي الديانة اليهودية (مرسوم كريميو (Crémieux))، فإنها لم تجرؤ أن تفعل الشيء ذاته مع السكان الأصليين المسلمين. فقد بقوا رعايا ولم يصيروا مواطنين.

وهكذا فإن الجزائر الفرنسية كانت تقوم بشكل كبير على خيال. وكان هناك فعلاً شعب من المواطنين الفرنسيين في الجزائر (مزيج من الفرنسيين والإسبان والمالطيين والإيطاليين واليهود المحليين)، ولكن الشعب المكون من المسلمين لم يُدمج. فهل كان يمكن إدماجه؟ وهل كان حل "المملكة العربية" حلاً واقعياً؟

وفي عام 1881، بالمقابل، طبقت فرنسا بنجاح سياسة الحماية في تونس. وفيما بعد، عام 1912، طورت هذه السياسة بصورة تكاد تكون مطلقة في

المغرب الأقصى: وأراد الجنرال ليوتي (Lyautey)، المقيم العام، أن يكون فيها مثل ريشوليو (Richelieu)، في خدمة السلطان! ومن مراكش إلى القيروان، كان المغرب كله قد صار فرنسياً.

وابتداء من عام 1862، أنشأ الجنرال فايدارب (Faydherbe)، الميناء الاستراتيجي الكبير لداكار، الذي يحكم جنوب الأطلسي، واحتل السنغال، في أفريقيا السوداء. وتولى قادة شجعان بعد ذلك بقليل أمر الاستيلاء على الجزء الأكبر من أفريقيا الغربية. وتولى فرنسي من أصل إيطالي سافورنيان دوبرازا (Savorgnan de Brazza)، (الاستيلاء على أفريقيا الاستوائية. وعلى نهر الكونغو، أسس سافورنيان برازافيل، التي احتفظت باسمه. كان سافورنيان وريث عائلة كبيرة من البندقيَّة من برازا، في دالمسي (كفار (Kvar)، اليوم).

وفي جنوب شرق آسيا، غزت فرنسا، الحاضرة في كوشينشين، منذ الإمبراطورية الثانية، مع الجنرال غاليني (Gallieni)، تونكين وإمبراطورية أنام (Annam)، وفرضت على ممالك لاوس والكمبودج حمايتها وأنشأت "الهند الصينية الفرنسية" (التي جعلت منها زراعة المطاط مستعمرة فلاحية). وضم غاليني ذاته، على طريق الرأس، إلى أملاك فرنسا جزيرة مدغشقر الكبيرة، بعد ترحيل الملكة رانافالونا (Ranavalona). ومن جهة أخرى، احتفظت الجمهورية من الملكية بجزر الأنتيل وريونيون، وفرضت نفسها في المحيط الهادي الجنوبي، في كاليدونيا الجديدة وأوسيانيا (تاهيتي).

ومن الجزائر إلى الكونغو ومن داكار إلى جيبوتي، أحلّت الجمهورية السلام في الصحراء تدريجياً، وأسست ملكاً أفريقياً واسعاً من كتلة واحدة.

والتقى التقدم الفرنسي، من الغرب نحو الشرق في النيل الأعلى، في فاشودا (Fachoda)، الحركة الانجليزية من الشمال إلى الجنوب. وفي 10 يوليو/ تموز 1898، اصطدم القائد مارشاند باللورد كيتشنر. وبأمر من الحكومة، اضطر مارشاند للانسحاب. وكانت انجلترا منذ نابوليون الثالث، قد

انتقلت من وضع الخصم إلى وضع الحليف وأكثر من ذلك، منذ ضم بروسيا الألزاس-اللورين.

وكان لهذه المغامرة الاستعمارية أبطالها وجلادوها : فقد حرر سافورنيان دوبرازا العبيد، وكان يتحدث عن الأخوة، بينما كان ضباط فيلق يسير نحو تشاد، وقد جُن جنونهم، يحرقون القرى ويزرعون الأسى في الساحل. وبعد اغتيالهم العقيد الذي كانت الجمهورية قد أرسلته في أثرهم، قتلهم قناصتهم.

في عام 1900، التقت ثلاثة فيالق فرنسية يقودها فورو (Foureau)، ولامي (Lamy)، وجونتي (Gentil)، والتي انطلقت من مدينة الجزائر، وداكار، وبرازافيل، في بحيرة تشاد. وكانت أفريقيا الغربية الفرنسية (AOF)، وأفريقيا الاستوائية الفرنسية (AEF)، قد أنشئتا. وعلى غرار ما فعلته انجلترا في الهند، جندت فرنسا كثيراً من الأفارقة في كتائبها: كان جزائريون، ومغاربة، وسنغاليون يشكلون وحدات من "القناصة" بقيادة ضباط فرنسيين و"جيشاً أفريقياً" (كما أسس الانجليز "جيش الهند"). وفي عام 1900، أنشئت في باريس المدرسة الكولونيالية لتتولى تكوين حكام المستعمرات. وكان لخريجي المدرسة الكولونيالية المستوى ذاته كخريجي المدرسة الوطنية للإدارة، إضافة إلى روح المغامرة.

في عام 1885، في مؤتمر برلين، تقاسم الأوروبيون القارة الأفريقية. إذ لم يكن الفرنسيون والانجليز وحدهم.

ونصبت منطقة حوض الكونغو الواسع، التي كانت تطمع فيها القوتان الكبريان أيضاً، منطقة حاجزة وأعطيت إلى ملك البلجيك ليوبولد الثاني (Léopold II)، باعتبارها ملكية شخصية. واستغل ليوبولد ثرواتها (عاج، مطاط، نحاس كتانغا، ماس) دون وخز من ضمير، وبعنف شديد جعل البرلمان البلجيكي يتحرك ويحول ملكية الكونغو إلى بلجيكا.

وسار الروس نحو الشرق، مؤسسين ميناء فلاديفوستوك (Vladivostok)، في بحر اليابان. وباتجاه الجنوب الشرقي، احتلوا المناطق الإسلامية في أموداريا،

بما في ذلك بخارى وسمرقند. وأنشأوا بذلك مع الانجليز نوعاً من الحكم الثنائي على بلاد فارس. وفي الجنوب، أكدت إمبراطورية القياصرة سيطرتها على القوقاز المسيحي (أرمينيا، جورجيا) والإسلامي (أذربيجان).

بيد أن ألمانيا، التي دخلت المنافسة متأخرة، إذ كان عليها قبلاً تحقيق وحدتها وهزيمة فرنسا عام 1871-قد ضمت الكامرون والطوغو وناميبيا وخاصة شرق أفريقيا (الذي سوف يصبح فيما بعد تنزانيا).

واحتفظ البرتغاليون في أفريقيا ببقايا مجدهم القديم، في أنغولا وموزنبيق.

وكانت إيطاليا أيضاً تريد أن تكون لها مستعمرات. ولكن الحظ لم يحالفها في ذلك: كانت تريد الاستيلاء على إثيوبيا -الأمة الوحيدة في أفريقيا السوداء التي لا تعود إلى ما قبل التاريخ. ولكن جنود النجاشي مينيليك (Ménélik)، قضوا على الإيطاليين عام 1896 في أدوا (Adoua)، وتشبثت إيطاليا بالحواشي (إريتريا والصومال) وفي نوفمبر/تشرين الثاني 1911، شنت الحرب على تركيا لتنتزع منها (ليبيا)، بعد معارك ضارية.

وفي هذا التاريخ، كان العالم كله محتلاً من الأوروبيين أو الأميركيين : دول أميركا اللاتينية تحت حماية الولايات المتحدة.

أما الصين، التي كانت أكبر من أن تُلتهم، فقد استغلتها القوى، التي أقامت فيها "وكالات" في الموانئ ولم تتورع عن إرسال جنودها، حين شجعت الإمبراطورة تسو -هي (Tseu-hi)، التي أبدت بوادر استقلال، على ثورة سرية للبوكسرز معادية للأجانب عام 1900 (الأيام الخمسة والخمسون لبكين).

وبقيت السلطنة العثمانية، التي كانت لا تزال تمتد من أفريقيا إلى الخليج الفارسي. ولكنها كانت تدعى "الرجل المريض" وكان الأوروبيون يتنازعون السيطرة عليها: مد الألمان السكك الحديدية من القسطنطينية إلى بغداد؛ وكانت فرنسا تحمي مسيحيي لبنان؛ وشن عليها الروس الحرب وحملوا العثمانيين عام 1878 على منح الحكم الذاتي لبلغاريا-التي أعلنت استقلالها عام 1908.

كانت هذه أيضاً فترة الاكتشافات الكبرى في منابع النيل، وعلى وجه

الخصوص، اللقاء في وسط أفريقيا، بين ستانلي وليفنغستون. وفي الأخير، وجد ستانلي المبشر العجوز، الأبيض الوحيد على بعد مسافة ألف كيلومتر؛ ولم يفقد بروده البريطاني، فمد إليه يده قائلاً: "ميستر ليفنغستون، أنا افترض. . . "

وكانت هناك أيضاً حملات في القطبين الشمالي والجنوبي للكشاف النرويجي أموندسن (Amundsen)، عام 1890 و1911.

كما أن أموندسن مات في القطب الجنوبي.

وشيئاً فشيئاً، امتلأت كل الفراغات على الخريطة. وللمرة الأولى في التاريخ، لم تبق بقعة من الكرة الأرضية لم تطأها قدم الإنسان وتحصى وترسم لها خرائط.

بيد أن السيطرة الأوروبية على العالم عرفت استثناء : ألا وهو اليابان. كانت هذه الأمة العجوز الإقطاعية كما قلنا، قد انغلقت على الغرب في القرن السادس عشر. إلا أن إمبراطور اليابان، ميكادو، رأى ذات يوم تحت نوافذه، الأسطول الأميركي للعميد البحري بيري (Peary)، يظهر في مرسى طوكيو (إيدو). كان ذلك عام 1853. وأعيد الإمبراطور الذي كان يملك ولا يحكم، إلى السلطة واضطُر عمدة القصر (الشوغون) أن يستقيل. كان الساموراي قد فهموا الدرس: "إذا لم نكن "عصريين" مثلهم، فسيأكل هؤلاء الكلاب الأوروبيون أكبادنا! "وأعلن الإمبراطور موتسوهيتو (Mutsuhito)، عام 1868، عهد الـ"مايجي" -وتعني حرفياً "الاستبداد المستنير". واتّبع اليابان المدرسة الغربية، واستقبل علماء وتقنيين من كل أنحاء العالم، وتدارك التأخر التقني في عشرين عاماً.

وصار جيش الساموراي جيشاً عصرياً، يجمع بين البطولة التقليدية وأكفأ التجهيزات؛ وكان الأمر ذاته مع البحرية.

وفي عام 1894، ضم اليابان تايوان، ثم في عام 1910، ضم كوريا. وأثناء تقدمه نحو الغرب، اصطدم بالروس الذين كانوا ذاهبين في الاتجاه

المعاكس. وكانت الحرب. وكان الضباط القيصريون المتعجرفون، الذين يحتقرون هؤلاء "السكان الأصليين"يعتقدون أنهم سيقضون بسهولة على اليابانيين. وظهر الأسطول الروسي الكبير للبلطيق، الذي طاف حول العالم، أمام السواحل اليابانية. وفي 28 مايو/أيار 1905، في تسوهيما، تم إغراق "الأرمادة الروسية التي لا تقهر"، للأميرال روجدستفنسكي (Rojdestvenski)، إغراقاً كاملاً. وقد أدخل هذا الحدث المفاجئ (الذي يعلن عن حدث بيرل هاربور) الأرخبيل إلى محفل القوى العظمى.

واليابان هو المثال الوحيد، في تلك الفترة، لبلد من العالم الثالث استطاع أن يصير حديثاً. (رغم انتصاره على الإيطاليين، لم يستطع النجاشي تحديث إثيوبيا). ومحرك هذا التحديث الأصلي واضح: ألا وهو الروح الوطنية. كان يابان الساموراي، الإقطاعي، الفوضوي، أمة حقيقية، موحدة وأبية. وكانت الوطنية هي الرافعة التي مكنت اليابان من دخول العالم الحديث-في السراء والضراء معاً.

ما الذي يمكن أن نفكر به، وما عسانا نقول عن المغامرة الاستعمارية؟

أولاً، تفادي المغالطة التاريخية : كان أوروبيو ذلك الزمن حسني النية، كما يبيّنه الخطاب الشهير لجوريس (Jaurès)، عن واجبات الشعوب المتفوقة تجاه الأعراق الدنيا. ولم يكن هذا الطموح السخي مجرد أمنية تقية ورعة. فقد افتتحت فرنسا المستوصفات، وأنشأت معهد باستور، وأرسلت الأطباء ومنهم لويس فردينانـد سيلين (Louis-Ferdinand Céline)، وكذلك المهندسين والمعلمين. وإلى جانب اللصوص العتاة، كان هناك أيضاً القديسون-ومنهم كثير من المبشرين الكاثوليك والبروتستانت، الذين نشروا بنجاح المسيحية في فيتنام وأفريقيا السوداء. والى جانب المحتلّين عديمي الضمائر، كان هناك "متعاونون" مخلصون و(commandant de cercle)، استثنائيون. وفي انجلترا، كان كيبلينغ (Kipling)، يعظم "حمل الرجل الأبيض". كان للاستعمار جانب يمكن وصفه بالـ"كوشنري" : مدافع عن حقوق الإنسان"يساري". ونجد في خطاب جوريس

الحجج التي نجدها عند كوشنير والتي تنادي بـ"حق التدخل". والأطباء الفرنسيون هم الأبناء الروحيون لفيري (Ferry)، وجوريس.

ولم يكن هذا الكرم مجرد حجة. ففي جميع الأمم (باستثناء انجلترا الهند)، كلّف الاستعمار أكثر مما أنتجه.

ولم يكن الدافع الحقيقي للاستعمار لا إنسانياً ولا اقتصادياً (رغم أزمة سنوات 1880 التي دفعت البلدان إلى تأمين أسواق وراء البحر)؛ وإنما كان يكمن في منافسة القوى في ما بينها، وفي إرادة عدم ترك مكان للآخرين (أزمات فاشودا (Fachoda)، بين الفرنسيين والانجليز، وأزمة أغادير بين الفرنسيين والألمان).

هل كان لا مفرَّ من الاستعمار؟ يمكن التفكير في ذلك. وقد نوهنا من قبل بأن الحداثة شبيهة بالوباء. ولم يكن عالم "ما قبل التاريخ" لأفريقيا ليصمد أمام أي اتصال بسيط. وقد كانت العوالم الإقطاعية (عربي إسلامي، تركي، الخ.) أوفر حظاً - ومثال اليابان يؤكد ذلك. ويبدو أن اليابان وحده هو من اغتنم هذه الفرصة.

هل حمل الاستعمار الخير أم الشر؟

هذا يتوقف على الظروف. ولا شك أن الاستعمار قد دمَّر جميع الهياكل والمؤسسات التقليدية للعالم.

ولنذكر بأننا نتحدث عن "الاستعمار" فقط حين تكون الشعوب المتنازعة لا تشغل المكانة ذاتها في السلم الزمني. وهذا هو مفهوم "التفاوت الزمني" (الذي يساعدنا في شرح النجاح الساحق للإسبان أمام الإنكا). وعندما كان نابوليون يحارب ملوك أوروبا فهو كان غازياً وليس مستعمراً (وهو ما كان في مصر). وقد هزم نابوليون بعبقريته الإستراتيجية جيوشاً متطورة مثل جيشه.

وعلى العكس، ففي المعركة الاستعمارية، هناك قرون من التفاوت الزمني بين جيش الغزو وجنود البلدان المغزوة. ولم تكن شجاعة المماليك أو المقاتلين الزولو لتفعل شيئاً. وهذا هو سبب فقر المغامرة الاستعمارية في

الحروب الحقيقية. والحقيقة أنه لم تكن هناك سوى حربين: حرب البويريين، لأن الأفريقانيين كانوا أوروبيين، والحرب الروسية اليابانية، لأن اليابانيين كانوا قد صاروا كذلك.

ولنذكر أيضاً بأنه، في مفهوم الإمبراطورية (حتى الاستعمارية)، هناك فكرة تبادل. تأخذ الإمبراطورية أكثر طبعاً، لكنها تدّعي أنها تجلب شيئاً وفعلاً، فهي تجلبه: السلام، التجهيز. والإمبراطورية شيء آخر غير الهيمنة: والهيمنة ليس لها واجبات، أما الإمبراطورية فبلى.

وعلى كل حال، فمن الممكن التمييز بين نوعين من الاستعمار: استعمار كوادر واستعمار تعمير.

فاستعمار الكوادر يؤطر البلدان المغزوة بقليل من الموظفين من البلد الأم. وقد حكم الانجليز شبه القارة الهندية ومئات الملايين من الأنديجان -سكانها الأصليين- (ومصطلح "أنديجان" لا يحمل أي مدلول سلبي: فالانجليز أنديجان انجلترا) بـ100.000 مستوطن، موظفين، وضباط وتجار. وحين يتوقف الاستعمار، تعود كوادره إلى البلد الأم.

ولا يترك هذا الاستعمار للمستعمَرين عموماً ذكريات غاية في السوء. فالهنود (على الأقل القادة) هم بريطانيون دائماً. وكان السنغاليون يعتبرون أنفسهم "الفرنسيين الأفارقة".

أما استعمار الاستيطان فيجعل سكاناً أوروبيين كثراً يستقرون وراء البحر، وبشكل نهائي.

وبهذا المعنى، فالصهيونية، التي اخترعها ثيودور هرتزل (Théodore Hertzel)، عام 1896 ليمنح ملجأ لليهود المضطهدين، تندرج ضمن هذا السياق. حتى وإن كانت هذه الحركة، في حالة فلسطين، تعتبر نفسها "عودة" وليس غزواً. وسنعود للحديث عن هذا لاحقاً.

والاستعمار الاستيطاني الذي يجمع شعبين جنباً إلى جنب، يصل أحياناً إلى طرد أحدهما: ألا وهو شعب الأنديجان. وبالفعل، فقد نهب الأميركيون

القبائل الهندية والاستراليون السكان الأصليين، والنيوزيلنديون الماوريين؛ وفي هذه الحالة، لا مشكلة للأوروبيين. أو استعمار المستوطنين وهو، كما سنراه، ما سوف يحدث في الجزائر: سوف يطرد الأنديجان المسلمون المستوطنين من هذا البلد الذي كانوا يعيشون فيه منذ قرن.

بيد أن الاتفاق ليس مستحيلا. ففي كاليدونيا الجديدة، يتعايش الأوروبيون والكاناك، في ظل حماية الوصاية الفرنسية. وفي جنوب أفريقيا، يبدو الأفريقانيون والسود، وهذه المرة دون تدخل خارجي، مصرين على العيش معاً.

العصر الجميل

بعد مأساة الكومونة في فرنسا، عُين المنتصر عليها أدولف تيير رئيساً للسلطة التنفيذية. وحصل من بسمارك على الجلاء عن البلد ابتداء من عام 1873 (باستثناء الألزاس- اللورين) نظير تعويض عن الحرب. وبعد رحيل البروسيين، خلفه ماكماهون.

وهكذا، دفعت الهزيمة والكومونة إلى أقصى اليمين الجمهورية التي ولدت من انتفاضة يسارية يوم 4 سبتمبر/ أيلول 1870، -وهو ما لا يتناقض مع دستور1875، الذي تم التصويت عليه بأغلبية ضعيفة، والتي كان يمكن أن يوافق على ملكية دستورية.

وفشل الإصلاح الملكي بعد تعنت كونت شامبور (Chambord)، الذي لم يكن يريد الاحتفاظ بالراية ثلاثية الألوان. وستستمر الجمهورية الثالثة حتى عام 1940.

وفي مايو/أيار 1877، حوّل الجمهوريون الذين فازوا في الانتخابات التشريعية، النظام يسارياً. وبعد أن دُفع ماكماهون إلى الاستقالة، وجدت السلطة الحقيقية نفسها مقسمة بين المجلس الوطني وما كان يطلق عليه آنذاك رئيس المجلس، ولم يكن لرئيس الجمهورية إلا دور فخريّ.

وقد عرفت "جمهورية جول" هذه (وقد سميت كذلك لأن كثيراً من وزرائها كانوا يحملون اسم جول، وأشهرهم جول فيري (Jules Ferry)) أزمات، ولكن عملها كان كبيراً. وأشهر وأخطر أزمة هي أزمة قضية دريفوس (Dreyfus).

لكن قبلها، كان المواطنون قد جربوا إغراءات بونابارتية: جسدها جنرال وسيم، الجنرال بولونجي (Boulanger)، (وزير الحرب عام 1884). وقد كان منتصراً في انتخابات يناير/كانون الثاني 1889، بيد أنه لم يجرؤ على السير نحو الإليزيه، فتملكه الخوف، وفرَّ إلى بلجيكا وهناك انتحر عام 1891.

وكانت قضية دريفوس جدية بصورة مغايرة. وقد اتُهم النقيب دريفوس وهو من عائلة يهودية ألزاسية، بسبب تشابه بسيط في الكتابة، بأنه أفشى أسراراً هامةً لملحق عسكري ألماني. وكان النقيب يعمل في المكتب الثاني لقيادة هيئة الأركان واعتقل وحوكم بسرعة فائقة من قبل مجلس حرب، وأُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة في غويان (أكتوبر-ديسمبر1894). وافتضحت "القضية" عام 1896 عندما بدأت شكوك بأن الجاني لم يكن دريفوس، وإنما ضابط آخر يدعى استرهازي (Esterhazy). ولأن هيئة الأركان رفضت أن تعود عن حكمها وبرّأت ساحة استرهازي، فقد تحرك المثقفون الفرنسيون لتحرير دريفوس. وفي عام 1898، كتب إميل زولا في لورور (L'Aurore)، افتتاحيته الشهيرة: "أنا اتهم". وروجعت القضية عام 1899 وبرئ النقيب الألزاسي الذي أعيدت له جميع حقوقه عام 1906.

صحيح أن دريفوس كان ضحية مدّ عنيف لمعاداة اليهود، كما كان شائعاً في أوروبا. وفي روسيا، كانت فترة "ذبح اليهود". وبعد هذه القضية، خطرت لهرتزل فكرة ضرورة إنشاء ملجأ في فلسطين للإسرائيليين. ولكن كان هناك "دريفوسيون"، مؤيدين لمراجعة قضية دريفوس، في اليمين (والد ديغول، ليوتي Lyauty) وفي اليسار (بيغي Péguy، زولا Zola،).

وأولئك الذين يهتفون اليوم "القضية" هي قضية سحر (ومعاداة يهود) ضد

فرنسا ينسون أن المثقفين الفرنسيين، والمحكمة والجيش والرأي العام قد أنصفوا دريفوس! أي بلد آخر، في تلك الفترة، كان يمكن فيه أن يعلن خطأ المصلحة العليا؟

ورغم الأزمات، فقد كانت أعمال "جمهورية جول " كثيرة. ويعود العمل الأول والأشهر إلى جول فيري، الذي أمر عام 1881 بالتصويت على قانون يجعل من التعليم العام إجبارياً حتى سن الرابعة عشرة. كانت تلك سابقة في العالم. وكان رجال الدرك يأتون للبحث عن المتراخين. وكانت كل بلدية مجبرة على أن تبني مدرسة (جانب للذكور وآخر للإناث-ولم يكن الاختلاط موجوداً). وفي الوقت ذاته، فتحت الدولة في كل مقاطعة دار معلمين لتكوين مدرّسين (ومدرّسات). كان هؤلاء المدرّسون، الذين يسميهم بيغي "هواصر الجمهورية السود"، يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة والحساب والعلوم الطبيعية، وكذلك المدنية وحب الوطن. وفي شارع أولم، في باريس، أنشئت دار المعلمين العليا لتكوين معلمين ومعلمات. وأصبح الفرنسيون شعباً متعلماً كله. وكانت الصحف اليومية تسحب آنذاك حوالى مليون أو مليوني نسخة (مقابل 200 إلى 300.000 في الوقت الحاضر).

وقد جعلت الجمهورية الثالثة من المارسييز نشيداً وطنياً، ومن 14يوليو/ تموز، العيد الوطني. واتخذت الدولة من وجه "ماريان" رمزاً لها.

وفي عام 1901، تم التصويت على القانون الأساسي (وهو لا يزال سارياً)، الذي اعترف بحرية المواطنين التامة في إنشاء الجمعيات. ويكفي أن يكون هناك رئيس، وأمين سر، وأمين خزانة، وإيداع الأنظمة الأساسية وموضوع الجمعية لدى المحافظة. ولا تزال هناك، آلاف الجمعيات في فرنسا.

وفي المجلس، أصبح للبلد قاعدته السياسية : يمينان (يمين ليبرالي ويمين بونابرتي)، ويساران (يسار ليبرالي ويسار متسلط).

كما عرفت الجمهورية كيف تسهل الترقية الاجتماعية وتوظف مستخدمين تنفيذيين جداً: كان معلم القرية يكتشف التلميذ النجيب ويرسله إلى المدرسة

الداخلية في المحافظة؛ وإن كان موهوباً، كان "يصعد" إلى باريس لينظم إلى المدارس الكبرى.

بيد أن الجمهورية المستندة إلى الطبقة الوسطى الصغيرة في المدن والأرياف، لم يكن لها بعد النظر ذاته على الصعيد الاجتماعي.

وكانت قد رخصت للنقابات العمالية عام 1884، ولكنها استهانت ببؤس ظروف العمال. وكان التصنيع عنيفاً. وكان قمع الكومونة قد ترك للعمال ذكريات سيئة؛ وبالمثل، فقد كان الجمهوريون يخشون المنفّطات. كما كانت الأممية الثانية التي أنشئت عام 1889، أكثر مطلبية بكثير من الأولى، وكان الهياج العمالي مستمراً. وأسس الكنفدرالية العامة للعمل (CGT)، عام 1895 (وحزب العمال الانجليزي عام 1901)، قبل وقت قليل من (SFIO)، جان جوريس (1905)، وتعني الفرع الفرنسي للأممية العمالية.

وأصبحت الماركسية موضة ثقافية مزعجة، وكانت الإضرابات كثيرة. وللمفارقة، فقد ظهر البابا ليون الثالث عشر آنذاك في رسالته البابوية *(Rerum novarum)*، أكثر انفتاحاً على المسألة العمالية مما كان عليه الجمهوريون. بيد أن ليون الثالث عشر أوصى الكاثوليك بالانضمام إلى السلطة والتخلي عن أوهامهم الملكية: كانت تلك تعليمة "الانضمام".

ورغم ذلك، طغى الصراع بين الكنيسة والجمهورية على فترة كان فيها "أنصار المؤسسة الدينية" و"مناهضوها" يتواجهون بسهولة.

وفي عام 1905، تم التصويت على قانون "فصل الكنيسة عن الدولة" الشهير. ومنذ هنري الرابع، لم تعد المواطنة في فرنسا مرتبطة بالدين، ولكن ميثاق نابوليون (عمل شرعي، لكنه ظرفي) استمر في ضمان وضع خاص للكنيسة الكاثوليكية (كان كهنتُها يتقاضون رواتبهم من الدولة). وقد وضع الفصل حداً لذلك. وأخيراً انتصرت الكنيسة.

كانت جميع العقائد في فرنسا، وحتى الإلحاد، مباحة، وهو ما يسمى "اللائكية". ولا يعني هذا أن الدولة ليس لها أي صلة بالأديان، إذ كان وزير

الداخلية مجبراً على أن يناقش مع الأديان القضايا العملية التي تثيرها الممارسة الحرة.

بيد أن هذا الإصلاح قد فرض بطريقة مفرطة في العنف. وحظرت الرهبانيات وأُعدت "عمليات جرد" لأملاك الكنيسة، وصارت المباني الدينية التي شيدت قبل 1905، فعلاً ملكاً للدولة. ولكن المعتدلين في الجمهورية وفي الكنيسة نجحوا في تفادي الصدامات المباشرة. وتم التخلي عن "عمليات الجر".

وتعتبر اللائكية الفرنسية التي هي فكرة عبقرية، معزولة في أوروبا تبقى فيها ملكة انجلترا رئيسة الكنيسة الأنجليكانية وحيث الألمان يدفعون ضرائب "دينية"، كالإيطاليين والإسبان والبولونيين. والواقع أن كثيراً من الدول ليس لها دين رسمي، وهو حال الولايات المتحدة. ولكن فرنسا فقط (والمكسيك) محايدة تماماً ولا تبدي أي إشارة اعتراف بدين معين. ولاسيما أنه لم يكن هناك سوى القليل من الدول التي تحمي الملحدين.

كان الزمن الجميل أيضاً هو زمن الثورة الصناعية الثانية. وكانت الثورة الأولى، التي سيطرت عليها انجلترا هي ثورة الفحم، وسكك الحديد، والصلب. وكانت الثانية ثورة الكهرباء، التي صار بالإمكان نقلها آنذاك. ولأن الكهرباء ليست طاقة وإنما طريقة ملائمة لنقل الطاقة، فكان لا بد دائماً أن يوافق الإنتاج، في آنه، الطلب. كان هناك أيضاً تعميم استعمال النفط، بطريقة أسهل بكثير من الفحم. ومن النفط سوف يُخترع عام 1883، محرك الاحتراق الداخلي.

وسوف يسمح محرك الاحتراق الداخلي بوجود السيارة والطيران. وكانت الحسابات التقنية قد أجريت منذ زمن طويل، ولكن كان ينقص ليوناردو دافنتشي من قبل محرك قوي وخفيف جداً ليحرك آلاته.

كانت الولايات المتحدة وفرنسا البلدين البارزين في الثورة الصناعية الثانية. وفي 1903، طيّر الأخوان رايت، في أميركا أول طائرة (وقد سماها كذلك

الفرنسي كليمون آدر (Clément Ader)، ولكن فرنسا كانت موطن الطيران: وفي عام 1909، عبر بليريو (Blériot)، المانش وفي عام 1913، عبر رولان غاروس (Roland Garros) البحر المتوسط.

وانتشرت السيارة في كل مكان. وتخيل الأميركي إديسون (Edison)، مكبر الصوت والفونوغراف. وكان نيبس (Niepce)، وداغير (Daguerre)، قد اخترعا التصوير وعرض الأخوان لوميير (frères Lumière)، أول أفلامهما (ومنها "الرجل الذي وقع في شر عمله" *(L'arroseur arrosé)*) عام 1895.

وفي عام 1898، وضح بيار وماري كوري الإشعاع وابتداء من عام 1905، صاغ اينشتاين نظرية "النسبية العامة" (في ألمانيا وسويسرا). ودشن فرويد في فيينا أولى علاجات التحليل النفسي ابتداء من عام 1895. ووضع ادوارد برانلي (Edouard Branly)، البرق اللاسلكي (TSF). وبدأ عصر الراديو.

وللاحتفاء بطريقة لائقة بمئوية الثورة، نظمت الجمهورية في باريس، عام 1889، معرضاً عالمياً شيد لأجله المهندس إيفل برجاً (كان يفترض أنه مؤقت) على الشان دومارس (Champ-de-Mars). ودعي جميع عمداء فرنسا إلى مأدبة كبيرة في حديقة التويلري.

ومن جهة أخرى، وفي هذه الفترة، كان عبور الحدود يتم بسهولة دون جوازات سفر ("جولة حول العالم في ثمانين يوماً" لجول فيرن). وكانت نهاية القرن التاسع عشر هاته أكثر "عولمة" بكثير مما نحن فيه اليوم. وكانت هناك جوازات سفر أقل، وتجارة دولية وهجرات أكثر.

بيد أن فرنسا، التي تجاوزتها انجلترا في الهيمنة وأصبحت تهددها ألمانيا، قد لمعت أيّما لمعان.

وفي حانات حي مونتبارناس في باريس كان يجلس كبار الرسامين: كورو، ماني، بيكاسو، دوغاس، سورات، تولوز-لوتراك، فان غوغ، سيزان، الانطباعيون، التكعيبيون والمتوحشون... وكان ذلك بمثابة انفجار الفن التصويري الذي لا يمكن مقارنته إلّا بانفجار النهضة الإيطالية.

وقد رأينا في الأدب زولا وبيغي بشأن قضية دريفوس، ولكن العباقرة أمثال بروست (Proust)، (بدأ "البحث عن الزمن الضائع" *(La Recherche du temps perdu)*، في الصدور عام 1913)، وجيد (Gide)، (الذي نشر "الأغذية الأرضية" *(Les Nourriture terrestres)*، عام 1897)، وكبار الشعراء-ريمبو (Rimbaud)، فارلين (Verlaine)، وويلهلم أبوليناريس دو كوستروفيتسكي (Wilhlem Apollinaris de Kostrowitzky)، (الذي أخذ اسم غيوم أبولينار (Guillaume Apollinaire)، كانوا يزينون الآداب الفرنسية في ظل الأسلاف الكبار في الإمبراطورية الثانية. وكان بودلير، وفلوبير قد ماتا منذ وقت قريب.

وقد تم بلوغ قمة الطقوس الجمهورية خلال المراسم الجنائزية الوطنية لفيكتور هيغو-العائد من منفاه مع الجمهورية - في مدفن العظماء عام 1885. (وهو الدفن الذي لطالما سمع عنه أحد مؤلفي هذا الكتاب من جدِّه Théodule-Ladislas-Albert Barreau)، الذي كان قد شهده في العشرين من عمره).

ولهذا السبب فإن هذه الفترة، رغم البؤس العمالي، توصف بشكل مشروع بالجميلة، إذ إن الناس كانوا آنذاك يؤمنون بالتقدم: "تقف البشرية، وتترنح مجدداً، وجبينها يسبح في الظل، وتذهب نحو الفجر." والسعادة تتأتى من الأمل، أكثر بكثير مما تتأتى من المال. وزمننا أغنى بكثير، مادياً، ولكن الشباب، المدللين أكثر هم أقل أملاً!

كما أنها كانت فترة سلام. وقد كانت حرب السبعين عاماً حرباً قصيرة وحرب الانفصال بعيدة. أما الحملات الاستعمارية، فكانت تمجد بسيكاري (Psichari)، وكانت مساوئها (قمع ومجازر) مجهولة. ومن جديد، كان الناس يعتبرون الحرب "متجاوزة". وفي عام 1911، كتب نورمان أونجيل (Norman Angell)، وهو كاتب مقالات انجليزي: "الحرب بين بريطانيا العظمى وألمانيا مستحيلة، إذ إنها لو حدثت فسوف تنهار بورصات لندن وبرلين..." بيد أن تهديدات كانت تحوم على القرن.

وقد انهارت إمبراطورية النمسا. وفي عام 1867، كان فرانسوا- جوزيف

مضطراً لمنح حكم ذاتي واسع لهنغاريا. وسوف يتم الحديث فيما بعد عن "النمسا-هنغاريا". ولكن التشيكيين والكروات كانوا ثائرين. ورغم هذا، فقد احتل الهابسبورغ عام 1878، البوسنة التي انتزعوها من السلطنة العثمانية، والتي كان يسكنها كثير من الصرب (الذين كانوا يحلمون بالانضمام إلى صربيا الصغرى المستقلة)، وضموها عام 1908. وأصبحت مطالب سلافيي الجنوب أعنف وأعنف، وصارت لهم طبيعة إرهابية.

وكانت الجزر البريطانية ذاتها ممزقة بالوطنية الايرلندية. ففي ايرلندا، كان شين فاين (Sinn Fein)، ("نحن وحدنا") آرثر غريفيث، يطالب بحكم داخلي، رفضه واستمنستر، رغم رئيس الوزراء غلادستون (Gladstone)، في عامي 1886 و1892. وقد أدى هذا الانسداد إلى تمرد دامٍ ضد الانجليز في عيد القيامة عام 1916 (في عز الحرب).

ولكن أكبر تهديد كان مصدره التوسع الألماني.

وكانت ألمانيا، الموحدة والمصنعة، بسكانها الـ67 مليوناً، قد أصبحت أول قوة اقتصادية أوروبية. وكانت تبحث لها عن مكان تحت الشمس. وفي عام 1890، طرد القيصر بسمارك. وانزوى هذا الأخير في بوميرانيا (Poméranie)، منتقداً الامبراطور بمرارة، ومات عام 1898.

ولم يكن غيوم الثاني، حفيد غيوم الأول (حكم منذ 1888)، في قامة جدّه. ورغم وجود صناعة رائعة، لم تحصل ألمانيا إلّا على الفتات من الوليمة الاستعمارية. فقد تنازل لها الفرنسيون عن الألزاس- اللورين، ودخل غيوم في صراع مع القيصر، حليفه التقليدي. وبالمقابل، فقد كانت ألمانيا تمارس نوعاً من الوصاية على النمسا-هنغاريا وتركيا؛ ولكن الأمر كان يتعلق بإمبراطوريات تترنح.

وكان جيشها، الأقوى في العالم، من القوة بمكان حتى أن غيوم الثاني، الذي كان قليل الذكاء، كان يشعر بأنه لا يُقهر.

وللتخلص من فرنسا إلى الأبد، كانت هيئة الأركان الألمانية الكبرى قد

صممت مخططاً، مخطط شليفان (Schlieffen)، كان ينوي أن يرتد على الجيش الفرنسي من الخلف بخرق حياد بلجيكا.

وكان هذا المخطط، الذي لا يمكن تفاديه استراتيجياً، والذي أعاده مولتك ((Moltke، الذي خلف شليفان عام 1906 -مخططاً أخرق سياسياً، حتى أنه كان واضحاً أن بريطانيا العظمى، التي كانت قد أسست بلجيكا للحفاظ على أنفرس (Anvers)، لن تقبل أبداً بأن يحتل هذا البلد جيش قاري. وكان هذا أيضاً هو السبب الرئيسي لمعارضتها الشرسة لنابوليون. ولم تستطع ألمانيا، رغم منشآتها البحرية الحديثة،، أن تتصدى لأسطول أعالي البحار الانجليزي. وإضافة إلى ذلك، فقد كان غيوم الثاني، الذي احتجزه مولتك، مقتنعاً بأن الرايخ سوف يسحق فرنسا في بضعة أسابيع، كما حدث عام 1870.

وكانت فرنسا قد تغيرت منذ الإمبراطورية الثانية. ولأنَّ جيشها كان جيش تجنيد، فقد كانت تعوض بمدة الخدمة العسكرية (ثلاث سنوات) نقص عدد سكانها (39 مليوناً). ونظراً للمالتوسية الديمغرافية، كانت فرنسا، وهي البلد الأكثر سكاناً في أوروبا عام 1815، قد أصبحت القوة الأقل سكاناً، وتجاوزتها كل من ألمانيا، وروسيا وانجلترا. وكانت هي أيضاً فرنسا المعلمين الوطنيين التي كانت تأمل، من خلال "الثأر"، في استرجاع الألزاس-اللورين.

وقد أيّد غيوم الثاني ومولتك (Moltke) في فكرتهما بشأن "الحرب الخاطفة" النصر السريع لليونانيين، والصرب، والبلغار على العثمانيين عام 1913. وطردت معاهدة لندن في العام ذاته العثمانيين من أوروبا باستثناء القسطنطينية. ولم يرُق ذلك للألمان المتحالفين مع السلطنة العثمانية: فشجعوا البلغار الساخطين على المعاهدة، على الارتداد على حلفائهم. وهُزمت بلغاريا، وسمحت هذه الحرب للعثمانيين باسترجاع أدرنة ولألمانيا بالتجذر أكثر في السلطنة العثمانية.

وفي 28 يونيو/حزيران 1914، اغتيل أرشيدوق النمسا وزوجته في البوسنة، في سراييفو، على يد شاب وطني من صرب البوسنة. ولم يكن

للحكومة الصربية يد في ذلك على الأرجح، ولكن النمسا-هنغاريا اقتنصت الفرصة للقضاء على النزعة السلافية التي كانت تهدد صلابة الإمبراطورية.

وأعطت حكومة فيينا حكومة بلغراد إنذاراً أخيراً، يوم 23 يوليو/تموز، يحتوي على بند غير مقبول (مشاركة النمسا في التحقيق الجاري في صربيا). وبعد رفضه، أعلنت النمسا الحرب على صربيا في 28 يوليو/تموز.

وكان يمكن لهذا أن يبقى صراعاً بلقانياً محلياً لولا عدم إدراك غيوم الثاني وهيئة أركانه الكبرى، المقتنعين بأن عليهم استغلال الظروف للقضاء على فرنسا. وكانوا يعتقدون أن فرنسا ستكون معزولة كما حدث عام 1870.

وقد رأينا أن فرنسا، منذ نابوليون الثالث، كانت قد غيرت عدوها الوراثي. ولقلقهما من التوسع الجرماني، كانت انجلترا وفرنسا قد تقاربتا في "الوفاق القلبي "منذ عام 1904. وإضافة إلى ذلك، فإن إمبراطورية القياصرة، الحامية الطبيعية للأرثوذكسية، لم تكن تستطيع إغفال مصير صربيا.

وفي 29 يوليو /تموز، تجندت روسيا، مؤدية إلى التجند المنظم جداً للجيش الألماني القوي والحديث في الفاتح من أغسطس/آب. وعلى سبيل الاحتياط، تجندت فرنسا أيضاً. وفي 3 أغسطس/آب، تلقت إعلان حرب من ألمانيا. وبما أن برلين كانت قد خرقت-تطبيقاً لمخطط شليفان-حياد بلجيكا، فقد ردت بريطانيا العظمى بإعلان الحرب على ألمانيا، وهو ما فاجأ غيوم الثاني كثيراً. . .

كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت، وقد فجَّرها انعدام مسؤولية غيوم الثاني ومولتك وغرورهما.

وسوف تكون هذه نهاية القرن التاسع عشر. مغامرة مروعة تبددت فيها الآمال السلمية. ولم يمنع اغتيال الاشتراكي جان جوريس في 31 يوليو/تموز، عشية الصراع، العمال الفرنسيين من قبول التعبئة بحماسة، رغم أوهام الأممية. وفعل العمال الألمان الشيء ذاته. ونحن الذين نعرف حجم المجزرة، نستطيع الحكم على هذا التصرف بالسخف. ولكن، هل كان أمام الجمهورية أي خيار؟

ولو أن فرنسا كانت قد منيت بهزيمة ثانية خلال خمسين سنة، لكانت قد شطبت من خارطة العالم. ولو أن رجل دولة بحنكة بسمارك كان قد تمادى في رغبته في ضم الألزاس-اللورين، فيمكننا أن نقدّر المصاعب التي كان سيواجهها القزمان السياسيان غيوم الثاني ومولتك.

الحرب الكبرى

كانت الحرب أوروبية أساساً: فكان هناك من جانب، فرنسا وانجلترا، والتحقت بهما إيطاليا عام 1915؛ ومن الجانب الآخر، ألمانيا وأتباعها النمساويين، والعثمانيين والبلغار، الذين نشأ بينهم ارتباط بعد السحق الدامي لصربيا. وهكذا أنشأت "الإمبراطوريات المركزية" خطاً قطرياً من بحر البلطيق/ الخليج الفارسي، يتضمن الشرق الأوسط ويفصل الغربيين، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، عن حليفهم الروسي.

ولم تكن للحرب انعكاسات في أماكن أخرى إلّا بسبب المستعمرات الألمانية (التي احتلها الغربيون بسرعة، باستثناء الدولة الأفريقية التي قاتل فيها الجنرال الألماني فون لوتوو (von Lettow)، حتى بعد الهدنة) وبسبب المشاركة المتأخرة للولايات المتحدة.

لذا فإننا نفضل تسميتها بـ"الحرب الكبرى" بدل "الحرب العالمية الأولى"؛ والحقيقة أن العديد من البلدان- اليابان، أميركا اللاتينية، كانت مجرد متنازعين افتراضيين. كما أن العبارة التي صارت موضة اليوم، ألا وهي "الحرب الأهلية الأوروبية" عبارة خاطئة أيضاً. فالحرب الأهلية، وهي أبشع أشكال الحرب، يتواجه فيها أناس من الطائفة ذاتها؛ وتحول بين الآباء والأبناء، وتفرق بين الإخوة. وتكون فيها الكراهية شخصية.

ولم يكن أوروبيو 1914 ينتمون بأي حال إلى مجتمع واحد، وإنما إلى أمم تفرقها اللغة والعادات والأفكار. وكان الحقد جماعياً. ولم يكن الجندي

يكره عدواً بعينه، وكانت "قوانين الحرب" مقبولة عموماً (الجرحى، الأسرى، الصليب الأحمر، الخ).

وبالمقابل، كانت حرب 14، "كبيرة"-ولنقل "فظيعة"-بعنفها. وكانت ضرباً من الصراع أعلنت عنه حرب الانفصال، ولكن لم يُر مثله في أوروبا: حرب الجماهير، على المستوى الصناعي. وكان التجنيد قد قام في كل مكان، حتى في انجلترا. وأدت المدفعية الثقيلة إلى مذابح. واختفى إلى الأبد سلاح الفرسان الذي جرفته الأسلحة النارية السريعة.

وظلت الحرب هي نفسها، منذ الحروب الوثنية وحتى حروب نابوليون (رغم الأسلحة النارية). ولم تكن هناك جبهة. وكان الجنود يسيرون طويلاً، ونادراً ما يتقاتلون. وكانت المعركة القاتلة (عشرات الآلاف من القتلى) تدوم من شروق الشمس إلى غروبها (واترلو)، وفي حالات استثنائية تدوم يومين أو ثلاثة أيام. وكانت تدور على ظهور الخيل أو على الأقدام، رافعة ألوية الحرب، وعلى وقع طبول الحرب. وكان باستطاعة القائد العام متابعة مجرياتها بنظره. ولا علاقة لهذا بمعارك الحرب الكبرى المروعة، التي شُنت تحت مدافع عدو غير مرئي، طيلة شهور، وسط الوحل والرعب!

وما من أحد وصف أجواء حرب الـ 14 أفضل من موريس جونوفوا (Maurice Genevoix)، في دفاتره اليومية. ففي أغسطس/ آب 1914، كان جونوفوا يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. وكان قد نجح للتو في المسابقة العليا للآداب. حين كان طالباً في دار المعلمين العليا بشارع أولم، وكان يستعد للذهاب في عطلة عندما جُند ضابطاً (كأي طالب في دار المعلمين، كان قد أدى الخدمة الوطنية، وعلى غرار معظمهم، في مدرسة ضباط الاحتياط). وهكذا وجد نفسه فجأة ملازماً على رأس فصيل من المواطنين (عمال، فلاحون) مجندين مثله. وكانت الشعبة المجاورة تحت قيادة ضابط جيش عامل، وهو سان سيري من عمره يدعى بورشون (Porchon).

كان بورشون يسير بجانبي. قلت له: "أسمعت؟-ماهذا؟ -إطلاق نار؟-لا."

"كيف يمكن أن لا يسمع. . .هذا النوع من الفرقعة. . .إنها معركة ضارية هذه التي نسير نحوها والتي تهدر هنا، من الجانب من كريت التي سوف نحررها. وبدأ رجالي يغضبون شيئاً فشيئاً. وهم يقولون: "نحن الذاهبون إلى هناك، الآن. آه! يا للمصيبة. . . "

"هناك، في الدرب الذي نسير عليه، ظهر رجلان. . .أتبيّن سحنتيهما الداميتين، اللتين ما من ضمادة يمكن أن تخفيهما واللتين سيريانهما لنا. صاح أولهما فينا: "اصطفوا! هناك آخرون آتون خلفنا." لم يكن له أنف. وفي مكانه، فتحة تنزف، تنزف. ومعه، الرجل الثاني الذي لم يكن نصف وجهه السفلي إلّا قطعة لحم حمراء، رخوة، تتدلى. . .

"اصطفوا!، اصطفوا! " كان شاحباً، مترنحاً، يحمل في يديه أمعاءه المنزلقة من بطنه المبقورة. . . وتوقف الآخر الذي كان يركض، وجثا على ركبتيه، وظهره إلى العدو، مقابلاً لنا، وسرواله مفتوح عن آخره، وببطء، سحب من خصيتيه الرصاصة التي أصابته، وبأصابعه اللزجة، وضعها في محفظة نقوده.

"أولئك الجرحى القادمين، بجراحهم، ودمائهم، ومظهرهم المنهك، وكأنهم كانوا يقولون لرجالي:

"انظروا، إنها المعركة تمر. انظروا ما الذي فعلته بنا. . .وهناك مئات آخرون لا تزال جثثهم السخينة ممددة في الغابات، وفي كل مكان. سترونهم، لو ذهبتم إلى هناك، وستقتلكم الرصاصات مثلهم أو تجرحكم مثلهم. لا تذهبوا إلى هناك. "

"أنظر إليهم يا بورشون" -قلت ذلك بصوت خافت. وبصوت خافت أيضاً أجابني: "سيء؛ سنتألم فيما بعد."-وعندما التفت لمح كل تلك الوجوه القلقة، كل تلك العيون المحمومة. . .

"ومع ذلك كان جنودنا، خلفنا، يسيرون. وكل خطوة يخطونها تقرّبهم من هذا الركن من الأرض حيث نموت اليوم. وسيدخلون هاهنا، يهزهم الرعب. . . ولكنهم سيفعلون أفعال المعركة.

"وستصوّب العيون، وسيضغط الإصبع على الزناد، قدر ما هو ضروري من الوقت، رغم الرصاصات العنيدة التي تصفر. . .رغم الدويّ الفظيع الذي تصدره حين تضرب وتغوص في الأعماق. . . وسيقولون في أنفسهم: "بعد قليل، ربما، سيأتي دوري. "-وسيخافون بكل كيانهم. سيخافون، هذا أكيد، ولا مفر منه، ولكن، لأنهم خائفون، فسيبقون. "

وتطبيقاً لمخطط شليفان، عبر الجيش الألماني القوي بلجيكا، وأخذ الفرنسيين من الخلف غيلة كما هو مقرر. وينبغي أن نفهم أن الناس في ذلك الزمن كانوا لا يزالون يؤمنون بقيمة المعاهدات.

لم يكن الجنرال القائد الفرنسي جوفر (Joffre)، عبقرياً (حتى أنه لم يكن هناك إستراتيجيون كبار في أعوام 14-18، باستثناء ربما غالييني (Gallieni)، فوش Foch، لودندورف (Ludendroff))، ولكن لأنه سمين وهادئ، فإنه لم يثر، وأصدر الأمر بالانسحاب الشامل. وبين 4 أغسطس/ آب و6 سبتمبر/أيلول، أي خلال أربعة أسابيع، تراجع جنود المشاة الفرنسيون، مرهقين وملاحقين من الألمان الذين كانوا منتشين بنصرهم.

كان القادة الألمان يظنون أنهم يعيدون الـ 70. وارتكبوا خطأ الاستهانة بالخصم وعبروا دون حيطة إلى شرق باريس، متجهين نحو الجنوب. وعرض الجيش الألماني آنذاك جانبه للمعسكر الباريسي المتحصن، الذي كان يقوده الجنرال غالييني. واقترح هذا الأخير على جوفر هجوماً مضاداً جانبياً. وأصدر جوفر أمره بذلك في 6 أيلول/سبتمبر. وشن الجنود الفرنسيون هجومهم من 6 إلى 9 أيلول/سبتمبر (وعن هذه المعركة يتحدث الشاب جونوفوا خريج دار المعلمين في النص المذكور آنفاً). وتراجع الألمان. وصرح أحد قادتهم، ألا وهو الجنرال فون كلوك (von Kluck)، المعاقب، أمام لجنة التحقيق البروسية بما يلي:

"ما الذي تؤاخذونني عليه؟ كلنا مسؤولون عن الهزيمة. إذ، إنه بعد انسحاب جهنمي، تُتَكبد فيه معاناة فظيعة، أن يكون هناك في العالم جندي

واحد لا يزال قادراً على أن يقوم من جديد أو يهاجم... وأن هذا الجندي كان الجندي الفرنسي، فهذا، ما لم ندرسه أبداً في أي من أكاديمياتنا الحربية!"

بيد أن الألمان لم يرحلوا عن فرنسا، حيث كان عليهم أن يبقوا أربع سنوات. وكانت "حرب الخنادق" المروعة.

من فبراير/ شباط إلى ديسمبر/كانون الأول 1916، كان الجنرال الألماني كنهاين والقيصر، يأملان في القضاء على الجيش الفرنسي في فاردان (Verdun) بسحقه تحت الإطلاق المركز لآلاف المدافع من العيار الثقيل. وقاوم "الشعرانيون".

وكما كتب مقدّم كتاب جونافوا، جون-جاك باكر (Jean-Jacques Becker):

كان لطلاب دار المعلمين هؤلاء الذين يستعدون للذهاب في عطلة... هؤلاء الفلاحون الذين انتُزعوا من العمل في الحقول، هؤلاء العمال، ملايين الناس البسطاء هؤلاء ذوي المصائر المختلفة جداً قاسم مشترك. حب مشترك لوطنهم، وقناعة بأن لا شيء أسمى من المحافظة على أمتهم، حتى وإن لم يكونوا، طبعاً، يقولون هذه الأمور عادة."

وقد صارت هذه العقلية بالنسبة إلينا غريبة جداً، خطأً أو صواباً، إلى درجة أننا يصعب علينا فهم دوافع الحرب الكبرى.

كانت الحروب تدور أيضاً خارج فرنسا (وإن كانت فرنسا هي بؤرتها).

وفي روسيا، ما انفك البروسيون والقيصريون يتقدمون ويتراجعون.

وسحق النمساويون الإيطاليين في كابوريتو (Caporetto)، (التي أنقذتها نجدة فرنسية سريعة).

وقاد الانجليز الذين كانوا قد أرسلوا مليون رجل إلى السوم (Somme)، حلفاءهم (الفرنسيين والإيطاليين) إلى غاليبولي (Gallipoli) كان الأمر يتمثل في الإمساك بخناق السلطنة العثمانية. وقد رماهم الجنرال في البحر. بيد أن الغربيين حافظوا على وجودهم في البلقان في سالونيك (تيسالونيك).

وبعد تحرير قناة السويس، خطرت لبريطانيا العظمى فكرة دفع العرب إلى

الثورة على العثمانيين. وقد اشتهر الكولونيل لورانس (لورانس العرب) في هذا العمل، الذي سوف يستمد منه رائعة في الأدب العالمي وهي "الأركان السبعة للحكمة" *(Les Sept Piliers de la Sagesse)*، ولكن الانجليز الذين وعدوا العرب (سوريا، الأردن والعراق) بالاستقلال، وعدوا في الوقت نفسه، لحاجتهم الماسة للمصرفيين الذين اعتنقوا أفكار الحركة الصهيونية، بإنشاء "وطن قومي لليهود" في فلسطين، حلم به هرتزل: هذان التزامان متناقضان.

وفي أثناء ذلك، كانت الحكومة العثمانية تمارس ترحيلاً جماعياً للأرمن، المشتبه في أنهم أصدقاء للروس. ومات عشرات الآلاف منهم بالإرهاق على طرق الأناضول-كانت تلك مذبحة لا تزال تركيا الحالية ترفض الاعتراف بها.

ولم تصمد روسيا القيصرية أمام ذلك. وفعلاً، لم يكن الروس، الذين لم يكن استقلالهم مهدداً فعلاً، يفهمون لماذا كانوا يتقاتلون. وفي فبراير/ شباط 1917، تنحى القيصر نيكولا ووُضع في السجن. وأبرمت حكومة كيرينسكي (Kerenski)، التي كانت فريسة للاضطرابات العمالية (كان الألمان قد سمحوا للينين، المنفي في سويسرا، بعبور إمبراطوريتهم بالقطار، للذهاب لزرع الفتنة في روسيا)، اتفاق سلام في بريست ليتوفسك (Brest-Litovsk).

كان ذلك نصراً رائعاً لألمانيا، وهكذا استطاعت أن تحتل حقول القمح الأوكرانية. ولم تكن على وجه الخصوص بحاجة للقتال إلّا على جبهة واحدة.

ولكن لحسن حظ الحلفاء، أظهر القادة الألمان غروراً. ولم يترددوا في سبيل تجويع انجلترا، في أن يغرقوا بغواصاتهم (التي كانت سلاحاً جديداً وتقنية برعوا فيها) سفن الولايات المتحدة التي كانت تموّن بريطانيا العظمى. وفي 14 ابريل/ نيسان 1917، أعلن الرئيس ويلسون (Wilson)، الحرب على ألمانيا.

ولم تكن للتدخل الأميركي الأهمية العسكرية التي نتحدث عنها. فلم تكن الولايات المتحدة في تلك الفترة تملك سوى جيش صغير، وإن كانت قد نجحت في إرسال مليون جندي إلى فرنسا، فإن فرنسا هي من جهزهم وسلّحهم ودربهم، ولم يتدخلوا في المعركة إلّا في يوليو/ تموز 1918. كما أنه لم يقع

في صفوفهم إلّا القليل من القتلى. ولكن هذا التدخل كانت له أهمية نفسية كبيرة: فقد عوّض رمزياً عن إخلال الروس بواجبهم.

وعاد الأمل إلى الحلفاء بعد فترة من الحيرة. ولا تجوز المبالغة، كما يدفع إلى ذلك الامتثال الحالي المناهض للعسكرة، في أهمية "تمردات" 1917. إذ إنها لم تكن تحدث إلّا في المؤخرة، ولم يغادر أي شعراني مكانه في الخنادق. وقد تمكن الجنرال بيتان (Pétain)، برجاحة عقله وقليل جداً من القمع (خمسون إعداماً)، من استعادة الثقة.

وفي 16 نوفمبر/ تشرين الثاني 1917، وضع المجلس الوطني ثقته في جورج كليمنصو (Georges Clémanceau)، الذي استدعاه بوانكاري (Poincaré)، (رئيس الجمهورية مع أنه لم يكن يحبه). ولكن الرجل العجوز (كان عمره سبعة وسبعين عاماً) عرف كيف يشحذ الطاقات وصار ديكتاتوراً على الطريقة الرومانية. ومن مارس/ آذار إلى يوليو/تموز 1918، ورغم أن أفضل الجنرالات الألمان، هندنبورغ (Hindenburg)، ولودندورف، الذين لم يعد لهم مشكلة في الشرق منذ انهيار روسيا، شنوا هجومات كاسحة -فإن كليمنصو، الذي كان قد دفع بفوش إلى القيادة بوصفه قائداً حليفاً، لم ييأس. وأخيراً صد الهجومات البروسية.

ومنذ ذلك الحين، كان الأمر قد حسم. ففي تشرين الأول/أكتوبر صدت الجيوش الألمانية الجيوش على خط انطلاقهم. ومن سالونيك، سحق جيش الشرق الفرنسي بقيادة فرانشي ديسبيري (Franchet d'Esperey)، البلغار، مهدداً النمسا بالصعود نحو الشمال. وفي سوريا، فعل الانجليزي أللنبي (Allenby)، الأمر نفسه مع العثمانيين. وحقق الإيطاليون أول انتصاراتهم في فيتوريو فينيتو (Vittorio Veneto). وكذلك فعلت إمبراطورية النمسا في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر.

ولم يبق أمام القيصر إلا الفرار إلى هولندا. وفي 11 نوفمبر/تشرين الثاني 1918، طلبت الحكومة الألمانية الهدنة. وحصل على الموافقة بشروط تعسفية:

رُدّ الألزاس واللورين إلى فرنسا، وسرّح الجيش الألماني، ودُمّر الأسطول واحتلت فرنسا بلاد الراين.

وهكذا انتصرت فرنسا–مع حلفائها دون شك، ولكنها كانت مهيمنة. بيد أن ضريبة هذا الانتصار كانت ثقيلة.

فمن أصل ثمانية ملايين مجند، أصيب أكثر من مليوني جندي إصابات بالغة، ومات منهم 1.360.000 تقريباً، رجل من كل أربعة، وشاب من كل اثنين! وما من أحد من أطراف النزاع كان قد تكبد، قياساً إلى عدد سكانه، خسائر فادحة بهذا الحجم. ويجب أن نضيف إلى هذا أن الحرب قد دارت، في معظمها على الأرض الفرنسية. ولم يحدث في التاريخ أن دفعت حاضرة، أو وطن مثل هذا الثمن في سبيل بقائه! وقد قضي على الفلاحين. وحين نتجول في القرى الفرنسية، يمكن أن نقرأ على النصب التذكارية للقتلى عشرات الأسماء : ولا تغيب عنها أي عائلة... كما تضررت البرجوازية أيضاً. ومات المئات من خريجي دار المعلمين، والمدارس متعددة التقنيات أو السان سيريين (saint-cyriens)، وعشرات الكتّاب–ومنهم مؤلف *(Grand Meaulnes)*، ألين فورنيي *(Alain Fournier)*، بيغي (Péguy)، وأبولينار (Apollinaire).

وتجدر الإشارة إلى أن الإمبراطوريات الملكية القديمة (إمبراطوريات ألمانيا، النمسا، والقياصرة والعثمانيين) لم تصمد أمام هذه المحنة. وكانت الديمقراطية الانجليزية المتوجة أفضل حالاً.

وبالمقابل، كان هناك شيء روماني (روما الجمهورية) في هذه الديمقراطية الفرنسية التي عرفت عدة أزمات وزارية أثناء الحرب)، ولكنها صمدت! ومن الخطأ الاعتقاد بأن الديمقراطية عاجزة بالضرورة. وقد لاخظنا مراراً أهمية الولاء الشعبي بالنسبة للحكومات: فقد انهارت "النفسية" الألمانية، والروسية والتركية؛ وصمدت جمهورية جول، مع كليمنصو.

وبقي الظفر بالسلام.

وأنشأت معاهدة فرساي (28 ابريل/نيسان 1919) عصبة الأمم و– أعادت

تنظيم أوروبا بواسطة معاهدات سانت-جيرمان (Saint-Germain)، وسافر (Sèvres)، ونويي (Neuilly).

ولكن معاهدة فرساي لم يصادق عليها مجلس شيوخ الولايات المتحدة التي لم تشارك (ولا روسيا أيضاً) في عصبة الأمم، القائمة في جنيف. ورأى الرئيس ويلسون المصاب بالشلل، مرشحه يُهزم في الانتخابات الرئاسية لعام 1920. وعادت الولايات المتحدة إلى انعزاليتها التقليدية التي لم تخرجها منها إلّا الاستفزازات الألمانية.

وحذت انجلترا حذوها.

وبالطبع، فقد انتصرت كل من انجلترا وفرنسا ظاهراً. واقتسمتا المستعمرات الألمانية (الكامرون لفرنسا وتنزانيا لانجلترا). واقتسمتا أيضاً السلطنة العثمانية -أخذت فرنسا سوريا ولبنان، وأخذت انجلترا العراق. ولكنها كانت صفقة مغفلين. وشعر عرب سوريا وفلسطين والعراق الذين خدعوا في آمالهم الوطنية، وأزعجهم إنشاء وطن يهودي في فلسطين، بأنهم تعرضوا للخيانة، وهو شعور مبرر. ومن هنا تولّد حقد على الغرب (وعلى إسرائيل) وهو ما يفسر جيداً المآسي الحالية.

وعلى العكس فإن بولونيا، الخاضعة منذ القرن الثامن عشر، قد وُلدت من رمادها دولة مستقلة، بمساعدة الفرنسيين.

وكانت فرنسا تهيمن ظاهرياً على العالم-على الأقل العالم القاري: المحيطات للانجليز والقارات للفرنسيين. وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد عادتا إلى سياستيهما التقليديتين (انعزالية أميركية وإمبراطورية بريطانية) وتخلتا عن التجنيد. أما روسيا، فكانت نهباً للفوضى. وظل الجيش الفرنسي مهيمناً، حاضراً في ألمانيا، وتركيا والبلقان.

غير أن فرنسا كانت منهكة (خلافاً لألمانيا التي لم تعان، وبالكاد تقلصت أرضها قليلاً) وبلا حليف أمام رغبة الألمان في الانتقام، بينما ظلت ألمانيا أول قوة اقتصادية في أوروبا (وربما في العالم).

وفعلاً فقد ارتكب كليمنصو خطأ فظيعاً بشطبه النمسا-هنغاريا من الخارطة. صحيح أن إمبراطورية هابسبورغ كانت قد خسرت الحرب، ولكن بعد موت فرانسوا-جوزيف العجوز، كان خلفه شارل الأول مستعداً لعقد تحالف مع باريس (وهو تحالف كان يجب أن يكون لصد طموحات بروسيا انطلاقاً من سادوفا (Sadowa)).

وكان من الذكاء دفع شعوب الملكية المزدوجة إلى البقاء معاً بتحويل الإمبراطورية إلى ملكية ثلاثية أو رباعية: بحيث يصل سلافيو الشمال والجنوب إلى السلطة بالتساوي مع الهنغاريين والنمساويين.

فما الذي جناه التشيكيون والسلافيون والسلوفاكيون والكروات والهنغاريون من انفصالهم؟ الهيمنة النازية، ثم، طوال أربعين عاماً، الهيمنة السوفياتية-اليأس والعبودية.

وربما كانت فرنسا قد وجدت، في إمبراطورية هابسبورغ التي تم الاحتفاظ بها، قوة مفيدة موازنة لقوة برلين.

وقد أدى مبدأ القوميات، الذي تمادى إلى حد السخف، إلى ولادة الدول الضعيفة ذات السكان المختلطين، لأن تلك الشعوب كانت قد عاشت مع النمساويين. ويكفي أن يزور المرء براغ وبودابست وفيينا وزاغراب لرؤية إرثهم المشترك.

ولم تستطع فرنسا، التي أدت إلى نشوء هذه الدول، الاعتماد عليها عندما عادت برلين خطرة من جديد. وبقدر ما كان ميلاد بولونيا مبرراً، فقد كان تدمير إمبراطورية الهابسبورغ خطأ. وينبغي الاعتراف بأن الامتثالية في تلك الفترة قد دفعت إلى ذلك، وبأن القوميين السلافيين كانوا مدفوعين إلى النجاح. غير أن كليمنصو، وإن كان "أبو النصر"، فإنه لم يكن واسع الأفق للتحكم في انفعالاته المناهضة للملكية.

ومنذ ذلك الحين، كانت النمسا المتبقية محكوم عليها بالاختفاء، إذا أرادت أن تبقى ثقافتها ألمانية. وغرقت فيينا (التي كانت قبل 1914 عاصمة

أوروبا، بالتساوي مع باريس، مع الأوسترو-ماركسيين وفرويد) في إحباط عميق: لنتخيل للحظة أن باريس لم تعد تحكم إيل-دو -فرانس!

ونحن نعلم ما الذي حل بالبناء الوحيد الذكي الذي تخيلته باريس: اتحاد سلافيي الجنوب، الكروات والصرب، في يوغسلافيا!

ولا يمكن أن نخطئ السلام تماماً بإحراز النصر في الحرب بكل شجاعة.

محاولة الثورة العالمية

كان القرن التاسع عشر طويلاً: منذ واترلو (18 يونيو/حزيران 1815) إلى ثورة أكتوبر/تشرين الأول (6 نوفمبر/تشرين الثاني 1917 وفق التقويم العالمي- كان الروس يستعملون تقويماً مختلاً)، أي أكثر من مائتين وعامين بقليل.

وخلافاً لذلك، كان القرن العشرون قصيراً: من نوفمبر/ تشرين الثاني 1917 إلى هدم جدار برلين في نوفمبر/ تشرين الثاني 1989، أي سبعون عاماً بالضبط، أي بالكاد ثلاثة أجيال. والقرون لا توافق التواريخ الرسمية.

وكانت الثورات الصناعية قد صنعت وحدة القرن التاسع عشر الطويل. وصنعت الشيوعية والسوفييت وحدة القرن العشرين القصير: وقد بدأ هذا القرن باستيلاء السوفييت على السلطة وانتهى بسقوطهم. وقد شكلت الشيوعية الأمل أو التهديد.

وقد اختفت الشيوعية اليوم تقريباً. وتبقى الصين شيوعية شكلياً، ولكنها في الحقيقة دولة رأسمالية ومتسلطة. ويبقى هناك "كيانان شاهدان": كوريا الشمالية وكوبا (إلى متى؟)، الباقيان الوحيدان من فترة اختفت.

ولم يكن نظام القياصرة قد صمد في حرب الـ 14. وفي عام 1905، كان الجيش الروسي قد مُني بهزيمة على يد يابان بالكاد محدّثاً: كيف كان سيستطيع الصمود أمام الميكانيكا الرائعة للجيش الألماني عام 14؟

كانت القطارات تسير ببطء كبير في روسيا، حيث لم تكن هناك طرق

حقيقية. وعلى الصعيد الاجتماعي، كانت ألمانيا الويلهلمينية (wilhelminienne)، تعيش على مسافة سنوات ضوئية عن روسيا المتخلفة التي كان فيها الفلاحون، "الموجيكس" (90% من السكان)، مستغلين من طبقة صغيرة من العزبيين. ومن جهة أخرى، كان الألمان مقبولين في روسيا، التي كان كثير منهم قد رحلوا إليها: فلاحين في الفولغا ومهندسين وضباطاً في بطرسبرغ.

وسجن القيصر، واتضح أن حكومة كيرينسكي لا فائدة ترجى منها.

بعد سقوط الإمبراطورية في شباط /فبراير 1917، وقعت السلطة في مأزق حقيقي: فقد كان الليبراليون والاشتراكيون والمنشيفيك يتنازعونها في فوضى. ولكن كيف نفسر انتصار لينين؟

طبعاً، لقد عاد (بالقطار انطلاقاً من سويسرا) بتواطؤ مع المصالح الألمانية؛ وكانت تلك المصالح تكره الثوريين، ولكنها كانت تطبق الحكمة القديمة التي تقول "أعداء أعدائنا أصدقاؤنا" (وهكذا ساعدت السي آي إي (CIA)، بن لادن).

وطبعاً، فقد فهم لينين فوراً أن الشعب الروسي، الفلاح على نطاق واسع والكاره للحرب على نطاق واسع، لم يكن يريد سوى أمرين: الأرض والسلام. وكان الوحيد الذي وعده بذلك، ولكن هذا لم يكن ليكفي.

لذا فإنه ينبغي الحديث عن لينين (Lénine)، وهو لقب فلاديمير إليتش أوليانوف (Vladimir Ilitch Oulianov)، (1870-1924). وهو مناضل ثوري، عضو دوائر ماركسية (في 1895 بطرسبرغ)، فهم بسرعة أن، الغاية وإن كانت راديكالية أو مدمرة، لم تكن كافية لكسب الحروب الاجتماعية. ولم يكن ينكر أهمية الأفكار-ولكنه تلاعب بها. ولكنه كان بحاجة إلى تنظيم. وفي عام 1902، كتب مقالة بعنوان، "ما العمل؟"، قدم فيها تصوره للحزب السياسي. وكان ذلك شيئاً جديداً. إذ لم يحدث أبداً، حتى عهد لينين، أن وُجد حزب سياسي كالذي وصفه. وحتى في زمن الثورة الفرنسية، لم يكن لامونتان (La Montagne)، حزباً، بل مجموعة نواب مفتونين بدانتون وروبسبيير.

وينبغي على الحزب، حسب لينين، أن يكون مؤسسة شبه عسكرية (مناضل =عسكري)، ذات تراتبية ويؤطرها مداومون محترفون، "محترفو الثورة الخاضعون" لأمين عام قوي جداً.

وسيميز هذا التصور الخيال السياسي. ولزمن طويل ظل كل من يقول "الحزب" بحروف كبيرة ودون نعت يتبعه، لا يمكن إلّا أن يقصد سوى الحزب الشيوعي. وحتى اليوم أيضاً، وفي فرنسا على الأقل، فإن الأحزاب، حتى اليسارية منها، منظمة على هذا المنوال.

وفي عام 1902، كان لينين قد أصبح رئيس الأغلبية البلشفية للحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي. وفي عام 1912 فقط، أسس "الحزب" وصحيفته، البراقدا *(Pravda)*. وبعد عودته إلى روسيا بعد فبراير/شباط 1917، أمر منظمته بالاستيلاء على السلطة، واختبأ هو في فنلندا، ولم يذهب إلى بطرسبرغ إلّا عشية انقلابه.

لم تكن ثورة أكتوبر، كالثورة الفرنسية، تغيير ديكور شبه لاإرادي. بل كان للشعب دور فيها. ووضع بضعة آلاف من المناضلين الشيوعيين أيديهم على المراكز العصبية للدولة : لا المجلس والقصر الشتوي فحسب، وإنما على مراكز الهاتف والبرق، والثكنات، ومحطات القطار، والمصانع، في بطرسبرغ وموسكو. وسيطر لينين أيضاً على العاصمتين وعلى خطوط السكك الحديدية التي تربطهما، والتي تسير عليها القطارات المصفحة المزينة بالعلم الأحمر (إذ أن لينين اتخذ علم كومونة باريس لواء له).

وفيما بعد سوف يكتب في هذا الشأن مالابارتي (Malaparte)، وهو كاتب إيطالي، معجب بلينين، "تقنيات الانقلاب". وأصبح انقلاب لينين نموذجاً للانقلابات الحديثة. وكانت ثورة أكتوبر، التي تجسد أسطورة سبارتاكوس (Spartacus)، والثورة على النظام، مفروضة على شعب راض ولكنه منتهك من مثقفين برجوازيين (ومنهم لينين) اعتنقوا أفكار كارل ماركس، المنحدر هو نفسه من أسرة عريقة.

وطبعاً، فقد أرسل الجنرالات المخلصون للقيصر (دينيكين (Denikine)، ورانجل (Wrangel)، كولتشاك (Koltchak)) جنودهم ضد السوفييت عام 1918. ولأن المناضلين لم يكونوا يستطيعون بالطبع مواجهة جيوش محاربة، فقد طلب لينين من رفيقه تروتسكي (Trotski)، (واسمه الحقيقي ليف دافيدوفيتش برونستاين (Lev Davidovitch Bronstein)، المعين محافظاً للشعب للحرب، تأسيس الجيش الأحمر. ونجح تروتسكي الذي استلهم من كارنوت، في فعل ما كانت الجمعية التأسيسية قد فعلته قبل مائة وعشرين عاماً: المزج بين الضباط المحترفين اليساريين، والمناضلين وبحارة كرونستادت (Kronstadt). وسحق تباعاً "الجيوش البيضاء"، وبقي الغربيون سلبيين رغم إرسال سفن إلى البحر الأسود وبعض الجنود إلى أوديسا (Odessa)، وفلاديفوستوك (Vladivostok). وقد خصص الرسام هيغو برات (Hugo Pratt)، ألبوما لهذا الحدث : كورتو مالتيز في سيبيريا *(Corto Maltese en Sibérie)*. ولم يكن لدى الفرنسيين والانجليز أي مبرر لمحبة روسيا، إذ إنها تخلت عنهم في عز المعركة.

وبالفعل، ففي بداية عام 1918، ومن خلال سلام بريست -ليتوفسك، كان لينين قد تخلى عن جزء من الإقليم للألمان. كما سمح لينين، المعجب بالجمعية التأسيسية، لنفسه بأن يفعل ما لم يكن ليفعله أبداً، روبيسبيير دو سانت- جاست (الذي كان قبل تروتسكي، محافظاً للجيوش): ألا وهو قبول الهزيمة الخارجية لتعزيز السلطة الداخلية. وقد أمر لينين باغتيال القيصر نيكولا وعائلته في إيكاتيرينبورغ (Iekaterinbourg).

وهناك فرق أساسي، ولكن لا يتم التنويه به إلا قليلاً جداً: فقد كانت الثورة الفرنسية ثورة النصر؛ وكانت الثورة الروسية ثورة الهزيمة.

وهذا يفسر كثيراً من الأمور. فقد كان النصر أفضل نصحاً من الهزيمة، واستطاعت الثورة الفرنسية أن تتوقف عند "الحدود المضبوطة" من قِبل بونابرت. ولأن الهزيمة لم تكن تحمل الحكمة، فسوف تكون الثورة الروسية عاجزة.

ومن جهة أخرى، فقد تم إقرار تراجع الحدود عام 1920 من خلال معاهدة ريغا (Riga). وتراجعت الحدود الروسية بـ500 كيلومتر.

وهنا أيضاً، هناك درس يستخلص: فبالنسبة للروس، لم تكن هناك أهمية للمكان. ولا يمكن لفرنسا أن تتراجع بـ500 كيلومتر دون أن تجد نفسها في شاتورو (Châteauroux)، وحين يتراجع الروس بـ500 كيلومتر، تبقى روسيا موجودة (ولا يزال هذا إلى اليوم، فقد انحسرت روسيا بوتين إلى حدود روسيا إيفان الرهيب (Ivan le Terrible)).

وينبغي القول إن روسيا، في ذهن لينين، لم تكن إلّا مرحلة. وإنه كان يحتقر الموجيكس المتخلفين، وكان ماركسياً مخلصاً، يؤمن بأن الثورة الحقيقية لا يمكن أن تندلع إلّا في بلدان مصنعة ذات طبقات عمالية كثيرة-فرنسا، انجلترا ألمانيا-، إذ لم تكن روسيا سوى قاعدة انطلاق مؤقتة وخطرة. وهكذا، أسس لينين الأممية الثالثة في مارس/آذار 1919، ألا وهي "الكومنتارن" (Komintern).

وفي كل أنحاء العالم، حدث انشقاق، في الاشتراكية، بين الديمقراطيين والمستبدين. وفي فرنسا، حدث هذا الشرخ، داخل الـ (SFIO)، في مؤتمر تور (Tours)، الذي شهد ميلاد الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1920.

ولم تنجح الشيوعية لا في انجلترا ولا في فرنسا. وقد تمردت فرنسا المنتصرة الثائرة على نداء لينين. ويجب انتظار أحداث الحرب العالمية الثانية ليصبح الشيوعيون فيها أقوياء. حتى أنه لم يكن فيها أي محاولة انقلاب. ولا يمكن تكرار كومونة باريس، بيد أن موجة ثورية اكتسحت بقية العالم.

أولاً في ألمانيا، موطن كارل ماركس، إذ تمرد الماركسيون، المدعوون "سبارتاكيستيين"، بقيادة كارل ليبكنشت (Liebkencht)، وروزا لكسمبورغ (Rosa Luxemburg)، واستولوا على برلين في بداية عام 1919. وفي اللحظة ذاتها، في ميونيخ، عند سقوط الأمراء البافاريين، أعلن كورت إيزنر (Kurt Eisner)، جمهورية المجالس (السوفييتية). وفي أعقاب انهيار إمبراطورية هابسبورغ، أسس

بيلا كون (Bela Kun)، في مارس /آذار 1919 في بودابست، "ديكتاتورية البروليتاريا" العزيزة على لينين.

كانت الشيوعية بمثابة الدين. والدين، هو ما يضحي المرء بنفسه لأجله. وليس الإيمان بالله أمراً ضرورياً. وكان هناك في فرنسا، لدى "الشعرانيين"، عقيدة الوطن. وقد قدم ملايين الرجال أرواحهم فداء للرجاء الشيوعي، الذي كان متكيفاً جداً (وهو ما لم يكن لينين قد توقعه) مع العمق الروحاني الأرثوذكسي: وقد كان ماركس ولينين وستالين بمثابة الثالوث المقدس، وظلت موسكو "روما الثالثة" -وقد أصبحت من جديد العاصمة الروسية في عهد السوفييت.

ولكن لا الجيش الألماني، ولا حتى الجيش النمساوي كانا مثل جيش القياصرة، الذي حُل بطريقة فوضوية. ورغم هزائمهما، فقد ظلّا كما هما. وهكذا فقد سحقت الفيالق، تحت إمرة الجنرالات المحافظين، ثورات برلين. واغتيلت روزا لكسمبورغ وكارل ليبكناشت (وكذلك كورت إيزنر في ميونيخ). وفي بودابست، طرد الأميرال هورتي (Horthy)، بيلا كون. وحاول الجيش الأحمر غزو بولونيا (التي حمتها الكاثوليكية من الشيوعية)، ولكن الفرنسيين هذه المرة تحركوا وساعدوا بفاعلية جيش الجنرال بيلسودسكي (Pilsudski)، (كانت البعثة الفرنسية، بقيادة ويغان (Weygand)، تضم في صفوفها ضابطاً يدعى ديغول) في صد السوفييت.

وفي الصين، كان صان ياتسن (San Yat-sen)، قد أعلن الجمهورية منذ عام 1912 بعد إصلاح إمبراطوري لفترة قصيرة. وحل محله تشانغ كاي-شيك (Tchang Kaï-check)، الذي تلقى تكوينه السياسي في موسكو السوفييت، على خلفية انتفاضات ثورية حكى عنها مالرو (Malraux)، في "الغزاة" (Les Conquérants)، ورضخ تشانغ لصفارات الإنذار الغربية، ووافق فيما بعد على قتل الشيوعيين في شانغهاي (وهي المأساة التي شكلت خلفية رواية مالرو "الشرط الإنساني" *(La Condition humaine)*. ولكن قائد كوو- مينغ- تانغ

(Kuo-ming-tang)، كان في البداية متأثراً بقوة بموسكو. وإذا كانت شيوعية روزا لكسمبورغ وكارل ليبكناشت وبيلا كون شيوعية مسلماً بها، فشيوعية تشانغ كاي-شيك مخفية اليوم لأننا نعلم كيف تحولت.

وهناك تشابهات أخرى يبدو اليوم التذكير بها انتهاكاً.

ففي إيطاليا، كان بينيت موسوليني (Benito Mussolini)، (1885-1945) قائداً شيوعياً، وكان مديراً لصحيفة أفانتي *(Avanti)*. وإذا كانت وطنيته قد جعلته يقف في وجه الألمان (عكس لينين)، فإن الحزب "الفاشي"، الذي استولى على السلطة عام 1922، قد استلهم الكثير من النموذج اللينيني. وكان مالابارتي (Malaparte)، وهو مثقف إيطالي مناصر لـ"الزعيم" في بداياته معجباً بلينين. وقد كان من ذكاء موسوليني تركُ الدور الشكلي للملك وخاصة عدم المساس بالبابا، الملك الحقيقي للبلاد (وأيضاً خلافاً للينين، الذي وقع في شطط اضطهاد المسيحيين)، ولكنه حافظ على أفكار اجتماعية. في تلك الفترة، لم يكن معادياً لليهود : وكان يؤيد الصهيونية. وكانت عشيقته، مرغريتا سرفاتي (Margherita Sarfati)، امرأة حياته، مثقفة يهودية من البندقية. وكان أيضاً ملحداً تماماً. وبالطبع، فنحن نعرف التالي : اغتيال نائب الاشتراكية ماتيوتي (Matteotti)، عام 1924، المعارضة الشيوعية. . . ولكن لو أن الزعيم لم يبرم تحالفاً مع الشيطان الهتلري، لكان ربما قد مات في سريره وفي السلطة!

في تركيا، شهدت السنة نفسها انتصار مصطفى كمال (1881-1938)- وهذا تشابه لينيني منسي أيضاً. . .

ولم تكن تركيا، المنتصرة في الدردنيل، قد مُنيت بهزيمة، ولكن السلطنة العثمانية لم تستطع الصمود أمام هزيمة حاميها الألماني القوي.

وصدّق الحلفاء -الانجليز والفرنسيون والإيطاليون واليونانيون-عن غير وعي، اختفاء الأتراك. واقتسموا بقايا الإمبراطورية (لفرنسا سوريا ولإنجلترا العراق ولإيطاليا الدوديكانيز (Dodécanèse)، الخ). وكان لليونانيين، الذين دخلوا الحرب متأخرين، على وجه الخصوص فكرة راسخة وهي: إعادة

الإمبراطورية البيزنطية، واسترداد القسطنطينية من الأتراك بعد فقدانها منذ عام 1453. ولم تكن هذه فكرة مجنونة : كان الهلينيون غالبية في القسطنطينية، وكانوا كذلك في غرب الأناضول. وقد أعطيت لهم سميرنا (Smyrne)، التي استقبلهم فيها يونانيو آسيا استقبال المحررين.

ولكن الشعب التركي كان موجوداً، وكذلك الجيش التركي، وكان مصطفى كمال قد هزم الحلفاء في الدردنيل. فتمردوا عليه. وأسس كمال، المنحدر هو نفسه من سالونيك، جمهورية في أنقرة وسحق جيشه جمهورية اليونان عام 1922. وبعد ذلك، طرد السكان اليونانيين (كما طرد الجنرالات الأتراك الآخرون الأرمن من قبل).

ولا أحد يشير إلى أن اليونان الحالية تحتل بالكاد نصف الإقليم الذي كان فيما مضى مأهولا باليونانيين. وكان هوميروس ينحدر من آسيا الصغرى، وكذلك الفلاسفة ما قبل سقراط. وحين نجتاز اليوم الأناضول، الذي أصبح تركيا، نستطيع التمتع بأجمل الآثار الهلينية في العالم: إيفيز (Ephèse)، أفروديسياس (Aphrodisias)، مسرح أسبيندوس (Aspendos)، مارماريس (Marmaris)، بيرغام (Pergame)، الخ.

وقد أدت هذه المأساة إلى نزوح من غير رجعة لملايين اليونانيين خارج آسيا الصغرى. واليونان الحالي يكاد يكون من حيث الإقليم، كما لو أن فرنسا كانت قد تقلصت إلى إقليم "منطقة فيشي (Vichy) الحرة"!

وقد نسينا أن كمال ولينين كانا يقدران ويحبان بعضهما البعض. وكان كمال ملحداً، وقد طارد السلطان، أمير المؤمنين، وألغى الخلافة. وأبطل الشريعة وعلمن الدولة، وذهب إلى حد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية في الكتابة التركية. وأبرم معاهدة حسن جوار مع السوفييت ومات مكللاً بالمجد، في سريره عام 1938 (كما كان يمكن أن يفعله جاره موسوليني).

وكانت القسطنطينية قد أصبحت اسطنبول، وفضل فلاحو الأناضول المسلمون إنقاذ الوطن بواسطة جنرال مشهور بإلحاده (ومولع بالكحول) بدل

الإبقاء على الخلافة في العبودية. الأتراك "تُرك أولاً" (وهو شعار مرفوع على طول طرق الأناضول). وهم يكرهون أيضاً العرب، الذين ثاروا عليهم في 14-18 (ولهذا السبب فإن الأتراك اليوم حلفاء ممتازون لإسرائيل).

ومع ذلك، فإن الأحزاب العربية في الشرق الأوسط كانت تعتبر نفسها أيضاً علمانية واشتراكية. وكان حزب "البعث" الذي لا يزال في السلطة في سوريا، وكان كذلك في العراق مع صدام حسين، في حماية الاتحاد السوفييتي حتى اختفاء هذا الأخير.

بيد أن الثورة العالمية كانت قد أخفقت. وبعد أن أنهكه احتقان دماغي، مات لينين عام 1924. وخلفه ستالين واسمه الحقيقي-يوسيف فيسارينوفيتش جوغاشفيلي (Iossif Vissarinovitch Djougachvili). والحقيقة أن ستالين قد تخلى عن التخريب الدولي، مكتفياً باستعمال إيمان الشيوعيين الأجانب لصالح روسيا. واخترع نظرية "الشيوعية في بلد واحد"، ولأنه قليل الإيديولوجيا، فقد أسس-تحت غطاء الشيوعية-ديكتاتورية فظيعة ودامية: وضاعف من عمليات التطهير والاغتيالات، وافتتح محتشدات (غولاغ) في كل مكان. وطرد تروتسكي، منافسه المغرور جداً. والتجأ هذا الأخير إلى فرنسا، حيث التقاه أندري مالرو، ثم إلى المكسيك. وأمر ستالين بقتله بواسطة عميل سوفييتي عام 1940 في مكسيكو. ومع ذلك فقد استمر الأمل شبه الديني رغم الدكتاتورية الستالينية.

وظلت الشمس الحمراء لأكتوبر تنير، خارج الاتحاد السوفييتي، على ملايين المناضلين الطيبين. ولا نفهم شيئاً في أبهة السوفييت، التي كان يتأثر بها غير الشيوعيين كمالرو (Malraux)، وجيد (Gide)، إذا ما أنكرنا بعدها المسيحي. وهذا يفسر أيضاً أنه، إلى غاية سنوات 1960، لا خيبة جيد في "عودة من الاتحاد السوفييتي" (Retour d'URSS)، (1936)، ولا خيبة بوريس سوفارين (Boris Souvarine)، الذي طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي لتأييده تروتسكي، استطاعتا أن تزيغا أبصار المؤمنين. وكما يذكر مثل لاتيني. "جوبيتر يصيب بالجنون أولئك الذين يريد أن يفقدهم".

الأزمة، المعطى الجديد، والنازية

وبعد موت لينين، عاد المد الثوري إلى موطنه.

ومن عام 1924 إلى 1929 حل محله ضرب من "الزمن الجميل" الثاني. وبدا العالم، الذي كانت تهيمن عليه فرنسا وبريطانيا العظمى، يعود إلى تطور سلمي؛ وكان الأميركيون قد عادوا إلى ديارهم؛ وكانت روسيا ستالين ذات "المخططات الخماسية" قد تخلت لفترة محددة عن "ثورتها".

وهي فترة قريبة جداً منا، فترة الراديو والسينما الناطقة وسباق الدراجات تور دو فرانس (Tour de France)، وكرة القدم. ملحمة البريد الجوي، وخطوط طيران (للبريد) التي كانت تربط تولوز بسانتياغو الشيلي بالتحليق فوق الصحراء، والأطلسي الجنوبي والأندس، حيث برز ميرموز (Mermoz)، سانت إيكزوبيري (Saint-Exupéry)، وغيومي (Guillaumet).

وفي عام 1927، عبر الأميركي لندبارغ (Lindbergh)، على متن طائرته أحادية السطح "سبيريت أوف سانت لويس" مخططه (Spirit of Saint Louis)، الأطلسي الشمالي. وقريباً، ستقوم أولى طائرات المسافرين برحلات منتظمة إلى القارات، في أوروبا، وأميركا، وأفريقيا، والهند (وسوف يتم إنشاء الخطوط الجوية الفرنسية "إير فرانس" عام 1933). وفي ألمانيا، حملت مناطيد زبلن (التي كانت قد قصفت لندن خلال الحرب) أوائل المسافرين فوق الأطلسي.

وهي أيضاً فترة الإعلان الذي حقق الازدهار الذي نعرفه.

وكانت النساء يحكمن. وخلال الحرب العالمية الثانية، كان على النساء تعويض الرجال (الذين ذهبوا للقتال) في الورشة، والمصنع، والحقول، والمكاتب، مع أن الجمهورية كانت لا تزال كارهة لمنحهن حق التصويت. ولكن الولايات المتحدة منحتهن إياه عام 1920، متبوعة بتركيا الكمالية. وقد تغيرت الصورة الأنثوية، وقصت "الفتاة المسترجلة" شعرها واستبدلت فستان القرينول بالتنورة القصيرة.

وتغيَّرت الرأسمالية أيضاً. وكان المال وفيراً، والبورصة مزدهرة. وتركزت المؤسسات وانتقلت إلى الإنتاج بالجملة المعقلن (التايلورية): فورد (Ford)، جنرال موتورز (General Motors)، يو إس ستيل (US Steel). وكانت مصانع فورد تنتج 9.000 سيارة من طراز T، يومياً. وصاغ فورد نظرية هذا الأسلوب الجديد من الرأسمالية: كي تربح المال، يجب أن تبيع كثيراً؛ وكي تبيع كثيراً، يجب أن لا تبيع للبرجوازيين فحسب، بل للأجراء أيضاً؛ وكي يستطيع العمال شراء سيارات، يجب أن يربحوا ما يكفي. وضاعف فورد من عدد عماله بـ17%. وفي النهاية صار البيع بالقرض يمثل 60% من مبيعات السيارات.

وانتصبت في نيويورك ناطحة سحاب ((Empire State Building)، ذات 86 طابقاً). بيد أن القطاع الفلاحي لم يكن قد مسّه التقدم كثيراً، في فرنسا وحتى في الولايات المتحدة. كان ارتفاع الأجور أبعد من أن يجاري ارتفاع الأسعار (35%) وخاصة ارتفاع الفوائد (62 %). وكانت تلك في الولايات المتحدة أيضاً الفترة التي أدى فيها تحريم الكحول، وهو ميزة المجتمع الطهري- "الفولستيد أكت "(Volstead Act) لعام 1919 سوف لن يلغى إلّا عام 1933-، إلى تهريب البضائع والسطو (الكابوني)؛ وفترة العنصرية ضد السود والمعادية لليهود لكلو كلوكس كلان (Klu Klux Klan)، والـ (WASP)، (البيض البروتستانت الأنجلوسكسون).

وفي أوروبا، بدا أن ألمانيا تستعيد توازنها. وفي عام 1920، ولدت جمهورية وايمار (Weimar)، (مدينة متوسطة لتورينج (Thuringe)، التي كان رئيسها المنتخب هو هندنبورغ، وهو جنرال من الحرب الكبرى.

وفي فبراير/شباط 1929، أبرم موسوليني مع البابا "اتفاقيات لاتران (Latran)، " التي وضعت حداً للأزمة المفتوحة عام 1870 عن طريق الاحتلال الإيطالي للمدينة الحبرية.

وحصل البابا على "دويلة"، في فاتيكان وشبكة دبلوماسية. ومنحت هذه الاتفاقيات، التي لا تزال سارية المفعول، الكنيسة الكاثوليكية وضعاً مميزاً لدين

يتجذر في دولة رمزية. وعشرات وعشرات الدول لها سفراء في الفاتيكان، الذي يرسل إلى كل مكان "سفراء رسوليين". وحتى اليوم لا يزال الفاتيكان مكاناً مميزاً للدبلوماسية السرية.

ولكن في 24 أكتوبر/تشرين الثاني 1929، اندلعت أزمة وول ستريت.

ومنذ الفراعنة تعايشت الدولة والسوق. وفي عام 1929، كان الليبراليون يقولون إن "اليد الخفية" للسوق (حسب تعبير آدم سميث) تكفي لكل شيء. وكان الشيوعيون يؤمنون، على العكس، بأن الدولة يجب أن تتحكم في الاقتصاد (المخططات الخماسية). وكان كلاهما على خطأ. وسوف تحدث فيما بعد أزمة الدولة السوفييتية، وأزمة الرأسمالية الليبرالية منذ عام 1929.

ولا يمكن لفوائد البورصة أن تتجاوز 15% (التي كانت تشترطها صناديق المعاشات الأميركية). ويتطور اقتصاد مزدهر بصورة طبيعية بثلث هذا المعيار. ويمكن لفترات البناء (الصين أو إعادة البناء (فرنسا) أن تدفع النمو إلى 10%. وسوف تسجل فرنسا بومبيدو ويابان سنوات الـ1980، ارتفاعات بنسبة 8%. والفائض هو محض مضاربة. والحال أن المضاربة، كالربح في ألعاب الحظ والتخمين، لا يمكن أن تدوم. وفي عام 1929، كان هناك في أميركا حالات إثراء مذهلة.

وفي 24 أكتوبر/تشرين الثاني، انفجرت بلورة التخمين هذه. كان كل شيء يقوم على الثقة، وقد ضاعت هذه الثقة فجأة. ونحن نعلم الأسباب: تقييم مفرط للأصول، وإفراط في القرض على الاستهلاك، ومضاربات خطيرة. وقد زاد من خطورة أزمة بورصة وول ستريت أنه لم تكن هناك أي من المؤسسات البيدولية التي أنشئت منذ ذلك الحين (صندوق النقد الدولي، الخ).

وتضاعفت الإفلاسات (فيرم (firme)، هاتري (Hatry)، فوتوماتون (Photomaton))، وانتشرت (كريدي أنسالت Kredit Ansalt، في فيينا). وانتحر رجال أعمال، ملقين بأنفسهم من فوق الأبراج. وانخفضت الأسعار فجأة بـ20%. وانهار الاقتصاد العالمي. وفي الولايات المتحدة، وجد ربع السكان

العاملين أنفسهم من دون موارد. وفي ألمانيا، بلغ عدد العاطلين عن العمل حتى 6 ملايين (في تلك الفترة لم تكن هناك تعويضات) وتفاقمت الأزمة بتضخم مرتفع قديم بعد (1923). وتصف رواية شتاينبك (Steinbeck)، "عناقيد الغضب"، (Les raisins de la Colère)، أجواء عام 1929. ولم ينج من هذه الأزمة إلّا الاتحاد السوفييتي، الذي كان يعيش اكتفاء ذاتياً في ظل اقتصاد موجّه.

ما العمل؟ فقد بدت الإدارة الجمهورية عاجزة عن وقف النزيف. وانتخب فرانكلين ديلانو روزفلت (Franklin Delano Roosvelt)، في خريف 1932. وسوف يعاد انتخابه باستمرار فيما بعد حتى وفاته عام 1945. وقد أحاط نفسه بشخصيات (خبيرة) وأعلن النيو ديل (New Deal)، (المعطى الجديد) بقوله في خطاب شهير "نحن على موعد مع التاريخ."

وخلال مائة يوم، أظهر الفريق الجديد روحاً تطوعية مذهلة: تدني سعر الدولار؛ التحكم في القرض؛ القانون الفلاحي (قانون التعديل الفلاحي (Agricultural Adjustment Act -AAA) القانون الصناعي (قانون التعافي الصناعي) (National Industrial Recover Act-NIRA) لمحاربة انخفاض الأسعار؛ اتفاقات اجتماعية حسب الفروع المهنية؛ سياسات الأشغال الكبرى، وخاصة تجهيز وادي تينيسي (Tennesssee)، (سلطة وادي تينيسي (Tennessee Valley Authority-TVA).

وبدأ خبراء الاقتصاد ينتبهون إلى أن الليبرالية الشاملة كانت وهماً. ونشر أشهرهم، ألا وهو الانجليزي جون مينارد كاينس (John Maynard Keynes)، "النظرية العامة" عام 1936. ونادى بتدخل الدولة لتأمين التشغيل الكامل، ذاهباً إلى حد المناداة بالعجز في الميزانية. ولم يلتق روزفلت أبداً مع كاينس.

وكان روزفلت "ينعش" من ناحية ويحاول تقليص النفقات من ناحية أخرى. ومع ذلك فقد فهم أن الاقتصاد ليس علماً، وإنما فن تنفيذ. وقد جعل احترامه المفرط للتوازنات المالية من المعطى الجديد نصف إخفاق (أو نصف

نجاح): وفي عام 1939، لم يستعد العائد القومي الأميركي مستوى عام 1929 وبقي 20% من العاطلين عن العمل. ومن ناحية أخرى، اخترع روزفلت أسلوباً سياسياً حديثاً: محادثات، فرق خبراء، اتصال...

ومنذ عام 1929، لم تعد الولايات المتحدة قوة ليبرالية حقاً. ويتبع كل من البنك الفدرالي، ومجلس الاحتياط الفدرالي الـ(FED)، (خلافاً للبنك الأوروبي الحالي)، هدفاً يتمثل في التشغيل الكامل، وليس الاستقرار النقدي البسيط. ولا تخشى الحكومة الأميركية من تعميق عجزها لتحقيق "الإنعاش".

وسوف تكون الأزمة في فرنسا أقل حدة-ولكنها كافية لخلق اضطراب سياسي. وفي 6 شباط/ فبراير 1934، أدت منظمات اليمين المتطرف "الرابطات" (بما فيها الحركة الفرنسية لموراس Action française de Maurras)، إلى اندلاع مظاهرة في ساحة لاكونكورد سقط فيها قتلى.

وفي انتخابات مايو /أيار 1936، فازت أحزاب اليسار. وكانت "الجبهة الشعبية". وحكم الاشتراكيون بدعم من الشيوعيين وبموافقة الراديكاليين.

وأصبح ليون بلوم (Léon Blum)، رئيس المجلس خلال عام (يونيو/حزيران 1936-1937). واستوحى من روزفلت، وأبرم مع النقابات "اتفاقيات ماتينيون" ليوم 7 يونيو/حزيران1936: إجازات مدفوعة الأجر، أربعون ساعة (تم التخلي عنها منذ عام 1939)، اتفاقيات جماعية. وكان ذلك فشلاً: وسوف يكون الدخل القومي الخام لعام 1939 أقل منه عام 1929؛ وبقيت البطالة مرتفعة. ولكن "الجبهة الشعبية" من خلال نشاطات مصانعها وعمالها وعاملاتها المتجهين جنباً إلى جنب نحو الشاطئ، تركت ذكرى مؤثرة في الذاكرة الشعبية.

وفي بريطانيا العظمى، جرّب العمالي ماكدونالد السياسة نفسها. وقد صرفته الطبقة الحاكمة سريعاً.

ولم يكن تدخل الدولة ولا الأشغال الكبرى بالاكتشاف بالنسبة لموسوليني. ومع ذلك فقد دفعت الأزمة في إيطاليا إلى الاكتفاء الغبي.

ولم يكن الاتحاد السوفييتي، وهو عالم قائم بذاته، معنياً.

وفي ألمانيا، كان للأزمة عواقب مأساوية. وللخروج منها لم يتورع الرئيس العجوز لهندنبورغ عن تعيين أدولف هتلر مستشاراً له في كانون الثاني/يناير عام 1933. وقد استلهم هندنبورغ مثال ملك إيطاليا، الذي كان قد استدعى موسوليني عام 1922. لكن هتلر لم يكن موسوليني، ولا كان الحزب النازي كالفاشية الإيطالية -وإن كان لفظ "الفاشية"، من خلال الغموض اللغوي، صار يطلق منذ عام 1936على كل مد شعبي.

كان أدولف هتلر (1889-1945)، وهو محارب قديم ينحدر من أصل نمساوي، شخصاً متطرفاً وكان قد أسس في أيلول/سبتمبر 1920 الحزب "القومي- الاشتراكي". وسجنته جمهورية وايمر (Weimar)، عام 1924 بسبب نشاطه الانشقاقي، وقد وصف في سجنه، في كتابه "كفاحي" "النظام الجديد" الذي كان ينوي أن يفرضه على ألمانيا وأوروبا. فكانت الأزمة الاقتصادية، بملايين العاطلين عن العمل له بمثابة الوسيلة.

منذ بداية عام 1933، طبق هتلر برنامجه: في يونيو/ حزيران، أعلن عن الحزب النازي (قومي- اشتراكي)" حزباً واحداً "وأسس الغستابو، ولم يتردد في العمل على اغتيال رفاق معارك صعاب المراس، على غرار روهم (Rohm)، (ليلة الخناجر الطويلة في يونيو/حزيران 1934). وعند وفاة هندنبرغ، أصبح السيد الوحيد، "الفوهرر" وكان المعارضون يلاحَقون.

وترك هتلر، الذي لم يكن محرجاً كثيراً من الرقابة البرلمانية والأرثوذكسية الليبرالية، الدكتور شاشت (Schacht)، وزيره للاقتصاد، يتسبب في العجز. وقد تم ذلك. واختفت البطالة واعتبر الشعب الضائع هتلر بمثابة المنقذ. وقد أطلق هتلر أشغالاً كبرى (الطرق السيارة) وكذا الآلة الحربية الألمانية.

وليست سياسة هتلر الاقتصادية هي ما ميزه عن السياسة التدخلية للمعطى الجديد، وإنما إيديولوجيته.

وكانت النازية كالشيوعية بمثابة دين. ونحن نميل اليوم إلى وضع الاثنتين في سلة واحدة تحت اسم "الشمولية". ولكن هناك فروقاً أساسية. فقد كان

البلشفيون يتطلعون إلى سعادة البشرية، ولو بقتل بشر؛ ولم تكن النازية تريد غير سعادة عرق الأسياد.

وقد نميّ أدولف هتلر هوساً حقيقياً بمعاداة اليهود. وربما كان اليهود أكثر الألمان ألمانية. ولكن هذا لم يشفع لهم في نظر هتلر. فنمى عنده هوس عنصري وشرع في اضطهاد اليهود. واضطر معظم المثقفين الكبار الألمان واليهود، ومنهم اينشتاين، إلى الفرار.

وهناك فرق آخر: فقد كانت الماركسية تدعي انتماءها إلى الأنوار والتقدم؛ وكانت النازية تريد أن تكون مناهضة للعقلانية بعمق. وأعلت من شأن الغريزة الحيوية، وأحرقت الكتب واستغلت الأهواء الأشد ظلمة للإنسان: كراهية الغير، المتعة السادية والذوبان في المجموع.

وبطريقة ما، كانت شيوعية لينين متوقعة: الارتفاع الحار للاستبداد المستنير ورغبة المساواة مع الثورة الفرنسية. وإضافة إلى ذلك، بما أن الرجاء الشيوعي كان علمنة المسيحية اليهوديَة-النصرانية، فقد كانت تدرس الأخلاق ذاتها تقريباً في المدارس الكاثوليكية وللشباب الشيوعي: العمل، المجهود (الستاخانوفية)، احترام الكبار. . .

أما النازية فكانت على العكس غير متوقعة: ديانة الموت؛ عودة ظهور خارق في ألمانيا الحديثة للديانة الآشورية، ولكنها عودة كاريكاتيرية، بدون الفن والشعر، وإنما دائماً بالقرابين البشرية الممارسة على سلم غير معروف لتغلاث-فالازار واشور بانيبال.

وكانت النازية أيضاً تمجيداً للشباب. صحيح أنه، ليس الشبان الشيوعيين ولا كشافة بادن باول (Baden-Powell)، كانوا يجهلون النيران في الليل وحب الطبيعة. ولكن هدف التربية السوفييتية، وتلك التي تقدمها الكشافة والحركات الكاثوليكية كان يتمثل في تكوين رجال ونساء. وعلى العكس، كانت الشبيبة الهتلرية تمجد الشباب لذاته وجعلت منه ذروة الحياة. وكان الإغريق القدامى يحبون أجساد الشبان، ولكنهم كانوا يضعون "ذروة" الوجود في الستين من

العمر ويفضلون سقراط على السيبياديس. وربما وجدوا أنه من السخف أن يستطيع المراهقون تعليم شيء للكبار. وقد كانوا على حق: الشبيبة جميلة، وحيوية، ولكنها امتثالية. ومن الصعب على مراهق أن يفكر بطريقة مختلفة عن أقرانه.

ولأنه كان يمجد الغريزة ضد العقل، والطبيعة ضد الفكر (من أول القوانين التي أصدرها هتلر كان قانون لحماية الطبيعة)، فقد كان هتلر يفضل مراهقي شباب هتلر (هتلرجوجند (Hilterjugend) على اينشتاين (الذي كان فضلاً عن ذلك قبيحاً كسقراط). ويمكن أن نميز في "النزعة الشبابية" المعاصرة إرثاً خفياً من النازية. فالمرء يأخذ دائماً شيئاً عن أعدائه.

وتعتبر عبادة الشباب محبطة حتى للشباب أنفسهم، الذين لا يستطيعون التقدم في الحياة إلَّا القهقرى، وأعينهم على هذه اللحظة الهاربة من ماضيهم. والشيوعي بول نيزان (Paul Nizan)، محقّ مقابل النازيين حين لا يقر "لأحد بالحق في أن يقول إن سن العشرين هي أجمل سن في الحياة". أما الكاتب روبرت برازيلاش (Robert Brasillach)، فهو على العكس، كاتب موهوب ولكن ذو مراهقة ممتدة، وهو مخطئ، أمام نار المعسكر والصلبان المعقوفة، والرايات الخفاقة في ليل المؤتمر النازي في نورمبرغ، في تعظيمه "الفاشية الكبيرة والحمراء" و"كاتدرائياتها المنيرة".

كانت النازية ديانة كراهية. وبهذا المعنى، كانت العنصرية ضرورية. فدون كبش فداء، كيف للمرء أن يكره؟ ومن هنا تأتي الأهمية الاستراتيجية (والخيالية) لمعاداة اليهود بالنسبة للنازيين.

وأخيراً، فقد كانت النازية تمجيداً للحرب، كما لم تمجَّد الحربُ أبداً من قبل، باستثناء ربما قدامى الملوك الأشوريين.

وكان نابوليون، إله الحرب ذاته، يقول وهو يقطع على صهوة جواده ثلوج إيلو الحمراء: " ما من شيء أحزن من ساحة المعركة" أما بالنسبة لوحدة حرس النخبة، فكانت ساحة المذبحة جميلة.

والحرب فظيعة دائمة (حتى وإن كنا أحياناً نجبر على خوضها، وضد النازيين على وجه الخصوص). لذا فقد كانت النازية أحد أكبر التراجعات في التاريخ الإنساني.

ويبقى أن نفهم كيف استطاع هذا التراجع أن يستبد بالشعب الألماني، الذي كان آنذاك أكثر شعوب الأرض تمدناً. إذ إنه لا يجب تجاهل الحقيقة: فقد كان لهتلر موجة شعبية هائلة وكان الألمان وخاصة الشباب منهم يموتون لأجله بحماسة تليق بقضية أفضل.

صحيح أنه كان هناك معارضون، قُتلوا أو نُفوا أو رُحلوا (وكانوا أول من دخل معسكرات الاعتقال)، ولكنهم كانوا قلة قياساً إلى عدد السكان وأقل بكثير، على سبيل المثال مما لاقاه السوفييت في روسيا. وكل التفسيرات العقلانية التي يمكن أن نعطيها لهذه الظاهرة غير المقنعة : لا الأزمة ولا الهزيمة (التي كانت قديمة بخمس عشرة سنة عام 1933)، ولا رغبة الألمان في الانتقام من "طغيان" معاهدة فرساي.

وهناك لدى معاصرينا، رغبة كبت قوية جداً إزاء هذه الحقيقة المؤسفة: فالغالبية الساحقة من مواطني ماركس، وأينشتاين وبتهوفن وغوته كانت تؤيد هتلر. وهذه حقيقة مزعجة، وغير مفهومة، وغير متوقعة، ومأسوية، وغير عقلانية. وقد أبطأ قادة القوى الأخرى في إدراك ذلك، وتعنتوا في رغبتهم التعامل مع "الفوهرر" على أنه ديكتاتور عادي. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت شعبية المستشار كبيرة في أميركا. وكان الطيار ليندبارغ، وعلية المجتمع في وول ستريت معجبين به كما لو كان نجماً.

وتدفعنا المدارس التاريخية الحالية إلى التقليل من شأن دور الشخصيات في التاريخ: فما بالك إذا كانت لديها جوانب ايجابية، على غرار جان دارك أو نابوليون، ولكن هتلر؟ هتلر الذي أعاد بمفرده، بينما كان متشرداً، تركيب عناصر جمعها من هنا وهناك في مكتبة عامة: اشتراكية، لينينية، فاشية إيطالية، عنصرية، بيولوجية، معاداة لليهود، روحانية هندية (svatisca)، ومعتقدات شبه

نفسية. . .صحيح أن هتلر كان مجنوناً يهذي، ولكنه مجنون عبقري، إذ إن هناك عباقرة شر.

وسوف يثبت لنا ذلك ما يلي من التاريخ.

هتلر والديمقراطيات

كان أدولف هتلر قد أعلن في" كفاحي" عما كان ينوي فعله. ولم يصدقه أحد. مع أن جميع القادة قرأوا كتابه. ويفسر هذا العمى بأن: ما كان يعلنه كان غير معقول بالنسبة للنفوس العقلانية. بيد أن ردات الفعل المتعاقبة للديمقراطيات أمام الضربات القوية للمستشار كانت بمثابة الملخص لما لا يجب فعله.

أولاً، وقد نوهنا إلى ذلك، كان القائد النازي قد أعاد تحريك آلة الحرب الألمانية، التي كانت قد نوّمتها معاهدة فرساي؛ ثم إنه كان قد أعاد الخدمة العسكرية الإجبارية، في حين كانت فرساي لا تمنح للرايخ إلّا جيشاً صغيراً محترفاً. والحال أن هذين الانتهاكين لم يؤديا إلى أي احتجاج للحلفاء.

لذا فقد تمادى هتلر. وبما أن معاهدة فرساي قد نزعت سلاح بلاد الراين، (الضفة الجنوبية للرين)، فقد أرسل يوم 7 مارس/آذار 1936، بعض الفيالق لاحتلالها مجدداً إلى غاية الحدود الفرنسية. وكان القادة في برلين قلقين جداً: ففي تلك اللحظة، كان الجيش الألماني الجديد يضم 100.000 جندي، والجيش الفرنسي ثمانية أضعاف ذلك. . . ولكن فرنسا لم تفعل شيئاً. ولو كانت حكومة باريس قد استجابت بإرسال جنود إلى الرين، لكانت قد أجبرت الفوهرر على التراجع. ولكان قد صار مسخرة؛ والديكتاتور لا يقاوم المسخرة!

ولم تفعل فرنسا شيئاً لأن الانجليز، الذين لم يكونوا يهتمون سوى بأنفرس (Anvers)، لم تكن تحفل برؤية جنود ألمان في الرين. وهنا نجد فكرة قديمة، لا تزال دارجة: فرنسا وحدها لا تستطيع شيئاً! صحيح أن على الدبلوماسية أن تحاول أن تتفادى العزلة؛ ولكن حين تكون المصالح الحيوية لأمة ما على

المحك، فعليها أن لا تتردد في التحرك وفق الحكمة القائلة: "أعن نفسك، تكن السماء في عونك." ولو كانت فرنسا قد تحركت عام 1936، لما كانت الحرب العالمية الثانية قد حدثت!

وفي العام السابق، كان موسوليني قد غزا مملكة إثيوبيا، الدولة الوحيدة المستقلة في أفريقيا. وكان الإيطاليون قد هُزموا فيها في القرن الماضي. وكان الزعيم يريد محو هذه الذكرى عن طريق تحقيق انتصار. كان الجيش الإيطالي جيشاً حديثاً، وكان جيش الزعيم مليشيا إقطاعية. وفي عام 1896، ورغم هذا التفاوت، استطاع الإثيوبيون، بفضل عددهم وبسالتهم، الانتصار. وفي مايو/ أيار عام 1935، وبعد أن شحذ موسوليني كل قواه، سحقهم. ولاذ النجاشي هايلي سيلاسيي (Hailé Sélassié)، بالفرار. وأُعلن ملك إيطاليا إمبراطوراً على إثيوبيا، عام 1936، وأصبح البلد مستعمرة إيطالية.

وقد رافع النجاشي عن قضيته في جنيف أمام عصبة الأمم، دون جدوى. وكانت انجلترا وفرنسا متضايقتين جداً: ومجدداً في عام 1918، كانتا قد صادرتا دون حياء المستعمرات الألمانية والممتلكات التركية. ولكن الموضات استبدادية، ولم يفهم الزعيم أن ما كان مقبولاً في الدوائر الحاكمة الغربية قبل ثمانية عشر عاماً لا يمكن أن يكون كذلك عام 1936. كانت موضة التوسع الاستعماري قد انقضت (وقليلاً، هذا صحيح: كان المعرض الاستعماري الفرنسي قد انعقد في باريس عام 1931). وأُدين الغزو الإيطالي وتم التصويت على عصبة الأمم. كان موسوليني إلى ذلك الحين يُنظر إلى النازية باحتقار وللفوهرر ببعض الاشمئزاز، ولم يتردد في إرسال جنوده إلى البرينير (Brenner)، في الألب، لتخويفه. وبعد عقوبات عصبة الأمم، رمى به الحقد بين ذراعيّ هتلر.

ترى ما الذي كان ينبغي فعله؟ القضية أكثر تعقيداً من قضية بلاد الراين. كانت إثيوبيا عام 1936 شبيهة جداً بالمغرب الشريفي عام 1912، حيث عرف لوتي (Lautey)، (تحديداً رئيس المعرض الاستعماري) كيف يُقنع بقبول حماية

فرنسا. كانت إثيوبيا أمة حقيقية ذات مَلكية محترمة (كالمغرب). وكان نفاق فرنسا وانجلترا كبيراً وكذلك عمى موسوليني، الذي لم ير أنه قد أخطأ الفترة أيضاً. وأياً كان، فقد كانت سنة سوداء بالنسبة للديمقراطيات.

وفي يوليو/تموز 1936، اندلعت حرب إسبانيا. وفي أعقاب الانتخابات التي شهدت نجاح اليسار، الموجود في السلطة في مدريد في "الجبهة الشعبية"، استنفر الجنرال فرانكو حامية المغرب الإسباني (أثناء فرض الحماية الفرنسية، مُنحت منطقة صغيرة في الشمال لإسبانيا، التي تحتفظ حتى اليوم بسبتة ومليلة) وقاد "انقلاباً عسكرياً" -تعبير شهير لديغول-، مدعوماً من اليمين الإسباني (فيلق بريمو دو ريفيرا). ووجدت إسبانيا نفسها مقسمة إلى قسمين: الغرب (باستثناء بلاد الباسك) للانقلابيين؛ الشرق ومدريد وبرشلونة لجمهورية الجبهة الشعبية. وفوراً، أيّد هتلر وموسوليني القوميين (وإلى هذه الفترة تعود كلمة "فاشية"). وأرسل هتلر القوات الجوية الألمانية، التي قصفت غرنيكا، وأرسل الزعيم، جيوشاً إيطالية إلى جانب فرانكو.

وأمام استفزاز انقلاب عسكري حظي بتأييد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ضد الجمهورية الإسبانية، بدت الديمقراطيتان الانجليزية والفرنسية واهنتين. صحيح أن حكومة الجبهة الشعبية حاولت مساعدة الجمهوريين. ونقلت إليهم الطائرات خفية. وهكذا وجد أندري مالرو، الكاتب الشاب الذي كان قد حاز جائزة الغونكور، نفسه قائداً لفرقة "إسبانيا"، ولم يكن يحسن القيادة -ولكنه ركب ببسالة في الطائرات بصفته ملاحظاً. (ولم يتعلم مالرو قط قيادة السيارة). كان صديقاً لشخص يدعى جان مولان (Jean Moulin)، رئيس ديوان وزير إير بيير كوت (Air Pierre Cot)، وألف مالرو كتاباً عن إسبانيا بعنوان: "الأمل". واستطاع أن يصور هناك فيلماً يحمل العنوان ذاته. وقد رفض ليون بلوم (Léon Blum)، المتردد، إقحام الجمهورية الفرنسية في إنقاذ الشرعية الجمهورية الإسبانية، والجبهة الشعبية الفرنسية إلى جانب الجبهة الشعبية الإسبانية.

وفي إسبانيا، كانت الحرب الأهلية دامية؛ كان الطرفان يمثلان تصورات

متناقضة للعالم. وانخرط كثير من المثقفين (كانوا آنذاك يجيدون القتال) إلى الجانب الجمهوري، على غرار مالرو أو الأميركي همنغواي (لمن تقرع الأجراس؟) أو إلى الجانب الفرانكي، على غرار برنانوس (Bernanos). بيد أن برنانوس الذي اشمأز من قسوة الفاشيين الإسبان، غادرهم بسرعة ليكتب ضدهم قرار الاتهام القاسي المسمى "المقابر الكبرى تحت القمر". وانقسم الكُتّاب الإسبان: فيديريكو غارسيا لوركا وميغال دو أونامونو.

وخلافا للديمقراطيات، لم يخش الاتحاد السوفييتي الانخراط إلى جانب الجمهوريين، وتكفل بهم في آن واحد وقضى على الفوضويين. كانت تلك مغامرة "الكتائب الدولية"، التي قادها في الحقيقة الروس، ولكن انخرط فيها آلاف الشباب الشيوعيين من جميع البلدان.

وقد لعبت أوروبا دور مقعد الاختبار بالنسبة لهتلر، وموسوليني وستالين وكذلك لإيديولوجياتهم. ولاطمئنانهما لتراخي الديمقراطيات، وقّعت ألمانيا وإيطاليا اللتان كانتا قد غادرتا عصبة الأمم، فيما بينهما ميثاقاً أطلقتا عليه اسم "المحور".

كان ذلك خطأ موسوليني. حتى ذلك الحين، وكان الإيطاليون قد أيدوه. ولكنهم لم يحبوا قط الألمان وكانوا يكرهون هتلر، وانحرافات موسوليني التي أوحى له بها. وكانت معاداة اليهود غريبة عنهم. وانتقل الإيطاليون من الحماسة إلى سلبية غاضبة وقطع كثير من المثقفين، ومنهم مالابرتي، صلتهم بالزعيم.

وانضم إلى المحور آنذاك اليابان عن طريق "الميثاق المناهض للكومينتارن". وكانت إمبراطورية ميكادو، الامبريالية جداً، ترى في الخصومات الغربية فرصة لاحتلال الصين دون أن يمنعها أحد. وفعلاً فقد احتلت الصين الشرقية برمتها مع بكين، نانكين وكانتون. ولجأ تشانغ كاي-شيك إلى جبال الغرب ولجأ قائد شيوعي لم يكن معروفا كثيراً من قبل، هو ماوتسي تونغ (الذي تصالح مع تشانغ)، إلى جبال الشمال.

وفي الحقيقة، لم يكن اليابان منشغلاً كثيراً بمواجهة الاتحاد السوفييتي؛

ولم يكن يريد سوى أن تطلق يده في جنوب شرق آسيا. والحقيقة أن الاتحاد السوفياتي واليابان لم يتواجها قط. إذ لا يمكن أن نطلق اسم الحرب على التدخل المتأخر والرمزي لستالين: وفي 9 مايو /أيار 1945 فقط، احتل منشوريا وجزيرة ساخالين. ولم تشهد الحدود الروسية اليابانية أبداً أيّ اضطراب خلال الحرب العالمية الثانية. وكان ستالين يعرف تمام المعرفة أن "الميثاق المناهض للكومينتارن" لم يكن، في ذهن اليابانيين، موجهاً ضد الاتحاد السوفييتي، ولكنه كان موجهاً أكثر ضد بريطانيا العظمى.

وأمام سلبية الديمقراطيات، قرر هتلر في 12 آذار/ مارس 1938 "الأنشلوس "(Anschluss)، أي ضم النمسا. وكانت نزهة عسكرية. ولم يكن النمساويون منذ انهيار إمبراطوريتهم عام 1918، يرون لهم خلاصاً إلّا في انضمامهم إلى الرايخ الألماني. واحتفي بالواهرماشت (Wehrmacht)، في فيينا وكذا بهتلر أيضاً.

وكان هذا انتهاكاً خطيراً لمعاهدة فرساي. وهنا أيضاً، لم يفعل الانجليز والفرنسيون شيئاً؛ وكان يؤرقهم إيمانهم بحق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد كان ولاء الإيطاليين للفوهرر مضموناً منذ 1936. ويجب التنويه إلى أنه إن كان هتلر يحتقر الإيطاليين، فإن موسوليني كان الرجل الوحيد الذي أبدى تجاهه القائد النازي، حتى النهاية، إعجاباً حقيقياً.

وعرفت النازية ذروتها في 12 سبتمبر/أيلول، في مؤتمر نورمبرغ. وقد كان هذا المؤتمر الذي رفرفت فيه الرايات وترددت فيه أصوات الأجراس، وأضاءت فيه آلاف الأنوار (التي سلبت لب براسيلاش)، مؤتمر تمجيد النازية.

بيد أن الجمهورية التشيكية، بين النمسا والساكس (Saxe)، تجاوزت الطرف الخطير من جبال بوهيميا. كانت تشيكوسلوفاكيا آنذاك قوة صناعية (مصانع سكودا). وكانت من صنع كليمنصو وتملك جيشاً ممتازاً وتحصينات جبلية رائعة. ومن حسن حظ الفوهرر، فإن كان السهل سلافيا، فقد كان الألمان يعيشون دائماً على مرتفعات بوهيميا: السوديت (Sudètes). ومرة أخرى، باسم

حق الشعوب في تقرير مصيرها، طالب هتلر بضم بلاد السودات. ولم تكن تشيكوسلوفاكيا من دون جبالها سوى سلحفاة دون قوقعتها. فثارت ثائرة فرنسا وانجلترا فتحركتا. واستنفرت فرنسا.

واقترح موسوليني عقد ندوة يومي 29 و30 سبتمبر/أيلول 1938 في ميونيخ. وواجه فيها هتلر وموسوليني رئيس الوزراء البريطاني، شامبرلين (Chamberlain)، ورئيس المجلس الفرنسي، دالاديي (Daladier). وهنا أيضاً، لم يكن القادة الألمان مطمئنين : وفي عام 1938، لم تكن واهرماشت مستعدة، رغم إعادة تسلحها السريع. وأمام مفاجأة الزعيم، تنازل الانجليز والفرنسيون، لإنقاذ السلام. وتمكن الجيش الألماني (الوهرماشت) من احتلال مرتفعات بوهيميا. وكان هناك في كل مكان "ارتياح جبان" (عبارة قالها ليون بلوم). وبينما كانت طائرته، العائدة من ميونيخ، تحط في بورجي (Bourget)، رأى دالاديي أن حشداً كبيراً كان بانتظاره. فظن أنهم يريدون عقابه لأنه استسلم. فإذا بهم جاؤوا للاحتفاء به. وكان ضعيفاً ولكن صافي الذهن، فغمغم: "يا لهم من أغبياء."

وأصبح استسلام ميونيخ رمزاً. وحتى اليوم، ما زال الناس يتحدثون (خارج السياق غالباً) عن "الميونيخيين" وأعداء الميونيخيين". والواقع أن هذا المعيار قد فرق بين الأحزاب. وكان هناك ميونيخيو يسار (بلوم) وأعداء ميونيخيو يمين (راينو) في فرنسا، وكذلك في بريطانيا العظمى. ولن نفي أبداً بذكر مسؤولية، أو بالأحرى لامسؤولية الحكومات الانجليزية في تلك الفترة، وخاصة حكومة شامبرلين (مع العلم بأنه بموجب رفض "فرنسا بمفردها"، كان القادة الفرنسيون يتبعون الانجليز دائماً). وفجأة، انضم أكثر الألمان تردداً: كيف يُقاوَم رجل يربح كل أوراقه، وتنبطح أمامه القوى؟

وتحرّف وجهة نظرنا اليوم معرفتنا ببقية القصة وبالمقاومة الباسلة للانجليز أمام ألمانيا الهتلرية. ولكن من عام 1918 إلى عام 1939، وخلال أكثر من عشرين عاماً، تملق ألمانيا، الانجليز المهووسون بقوة فرنسا. وعلى غرار

نابوليون الثالث الذي كان يخشى النمسا أكثر من بروسيا في زمن سادوفا، أخطأ شامبرلين عدوه. ثم هل للرغبة في السلم بأي ثمن معنى؟ أليس شعار الخضر الألمان"أن نكون حمراً (عبيداً) أفضل من أن نكون أمواتاً "شعاراً بذيئاً؟

وفي تلك اللحظة تحديداً، أطلق رجل دولة بريطاني، كان آنذاك في المعارضة، في الميونيخيين الانجليز، وسط مجلس العموم، هذه العبارة التي تلخص كل شيء: "لقد قبلتم بالعار لتفادي الموت. وقد بؤتم بالعار، ولكنكم ستواجهون الحرب."

والحقيقة أن هتلر لم يقف عند هذا الحد. ففي 15 آذار / مارس، احتل براغ. وصارت تشيكوسلوفاكيا "محمية بوهيميا-مورافيا"، دون طلقة رصاص واحدة. وتجدر الإشارة إلى أنه كان على التشيكيين، حتى بعد أن تخلت عنهم القوى العظمى، أن يدافعوا عن أنفسهم بعد ميونيخ. وفي جبالهم في بوهيميا، كان بإمكانهم توقيف الوهمارشت لبعض الوقت. ولو أنهم قاتلوا، لاضطر الفرنسيون والانجليز أن يحذو حذوهم. ولكانت الحرب اندلعت قبل ذلك بطريقة مواتية أكثر.

وفي شهر مارس/آذار نفسه من عام 1939، كان فرانكو يدخل إلى مدريد. وكانت حرب إسبانيا قد انتهت وفرَّ إلى فرنسا آلاف الجمهوريين الإسبان. وكانوا كثراً في المقاومة.

كان هذا النجاح الفاشي الأخير أقل فائدة للفوهرر مما كان يتوقعه الفوهرر نفسه. والواقع أن قائد الجيوش الأعلى فرانكو رفض لهتلر، الذي جاء للقائه في سانت سيباستيان، طلبه أن يدخل الحرب إلى جانبه. وبقيت إسبانيا محايدة. وكان فرانكو أسمج وأقسى من الزعيم بكثير، ولكنه كان أيضاً أكثر مكراً منه. وقد مات في السلطة وعلى سريره، بعد أن نصّب على عرش مدريد الملك خوان كارلوس الحالي، الذي كان تحت حمايته!

ويجب أن نضيف بأن السياسة العسكرية الفرنسية-سياسة الماريشال بيتان،

القوي جداً في هيئة الأركان، كانت سياسة سخيفة: كيف يمكن تقديم النجدة لتشيكوسلوفاكيا بالبقاء متحصناً وراء خط ماجينو؟

عندئذ قال ستالين الذي كان يراقب من موسكو هذا الجبن وهذه التناقضات: "لو هاجم الألمان الاتحاد السوفييتي، فلن يساندني هؤلاء الناس، فالأفضل أن أتحالف مع الفاشيين. واستقبل الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي وزير خارجية الرايخ، ريبنتروب (Ribbentrop)، في موسكو. كانت تلك مفاجأة "الميثاق الألماني السوفييتي"، يوم 29 أغسطس/ آب 1939.

وغادر آلاف المناضلين الشيوعيين الفرنسيين الحزب، باشمئزاز، ولكن الساحة كانت مفتوحة أمام الفوهرر: من الرين إلى اليابان، لم يبق له أعداء! كان ذلك يمثل مساحة برية ضخمة. وعلى الفور، شرع ستالين يمد الألمان بما يحتاجونه: من النفط إلى القمح.

وكانت بولونيا هي الحاجز الوحيد بين السوفييت والألمان-ويكفي النظر إلى الخارطة. وفي الفاتح من أيلول/ سبتمبر 1939، دخلها الجيش الألماني.

وأمام مفاجأة هتلر وستالين، اللذين لم يكونا يتوقعان أي ردة فعل للكرامة، أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا. وكانت تلك بداية الحرب العالمية الثانية-وهي في الحقيقة، وقد قلنا ذلك، أول حرب عالمية حقيقية.

ولم تنقذ ردة فعل الكرامة هاته بولونيا، التي اقتسمها هتلر وستالين. وقاومت بولونيا بشجاعة حتى 26 أيلول/سبتمبر، تاريخ استسلام وارسو. ولم يفعل الفرنسيون والانجليز شيئاً، رغم إعلانهم الحرب على ألمانيا.

ولم يكن الانجليز، الذين كان لا يزال يقودهم الانهزاميون آنذاك، يملكون جيشاً برياً. وبقي الفرنسيون مختبئين خلف الخط المحصّن. وكان هتلر يحتقر للغاية هيئة الأركان الفرنسية، إلى درجة أنه تجرأ على نقل كل جيشه إلى بولونيا. وأمام تحصينات ماجينو، لم يكن هناك إلا الفراغ!

ورفض القائد الأعلى للقوات الفرنسية في تلك الفترة، غاملين (Gamelin)، وهو غبي يحمل شهادة، بقوة أن يفعل شيئاً. أما موسوليني، فقد ظل محايداً

أيضاً. ولم يكن أمام الجيش الألماني، سوى الجيش الفرنسي والأسطول الانجليزي. لم يكن هتلر يملك أسطولاً قوياً، ولكن قد يظن ظان أنه، بعد أن زال قلقه من جانب روسيا، كان سينقض على فرنسا على الفور.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، إذ ظل الألمان والفرنسيون يتوجسون من بعضهم -وهذا ما يطلق عليه "الحرب العجيبة"-خلال ستة أشهر: منذ استسلام وارسو إلى الهجوم على سودون؛ من 26 أيلول/سبتمبر 1939 إلى 10 مايو/أيار 1940. ترى لماذا؟ ويقدم عموماً سبب مناخي: الطقس السيئ. بيد أنه يمكن للمرء أن يظن بأن هذا لم يكن السبب الحقيقي للتراخي الألماني الطويل، المناقض تماماً لنفسية الفوهرر.

والحقيقة أن جنرالات واهرماشت احتفظوا بذكرى جارحة من معارك فردان التي شاركوا فيها بوصفهم ضباطاً شباباً. وقد خرجوا منها بإعجاب شديد بشجاعة "الشعرانيين" وخشية حقيقية من الجيش الفرنسي. لذا فقد عارضوا قدر الإمكان العملية العنيفة التي أرادها الفوهرر. وكانوا يخشون معركة مارن (Marne)، جديدة.

فهل كانوا يبالغون في قوة الجيش الفرنسي؟

الحملة الفرنسية

كان انهيار الجيش الفرنسي في شهر مايو/أيار 1940 حدثاً أصاب العالم بالذهول. كما ترك أثره على النفسية الحالية للفرنسيين. ومازال السبب الحقيقي لهذا الحدث غير مقبول تماماً.

كانت فرنسا في نظر العالم بأسره الأمة العسكرية بامتياز، أمة كوندي (Condé)، وكليبر (Kleber)، ونابوليون، الذي أظهر جنوده في فردان بطولة تضاهي بطولة جنود إسبرطة في التارموبيلس (Thermopyles). وكان خيرة الضباط الأميركيين يأتون للدراسة في مدرسة باريس الحربية.

وقد أحدث الإعلان عن القضاء، خلال أربعة أسابيع، على جيشها، موجة

صدمة في جميع أقطار الأرض. ويروي روزفلت أنه لم يكن يريد أن يصدق ذلك. كان لذلك فعل "الصعقة" في كل مكان، وفي فرنسا في المقام الأول. وفوجئ بذلك حتى هتلر نفسه-حتى أنه رقص فرحاً، وهو أمر غريب عليه. وبقيت الأرض كلها في "ذهول".

ولتفسير ذلك، يقال غالباً إن الفرنسيين لم يكونوا يملكون أسلحة حديثة أو، أسوأ من ذلك، أن الجنود كانوا جبناء. ونحن نعرف جملة سيلين المشينة: "ستة أشهر من لعب الورق، وثلاثة أسابيع من سباق الجري."

وهذا خطأ تماماً.

الأسلحة أولاً. كان الجيشان الألماني والفرنسي متشابهين وحديثين كليهما. متساويين عدداً-ثلاثة ملايين مقاتل، وإن كانت ألمانيا، أكثر سكاناً بضعفين من فرنسا-، وكان كلاهما "ثنائياً".

كان ثلثا المجندين، على الجانبين، يسيرون على الأقدام أو على عربات خيل، كما في عام 14؛ ولكن كلا الجيشين كان يضم قوة قتال قوامها مليون جندي شاب، ومسلح جيداً، ومزود بالعتاد.

وكانت الخيارات الإستراتيجية مختلفة. فقد كانت فرنسا تولي أهمية كبيرة للخط المحصن الذي كان يحمل اسم الوزير السابق للحرب ماجينو، المرابط في الشرق، مقابل ألمانيا، بحصونها المنيعة (سكك حديدية تحت الأرض، الخ) -والتي لم يحاول الألمان الاستيلاء عليها. وفي جنوب بلجيكا، لم تكن هناك تحصينات. ولكن الفرنسيين كانوا يعلمون منذ عام 14 أن الحياد البلجيكي سيُخترق. ولذا فقد حشدوا هناك فيلقهم المقاتل القوي والحديث.

كان هناك العدد نفسه من الدبابات الحربية على الجانبين (وبالنسبة للدبابات الثقيلة، كان الفرنسيون متفوقين على الألمان، الذين لم يكونوا يملكونها آنذاك): حوالى ألف مدرَّعة في كل معسكر.

بيد أنه كانت هناك مشكلة في الاستعمال، كانت الدبابات مقسمة في الفيالق والفروع؛ وفي ألمانيا، كانت مجموعة في فروع مدرعة، بانزرديفيزيونين.

وكانت القيادة الألمانية تطبق نظريات كولونيل فرنسي، هو شارل ديغول، كان قد نشر عن ذلك كتباً ومقالات.

وبعد حرب بطولية عام 14 وأسر تخللته عمليات هروب في ألمانيا، شارك ديغول في تعليم الجيش البولوني الذي ضم الجيش الأحمر. كان قد فهم أن "المحرك المدرع" يسمح للجيوش أن تعيد اختراع ما كان عليه جيش الخيالة في عهد نابوليون: سرعة وصدمة. ولهذا، كان يجب تجميع الدبابات في فروع خاصة. وكان يشيد بإنشاء عشرة فروع مدرّعة، يرافقها جيش مشاة محمول. وقد قاتل كثيراً من أجل نشر أفكاره. وقد حماه في البداية بيتان، وانفصل عنه حول هذه المسألة بالذات، إذ كان الماريشال نصيراً عنيداً لحرب الخنادق.

ولم يحرز ديغول انتصارات أكثر مع رجال السياسة-الذين طاردهم جميعاً، سواء كانوا من اليمين أو اليسار. وقد استقبله رئيس المجلس، ليون بلوم. ولم يستمع إليه إلا بول راينو (Paul Reynaud)، وهو ليبرالي من اليمين.

وكانت المعاناة الكبيرة لديغول هي رؤية أفكاره تطبق في ألمانيا. وكان الجنرالات الألمان، ومنهم غوديريان (Guderian)، يقرأونه. وكان هتلر قد فهم بعبقريته أهمية المدرعات. ولا يجب التصديق بأن الأشخاص السيئين أغبياء. فقد كان الفوهرر عبقري شر، ولكنه عرف كيف يبدع الفرقة المدرعة. وفي عام 40، امتلكت ألمانيا عشراً منها.

وليس سواء أن تكون لديك مائة دبابة مشتتة وأن تكون لك ألف منها مجتمعة في عشر فرق مدرعة.

ولكن لم يكن خطأ استعمال المدرعات هذا ليحدّد بالضرورة مصير المعركة. ومن ناحية أخرى، كانت فرنسا تملك عدداً من الطائرات أقل من الذي تملكه القوات الجوية الألمانية. ولكن الحلف الفرنسي الانجليزي كان يملك مثل ذلك : وسوف يثبت ذلك فيما بعد نصر القوات الجوية الملكية خلال المعركة الجوية لانجلترا.

أما شجاعة الجنود، فكانت كبيرة في كلا الجانبين. صحيح أنه لا

الفرنسيين ولا الألمان، باستثناء شباب هتلر، قد ذهبوا عام 39 يضعون الأزهار في البنادق، كما حدث عام 14. ولكن الفرنسيين أدوا واجبهم. وكان هناك في كل معسكر، عشرات الآلاف من القتلى خلال شهر، بعدد قتلى الأشهر الصعبة لحرب 14. ولم يكن هناك إلّا القليل من الفارين من الجندية. ونحن نعرف معنويات الجنود من خلال مصلحة البريد، التي كانت تفتح الرسائل. كانت المعنويات مرتفعة. ولم يكن الجيش الفرنسي لحرب 40 غير جدير بالجمهورية.

ويجب رفض الأسطورة التي لا يزال وقعها كبيراً على لاوعي الفرنسيين: لم تُهزم فرنسا في مايو /أيار 1940 لقلة الأسلحة أو الشجاعة بل هُزمت بسبب عبقرية القيادة الألمانية مقابل حماقة القيادة الفرنسية! فرغم الاستعمال السيئ للدبابات الفرنسية، لم تكن المعركة قد حسمت بعد-وكان الجنرالات النازيون واعين بذلك.

كان الذكاء الخارق لخطة المعركة الهتلرية هو الذي قضى على الحماقة الكبيرة لمعظم كبار القادة الفرنسيين، والذين يمثل غاملين نموذجاً لهم-دون الحديث عن الأميرال دارلان (Darlan)، الذي سوف يغرق أسطوله فيما بعد دون جدوى. إذ إن الأميرالات الفرنسيين بدوا أغبى من الجنرالات؛ وهو ما يفسر أننا سوف نرى الكثير منهم يتبخترون في فيشي. مع أن الجوان (Les Juin)، ديغول، دولاتر (de Lattre)، لوكليرك (Leclerc)، كانوا يعملون من قبل عام 40، ولكن في مناصب مرؤوسين. أما هتلر، فقد عرف كيف يرقّي غوديريان، وروميل والآخرين.

وكانت حملة فرنسا عام 40، أوسترليتز بالمقلوب.

أولاً، الفخ: جذب الفيلق المحارب الفرنسي بعيداً عن المسرح الحقيقي. وقفز المظليون الألمان على لياج ووقع غاملين في الفخ وأرسل جميع محاربيه على بعد 200 كيلومتر إلى الشمال. وبعد ذلك، المفاجأة: اقتحمت الفرق المدرعة المجتمعة الأبواب حيث لم يكن يتوقعها أحد، معتبرين تقدمها مستحيلاً على هذه الأرض: غابة أردان (Ardennes)، الوعرة، الكثيفة، التي تكاد تخلو

من الطرقات (كهنيبعل عند عبوره الألب بفيلته). وهكذا وصلت القوات البرية إلى سودون، بينما كانت القوات البرية لفرنسا في بلجيكا. ثم اتجهت غرباً، حيث لم يكن هناك ما يوقفها، بين 10 و16 مايو/أيار.

ويجب التذكير هنا بأن الحكومات كانت مع ذلك قد تغيرت لدى الحلفاء. وفي فرنسا، كان بول رينو قد وصل إلى السلطة في شهر مارس/آذار. واستمر تكوين الفروع المدرعة. وكان الأوان قد فات. وقد توصلوا رغم ذلك إلى صفّ أربعة منها. ووحده ذلك الذي شُكل على عجل، أي الفرع الرابع، استطاع القتال منذ الـ17 مايو/أيار في شمال لاون (Laon)، في مونكورني-(Moncornet)، ثم إلى أبدوفيل (Abdeville). وترقى فيه الكولونيل ديغول، الذي كان يقوده، إلى رتبة جنرال بصفة مؤقتة. ولكن الدبابات كانت قد بلغت المانش.

كانت القوات البرية الفرنسية- التي تضم قوات الحملة العسكرية الانجليزية- مقطوعة، وكانت المعركة الحاسمة قد خُسرت. واستسلم البلجيكيون والهولنديون. ونجحت البحرية في أن تبحر ثانية من شواطئ دونكيرك 300.000 رجل، منهم 200.000 انجليزي، دون عتادهم. وقضي على الجيش الحليف.

وحين رأى موسوليني هذا شعر بالخزي وأعلن الحرب على فرنسا: "طعنة خنجر في الظهر".

وفي عز الخراب، انتخب ونستون تشرشل رئيس وزراء في 10 مايو/أيار. وفي 13 مايو/أيار، صرّح للعموم: "ليس عندي ما أعطيكم غير الدم، والآلام والدموع والعرق."

وغيّر بول راينو (Paul Reynaud)، ديوانه وأدخل إليه ديغول، الذي غادر فرعه ليصبح وزيراً، وزير دولة بالنيابة مكلّفاً بالحرب. وقد اتضح أن هذا التغيير مهمّ لما سيأتي. إذ إن كون ديغول صار وزيراً سمح له بلقاء تشرشل عدة مرات وأعطاه الوسائل المادية للعمل.

ولكن بعد دانكرك، استسلم كبار القادة الفرنسيون. ولم يكن لويغاند

(Weygand) الذي استدعي إلى سوريا سعة النظر الضرورية. وبعد أن أقيل غاملين، حاول خوض معركة من أجل الشرف على السوم. وفي 14 يونيو/ حزيران 1940، أقام الوهرماشت استعراضاً في باريس التي تخلت عنها حكومة مفككة لبوردو (Bordeaux).

أما الشعب الفرنسي، فكان قد رحل نحو الجنوب أو نحو الغرب، فراراً من الغزاة. وألقت هذه الهجرة، وهي من أهم الهجرات في التاريخ، على الطرقات 15 مليون شخص، من أطفال ونساء حوامل وعجائز، في زحمات شديدة (أكثر من كوسوفو بعشرين مرة). صور للشقاء مع الستوكا الشهيرة، وهي طائرات ألمانية مزودة بصفارات إنذار للترهيب، تطلق النار على الحشود على الطرقات.

وتثبت هذه الهجرة، التي تمثل انهياراً خارقاً، على الأقل أن الشعب كان يكره النازيين: وعلى العكس ففي 14 يونيو/حزيران 1944، بقوا في منازلهم، رغم عمليات قصف التحالف الرهيبة التي لا طائل منها، لانتظار المحررين. كما أن الانتخابات الأخيرة كانت قد حملت إلى السلطة الجبهة الشعبية.

وفي 17 يونيو/حزيران، توقف كل شيء. وأفلتت الأمور من يد بول راينو، فقدم استقالته. لم يكن شخصية قادرة على مواجهة العاصفة. وعيّن رئيس الجمهورية خلفاً له عجوزاً معروفاً في الرابعة والثمانين من عمره طلب الهدنة على الفور-بينما كانت هناك احتمالات أخرى كثيرة. وضاعت الجمهورية الفرنسية وسط الدوامة.

وفي 10 يوليو/تموز 1940، في مدينة أو دو فيشي (Eaux de Vichy)، صوّت البرلمانيون، المجتمعون كيفما اتفق، على "السلطات المطلقة للماريشال بيتان". ومنذ اليوم التالي، ألغى بيتان، متجاوزاً صلاحياته، الجمهورية بثلاثة قرارات دستورية وعيّن بيار لافال (Pierre Laval)، رئيساً للمجلس. واعتزل الرئيس لوبران (Lebrun)، في فيزيل (Vizille). كان ديغول في لندن، متعللاً بمهمة غامضة؛ ومنذ18 يونيو/حزيران، دخل في انشقاق.

وفي خطابين ألقيا في الوقت نفسه تقريباً، استخلص الماريشال العجوز والجنرال الشاب من الكارثة درسين متعارضين تماماً.

لم يكن الماريشال قد فهم شيئاً من النازية. كان يعتقد أنه لا يزال مقابل بسمارك. وكان عليه وقف المعركة، كما فعل تيير عام 1870، وإذا اقتضى الأمر، سحق الكومونة. كما أن كثيراً من القادة لم يكونوا قد قدّروا هتلر أو بالأحرى لم يعرفوا غطرسته (وفي انجلترا أيضاً، حتى تشرشل).

كان خطابا ديغول وبيتان يتعارضان في كل نقاطهما. وكان الرجلان يتحدثان في الإذاعة (التي كانت بالنسبة للجنرال وسيلة الاتصال الوحيدة الممكنة): بيتان من فيشي؛ وديغول من لندن حيث تجرأ تشرشل ودعاه إلى بي بي سي (BBC).

وقد اتهم بيتان الشعب الفرنسي، وكرر من دون أن يدري حجج سيلين التي لم يكن قد قرأها (لم يكن يقرأ شيئاً وكانت خطبه تُكتب له)، بأنه تمتع كثيراً ولم يقاتل جيداً. ولم يكن يتحدث إلى الفرنسيين كما يتحدث إلى الكبار، وإنما كما لو كان يحدث أطفالاً صغاراً يوبخهم ويعدهم بالحماية. وكان الرجل العجوز ذا مصداقية لكونه الأعلى رتبة في الجيش، ومكللاً بالمجد، وكان يقول إنه يضحي بنفسه: "أعطي فرنسا من نفسي لأخفف آلامها." ولكنه سرعان ما تحول إلى أب صارم يؤدب الفرنسيين.

كما أنه هو، قائد هيئة أركان الجيوش والسيد الأقوى لإستراتيجيتها، كان المسؤول الكبير عن الهزيمة، لأنه رفض بعناد تشكيل فروع مدرعة ورقّى أو أمر بترقية العاجزين إلى جميع المناصب العليا.

والحقيقة أنه ما كان ينبغي على الماريشال المرموق أبداً أن يتجاوز المستوى الذي كان قد بلغه قبل 1914 والذي كان عليه أن يتقاعد فيه: وهو مستوى أب الفيلق (كولونيل)، أبوي ومتذمر، شجاع في القتال ولكنه بليد-وهي مزايا/مساوئ كانت ملائمة لتطمئن جيشاً قلقاً عام 1917، ولكنها منعته عام 1940 من فهم أي شيء.

وعلى العكس، فقد اتهم ديغول القادة وقال للفرنسيين إن قادة عاجزين قادوهم إلى التهلكة. وخلافاً لبيتان، فقد كان يفهم رهان هذه الحرب. كانت هذه الحرب إيديولوجية وكونية. "لم تحسمها معركة فرنسا. فهناك في الكون وسائل لسحق الأعداء. وإذا كنا نُصعق بالقوة الميكانيكية، فإننا نستطيع أن ننتصر بقوة ميكانيكية أكبر." وقد استنتج من ذلك واجب القتال: "شعلة المقاومة الفرنسية [ومنه جاء انتشار كلمة "مقاومة"] لا يجب أن تنطفئ ولن تنطفئ."

وفي 26 يونيو/ حزيران، وفي توبيخ جديد لبيتان مبرراً الهدنة، وجَّه للقائد العجوز هذا الهجوم: "الهزيمة! خطأ من، سيادة الماريشال؟ أنت الذي كنت أرفع شخصية عسكرية، هل دعمت من قبل أو طلبت أو اشترطت الإصلاح الضروري لهذا النظام السيئ؟ آه! فلإبرام هدنة العبودية هذه، لم نكن بحاجة إلى منتصر فردان (Verdun)، كان بإمكان أي كان أن يكفي!"

وبما أن بيتان كان يدعو إلى الخضوع، فقد شرح أن فرنسا " لن تقوم تحت السيطرة الألمانية، سوف تقوم في النصر".

وكان الجنرال والماريشال قد التقيا في مطعم في بوردو قبل ذلك بأيام. ويروي ديغول مشهداً في "مذكراته". يذهب لتحية بيتان: "أنا مقتنع بأنه في زمن غير هذا، كان الماريشال سيستأنف المعركة... ولكن السنّ فضلاً عن الجسم كان قد نخر الشخصية. والشيخوخة هي غرق، وكي نواجه كل شيء، كان ينبغي أن تتماهى شيخوخة بيتان مع هزيمة فرنسا."

لم يكن يسمع نداءات الراديو التي يطلقها الجنرال إلّا بضعة آلاف من الأشخاص، إذ لم تكن قد شاعت عادة الاستماع إلى البي بي سي.

وسادت في فرنسا فوضى الهجرة المروعة. وتفكك البلد بأسره. وكانت العائلات المقسمة تتلمس طريقها بحثاً عن بعضها البعض. وتعايشت الفوضى والموت. كان يلزم الجَلَد والروح التنبؤية للجنرال لرؤية ما وراء هذا "الاضطراب" -وهي كلمة سوف يستعملها عام 1968، ولكنها تصف بصورة أفضل الوضعية عام 1940.

وقضي نفسياً على الحزب الشيوعي، الذي كان يمكن أن يتحكم في الفوضى، من خلال الميثاق الجرماني-السوفييتي، وكان هو أيضاً يدعو إلى الخضوع.

وكان المسالمون، أمثال سيلين، يصيحون: "ألم نقل لكم ذلك؟!"، وكان الأعيان يشعرون بالعار لأنهم غادروا مناصبهم في غمرة الاضطراب، ولكن أقوال بيتان بررت فعلهم. وإضافة إلى ذلك، فقد كانوا يخشون الشيوعيين أكثر من النازيين. وهذه حقيقة يصعب قولها: كان هؤلاء طوال القامة، شقراً، وسيمين وأقوياء ومنظمين، ومنضبطين. وهناك شيء من المازوشية لدى الضحايا مقارنة بجلاديهم (تناذر ستوكهولم). أما ملكيو الحركة الفرنسية، الذين لم يكونوا كثراً ولكنهم متنفذون، فكانت الهزيمة بالنسبة لهم، كما سوف يعترف بذلك معلمهم الروحي موراس (Maurras)، "مفاجأة ربانية".

وقد التقى كل هؤلاء الجنرالات المهزومين، أمثال هونتزيغر (Huntziger)، وكل أولئك الأميرالات الذين كانوا قد فروا من مناصبهم، في فيشي دون حياء ولا حشمة في أوساط أو حكومات الماريشال. فبثوا آنذاك في عقول البسطاء فكرة أنهم كانوا جبناء، وأنه لم ينلهم إلّا ما يستحقونه بتصرفهم (الإجازات مدفوعة الأجر، العمل بالمناوبة، العطلات، أصوات الجبهة الشعبية).

والحال أن الوقائع تقول بعناد عكس الخطاب النادم للنخب: في يونيو/حزيران 1940، كانت الطبقة الحاكمة (عدا بعض الاستثناءات) هي التي أخلّت بواجبها، وليس الشعب الذي كانت شجاعته وكرامته كبيرتين في الملمات.

واحتقار الشعب هو دائماً غواية الحكام المفرّطين وحجتهم.

رهان فرنسا الحرة

هل كان هناك في شهر يونيو/حزيران 1940 من خيار آخر غير الهدنة؟ بالتأكيد، وفي هذه القضية كانت مسؤولية رئيس المجلس بول راينو

ساحقة. صحيح أنه كان قد ارتكب خطأ استدعائه إلى ديوانه الماريشال بيتان، الذي كان حتى ذلك الحين سفيراً لدى فرانكو، الذي كانت انهزاميته مشهورة. ولكنه أدخل فيه أيضاً ديغول. وكان وزير داخليته جورج مانديل (Georges Mandel)، نقيض الشخص الاستسلامي. كان يمكن لرينو أن ينقل مقر الجمهورية إلى الجزائر، التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من أراضي البلد الأم.

المجلس الوطني، مجلس الشيوخ، لوبران (Lebrun)، في مدينة الجزائر؛ أسطول المعركة، أفضل ما امتلكته فرنسا (وإن كان الأميرال دارلان لا يجيد القتال، فقد عرف كيف يبني أسطولاً حديثاً جداً) وهو يغادر براست وتولون إلى "مرسى الكبير"، داكار، وبيزرت؛ المدارس الكبرى المنسحبة في أفريقيا الشمالية؛ الطيران المنقّذ (ذهب الطيارون بإرادتهم إلى الجزائر والمغرب الأقصى؛ وكان فيشي هو من جعلهم يعودون إلى هناك)؛ بضعة فيالق كان بالإمكان إخراجها من فرنسا، أو المنسحبة من قبل في انجلترا (صيادو الألب، الفرقة الأجنبية (La Légion)، معززة جيش أفريقيا-وكانت فرص مواصلة المعركة كبيرة.

وكانت فرنسا تملك الكثير من الأوراق الرابحة: جيش استعماري، بحرية رائعة، إمبراطورية شاسعة في أفريقيا وفي آسيا.

وقيل لنا إن الألمان اجتاحوا فوراً أفريقيا الشمالية. وهذه فرضية سخيفة: كيف كان لهم وهم العاجزون عن اجتياز البادكالي (Pas de Calais)، أن يعبروا البحر المتوسط أمام التفوق البحري الانجليزي الفرنسي؟ صحيح أنه كانت هناك إيطاليا، ولكننا نوّهنا إلى أن الشعب الإيطالي، كان معادياً للنازيين، ولكنه لم يكن-وهذا أقل ما يقال-متحمساً لهذه الحرب. أما فرانكو، فكان يرفض أن يترك هتلر يعبر. ولم يكن غزو إسبانيا إسمياً. ولو تمّ اجتياح إسبانيا، لكان المضيق الصاخب الذي تحرسه القاعدة، التي ظلت انجليزية، ألا هو مضيق جبل طارق، حاجزاً لا يمكن تجاوزه. صحيح أن ليبيا كانت إيطالية، ولكن لو أن الألمان كانوا قد نزلوا فيها، لنجدة الإيطاليين مع رومل، لما كان ذلك إلّا

بأعداد قليلة. وعرف الجيش الفرنسي لأفريقيا، مع أنه غير مجهز جيداً، كيف يوقف-بمفرده، بعد فرار الأميركيين-الألمان الذين وصلوا إلى تونس بسبب خيانة الأميرال إستيفا (Esteva)، خلال الشتاء المهول 1942-1943. وربما كان قد فعل ذلك بالطريقة عينها عام 1940-1941.

صحيح أن الألمان ربما كانوا سيحتلون فرنسا فوراً. ولكن يجب أن نتساءل: هل كان الفرنسيون سيكونون أكثر شقاء؟ الجواب لا. كانوا سيلقون مصير البلجيكيين والهولنديين. كما أن الاحتلال التام للإقليم لم يتم صدّه إلّا بأكثر من عامين بقليل. ومن الناحية المعنوية، ربما كانت الوضعية ستكون واضحة بالنسبة للمواطنين.

وربما بقيت فرنسا، التي كانت شقية عام 1940، والتي واصلت الحرب من مدينة الجزائر، على الجبهة من أجل النصر. ومن نافل القول ما سوف يحدث فيما بعد مع ديغول عام 1943، ولكن بجيوش قليلة جداً ومصداقية هزتها فيشي. ونحن نعلم أن بول رينو لم يكن رجل هذا المصير.

وبعد أن اتضحت هذه النقطة، كانت حصيلة حكومة فيشي كارثية. ويجدر التذكير بأن جماعة فيشي لم يكونوا ليصلوا أبداً إلى السلطة عن طريق الانتخاب. كانوا يمثلون اليمين المتطرف الخالد، حوالى 10% من الهيئة الانتخابية، وكانت الانتخابات الحرة الأخيرة، عام 1936، قد حملت إلى السلطة الجبهة الشعبية.

ويجدر التذكير على وجه الخصوص بأن المستشار أدولف هتلر كان قد أراد فيشي بشغف. كانت فرنسا، وهي البلد الكبير على المستوى الأوروبي، لقمة عسيرة الهضم بالنسبة للوهرماشت، خلافاً لبلجيكا الصغيرة. وكاد الجيش الألماني كله أن يتورط فيها. ومن هنا جاءت عجلة الفوهرر في تشجيع تنصيب حكومة فرنسية بيده، في يونيو/حزيران 1940 في فيشي، مع الماريشال بيتان، البطل الرمز للحرب الكبرى. ولم يخطئ الانجليز الذين منذ 3 يوليو/تموز، سحقوا في "مرسى الكبير" الجزء الذي كان في متناولهم أكثر من الأسطول

الفرنسي. ولم يكن تشرشل يستطيع أن يجازف : وكانت مجازفة رؤية "البحرية الفرنسية " تعبر إلى الألمان أمراً غير مقبول.

وقدم هتلر لبيتان تنازلات كبيرة ظاهرة: عدم مصادرة أسطول تولون؛ "منطقة (تسمى) حرة"، لا يحتلها الجنود الألمان، حيث كانت تقع (في مدينة أو دو فيشي) حكومة بيتان-لافال (Pétain-Laval)؛ احترام الإمبراطورية الاستعمارية -ولم يكن هذا التنازل الأخير يكلف شيئاً، إذ إننا قلنا آنفاً إن هتلر كان يعلم جيداً أنه لا يملك الوسائل للاستيلاء عليها.

لكن فيشي سمحت لفرنسا، التي ظلت تدار من قبل محافظيها وموظفيها الأهليين، أن تكون بمثابة ماخور واستراحة للوهرماشت. وسمحت فيشي للألمان بأن ينهبوا كل على هواه موارد الاقتصاد والصناعة الفرنسيين. كما كانت فيشي تعفي البحرية الألمانية والبحرية الإيطالية من الشعور بأن عليهم أن يقارنوا أنفسهم بالبحرية الفرنسية، التي ربما كانت مهيبة لو أنها حاربت. ولا يمكن في هذا الموضوع الحديث عن مسؤولية الأميرال الكبير للأسطول، دارلان المشؤوم.

ويُزعم أن فيشي قد أنقذت الفرنسيين من بعض فظائع الحرب. والعكس هو الصحيح.

حاربت فيشي ثلاث مرات، وبقوة كبيرة، ولكن ضد الديمقراطيات الغربية والفرنسيين الأحرار: في داكار في أيلول/سبتمبر 1940؛ في سوريا ربيع 1941، وفي الدار البيضاء في نوفمبر/تشرين الثاني 1942. وقتل مئات الجنود الأميركيين في الدار البيضاء على أيدي جنود بيتان.

وكان الخطأ الذي ارتكبه اليمين المتطرف هو اعتقاده أنه يستطيع انجاز "ثورة وطنية" تحت سيطرة العدو. ولم يكن الوقت ملائماً. وجلب بيتان ولافال لنفسيهما العار. فقبل بيتان الفضيحة: فحين يدخل المرء طريق التنازلات أمام طاغية، فهو يتنازل أكثر فأكثر. وانتهت فيشي، من خزيها، بأن نظمت بواسطة ما تبقى تحت إمرتها من شرطة، حملات نهب اليهود-ومنها حملة

فالديف (Vél'd'Hiv)، في باريس. ولم تتردد فيشي، على وجه الخصوص، في شن حرب أهلية، بالميليشيا الشهيرة. وأدارت آلة الحرب الألمانية عمليات النقل الكثيفة للعمال الفرنسيين إلى ألمانيا.

ومن وجهة نظر قانونية خالصة، يمكن أن نقر، رغم تعسف الماريشال في السلطة، بأن الحكومة الفيشية كانت لها قاعدة قانونية إلى غاية 1942. ولكن عندما نقض الألمان في نوفمبر / تشرين الثاني 1942، أحكام هدنة 1940 التي كانت تؤسس مع تصويت البرلمان المنتهك، شرعيتها، وقعت فيشي في الفراغ. ولو أن بيتان أراد آنذاك أن يذهب إلى مدينة الجزائر، أو على الأقل الاستقالة بفخر في فرنسا، لكان استطاع حفظ ماء وجهه. ولكن العجوز فضل الاحتفاظ بكرامة مثير للشفقة في الاستسلام الوطني.

ولنتطرق الآن إلى المسألة الأساسية المتمثلة في درجة ولاء الفرنسيين لحكومة فيشي.

فخلال عشرين عاماً، وصفت الأسطورة الديغولية شعباً موحداً في المقاومة. ومنذ صدور فيلم "الحزن والشفقة" (Le Chagrin et la Pitié)، رسمت لنا الموضة، على العكس، صورة أمة مستعبدة ومعادية لليهود. فما الذي حدث؟

كان الفرنسيون، ما عدا ديغول وحفنة من المخلصين له، بيتانيين نوعاً ما خلال أربعة أشهر-إلى غاية اللقاء، يوم 24 أكتوبر / تشرين الأول 1940، بين الماريشال بيتان والفوهرر في مونتوار (Montoire). وقد أزالت السحر آنذاك مصافحتهما الشهيرة، التي نشر جهاز الدعاية صورتها على نطاق واسع؛ لشدة ما كان الفرنسيون لا يطيقون رؤية صورة جنرال جمهوري-كان بيتان يُعتبر كذلك-وعظيم يصافح القائد النازي. ولم يكن لا بيتان ولا هتلر يتمتعان بالنباهة لتفادي هذا العمل الأخرق: أما بيتان فلأنه لم يكن يفهم شيئاً في الوضعية وكان يخلط، وقد قلنا ذلك، بين هتلر وبسمارك؛ وأما هتلر فلأنه، وإن كان

يعرف جيداً نفسية جماهير بافيار (Bavière)، لم يكن يعلم شيئاً عن جنون الغاليين.

ومنذ ذلك الحين، توقفت الموالاة. صحيح أن صورة "منتصر فردان" ظلت موضع احترام، حتى النهاية تقريباً، ولكن تلك الحكومات -خاصة لافال- سوف تكون مكروهة من الغالبية منذ البداية تقريباً، وكذلك الألمان. ولم يكن الأعيان المازوشيون والشغوفون بالعبودية والذين تحدثنا عنهم من قبل، سوى أقلية.

ويتذكر جيداً أحد مؤلفي هذا الكتاب، وهو السبعيني، جوَّ المترو الباريسي. كان الناس يبتعدون عن خنفساء البطاطا (حشرة تقرض البطاطا-وهو اسم كان يطلق على الجنود الألمان). وكانوا يستعملون الإبداليات من قبيل: (Métropolitain -Pétain mollit trop)، وهي تورية بين كلمة ميتروبوليتان وعبارة "بيتان يرتخي أكثر من اللازم" وكانوا يحدثون بعضهم عن آخر اكتشافات بيار داك (Pierre Dac)، (أحد منشطي البث الفرنسي في البي بي سي): "إذاعة باريس تكذب، إذاعة باريس تكذب، إذاعة باريس ألمانية." وفوق ذلك، ففي المساء، أثناء بث الإذاعة الانجليزية "الفرنسيون يتحدثون إلى الفرنسيين"، كانت الشوارع خالية، والجميع يستمع إلى البي بي سي.

كان يجب توفر ذكاء استشرافي لديغول كي يعرف الناس، منذ ذلك الحين، أن الألمان كانوا يخسرون. كان هتلر سيهاجم روسيا-وهذا كان مكتوباً في "كفاحي"-، ولم يستهن الجنرال أبداً بخصومه. ولكن، منذ تلك الفترة، كان ديغول يعلن في الإذاعة عن وصول "قوات كبيرة من أميركا"؛ وفي هذا التاريخ، كان يعاد انتخاب روزفلت تحت شعار ("لقد أبقانا خارج الحرب").

في تلك الفترة، كان ديغول لا يزال وحيداً. صحيح أنه استطاع ضم أفريقيا الاستوائية الفرنسية وجزر المحيط الهادي -بمساعدة بعض الأبطال المجانين، كقائد هوتكلوك (Hauteclocque)، الذي فر من فرنسا، والذي سمى نفسه لوكلارك-، ولكن الأميركيين كان لهم سفيرهم في فيشي. وكان من حظ ديغول أن فهمه ونستون تشرشل، الذي حماه، وأعجب به، وكرهه في آن واحد.

وكانت التنازلات الخسيسة لفيشي تشعل ثورة الفرنسيين أكثر فأكثر. وخلافاً لما كان يريد البعض أن يوهمنا به، لم يكن الفرنسيون معادين لليهود (أقل بكثير على الأقل مما كانوا عليه، لفترة، أثناء قضية درايفوس). ويشير المؤرخون الإسرائيليون بأمانة إلى أن اليهود نجوا أكثر من الاضطهاد في فرنسا. وأحد مؤلفي هذا الكتاب يشهد على ذلك، فجدُّه كان يهودياً.

وقد أفاضت الكأس خدمة العمل الإجباري - (STO)، وهي قانون كان ينوي فيشي إجبار الشبان الذين يستدعون إلى الخدمة على الذهاب إلى ألمانيا، في بداية عام 1942. وفي تلك اللحظة، أعلنت غالبية السكان أنها "ديغولية". وتثبت ذلك تقارير محافظي فيشي. وطبعاً، لم يصنع هذا من معظمهم أبطالاً.

في تلك الفترة، كانت المقاومة قد تهيكلت في حركات، ومنها ثلاث رئيسية: "معركة" لهنري فروناي (Henry Frenay)، وهو ضابط عامل، "تحرير" مع داستيي دو لا فيجري (d'Astier de La Vigerie)، وهو ارستقراطي؛ "رماة أحرار"، مع جان بيار ليفي (Jean-Pierre Lévy)، وهو يساري على الأرجح.

وكانت المقاومة في بداياتها، وعلينا أن لا نخشى الكلمة، "فوضوية". فقد كان قادتها، باستثناء فروناي، مرتَجلين. وتدين بفضل استمرارها للتأييد الشعبي الثابت. والقصص بهذا الشأن لا تعد ولا تحصى.

دخل ذات مرة مقاوم ملاحق من الغستابو إلى محل حلّاق كان يعمل تحت الصورة الرسمية للماريشال بيتان. فغامر الحلّاق بحياته وخبأ المقاوم الهارب.

ويتمثل خطر الشبكات في شن الحرب على بعضها البعض، لشدة ما كانت روح التضامن هناك عالية. وهكذا انحرفت الحركات اليوغسلافية (تيتو (Tito)، ضد ميهالوفيتش (Mihalovic)) أو اليونانية (الشيوعيون ضد الملكيين). وتمثل فضل ديغول في أنه تفادى ذلك، بتوحيد الحركات تحت سلطته.

وهنا حدثت قصة جان مولين (Jean Moulin). وقد التقيناه وهو رئيس ديوان بيار كوت (Pierre Cot)، عام 1940. ثم أصبح بعد ذلك محافظ شارتر (Chartres). فبدل اتهام سنغاليين ظلماً، حاول أن يقطع رقبته. وبعد إقالة فيشي

له، ذهب إلى لندن سرّاً. وكانت قصة لقاء هذا المحافظ اليساري مع ديغول منذ البداية قصة ثقة تامة.

ولنلاحظ أنه، إن لم تكن فرنسا كلها حول الجنرال، فقد كان حوله فرنسيون من كل الأوساط: كاثوليك وإسرائيليون، ملحدون وماسونيون، من اليمين ومن اليسار. وكان ديغولي كبير، يدعى بيار بروسولات (Pierre Brossolette)، كان يعارض مراراً مولين، محرراً في "الشعبي" *(Populaire)*، وكان حاكم استعماري أسود، يدعى فيليكس إيبوي (Félix Eboué)، أحد أنصاره الأولين، في تشاد.

ونجح جان مولين، الذي جيء به إلى فرنسا بصفته موفداً للجنرال ديغول، بعد رحلات طويلة، في إنشاء وجمع (في شارع فور (Four)، في باريس) المجلس الوطني للمقاومة (CNR) الذي كان يضم جميع الحركات والأحزاب السياسية.

وتعرض جان مولين للخيانة (هناك دائماً عملاء مزدوجون في الشبكات)، واعتُقل وعُذب؛ ومات. ولكن العمل كان قد أنجز. كان ذلك زمن الرسائل الشخصية التي ساق عليها بيار داك ملاحظته الغريبة (من نوع: "سقطت خالتي العجوز من العلّية")؛ زمن التعيينات الخارجية ليلاً، ليالي بدر التمام، التي كانت طائرات الاستطلاع الصغيرة تسافر فيها من فرنسا المحتلة إلى انجلترا، رغم أنف الألمان.

إن التكريم الذي عبَّر عنه مالرو لجان مولين، أثناء نقل رماده إلى مدفن العظماء، لهو تكريم مستحَق:

"لم يؤسس جان مولين المعركة، التحرير، والرماة الأحرار... ولم يؤسس الفيالق، ولكنه هو الذي أسس الجيش. وكان كارنو (Carnot)، المقاومة... كان ذلك الزمن الذي كنا نُسائل في الأرياف نباح الكلاب في جوف الليل... ومظلات متعددة الألوان، محملة بالأسلحة والسجائر تسقط من

السماء في النيران المضاءة...زمن أقبية (الغستابو) وتلك الصيحات اليائسة التي يصدرها المعذَّبون بأصوات أطفال...

"وقد بلغ جان مولان، الذي اعتُقل وضُرب بوحشية، ورأسه مدمّى، وأعضاؤه منفجرة، أقصى حدود الألم الإنساني دون أن يفشي سراً أبداً، هو الذي يعرفهم جميعاً... وكما دخل لوكلارك إلى ليزنفاليد، بموكب حماسته في شمس أفريقيا ومعارك الألزاس، أُدخل هنا[مقبرة العظماء]، يا جان مولان، بموكبك المهول. مع أولئك الذين ماتوا في أقبية دون إن يتكلموا، مثلك؛ وحتى، وهو ما قد يكون أفظع، بعد أن تكلموا؛ مع جميع المشطوبين وجميع حليقي الرؤوس في معسكرات الاعتقال، مع آخر جسد متعثر من الطوابير الرهيبة لـ"ليل وضباب " الذي وقع أخيراً تحت أعقاب البنادق؛ مع الثمانية آلاف فرنسي الذين لم يعودوا من السجون، ومع آخر امرأة ماتت في رافنسبروك (Ravensbrück)، لأنها آوت أحد رجالنا. أُدخل، مع الشعب الذي ولد من الظل واختفى معه، إخواننا في نظام الليل."

كان ديغول يقاتل الألمان، ولكن كان عليه أيضاً أن يفرض نفسه على الحلفاء. ونعلم أن علاقاته مع تشرشل كانت عاصفة، ولكن يطبعها الإعجاب المتبادل. وكان تشرشل يقول عن قائد فرنسا الحرة: "إنه حيوان كبير." وكان روزفلت وهو طهري ديمقراطي يظن، منذ يونيو/حزيران 1940، أن فرنسا كانت قد انتهت، ولم يكن يستطيع أن يفهم ديغول، هذا السيرانو الباسل.

بعد الإنزال الأميركي في شمال أفريقيا الفرنسي، تجرأ الرئيس الأميركي للحظة على التحالف مع دارلان، أميرال فيشي؛ ثم بعد اغتياله على يد وطني شاب (إن كان يمكن تبرير الاغتيال السياسي، فيجب إظهار التسامح مع بونيي دو لا شابيل (Bonnier de la Chapelle)، هذا)، دفع روزفلت بجيرو (Giraud)، وهو جنرال شجاع وبليد، ولكنه ذليل إزاء الأميركيين. وانتصر ديغول على هذا الأبله. وولدت الجمهورية الفرنسية من جديد عام 1943 في مدينة الجزائر. وفرض الجنرال الجيش الفرنسي الذي أعيد تكوينه من جديد في المعركة

النهائية. وفي بروفانس، أنزل جيش أفريقيا-وهو حالة فريدة من الأنديجان الاستعماريين (مختلطين ببعض الفارين من فرنسا وأقدام سود) جاؤوا لتحرير بلدهم الأم. وإلى نورمانديا، أرسل الجنرال لوكلارك، القائد السابق لتشاد، وفرقته العسكرية الثانية المندفعة إلى باريس.

وحاول ديغول أيضاً أن يسيطر على انتفاضات المقاومة، التي كانت تسحق أحياناً في الصميم على يد الألمان، كما في فاركور (Vercors)، في يوليو/تموز 1944. وفي كل مكان، كان "محافظو المقاومة" يعوضون محافظي فيشي. ولأن الألمان جلبوا الماريشال إليهم في سيغمارينجن (Sigmaringen)، -مدينة مياه، ولكنها مدينة فوري نوار (Forêt-Noire)، فقد ثارت باريس. (وفي اللحظة ذاتها، كان الألمان قد دمروا وارسو (Varsavio) الثائرة.) كانت ضربة جرأة خارقة وقد نجحت. وفي 24 أغسطس/آب 1944، وصلت الفصيلة المدرعة للقائد درون (Dronne)، (التي كان كثير من جنودها جمهوريين إسبان قدامى؛ كما كانت جماعته تسمى "نويفي" (Nueve))، أمام دار البلدية، التي يشغلها المجلس الوطني للمقاومة.

وفي 25 أغسطس/آب، وبعد أن عاد إلى مكتبه في وزارة الحرب الذي غادره قبل أربع سنوات، أطلق ديغول، مدفوعاً بالجمهور، صيحته الشهيرة: "باريس مهانة، باريس محطمة، باريس محتقرة، ولكن باريس محررة..." وفي يوم 26، هبط في الشانزيليزيه على رأس حشد فوضوي، متحمس، هائل، ساعة مجد، أم خدعة: فقد كان الألمان لا يزالون في بورجي (Bourget).

وفي برلين، وقّع الجنرال دولاتر دو تاسينيي (de Lattre de Tassigny)، على الاستسلام النازي إلى جانب الروس والأميركيين والانجليز. ولم يستطع المفوض الألماني وهو يدخل القاعة أن يمنع نفسه من الصراخ: "ماذا؟، الفرنسيون أيضاً!"

وكان ديغول وفرنسا، رغم فيشي، قد انتصرا. فعلى الصعيد العسكري، لم تلعب "فرنسا الحرة" (وهي على أية حال ثالث قوة عسكرية في الحلف

الغربي، بعد الأميركيين والانجليز: مليون جندي؛ أكثر من 100.000 مقاوم متمرد، وكثير منهم سوف يدمجون في الجيش)، كما كانت قد فعلت فرنسا 14، الدور الرئيسي. ولكن لولا فرنسا الحرة، لكان شرف الأمة قد لوِّث. كانت ملحمة مجنونة. ولندع الكلمة الأخيرة للوكلارك. فحين كتب إليه ديغول في يناير/كانون الثاني عام 1945: " كل شيء مبالغ فيه غير مهم"، أجابه لوكلارك: "ليس هذا رأيي. كل ما فعلناه من أمور كبيرة ومهمة من ورائك، كان مبالغاً فيه وغير صائب."

الحرب العالمية الكبرى

كان صراع 39-45 في الواقع، كما قلناه، الحرب العالمية الأولى حقيقة، إذ إن حرب الـ 14 كانت أوروبية مع بعض العمليات وراء البحار. وفي الماضي، لم تكن العمليات وراء البحار غائبة (صراعات بين البرتغاليين والعرب في البحر الأحمر والخليج، وبين الفرنسيين والانجليز في أميركا والهند، وبين الأميركيين والإسبان في كوبا)، ولكن يمكن القول حقاً إن الحرب العالمية الثانية هي أول صراع تواجه فيها محاربون في كل أقطار العالم. ولهذا السبب ندعوها الحرب العالمية الكبرى (وتظل الحرب الكبرى هي حرب 14). كما أنها لم تعد عالمية إلا عام 1941.

وبعد سقوط فرنسا، بقيت انجلترا وحيدة بإمبراطوريتها الاستعمارية-وقد لعب جيش الهند بالنسبة لإنجلترا دوراً شبيهاً بذاك الذي لعبه جيش أفريقيا بالنسبة لفرنسا-وبمساعدة دومنيوناتها. وفي حين لم تكن مجبرة على ذلك، فقد هبّت كل من كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا لنجدة البلد الأم-خاصة كندا واستراليا. ولكن جمهورية إيرلندا (المستقلة منذ عام 1922) بقيت محايدة بعناد.

وكان المستشار النازي معجباً بانجلترا الإمبراطورية. وفي سلم قيمه النازية،

كان الانجليز، "وهم آريون طوال القامة وصهبٌ"، يقعون مباشرة تحت الآريين الشقر (كان هتلر قصيراً وأسمر). وربما تفادى عن طيب خاطر مواصلة العمليات الحربية مع بريطانيا العظمى. صحيح أنه كان قد أعد من خلال هيئة أركانه خطة غزو، مشروع "أوتاري "(Otarie) الذي يهدف إلى الإنزال على الجزر البريطانية؛ لكن، في تلك الفترة، كان الفوهرر يأمل في السلام مع ألبيون (Albion)، (قفز رودولف هس (Hess)، خليفة هتلر، من جديد عام 1941، بالمنطاد في اسكتلندا لاقتراح خطة سلام منفصل. وزُعم أنه مجنون ولكنه ربما لم يكن كذلك إلى تلك الدرجة.)

كان هتلر يقول في نفسه بشأن الانجليز: لهم البحر، ولنا البر. وربما كان كثير من الأعيان الانجليز قد قبلوا بهذه القسمة. فقد كانت لديهم حالات تعاطف مع النازيين، ومنها على سبيل المثال دوق وندسور (Windsor)، الملك السابق المخلوع لأنه أراد الزواج من مطلقة أميركية (واستُبدل في لندن بأخيه جورج السادس في ديسمبر/كانون الأول 1936)، كانت تقطن في لشبونة. وخشية أن ينضم إلى الألمان، عيّنه تشرشل، على سبيل التهديد، حاكماً لبهاماس. وقد انتظر هتلر، طيلة شهر يوليو/تموز1940 وهو على أهبة الاستعداد.

كان ذلك يعني عدم الاعتماد على ونستون تشرشل. وكان البريطاني الأول الذي وصل إلى السلطة منذ ثلاثة أشهر، بطلاً شكسبيرياً. ويصفه لنا الكاتب ألبرت كوهين (Albert Cohen)، الذي التقاه آنذاك، بأنه "عجوز كنبي، جميل كملاك وقور كطفل". وربما كان الاتفاق مع ألمانيا قد أنقذ مصالح الإمبراطورية البريطانية، ولكنه كان مخالفاً للتصور الذي كان يحمله الأسد العجوز للشرف.

لذا فقد تخلى هتلر عن شن "معركة انجلترا" (من 13 أغسطس/ آب إلى 12 أكتوبر /تشرين الأول 1940) وطلب من قواته الجوية سحق القوات الملكية البريطانية. وحين لا يبقى للانجليز أي طائرات، تستطيع بسهولة إغراق سفن

البحرية البريطانية؛ وبعد ذلك تستطيع ألمانيا احتلال الجزر البريطانية، بسهولة أكثر لاسيما أن الجيش الانجليزي لم يكن قد تعافى من دونكارك. فجند تشرشل جيشاً آخر، ولكنه كان بحاجة إلى وقت، رغم إعادة العمل بالتجنيد.

واحتدمت المعركة الجوية. ودمَّر الألمان القواعد الجوية الانجليزية، ثم ارتكبوا خطأً قاتلاً بشروعهم في قصف لندن بهدف إحباط معنويات الشعب. ونحن نعلم اليوم أن عمليات القصف، بالعكس، تثير الروح الوطنية للذين يتعرضون لها. (بيد أن هناك استثناء: فعمليات القصف الذرية أخضعت اليابانيين) والواقع أن القصف الجوي فشل. وعلى وجه الخصوص تفوقت القوات الجوية الملكية على القوات الجوية الألمانية. وخسرت 900 طائرة، لكن الألمان خسروا 1000 مطاردة والآلاف من قاذفات القنابل. وظهر اختراع حديث استعمله الانجليز يسمى "رادار" وهو اختراع حاسم. وكذلك كانت قيمة الطيارين البريطانيين. وقد كرمهم تشرشل بجملة موجزة: " لم يحدث أبداً في ساحة الصراع البشري أن دانت فيها كثرة كثيرة لقلة قليلة. "

بيد أن انجلترا بقيت وحيدة. وأراد موسوليني أن يجلب الاهتمام إليه، فغزا اليونان؛ وهُزم فيها جيشه واضطر الوهرماشت إلى نجدة الإيطاليين.

واحتل الألمان البلقان، ويوغوسلافيا واليونان وصدوا الجيوش الانجليزية. وانقضَّ المظليون الهتلريون على جزيرة كريت واستولوا عليها بعد خسائر فادحة (ولم يكن المظليون مدربين على عمليات كبيرة، وسوف نلاحظ ذلك فيما بعد في أرنهام (Arnhem). ولم يعد البحر المتوسط آمنا بالنسبة للبحرية البريطانية. . .

وقد بدا الألمان، بعد عام من حملة فرنسا، في مايو/أيار 1941، لا يقهرون. وبقيت انجلترا، التي أنقذها البحر، منيعة في جزيرتها.

وفي 22 يونيو/حزيران 1941، شن الفوهرر عملية بربروسا (Barbarossa)، لغزو الاتحاد السوفييتي. والذين كانوا قد قرأوا "كفاحي" كانوا يعرفون أنه سيفعل ذلك. وقد باغت ستالين، ولم يكن الديكتاتور الروسي يشعر بوخز

الضمير مع الأممية الاشتراكية التي كان نظامه (باستثناء الجنون العنصري) يشبهها كثيراً. وقد تقاسم مع هتلر بولونيا ودول البلطيق. واستمرت القطارات الروسية، المليئة بالقمح أو النفط، تسير نحو ألمانيا في يونيو/حزيران 1941. وحتى اللص يمكن أن يخدعه لص شر منه!

وسُحق الجيش الأحمر عن بكرة أبيه، تاركاً للعدو ملايين الأسرى. وتكررت حملة فرنسا. ولم ينقذ روسيا إلا شساعتها، التي قال عنها كلوزفيتز (Clausewitz)، إنها "عصية على الغزو". بيد أن دبابات البانزر (Panzer) تقدمت صوب موسكو. وبعد أيام من الصمت والإحباط، تحدث ستالين في الإذاعة. ولم يكن حديثه عن الشيوعية ولا عن الرفاق بل طلب من إخوانه الأعزاء إنقاذ روسيا المقدسة من غزو التوتونيين. وتوقف الألمان على بعد بضعة كيلومترات من موسكو بسبب الشتاء الروسي والهجوم المضاد للجنود السيبيريين الذين جلبهم ستالين (لعلمه أن اليابان لن يتحرك) من الشرق الأقصى.

وفي 7 ديسمبر/كانون الأول 1941 حصل حدثٌ مفاجئ أكثر: فمن دون إعلان حرب، قضى اليابان على الأسطول الأميركي المجمَّع في قاعدة بيرل هاربور (Pearl Harbor)، في جزر هاواي (باستثناء ثلاث حاملات طائرات في دورية). وأغرقت الطائرات اليابانية، التي أقلعت قبل الفجر من منصة عشر حاملات طائرات، البارجات الأميركية.

كان الانجليز قد تحالفوا من قبل، في يونيو/حزيران، مع السوفييت. وكان تشرشل قد قال: "كي أهزم هتلر، أنا مستعد أن أتحالف مع الشيطان". وهنا، كانت إيطاليا وألمانيا النازية هما من أعلن الحرب على الولايات المتحدة. ورأينا ظهور الغواصين الألمان (اليوبوت *(U Boote)*، الشهيرين) قبالة مانهاتن.

وعلى منصة حاملة الطائرات اليابانية الرئيسية، قدم البحارة شراباً للطيارين البواسل. وظل الأميرال الياباني صامتاً. فسأله طيار شاب لماذا يبدو عليه القلق، بعد نصر مؤزر كهذا. فأجابه الأميرال: "لقد أيقظنا التنين ولا ندري متى سيعود إلى نومه."

بيد أن الرئيس روزفلت، على غرار ستالين، أُخذ غيلة. والأساطير التي تقول إنه أغرق أسطوله متعمداً أساطير سخيفة. فكل شيء يدل على أن الولايات المتحدة (وإن كان روزفلت، في قرارة نفسه، كان يتمنى العكس) لم تكن تريد الحرب. وكان الرئيس قد أعيد انتخابه على أساس برنامج سلمي. وكانت الانعزالية تقليداً؛ وكان سبر آراء حديث قد أشار إلى أهمية السكان الألمان. وقد دفع التكتل القوي للأميركيين من أصول ألمانية، وهم كثيرون جداً، الأميركيين إلى الدعوة إلى الحياد. وكانت شركة آي بي إم (IBM)، تزود وحدة حرس النخبة ببطاقات المعلوماتية وكان الأجداد بوش وكنيدي يبرمون الصفقات المربحة مع ألمانيا. ولكن، حين ضُيّق عليهم الخناق، لم يكن أمام الأميركيين الوطنيين إلّا الدفاع عن أنفسهم. وسوف يموتون من أجل أميركا.

وبعد القضاء على الأسطول الأميركي، وإغراق أجمل البارجات الانجليزية والهولندية، سيطر الأسطول الياباني على المحيطين الهادي والهندي. وظهر قبالة سيلان وبومباي. وكان منتظراً في مدغشقر. ولو أن اليابانيين كانوا قد أنزلوا في كاليفورنيا، فمن كان بوسعه التصدي لهم؟ كانت الولايات المتحدة تواجه خطر الموت وكانت الأمة الوحيدة التي كانوا يخشونها هي اليابان. ولم يكن اليابانيون يملكون هذه الجرأة، وفضلوا غزو جنوب شرق آسيا، الفلبين، وماليزيا واندونيسيا، التي طردوا منها الأميركيين والهولنديين والانجليز. وكانوا يقدمون أنفسهم على أنهم محررون، وأبطال حرب الشعوب الملونة على البيض.

وبما أن لا أحد كان يجرؤ على مهاجمة أميركا على أرضها، فقد أصبحت القوة الصناعية الخارقة لهذا البلد الشاسع "ترسانة الديمقراطيات"، وبدأ يصنع تباعاً الطائرات والمدافع والجيبات و"سفن الحرية". وأعاد روزفلت العمل بالتجنيد وجيّش جيشاً قوامه 10 ملايين رجل. وكان يلزمه الوقت كي يحول رجالاً عاديين من الغرب الأوسط إلى جنود ويجمع الأسلحة الرائعة التي تنتجها الصناعة الأميركية.

وفي أثناء ذلك، مني الانجليز بهزيمتين ثقيلتين في ربيع 1942: ففي ليبيا، استولت فيالق أفريقيا التابعة لرومل على توبروك، وفي ماليزيا، أزال جيش ميكادو قاعدة سنغافورة دون عناء، مخلفاً 100.000 أسير بريطاني -وهو ما أذل تشرشل.

وفي روسيا، اغتنمت الدبابات فرصة عودة الطقس الجميل، لتهجم على فولغا، التي وصلتها في ستالينغراد. وكانت تلك ذروة قوة المحور.

غير أن الأسطول الأميركي، الذي أعيد تكوينه، كان قد استعاد تفوقه في المحيط الهادي خلال المعركة البحرية في جزر ميدواي (Midway)، (من 3 إلى 5 يونيو/حزيران 1942)، منهياً السيطرة البحرية اليابانية التي دامت ستة أشهر.

وقد روينا أنه في نوفمبر/تشرين الثاني، وبعد عمليات إنزال أميركية، كان شمال أفريقيا الفرنسي قد مال إلى ناحية الحلفاء. وكان مصير الأسلحة لا يزال يبدو، في نهاية 1942، في صالح المحور. وشن الجنرال رومل، أبرع القادة العسكريين النازيين، معركة في أكتوبر/تشرين الأول، بفيلقه الأفريقي، على مسافة 60 كيلومتراً من الإسكندرية، مهدداً قناة السويس-وهي محور حيوي للإمبراطورية البريطانية-في العلمين. واجتهد الجنرال بولوس (Paulus)، في روسيا في الاستيلاء على مدينة ستالينغراد. وعند عبور بولوس الفولغا، وهي العمود الفقري لروسيا، كان الاتحاد السوفييتي مهدداً في عائم سفنه.

وفي بداية عام 1943، انقلبت الآية. فاضطر رومل إلى التراجع والجيش الكبير للماريشال بولوس إلى الاستسلام.

وكانت معركة ستالينغراد منعطفاً في الحرب. والبقية معروفة : حملات إيطاليا وروسيا؛ عمليات الإنزال في يونيو/حزيران وأغسطس/آب 1944 في فرنسا؛ استسلام ألمانيا في 8 مايو/أيار 1945 واستسلام اليابان في 15 أغسطس/آب من السنة نفسها. وكانت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان الإمبراطورية قد استسلمت "دون شروط".

وانتحر أدولف هتلر في ملجئه في مستشارية برلين. وقُتل موسوليني على يد

الأنصار، وعلق من رجليه في مجزرة في ميلان. ووحده الميكادو، أي الإمبراطور الياباني، أنقذ حياته وعرشه، لأن قنصل الإقليم الأميركي ماك آرثر (MacArthur)، رأى أنه لا يمكن الاستغناء عنه. وقد رُبحت هذه الحرب الفظيعة والمبررة في البداية بصلابة الشعب الانجليزي البطولية ورباطة جأشه لسنوات 1941 و1942 : "أجمل الساعات" التي يتحدث عنها تشرشل. ثم، على وجه الخصوص وابتداءً من عام 1942، بجنود المشاة الروس والعمال الأميركيين. وقد لعب الاتحاد السوفييتي الدور الذي كانت قد لعبته فرنسا عام 14. وستالينغراد هي فردان. أما الأميركيون، ودون نسيان الشجاعة والدور الرئيسي لجيشهم، على سبيل المثال في العملية البحرية الجوية الرائعة لإنزال 6 يونيو/حزيران 1944، فقد ربحوا الحرب على وجه الخصوص في مصانعهم. وكانت الولايات المتحدة قد تفوقت هنا نهائياً على ألمانيا، أول قوة صناعية سابقاً. ولا يجب أن ننسى أيضاً دور المقاومات.

ويبقى أن نجري معاينة ونطرح سؤالين:

المعاينة: وهي شجاعة الجنود الألمان. وحجاج الإكراه حجاج واه. فلا أحد يُكره الجنود على أن يكونوا باسلين. ومثال الإيطاليين يبين ذلك: فقد كانوا بواسل ضد الأتراك في ليبانت (Lépante)، وكانوا سيئين عام 1942 لأنهم لم يكونوا متحمسين. وعلى العكس، لم يكن للجيش الألماني قيادة جيدة فحسب، بل كان بطولياً. وفي ديسمبر/كانون الأول 1944، كان الوهرماشت لا يزال يصطدم بالحلفاء في الأردان (les Ardennes). واستطاع جميع الجنود الروس، والأميركيين، والانجليز والفرنسيين ملاحظة البطولة المأسوية لمراهقي شباب هتلر وهم يطلقون النار عليهم وسط الأطلال. ويأتي غبن الذات الألمانية من كون أنه يستحيل عليها أن تضطلع ببطولة جنودها وتحتفي بها. وقد نصّب الفرنسيون "الجندي المجهول" تحت قوس النصر ونابوليون في الإلينفاليد (Invalides). ولا يمكن إلّا كبت شجاعة الجنود الهتلريين، ما دام الرعب

المنحرف للقضية التي يدافَع عنها تجعل من الاحتفاء بها أمراً مستحيلاً. وقد مات الجنود الألمان مرتين: مرة في الحرب وأخرى في ذاكرة أبنائهم.

والسؤال الأول هو سؤال المحرقة. كيف كان هذا الرعب الذي لا إسم له ممكناً؟ و"معسكرات الاعتقال" ليست اختراعاً ألمانياً: فقد استعملها الانجليز ضد البويريين، والغولاغ. ولكن معسكرات "الإبادة" خاصة بالهتلرية. صحيح أنه لم يذهب ضحيتها اليهود فقط. فقد مات فيها كثير من المقاومين، ولكن اليهود (والغجر) حظوا بـ"معاملة خاصة": فمن بين 9 ملايين ضحية، كان هناك 6 ملايين يهودي... ومات معظم الباقين من سوء المعاملة وانعدام الغذاء. ولم تكن غرف الغاز قد بنيت للمرحلين "العاديين"؛ بل أعدت من أجل "العرقيين".

وكان النازيون قد حاولوا ممارسة إبادة المعوقين قبل الحرب. وكانوا قد اضطروا للتخلي عنها تحت ضغط الكنائس. ولكن جنون أدولف هتلر وجد في حالة الحرب ستاراً ملائماً. ومنذ يناير /كانون الثاني، أكد في خطاب له "أن الحرب تعني الدمار الجسدي لليهود". وكان قرار إيجاد "حل نهائي" لـ"مشكلة" اليهود قد اتخذ في 20 يناير/كانون الثاني 1942 خلال المؤتمر السري لفانزي (Wannsee). وبدأت المجازر فوراً.

هل كان الحلفاء على علم بذلك؟ لقد عرفوا من خلال قنوات عديدة : اللاجئون اليهود بالنسبة للولايات المتحدة والكنيسة الكاثوليكية بالنسبة للفاتيكان. ولكنهم لم يكونوا يريدون تصديق ذلك: كان ذلك فظيعاً جداً... كما أنه كان بالنسبة لهم مسألة ثانوية. كان روزفلت يقول: "أنا لا أحارب عن اليهود"، وكان بيوس الثاني عشر (Pie XII)، يفكر أولاً في أمن الكاثوليك الألمان. وكان النصر بالنسبة للحلفاء ذا أولوية. وباستثناء صهاينة أوروبا الشرقية، كان المقاومون اليهود يعتبرون أنفسهم في المقام الأول جنوداً فرنسيين؛ والجنود الأميركيون (Gis) الأشكناز من بروكلين، جنوداً أميركيين. وقد عرف ديغول الذي ابتعد طوعياً عن القضايا الكبرى، ملاحقات اليهود،

ولكنه لم يعرف عمليات الإبادة. وحتى القادة اليهود لييشوف (Yichouve) فلسطين أنفسهم استهانوا بهم.

وقد عرف التاريخ مجازر عديدة، ولكنه لم يعرف قط مجزرة صناعية مثل الهولوكوست. وأبعد من أن يكون تفصيلاً (وقد كانت كذلك من وجهة النظر العسكرية المحض)، كانت غرف الغاز توقيعاً معنوياً للرعب النازي. والحرب ليست مجرد"سياسة بوسائل أخرى" (على حد قول كلوزفيتز) بل هي أيضاً أخلاق" (على حد قول ديغول).

والسؤال الثاني الواجب طرحه هو سؤال هيروشيما. ففي 6 أغسطس/آب 1945، أمر الرئيس ترومان، الذي كان قد خلف، من خلال لعبة نيابة الرئيس، الرئيس روزفلت، الذي توفي بعد مرض في 12 ابريل/نيسان، برمي قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، متبوعة بأخرى بعد ثلاثة أيام، على ناغازاكي. (وكان أول تفجير تجريبي قد تم في صحراء نيفادا.) وهي سلاح مروّع وضعه علماء العالم أجمع، بمن فيهم اينشتاين.

هل كان ذلك قابلاً للتبرير؟ ولصالح قرار ترومان، يجب أن نلاحظ أنه خلافاً لألمانيا النازية، كان اليابان لا يزال قوياً وكان مقاتلوه بواسل جداً إلى درجة أن "المارينز" استغرقوا وقتاً كي يعرفوا كيف يواجهونهم. ولم يستطيعوا إخضاع مدينة أوكيناوا إلّا بعد معارك دامية. وكانت روح "الساموراي" أو "الكاميكاز" تلهب الجنود اليابانيين. وكان يُخشى أن يكلف غزو أرخبيل اليابان حياة مئات الآلاف من الجنود الأميركيين. ومن وجهة النظر الأخلاقية، هناك فرق بين غرف الغاز والقنبلة الذرية: فالقنبلة تقتل ولكنها لا تهين...

وأيا كان، فقد أحدثت القنابل الذرية أثراً مرعباً، بينما عمليات القصف"الكلاسيكية" لطوكيو والتي قتلت مثل ذلك العدد من البشر (100.000) لم تكن قد روّعت اليابانيين. وقد تحدث الإمبراطور في الإذاعة، للمرة الأولى. وقال لشعبه إنه يجب "قبول ما لا يُقبل والرضوخ لما لا مفر منه ". واستسلم اليابان.

كانت الحرب العالمية الكبرى قد انتهت.

وفي هيروشيما ماتت فكرة معينة عن التقدم.

وفي أوشفيتز، ماتت عقيدة سلمية معينة: ألا وهي فكرة، وهي للأسف خاطئة، أن كل شيء أفضل من الحرب.

الحرب الباردة

كانت الحرب العالمية مفلوجة. لم تسيّر بالطريقة نفسها ولم تترك الذكريات نفسها في الشرق والغرب. وقد عرفت فرنسا مدناً محروقة بسكانها (أورادور سور-غلان (Oradour sur-Glane)، ولكن في روسيا المحتلة، كانت هناك أكثر من ألف وتسعمائة. ومن ناحية أخرى، لم تعرف القارة الأميركية الدمار خلافاً للعالم القديم. وفي عام 1945، كان شرق أوروبا، ألمانيا، فرنسا قد صار خراباً. ويجب أن نتذكر الحالة التي وجدت فيها الحكومة المؤقتة فرنسا: ما من جسر، ومدن نورمانديا إلّا وسويت بالأرض، والصناعة مدمرة.

وكان هناك عملاقان سرّحهما شعباهما: تشرشل الذي هزمه العماليون في الانتخابات، وديغول الذي استقال في يناير/كانون الثاني 1946. وقامت في فرنسا الجمهورية الرابعة، من 1946 إلى 1958. وغرقت حكوماتها الضعيفة، التي تعرضت للمعارضة الشيوعية والديغولية، في المشكلات الاستعمارية. ومع ذلك فقد تمكنت من إعادة بناء البلاد وتحديثها. وكان جيل جديد قد أمسك بمقاليد الأمور، يساراً ويميناً: ألا وهو جيل المقاومة.

وكان زمن المؤتمرات الرباعية، الغربيون-الاتحاد السوفييتي (طهران، يالطا، بوتزدام)، قد ولّى. بيد أن منظمة الأمم المتحدة سوف لن تعرف مصير عصبة الأمم: وسوف لن يرغب أحد بتركها. كما أنها تضم مجلس أمن تكون الولايات المتحدة والصين وبريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفييتي جزءاً منه بالضرورة (وهو نجاح لا إرادي لديغول). فالجنرال، بعد أن حاول العودة إلى

السلطة عن طريق الانتخابات (الـ (RPF)) دخل في "خلوة" في بيته في كولومبي (Colombey)، في الأوت- مارن (Haute- Marne).

ومنذ نهاية الحرب، كان الأميركيون مستعجلين إلى العودة إلى ديارهم. "عد بالجنود إلى البلاد". وكان الجيش الأحمر يحتل ألمانيا الشرقية، وبولونيا وأوروبا الوسطى والبلقان، باستثناء اليونان التي استمرت فيها الحرب الأهلية الملكية- الشيوعية إلى غاية 1948، واخترعت الولايات المتحدة مخطط مارشال، الذي ساعد أوروبا الغربية في الانطلاق من جديد.

أما ستالين، فلم تكن لديه أي رغبة في الانسحاب من البلدان التي كان يحتلها. ولم يكن محقاً في إبدائه شيئاً من التسامح مع البلطيق والبلغار والرومانيين والهنغاريين الذين كانوا قد قاتلوا تحت لواء الصليب المعقوف. أما بولونيا، فكانت إلى جانب الحلفاء، ولكن ستالين (الذي كان قد ترك الوهرماشت يسحق وارسو المتمردة) كان يريد أن ينصب هناك حكومة موالية له.

وقد ندد تشرشل، الذي كان دائماً بمثابة النبي، بـ"الستار الحديدي" (والعبارة له) الذي سقط على أوروبا.

وفي شباط/ فبراير 1948، كانت ضربة براغ. وفي 10 آذار/ مارس، ألقى جان مازاريك (Jan Masaryk)، وزير الخارجية، بنفسه من النافذة تعبيراً عن رفضه للوصاية السوفييتية (وربما دفعه أحدهم). وأصبحت جميع دول أوروبا الشرقية "توابع" أو "ديمقراطيات شعبية"، باستثناء يوغسلافيا. كان تيتو يريد أن يبقى شيوعياً، ولكن مستقلاً. وتردد ستالين أمام إصراره؛ إضافة إلى أنه لم يكن يملك جنوداً في يوغسلافيا-إذ كان الأنصار قد طردوا الألمان بمفردهم، مستغلين هزيمة النازية. لذا فقد ظلت "يوغسلافيا تيتو" منفتحة على الغرب.

وكانت برلين تزعج أكثر ستالين، إذ إن اتفاقيات 1945 تركت فيها جنوداً غربيين. وكانت هذه الجزيرة الصغيرة استثناءً. فأمر ستالين بالحصار البري. فرد ترومان بجسر جوي كثيف: خلال عام، كانت المئات من قاذفات القنابل الثقيلة

تجلب إلى برلين المؤونة الضرورية. ولم يجرؤ السوفييت على إطلاق النار على الأميركيين.

وهنا يكمن مبدأ "الحرب الباردة" ذاته: فلم يحدث أبداً أن تواجه الأميركيون والروس مباشرة، إذ كان الاتحاد السوفييتي آنذاك يملك القنبلة الذرية. ويمكن أن نفكر بالسوء في القنبلة الذرية، ولكن وجودها جنّب العالم الأسوأ! وولد آنذاك ميثاقان عسكريان متناقضان: حلف الشمال الأطلسي (OTAN)، الذي كان يجمع الغربيين (ولا يزال موجوداً) وميثاق وارسو حلف وارسو (1955)، الذي كان يضم توابع الاتحاد السوفييتي.

وفي وجود القنبلة الذرية لم يكن بمقدور الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أن يتحاربا مواجهة دون دمار متبادل. ويميل الناس إلى نسيان هذا، ولكن الحروب لا يشنها أبداً أناس يظنون أنهم سوف يلقون فيها حتفهم؛ وحتى هتلر كان يعتقد أنه سوف ينتصر بسهولة.

وتذكر ستالين آنذاك أن الإيديولوجية الشيوعية كانت موجودة. فاستعمل العقيدة. وكان ماو- تسي- تونغ والحزب الشيوعي، على وجه الخصوص، قد استوليا للتو على السلطة في الصين، وفرَّ تشانغ -كاي- تشيك إلى تايوان، والتي لا تزال حالياً منفصلة عن الصين.

وهنا بدأت حرب كوريا. وكانت كوريا في الهدنة قد قُسمت إلى دولتين: الشيوعية في الشمال والموالية لأميركا في الجنوب. وغزا الكوريون الشماليون الجنوب في 25 يونيو/حزيران 1950. فأرسل الأميركيون جنوداً تحت راية الأمم المتحدة وبقيادة ماك آرثر (وكان من بينهم فيلق فرنسي). وقد قضي عليهم. ونفذ ماك آرثر إنزالاً بحرياً وجوياً على الخطوط الخلفية، في سيول، وكان الدور على الكوريين الشماليين كي يتراجعوا. وتدخل الجيش الصيني. وحين وصل ماك آرثر إلى حدود الصين، أراد أن يرسل إلى الصين القنبلة الذرية.

ولحسن حظ السلم العالمي، كان أيزنهاور (منظم إنزال نورمانديا) قد

انتخب لتوه رئيساً للولايات المتحدة (1952). ولم يكن يريد حرباً ذرية: فأقال المنتصر العظيم في المحيط الهادي. والسلطة المدنية هي التي تحكم في أميركا. واستقرت الجبهة في النهاية على حدود الكوريتين، اللتين تتوجسان اليوم من بعضهما.

وكان هذا الصراع المحلي الأول للحرب الباردة عنيفاً جداً. ولم يلتق هناك أبداً أي جندي أميركي بجندي روسي، ولكن أميركا كانت مع ذلك في صراع مع الصين الشيوعية، وهذا ليس بالأمر الهين. وقد سقط في صفوف الأميركيين 34.000 قتيل، وفي صفوف الكوريين الشماليين والصينيين مئات الآلاف. وكان الجيش الأميركي لا يزال هو نفسه جيش الحرب العالمية الثانية، وكانت اليابان، المهددة مباشرة، تمثل بالنسبة للولايات المتحدة رهاناً رئيسياً.

في أثناء ذلك، مات جوزيف ستالين، عن عمر يناهز الرابعة والسبعين، باحتقان دماغي. وبدا من جاؤوا من بعده (مالنكوف (Malenkov)، وبولغانين (Boulganine)) أكثر حذراً.

وتحولت الحرب الباردة إلى منافسة. وفي يوم 4 أكتوبر / تشرين الأول 1957، أرسل الاتحاد السوفييتي القمر الاصطناعي سبوتنيك إلى الفضاء. وأصيب الأمريكيون من ذلك بالذهول والقلق. كان السبوتنيك يعني كذلك أن السوفييت كانوا يستطيعون ضرب الولايات المتحدة في عقر دارها. ومنذ انتخابه عام 1960، رفع كنيدي التحدي ونزل الأميركيون على سطح القمر عام 1969. ومنذ ذلك الحين انهار الاتحاد السوفييتي وتباطأت عجلة غزو الفضاء. ولو أن الحرب الباردة استمرت، لكان الأميركيون الآن قد بلغوا المريخ!

بيد أن بلدان الشرق كانت تتململ. كان الجيش الأحمر قد فرض عليها الشيوعية، رغم، أو بسبب التخلي عن الستالينية الذي قام به خروتشوف (Khrouchtchev)، (فحين تصير الديكتاتورية "ليبرالية" يبدأ الاعتراض عليها)، تمردت بودابست في أكتوبر/تشرين الأول 1956. وسحقت الدبابات السوفييتية

التمرد. وكانت حصيلة القمع مروّعة: آلاف القتلى. وبموجب الميثاق الضمني للحرب الباردة، لم يحرك الأميركيون ساكناً.

وقد تميز عام 1958 بالتغيير. ففي فرنسا، بدت الجمهورية الرابعة عاجزة عن تسوية المشكلة الجزائرية، ودعا المجلس ديغول إلى السلطة. فأسس الجمهورية الخامسة، التي نجحت في التوفيق، لمدة معينة، بين حكومة قوية والديمقراطية الفرنسية. ولم يكن ديغول، وهو بالطبع لم يكن شيوعياً، يخشى الحمر، الذين خالطهم وخبرهم أثناء المقاومة. وكان يريد أن تكون لفرنسا سياسة مستقلة. وفي سبيل ذلك، كان عليه استعمال الاتحاد السوفييتي ثقلاً موازناً للولايات المتحدة. وفي الولايات المتحدة، انتُخب رئيس ديمقراطي عام 1960: هو جون فيتزجيرالد كينيدي (John Fitzgerald Kennedy)، (أول رئيس كاثوليكي)، مؤيد لـ"الانفراج" مع روسيا.

وفي الصين، كان ماو -تسي - تونغ، الغاضب من الموقف الروسي خلال حرب كوريا، يريد الشيء ذاته. واعترف ديغول بالنظام الصيني، وهو ما أثار سخط التقاليديين. وفقدت الحرب الباردة وهجها، إذ سوف يكون لكل معسكر منشقوه: لأميركا، فرنسا الديغولية التي تزودت بسلاح نووي، وللاتحاد السوفييتي، الصين الماوية التي فعلت مثل ذلك. وبعد قليل، نشأ تحالف من الخلف أميركي- صيني ضمني ولكنه مهم. كانت مواجهات كوريا قد نُسيت بموجب المبدأ القائل: "عدو عدوي صديقي."

غير أن الحرب الباردة عرفت عاصفة أخيرة: أزمة كوبا. فمن المفارقة أن الجزيرة المتمردة على الزعيم السياسي الفاسد والقاسي، ألا وهو باتيستا، صارت شيوعية. ولم يكن زعيم الثورة، تلميذ اليسوعيين، شيوعياً. ولكن الحماقة العنيدة للهيمنة الأميركية دفعته فيما بعد إلى أن يصبح كذلك، باحثاً بذلك عن الحماية الروسية. وقبل به الأميركيون، على مضض، لأن الولايات المتحدة كانت تملك على الجزيرة قاعدة غونتنامو الكبيرة (المتنازل عنها بإيجار عام 1898)، والتي تجنب فيدال كاسترو المطالبة بها.

وأصاب الشطط كاسترو الذي كان يؤيد برخاوة حروب العصابات في أميركا اللاتينية -حيث برز صديقه الأرجنتيني "تشي" (="أرجنتيني") غيفارا- فتهور وترك الروس ينصبون صواريخ في كوبا.

وكانت لا مسؤولية خروتشوف أكبر بكثير. كيف تخيل أن الأميركيين كانوا سيسكتون؟ وسرعان ما علمت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) التي كانت عالية الكفاءة آنذاك، بوجود تلك الصواريخ على بعد 100 كيلومتر من السواحل الأميركية. فأرسلوا صوراً عنها إلى ديغول. كان هذا الأخير يقاتل ضد هيمنة الولايات المتحدة، دون أن ينسى أنه حليفها. فأيد تأييداً مطلقاً الرئيس كينيدي. وهدد هذا بإغراق السفن الروسية التي تقترب من كوبا. فاستسلم خروتشوف وفكك صواريخه (آب/أغسطس 1962).

كان العالم يتّقد! وعبارة "على حافة الهاوية" غير مبالغ فيها. وقد أشار إلى ذلك الشهود، ومنهم كاتب الدولة الأميركي ماكنامارا (MacNamara).

وكان خطر الردع النووي ماثلاً. صحيح أنه جنّب عدة حروب بين روسيا وأميركا، ولكنه يقوم على الخدعة: فكي يسير النقاش، لابد أن يكون ذا مصداقية، فالأمن الأقصى يقوم على الترهيب الأقصى. وهو ما جعل ريمون آرون (Raymond Aron)، يكتب عن الحرب الباردة : "سلام مستحيل، حرب مستحيلة." ويتطلب الردع من القائد الأعلى الذي يعود إليه القرار (الحقيقة أن شخصاً واحداً يجب أن "يضغط على الزر" : ولذا فإن الرئيس الفرنسي كان يحمل دائماً حقيبته الذرية) أن يتمتع ببرودة أعصاب تامة.

ونستطيع أن نشكر كينيدي على أنه كان كذلك. كما أن جون فيتزجيرالد كينيدي، قد اغتيل في العام التالي في دالاس (23 نوفمبر/تشرين الثاني 1963) لأسباب ظلت غامضة لا علاقة لها على الأرجح بهذه القصة.

وبعد هذه الأزمة، حملت الحرب الباردة الشريكين على شن حروب سخيفة وارتكاب أخطاء متناظرة عكسياً في فييتنام وأفغانستان.

وفي الهند الصينية، بعد رحيل الفرنسيين (1954-1955)، كانت فييتنام قد

قسمت إلى قسمين: في الشمال، دولة شيوعية، يرأسها هوشي مين (Hô Chi Minh)؛ وفي الجنوب، دولة موالية للولايات المتحدة، يرأسها الكاثوليكي ديام (Diem). وبسرعة كبيرة، اجتاح الجنوبَ شيوعيو الشمال، ولكن من دون تكرار خطأ الكوريين الشماليين: فقد اتخذ غزوهم شكل تسللات سرية وتأطير حروب العصابات الشيوعية جنوب فييتنام.

أرسلت الولايات المتحدة إلى المكان نفسه العديد من المستشارين العسكريين. وانتقل الرئيس جونسون، خليفة كينيدي، إلى الحرب المفتوحة. وبلغ تعداد الحملة العسكرية الأميركية 500.000 جندي. وأمر جونسون بقصف الشمال. وفي الجنوب، تواجه في معارك منظمة حقيقية كل من الأميركيين وأنصارهم الفيتناميين والجنود النظاميين الشيوعيين.

وقد أبلى الأمريكيون بلاء أقل من الفرنسيين، الذين احتل جيشهم (وكان أقل بثلاث مرات) في فترة الحرب، فييتنام كلها. صحيح أن الفرنسيين كانوا يعرفون البلد منذ زمن طويل، وكان الأميركيون لا يعرفون عنه شيئاً. ورغم الوسائل الكبيرة–مئات المروحيات (أنظر فيلم القيامة الآن *(Apocalypse Now)*، وقاذفات القنابل الثقيلة، والمدفعية–، ضاع الجيش الأميركي في الأدغال، وازداد عداء السكان لهم أكثر فأكثر.

وفي يوم عيد رأس السنة في فييتنام، (عيد التيت((Tet) احتل النظاميون الشيوعيون سايغون وهُوِ (Huê)، اللتين كان من الصعب ترحيلهم عنهما.

في تلك الفترة، كانت الصحافة تفعل ما تشاء. وكانت العائلات التي بقيت في البلاد تستطيع أن تشاهد من خلال أجهزة تلفازها على المباشر المعارك والقتلى والجرحى. ولم يكن الرأي العام يفهم جيداً ما الذي كان يفعله الجنود الأميركيون في هذا البلد المجهول (كان التجنيد آنذاك لا يزال سارياً). فطالب بانسحاب الحملة العسكرية. ووافق الرئيس نيكسون على ذلك. وفي ابريل/ نيسان 1975، كان جلاء الجنود الأميركيين يشبه الانهيار المفاجئ (وكان

الفرنسيون قد رحلوا، قبل عشرين عاماً، بالتسلسل). ورغم شجاعة الفيتناميين، فإنهم لم يكونوا هم من هزم الأميركيين، وإنما الرأي العام الأميركي الذي فرض نفسه على حكومته. وكانت المقاومة الفييتنامية قد قضت على شعبية الحرب إلى درجة أن أصبح الرئيس لا يستطيع أن يواصلها. وقد نوهنا مراراً بأهمية تأييد الرأي العام. وقد كانت الحركة المناهضة للحرب قوية ومتعددة الأشكال. كان حوالى 50.000 جندي أميركي قد قتلوا وفقد الفييتناميون 730.000 مقاتل.

واحتفظ الأميركيون طويلاً من حرب فييتنام هذه بصدمة كبيرة: كانت تلك أول هزيمة للجيش الأميركي. وتوحدت فييتنام آنذاك تحت نظام شيوعي. ويذهب قدامى المحاربين الأميركيين اليوم إلى هناك في رحلات سياحة الحنين إلى الماضي.

وفي أفغانستان، اقترف الروس الخطأ نفسه، وكانت حجتهم أن أفغانستان تحاذي حدود الاتحاد السوفييتي وتفصله عن المحيط الهندي. فاجتاح الاتحاد السوفييتي أفغانستان لدعم الحكومة الشيوعية في كابول. ولكن الروس كانوا في نظر السكان، مثل الأميركيين في فييتنام، جيش احتلال. وحلت جبال الإندوكوش (Indoukouch)، محل الدغل. ويعتبر الأفغان مقاتلين، سواء كانوا بشتوناً أو طاجيكاً. وصنع قائد الشمال، القائد مسعود، لنفسه اسماً. وكانت القبائل المتنوعة يوحدها الإسلام.

وكان الشيوعيون الروس قد ساندوا الفيتناميين الشماليين؛ وساندت السي آي إي المسلمين، وكوّنتهم وسلّحتهم ضد السوفييت. وكان الجيش الروسي (مثل الجيش الأميركي في فييتنام) جيش تجنيد. ورفض الرأي العام الروسي بوضوح متزايد الحرب التي كان يديرها قادته في أفغانستان. وسوف يعترض البعض علينا: نحن ندرك الأهمية التي يكتسيها الرأي العام في الولايات المتحدة، البلد الديمقراطي؛ ولكن أي دور يمكن أن يلعبه الرأي العام في

ديكتاتورية مثل الاتحاد السوفييتي؟ وسوف نجيب من جديد: كل سلطة، حتى وإن كانت ديكتاتورية، تقوم على ولاء الرأي العام (باستثناء وحيد هو الحكومات الصورية التي يدعمها جيش احتلال أجنبي، كما كان حال حكومة فيشي مع النازيين و"الديمقراطيات الشعبية" مع الجيش الأحمر).

وما من ديكتاتورية روسية (لا القياصرة ولا السوفييت) استطاعت أن تخرس الجدَّات في روسيا. فـ"البابوشكات" (babouchkas) مقدسات. وكن يكرهن رؤية أحفادهن يعودون في أكياس الجثث. فأمر الأمين العام الجديد، غورباتشيف (Gorbatchev)، بالجلاء عن أفغانستان عام 1988. وكان قد وقع في صفوف الروس 20.000 قتيل، وفقد الأفغان مليون ضحية.

وكانت هاتان الحربان المتعاكستان، الأميركية المناهضة للشيوعية والروسية المؤيدة للشيوعية، آخر انتفاضات الحرب الباردة. وهما متشابهتان تماماً. وقد استمرتا للمدة ذاتها. وقد كبدتا الغزاة وكذا المغزيين العدد نفسه من القتلى. وقد اصطدمتا بالوطنيات المحلية المدعومة، الفييتنامية من الاتحاد السوفييتي والأفغانية من الولايات المتحدة. وكان الأميركيون والروس غرباء تماماً في هذه البلدان المجهولة لديهم. وكان الأميركيون يكرهون الأدغال الاستوائية ويكره الروس، وهم شعب سهلي، الجبال. وقد خُسرت الحربان، لا بسبب بسالة الأعداء ولكن نظراً للمعارضة الشرسة لهما من الرأي العام الأميركي والروسي على التوالي. وقد انقلبت إلى كابوس بالنسبة للحكومات الغازية وانتهت بما يشبه الهروب.

بيد أن هناك بينهما اختلافاً أساسياً. وقد هزت الولايات المتحدة حربُ فييتنام، لكنها لم تحطمها. وبدا المجتمع الأميركي قوياً جداً لتحمل الضربات والاستمرار في الحياة. وبالمقابل، دُمّر الاتحاد السوفييتي في حرب أفغانستان. ولم يصمد النظام أمامها. ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد لانهياره، وسوف نرى ذلك، ولكنه كان السبب الأخير.

اجتثاث الاستعمار

حرب الجزائر

في عام 1945، كانت الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الكبرى لا تزال تملك نصف الكرة الأرضية. وقد لعبت كل منها، وقد قلنا ذلك، دوراً أساسياً في دعم بلدها الأم: الجيش الأفريقي لصالح فرنسا وجيش الهند لصالح بريطانيا العظمى (وكان من حكمة المهاتما غاندي أنه فضل، خلافاً لبعض المناضلين الهندوس، انجلترا على ألمانيا النازية). ولكن العواصم كانت في سبيل الحصول على دعم رعاياها، مكرهة على تقديم تنازلات (خطاب ديغول في برازافيل). ومن ناحية أخرى، كان المنتصران الرئيسيان كلاهما يعتبران نفسيهما (أميركا وروسيا) "مناهضين للاستعمار".

والواقع أن الولايات المتحدة أجبرت الجيش الهولندي، الذي عاد واحتلّ بغلبة أرخبيل اندونيسيا الكبير، على الجلاء عنه. وفي عام 1949، أصبحت اندونيسيا مستقلة بقيادة زعيم نصّبه اليابانيون في زمن وجودهم في جاوة: ألا وهو سوكارنو.

وفي عام 1945، كان ديغول قد أعاد احتلال الهند الصينية (التي كان قد انسحب منها الجنود اليابانيون) عن طريق الجنرال لوكلارك. وفهم لوكلارك بسرعة أن الحل الوحيد، بعيداً جداً عن فرنسا، هو الاستقلال المتفاوض عليه. فالتقى بالزعيم الشيوعي هو شي مين. ولكن، لأن ديغول كان قد استقال في يناير/كانون الثاني 1946، فقد أفشلت الجمهورية الرابعة المفاوضات (فونتانبلو (Fontainbleau) وانخرطت في حرب لا نهاية لها: حرب الهند الصينية.

وفي الهند، وافقت الحكومة العمالية الانجليزية على ما لم تكن تستطيع تفاديه: ألا وهو الاستقلال. وأرسل إلى هناك اللورد ماونتباتن (Lord Mountbatten)، بصفته آخر ملك بالنيابة. ولأن غاندي، الذي صار عجوزاً، اعتزل في دوره بصفته مرشداً روحياً، فقد كان محدث ماونتباتن هو رئيس حزب المؤتمر، البانديت نهرو (Pandit Nehru).

وكان نهرو المتأثر جداً بالانجليز، لأنه درس في الجامعات البريطانية، يتمتع بسلطة كبيرة. (وللطرفة، كان نهرو والسيدة ماونتباتن لم يضجرا من بعضهما قط). وتم التفاوض على الاستقلال بسهولة.

ولم يكن الانجليز في كل مكان بالهدوء نفسه. وخاضوا الحرب (دون جدوى) للاحتفاظ بماليزيا و(بصورة أكثر فعالية) ضد مو مو (Mau Mau) كينيا.

وفي 15 أغسطس/آب 1947، هتف نهرو: "بينما نام العالم، استيقظت الهند على الحياة وعلى الحرية!" ولكن المسلمين لم يكونوا يريدون التعايش مع الهندوس. وترجع الكراهية بين المسلمين إلى الغزو التركي- المغولي ولم تخمد حتى اليوم.

وأعلن المسلمون، وهم غالبية في وادي الأندوس ودلتا الغانج، استقلال باكستان تحت إدارة الجنا (Jinnah). وكان التقسيم مأسوياً. ولا يزال كثير من الهندوس يقيمون في الأندوس، وكثير من المسلمين في الهند. وقد أدى هذا التقسيم إلى تبادلات مفاجئة للسكان (غيّر 20 مليون شخص مساكنهم) مصحوبة بمجازر رهيبة. وفي 30 يناير/ كانون الثاني 1948، اغتيلت الشخصية الهندية الكبيرة، ألا وهو غاندي، على يد متعصب هندوسي. كما أن طرفا باكستان لم يبقيا طويلاً موحدين، فقد فرقتهما شساعة القارة الهندية: وانفصلت باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، وحملت اسم بنغلاديش. وفضلت سيلان (سريلانكا) أيضاً الاستقلال، مثل بيرمانيا. وانشطرت إمبراطورية الهند القديمة إلى أربعة أجزاء.

وتتواجه باكستان والهند، وهما اليوم قوتان ذريتان، منذ خمسين سنة حول كشمير، المقسمة، والتي خاضا فيها حرباً دائمة. ولم يخشيا الحرب المفتوحة مرتين (1964، 1970). وفي عام 1962، قاتلت الهند أيضاً صين ماو. وإن كانت باكستان ديكتاتورية، فقد تمكنت الهند، رغم الضغوطات، من البقاء "أكبر ديمقراطية في العالم"، ولكن التباينات زادت بين الدكان (Dekkan)، - التاميلي والحديث- ووادي الغانج. أما سريلانكا، فقد كانت، ولا تزال، ممزقة

بحرب أشقاء، وهذه المرة، ليست بين الهندوس والمسلمين، وإنما بين الهندوس (التأميل) والبوذيين، لأن الجزيرة هي البلد الوحيد في شبه القارة الذي تشكل فيه البوذية أغلبية (مع بيرمانيا).

وفي الهند الصينية، ولأن الصين كانت على الأبواب، فقد صارت الحرب في غير مصلحة الفرنسيين، الذين لم يكن لديهم آنذاك إلّا عساكر محترفين (100.000 رجل من تونكين في كوشينشين، مقارنة بالجنود الأميركيين الـ500.000 لحرب فييتنام). وكان كثير من أولئك العناصر يأتون من الجزائر، والمغرب الأقصى، أو أفريقيا السوداء. وأرادت القيادة الفرنسية حمل "الفييتناميين" على خوض المعركة تحت نار حصن، لتونكين العليا: ديان بيان فو (Diên Biên Phu). ولم تكن غبية، إذ لأنها كانت تعتقد أن جياب (Giap)، (الجنرال فييتمين (Vietminh)) لم تكن لديه مدفعية. ولكن جياب أحضر مدافع ببذل جهود خارقة، وكان المعسكر المتحصن مجبراً على الاستسلام يوم 7 مايو/أيار 1954. وقد حددت هذه الهزيمة نهاية حرب فرنسا في الهند الصينية (التي تلتها حرب أميركا في فييتنام). كانت تلك أيضاً بداية القلاقل في الجزائر. وهناك رابط بين أحداث 7 مايو/أيار (ديان بيان فو) وأحداث أول نوفمبر/تشرين الثاني1954 في الجزائر (بداية الانتفاضة ضد فرنسا): فقد زعزعت الهزيمة الثقة.

وأكثر من ذلك، فقد كان نشطاء الجزائر في غالب الأحيان من قدامى نشطاء الهند الصينية. ومن الجانب الفرنسي، كان الضباط الذين كانوا يقودون في الجزائر قد تعلموا ما كانوا يسمونه "الحرب الثورية" في تونكين. ولم يكونوا يريدون، بأي حال، "الاستسلام". ومن جانب الثورة الجزائرية، كان كثير من القادة قد تعلموا "الحرب الثورية"، إنما مكررة، بصفتهم ضباط صف في الجيش الفرنسي. وقد تكلل قائدها بن بلة بالمجد في إيطاليا:

وفي الفاتح من نوفمبر/تشرين الثاني 1954، اندلعت حرب الجزائر.

واستطاعت الجمهورية الرابعة أن تفاوض دون مأساة على استقلال تونس

(مانديس فرانس (Mendès France)، بورقيبة) والمغرب (إدغار فور Edgar Faure)، السلطان بن يوسف) عام 1955.

ولم تكن محميات، تونس والمغرب سوى مستعمرتي إطارات (كوادر).

ولكنها لم تقرر فعل ذلك في الجزائر، وهي مستعمرة استيطان، يقيم فيها منذ زمن طويل مليون أوروبي، فرنسي-ممتاز (وإن كانوا غالباً من أصول أجنبية) -"الأقدام السود"-، وتسعة ملايين من الأنديجان المسلمين، يُعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية. ولم يكن الأوروبيون مستعدين لأي تنازل تجاه المسلمين، ولم يكن القادة العسكريون (العائدون من الهند الصينية) مستعدين لأي تسوية. وكان سكان العاصمة يؤيدونهم. وتم التصويت على "السلطات الخاصة" داخل المجلس (بمن في ذلك الشيوعيون) وتجرأت الحكومة (وذلك ما رفضت فعله في الهند الصينية) على إرسال الفيلق. لذا فقد أقام أكثر من مليوني شاب فرنسي في ما وراء البحر المتوسط. وتجاوزت مدة الخدمة العسكرية لـ"الاحتياط" أو "المقيمين" كما هي اليوم في إسرائيل، اثنين وثلاثين شهراً.

وسوف يضم الجيش الفرنسي قريباً 500.000 رجل في المكان عينه، ومنهم أفضل فيالقه (مظليين، فرقة أجنبية، الخ). وفي كل مرة كانت الحكومة تريد فيها تحسين وضعية الأهالي، كان يسقطها الأقدام السود، الذين كانوا ينشطون في باريس لوبيات مؤثرة: مظاهرات مدينة الجزائر، انتخابات معادية للبرلمان. وهكذا سقط يوم 21 مايو/أيار 1957 غي مولي (Guy Mollet)، وهو رجل شجاع، وبسيط واشتراكي وطني ولكنه ضعيف.

وتصفه حملة السويس المؤسفة بأكمله.

كانت مصر قد تحررت تماماً من الوصاية البريطانية بسقوط الملكية ووصول ناصر، القومي الاشتراكي العربي إلى السلطة. والحال أنه بعد تأميم قناة السويس، يوم 26 يوليو/تموز 1956، كان غي مولي قد استعرض عضلاته بتنظيم استرداد القناة (بالاشتراك مع الانجليز). وعلى الصعيد العسكري، تحقق نصر في أكتوبر/تشرين الأول. ولكن حين ضرب على الطاولة الآباء الصارمون،

الروس والأميركيون، خاف غي مولي (بعد رئيس الوزراء الانجليزي أنتوني إيدن (Anthony Eden)، وقفل راجعاً بجنوده على عجل.

ولم يكن ينبغي بالتأكيد إرسال المظليين الفرنسيين إلى بورسعيد، ولكن، بعد أن أُشهر السلاح، كان من السخف الرحيل بتلك السرعة. فليس أسوأ من استعراض قوة عاجزة. وقد عزز هذه الحدث الدامي موقف الضباط الفرنسيين المتصلب.

ويمكننا أن نقارن بين الحروب الإمبراطورية في كل من فييتنام وأفغانستان والجزائر: فقد استمرت كل واحدة منها سبع أو ثماني سنوات، وأوقعت العدد نفسه من القتلى (بضع عشرات الآلاف من الجنود الأوروبيين وبضع مئات الآلاف من الأنديجان)، وانتهت بانهيار مفاجئ.

ولكن حرب الجزائر كانت مختلفة تماماً عن الحربين الأخريين: فقد كان الفرنسيون في الجزائر منذ مائة وثلاثين سنة؛ وكانت حرب الجزائر حرب انفصال، انفصال الجنوب عن الشمال؛ وكانت على وجه الخصوص، وهذا جانب مهمل، حرباً أهلية. فلم يتواجه فيها فقط الجيش مع تمرد جبهة التحرير الوطني ج.ت. و(FLN)، ولا الأوروبيون مع المسلمين. بل قسّمت الأحزاب والعائلات. وكان هناك "أقدام سود" ليبراليون وكثير من الأنديجان الموالين لفرنسا.

وبعد أكثر من قرن من الوجود، كانت الروابط غير متكافئة ولكنها كثيرة: عمال مهاجرون في فرنسا، موظفون من البلد الأم في الجزائر، جزائريون متفرنسون. إذ إن كثيراً من الجزائريين المسلمين كانوا مؤيدين نشطين للجزائر الفرنسية. ويُذكر "الحركى"، ولكن هؤلاء لم يكونوا سوى جنود ميليشيات إضافيين قرويين، ينحدرون من مناطق قديمة (ومن هنا جاءت الصعوبات التي لاقوها في البلد الأم). وكان هناك المزيد من الموظفين والمعلمين والضباط الأنديجان "الجزائر فرنسية".

ويفسر جانب "الحرب الأهلية "هذا، التجاوزات المرتكبة من الجانبين، دون أن يبررها.

ومورس التعذيب على يد ضباط المخابرات وعمليات الذبح على يد الفلاقة (تسمية أطلقتها فرنسا على مقاتلي ج.ت. و: ملاحظة المترجم)، لأن كلا الخصمين كانا يريدان حشد ("العمل النفسي") السكان أو ترهيبهم. وقد استعملت ج.ت. ومتخفية وراء خطاب علماني أكثر، مستعار من الفرنسيين، التعصب الديني (وهو ما لا يتم التذكير به أبداً) أيضاً (الإسلامي تحديداً). وكانت فرنسا فعلاً "في بيتها" في الجزائر (خلافاً لأميركا في فييتنام وروسيا في أفغانستان)، ولكن ج.ت.و، كانت أيضاً في بيتها.

وكانت المعركة وحشية فعلاً! وقتل فيها 30.000 جندي فرنسي و200.000 جزائري (وليس "مليوناً"، فهذا رقم أسطوري).

وسحق الجيش التمرد، على الصعيد العسكري. واستعاد السيطرة على المدن (معركة الجزائر عام 1957)، وعلى الحدود (الحواجز المكهربة لخط موريس) وعلى الجبال (العمليات "التوائم" للجنرال شال).

وكان الفضل الكبير للجنرال ديغول ("خيانته" كما أعلن المتطرفون) أنه فهم أن هذا لم يكن كافياً. فجزائر 1958 لم يكن ممكناً إدماجها كما حدث مع السافوا (Savoie)، (ربما كان ذلك ممكناً بعد حرب 14؟).

ولكن، بما أن الشعب الفرنسي كان يؤيد بقوة "الجزائر الفرنسية" (كان عدد الفارين من الحرب ضئيلاً جداً)، فقد كان على الجنرال أن يلعب دور المعلم قبل الكشف عن جوهر تفكيره، وهو ما فعله في أيلول/سبتمبر 1959 من خلال خطابه عن"تقرير المصير". كان ديغول يريد أيضاً سحب الجيش الفرنسي من هذه الحرب القديمة لتحويله إلى جيش حديث، مزود بقوة ردع نووي. كما أن القنبلة الذرية الفرنسية قد جربت في الصحراء.

وفي عام 1960، منح الجنرال ديغول الاستقلال لجميع مستعمرات أفريقيا السوداء: السنغال، مالي، غينيا، الطوغو، داهومي، ساحل العاج، الكامرون،

الغابون، الكونغو، أفريقيا الوسطى، تشاد، مدغشقر. وأرادت بعض الأقاليم بإصرار أن تبقى فرنسية: كانت تلك محافظات وأقاليم ما وراء البحار.

وتعد فرنسا اليوم، إضافة إلى الولايات المتحدة (بورتوريكو وهاواي)، القوة العظمى الوحيدة التي احتفظت بأملاك استعمارية (فقد أخلت انجلترا كل مستعمراتها، باستثناء جبل طارق والمالوين). وهي تُتهم بأنها استعمار جديد. فقد كان هناك في سنوات 1960 أكثر من 100.000 "متعاون فرنسي". وهم اليوم 2000! وكانت هذه الدول تساند فرنسا (واللغة الفرنسية، الأمم المتحدة)، وتحتفظ فرنسا هناك بمصالح وقواعد عسكرية (دكار، ليبروفيل، أبيدجان، نجامينا، جيبوتي).

ومع ذلك ففي عام 1960، كانت الإشارة واضحة. ولم يخطئها المتطرفون الذين حاولوا تكرار تكتيكهم المعتاد للضغط: ألا وهو المظاهرات. ولم يكن ديغول غي مولي. ولم تثنه أيام المتاريس عام 1960 عما عزم عليه. وحين رأى هذا قسم من الجيش، لأول مرة في تاريخ فرنسا، ومعهم الجنرالات شال وسالان وجوهو وزيلر، دخلوا في تمرد.

وفي باريس، وحتى الإليزيه، كان الناس يرتعدون. وعندئذ ظهر في التلفاز القائد العجوز وسمع الناس واحداً من أشهر خطاباته:

"لقد قامت في الجزائر سلطة تمرد بواسطة انقلاب عسكري... ولهذه السلطة مظهر: أربعة جنرالات متقاعدين. وهناك حقيقة: جماعة ضباط متحزبين، وطموحين ومتعصبين، ذوي مهارة سريعة ومحدودة... أمنع أيا كان أن يمتثل لأمر من أوامرهم..."

هكذا استطاع أن يتحدث إلى "بلده العزيز والقديم" القائد الكاريزماتي!

وبالطبع، فإن جنود الاستدعاء الذين سمعوا هذا الخطاب على المذياع شنوا إضراباً. واستسلم الجنرالات المشاغبون الذين أصبحوا فيما بعد بدون جنود (شال) أو انساقوا مع الجنون الإرهابي لمنظمة الجيش السري (OAS)،

(سالان). وفي يوليو/تموز 1962، بعد الاتفاقات التفاوضية في إيفيان، حصلت الجزائر على استقلالها.

كانت لحظة مأسوية. فقد كان ديغول يأمل في أن يستطيع "الأوروبيون" البقاء في بلد أبنائهم ويساهموا في تنمية الجزائر. ولكن تعصب نشطاء منظمة الجيش السري وكذلك، والحق يقال، قصر نظر قادة ج.ت.و حال دون ذلك (وتكمن عظمة نيلسون مانديلا في أنه نجح في الإبقاء على الأفريقانيين في جنوب أفريقيا). وهكذا فرَّ مليون من الأقدام السود إلى فرنسا التي لم يسبق لمعظمهم أن رآها من قبل، ولكنهم اندمجوا فيها بصورة ملحوظة. وكانت فرنسا قد ربحت في ذلك، ولكن الجزائر خسرت.

كان نوعاً من البتر. فهل كان يمكن تفاديه؟ ما من قائد آخر غير ديغول كان يستطيع أن يقاوم تمرداً عسكرياً. واستمر العمال الجزائريون يهاجرون إلى فرنسا.

وقد سجل استقلال الجزائر نهاية العهد الاستعماري.

وفي الكونغو البلجيكي (الذي أصبح يسمى زائير ثم عاد يسمى الكونغو من جديد)، غادر البلجيكيون على عجل. وبما أنهم لم يكوّنوا أي إطار أفريقي، فقد تركوا الفوضى خلفهم.

وسوف يصبح البرتغاليون، إلى غاية سقوط كايتانو (Caetano)، عام 1975، آخر من يقاتل للاحتفاظ بمستعمراتهم الأفريقية في غينيا -بيساو، وأنغولا وموزنبيق.

وفي جنوب أفريقيا، البلد الذي كان يوجد فيه، مع الاستيطان الهولندي، نوع من "الجزائر الفرنسية " من كاب (Cap)، توصلت حكمة الأطراف، وعبقرية مانديلا وربما الانتماء المشترك للخصوم للدين نفسه، إلى اتفاق وضع حداً للتمييز العنصري عام 1991. وأصبح مانديلا رئيساً عام 1994. وبدا أن اجتثاث الاستعمار قد تم.

وبعد عشر سنوات، أصبحت أفريقيا السوداء مهددة بالفوضى. فقد أصبحت

الدول المنبثقة عن التقسيمات الإدارية الاستعمارية رسمية. وتفتك بشبه القارة هجرة أدمغتها، والإيدز والحروب الأهلية. والمجتمع الدولي ينأى بنفسه عن ذلك، كما حدث في رواندا عام 1994 (رغم تدخل فرنسي رمزي) مجازفة بأنها قد تتهم بالتواطؤ في المجازر؛ أو تتدخل عسكرياً، كما حدث عم 2004 حين تدخلت فرنسا في ساحل العاج، وجازفت بأنها قد تتهم بالاستعمار الجديد.

وإضافة إلى ذلك، فإن شعوباً كثيرة في أفريقيا، لم تهضم الحداثة بعد.

إسرائيل والفلسطينيون

ليس الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بفيلم ويسترن، إنه مأساة. ففي الويسترن، هناك الطيبون والأشرار؛ وفي المأساة الجميع على حق (أو خطأ).

كان لليهودية القديمة وجهان: ديانة تقليدية يقدم فيها الكهنة قرابين حيوانية في هيكل؛ وديانة مجلس يجتمع فيها المؤمنون في معابد ليسمعوا ويتأملوا الكتابات المقدسة.

وفي عام 70 من عصرنا، كان الإمبراطور القادم تيتوس (Titus)، قد سحق تمرداً يهودياً مدمراً هيكل أورشليم.

وفي عام 135، شتت الإمبراطور هادريان (Hadrien) اليهود، في أعقاب تمرد جديد.

وأصبحت اليهودية عندئذ ديانة مشتتة-الشتات –، بلا هيكل، ولم يبق لها إلّا التوق إلى فلسطين ("العام المقبل في أورشليم"). وما نراه في نشرة الأخبار المتلفزة، هو قواعد الهيكل المدمر، حائط المبكى؛ والمساجد التي بنيت على ساحته، قبة عمر والأقصى.

وأصبح اليهود الذين بقوا في فلسطين مسيحيين، ثم مسلمين (باستثناء جزء من طائفة صغيرة سمح لها بالعودة عام 394). وقد استقر أفراد الشتات في كل مكان تقريباً في العالم حول المعابد التي كانت موجودة من قبل (انظر رسائل بولس الرسول).

وكانت هناك أيضاً عدة حالات لاعتناق اليهودية، منذ قبائل المغرب البربرية (ومدير لونوفيل أوبسيرفاتور *(Nouvel Observateur)*، جون دانيال (Jean Daniel)، من السكان الأصليين المغاربة) حتى الطبقات القائدة للمملكة التركية للخزر. وسيكون هناك حتى دولة يهودية على الفولغا. ولا يمكن أن نستنتج من السحنة دين كل من سماعين أو جمال دبوز أو أنريكو ماسياس، والقبائلي زين الدين زيدان هو من الناحية البدنية "أوروبي" أكثر من جيرار دارمون. ومن هنا تأتي صعوبة تفسير كون شارون، وهو من نوع سلافي، أكثر سامية من عرفات، الذي يوافق بكل تقاطيعه كاريكاتير اليهودي سوس (Süss)...

في القرن التاسع عشر، كان اليهود كثراً في السلطنة العثمانية وفي إمبراطورية القياصرة الروس. وعند الأتراك، لم يكونوا يتعرضون لأي إزعاج بينما كانوا يتعرضون للذبح عند الروس. وكان عامة الناس يضرمون النار في بيوت اليهود دون أن تتدخل الشرطة القيصرية.

في تلك الفترة، فكر مثقف يهودي من فيينا، هو ثيودور هرتزل (Théodor Herzel)، في أن الفضيحة لا يمكن أن تستمر. وبما أن الدول الأمم كانت موضة آنذاك، فقد خطرت له فكرة أن يؤسس واحدة لتكون ملجأ للمضطهدين الإسرائيليين. وفي عام 1896، نشر كتابه "الدولة اليهودية". ولم تكن قضية درايفوس، التي جعلته يفقد أمله للحظة في الجمهورية الفرنسية، قضية غريبة عن مشروعه. وكانت "الصهيونية" قد ولدت (صهيون هو أحد الأسماء التوراتية لأورشليم). كان يمكن لهرتزل أن يقبل بملجأ في أوغندا، ولكن في النهاية، وبما أن كل النصوص التوراتية تتحدث عن فلسطين، قرر المؤتمر الصهيوني تأسيس الملجأ في البلد الأصلي لليهودية.

وهذا منطقي...

وكانت المأساة أن هذا البلد كان، منذ حوالى ألفيتين، مأهولاً من يهود سابقين وعرب مسلمين (أو مسيحيين). كان هناك بعض الطوائف شديدة الورع في صفد وأورشليم، وحيفا ولكنها كانت صغيرة جداً.

وقد كبت الصهاينة هذا الجانب غير المحبب من الواقع. وذهب هرتزل للتفاوض مع السلطان وعندما ادعى له وجود العرب في فلسطين، قدم حجة الطابع البدوي المرتحل وغير المقيم لهؤلاء. وهو ما كان غير صحيح، فكثير من العرب الفلسطينيين كانوا مزارعين. وقد اشترى أوائل المستوطنين الصهاينة، بتشجيع آل روتشيلد (Rothschild)، أراضي لتحويل تجار وخياطي الشتات إلى فلاحين شبيهين بالذين تتحدث عنهم التوراة.

وفي عام 1918، بادت السلطنة العثمانية. وكان الانجليز قد وعدوا في الوقت ذاته العرب بالاستقلال والصهاينة بوطن -لورانس (Lawrence)، وبلفور (Balfour!

واتسعت الحركة الصهيونية عقب الثورة السوفييتية واستقلال بولونيا. وحظيت الهجرة إلى فلسطين بالتقدير (فهي صعود). وتنحدر النخبة الإسرائيلية الحاكمة من شرق أوروبا (يهود ليتوانيا أو بولونيا). وتعددت الصراعات ثم الصدامات بين المجتمعات الريفية اليهودية (الكيبوتز (Kibboutz)، الشهيرون)والمزارعون العرب. وسرعان ما ابتلعت مدينة تل أبيب يافا. كان هناك 200.000 يهودي في فلسطين عام 1925، ثم 400.000 عام 1935، ثم 700.000 عشية الحرب العالمية، وكانت فلسطين تحت الحماية الانجليزية.

وخلال الحرب، تواطأ يهود فلسطين مع انجلترا. فشكلوا وحدات إسرائيلية، بينما كان مفتي القدس (بدافع من معاداة اليهودية) مناصراً للألمان. وفي عام 1945، أدركت القوى المنتصرة فجأة المحرقة، وأصابها تأنيب الضمير المتأخر.

وشرعنت المحرقة تفكير هرتزل في نظر الأمم. ولولا الصدمة الماثلة لتدمير يهود أوروبا على يد النازيين، لما لعب الاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة هذه الورقة.

ووافقت الأمم المتحدة عام 1948، على إنشاء دولة يهودية في فلسطين. ولم يكن يهود فلسطين (بيشوف) يتوقعون أكثر من ذلك. ولم يرق هذا لا للدول

العربية التي تحررت في الوقت نفسه-سوريا والأردن والعراق ومصر (وقد بقي وجود الانجليز فيها قوياً جداً إلى غاية ناصر). فاكتسحت جيوشها إسرائيل الجديدة. ولأن الجيوش العربية لم تكن قد قاتلت من قبل، فإنها لم تكن متعودة على الحرب. وكان الانجليز حذرين من تأييد العرب لألمانيا، وخلافاً للفرنسيين، فإنهم لم يستخدموهم ضد رومل. وكانت الهاغانا، التي تحولت إلى تساحال، متعودة على الحرب ومجهزة جيداً (بواسطة الروس وتشيكوسلوفاكيا). وقد كسبت حرب الاستقلال. ولاذ مئات الآلاف من الفلاحين الفلسطينيين بالفرار (وأقل ما يمكن قوله إن القادة الصهاينة لم يعترضوا على ذلك؛ ونذكر أسماء بعض القرى التي أحرقت) وغادروا مزارعهم. كان "استقلال" البعض كارثة (نكبة) البعض الآخر. كانت إسرائيل قد ربحت حدودها المسماة "الخط الأخضر" -التي أقرتها الأمم المتحدة منذ ذلك الحين، وعليه فهي شرعية.

وفي عام 1956، شاركت إسرائيل، دون صفة، في نكسة الحملة الفرنسية الانجليزية على قناة السويس، وشوهت صورتها أكثر في عيون العرب.

بيد أنه، شيئاً فشيئاً، تحول فلسطينيو غرب الأردن أردنيين نفسياً. وراح العالم يتجه نحو اعتراف متبادل حقيقي.

وقد عصفت حرب الأيام الستة عام 1967 بكل شيء. وفي بضعة أيام، من 5 إلى 10 يونيو/ حزيران، سحقت الدبابات الحربية وطائرات ميراج التابعة للجيش الإسرائيلي (تساحال)، الجيوش: الأردني والسوري والمصري (ولم يتسنَّ الوقت للجيش العراقي كي يصل). وأثبت تساحال أنه (وسيبقى) أفضل جيش في الشرق الأوسط. وراح يجفف غسيله على قناة السويس. (في إشارة إلى أغنية للجنود الانجليز في الحرب العالمية تقول: سنذهب لجلب غسيلنا من خط سيبغفريد. ") وصارت الأراضي الأردنية غرب الأردن"الأراضي المحتلة". واحتلت هضبة الجولان السورية.

ويعد جيش إسرائيل، وهو جيش تجنيد (ثلاث سنوات للفتيان وسنتان للفتيات)، جيشاً مثيراً للإعجاب. كيف لا يستمتع المرء وهو يتخيل وجه هتلر،

وهو ينظر إلى المقاتلين اليهود الرائعين على دباباتهم، هو الذي كان يحتقرهم كثيراً! ويذكّر جنود الأيام الستة برومل، أو بلوكلارك. وهذا يثبت مرة أخرى أن البسالة في المعركة تعتمد على الدافع. ولم يكن " الصهاينة" الذين ظهروا بشكل بطولي خلال ثورة الغيتو في وارسو (عام 1943) يكنون سوى الاحتقار للسلبية المستسلمة لبعض يهود الشتات.

ولكن حرب 1967 هذه، التي كانت نصراً عسكرياً كانت خطأ سياسياً فظيعاً. كان ديغول قد أعذر عشية النزاع سفير إسرائيل باختصار: "لقد استفدتم حتى الآن من ظروف استثنائية. اكتفوا بما لديكم. فإن تجاوزتم "الخط الأخضر" فثقوا بخبرتنا، فستصبحون محتلّين". وقد جرفت "الغطرسةُ" الصهيونية. وإن كانت هذه الحرب نصر أسلحة على الطريقة البونابارتية، فقد كانت كارثة جيوسياسية. ومعها ولد وعي قومي فلسطيني عبَّر عن نفسه من خلال منظمة التحرير الفلسطينية (OLP)، برئاسة عرفات منذ عام 1969 حتى وفاته عام 2004.

وفي 6 أكتوبر/تشرين الثاني 1973، شن خليفة ناصر، حليف السوريين، هجوماً عنيفاً ومفاجئاً (يوم عيد الكيبور اليهودي) مؤكداً أن العرب أيضاً يجيدون القتال. وهبطت الدبابات السورية إلى بحيرة طبرية. وأنقذت إسرائيل العبقرية العسكرية لشارون، الذي شن هجوماً مضاداً بمدرعاته متجاوزاً قناة السويس باتجاه القاهرة (ويعتبر شارون جنرالاً كبيراً. فهل سوف يصبح سياسياً كبيراً؟ ليس هناك إلا بونابرت أو ديغول واحد في كل قرن). كان الاستنفار شديداً ولكن تساحال، ارتكب خطأ قاتلاً، إذ إنه استهان بالخصم. وحين وعى الدرس، سارعت إسرائيل إلى إبرام السلام مع السادات، مقابل الجلاء عن سيناء. وقد كلف هذا الرئيس السادات، الذي لم يتورع عن الذهاب بنفسه إلى القدس، حياته فقد اغتاله متطرف إسلامي في 6 أكتوبر/تشرين الأول 1981.

وبعد احتلال غير مُجد للبنان، وجدت إسرائيل نفسها تواجه، لا جيوشاً، وإنما مقاومة. وقد فهمت ذلك، وفي سبتمبر/ أيلول 1993، وافقت على إقامة

سلطة فلسطينية في الأراضي المحتلة. ودفع الجنرال النبيه رابين حياته ثمناً لذلك إذ اغتاله في نوفمبر/ تشرين الثاني متطرف يهودي. ومنذ ذلك التاريخ، لا يزال "مسار السلام" يتعثر وانتفاضات الحجارة تتوالى، وزادها تفاقماً إرهاب أعمى.

وإسرائيل في فلسطين تذكر بإسبرطة في بيلوبونيز، وهو مخيم عسكري وسط الهيلوت (Hilotes) العبيد الفرس. ولا جدال حول الشرعيتين الإسرائيلية والفلسطينية. بيد أن شرعية إسرائيل ليست لا دينية ولا راديكالية؛ بل تاريخية. وتقوم على الدم المراق والتضحيات التي قدمها المستوطنون اليهود.

وعلى العكس، يحتل العرب منذ الأزمنة الغابرة أرضاً لم ينازعهم عليها أحد حتى القرن العشرين، وكان العثمانيون فيها قوة حامية.

ولا يمكن أن نقارن موضوعياً مأساة "مذبحة" كبيرة، بـ"النكبة"، ولكن العربي الفلسطيني يعتقد العكس بصورة ذاتية. ويعتقد العالم العربي أنه يطلب منه دفع فاتورة النازية. ولو كان يمكن التماس العذر للكراهية (وهي ليست كذلك أبداً: وحتى حين يجب القتال، يجب القتال دون حقد)، فيجب على الشاب الصهيوني أن يكره الألماني لا العربي. وفي الاتجاه المعاكس، صارت إسرائيل بالنسبة للعرب "حجة مقبولة "تمنعهم من التحديث. وإذا كانت جميع الشرور تأتي من إسرائيل، فيكفي انتظار زوالها (أو التعجيل به من خلال تفجير أنفسهم).

أما عن الآلية التي تجعل الشباب الفرنسيين المسلمين المغاربيين يكرهون مواطنيهم المنحدرين من أصول مغاربية مثلهم، لأنهم من أصول يهودية، فهي آلية شاذة : إذ لا علاقة لأي منهم بالشرق الأوسط. فـ"مغاربي" تعني "غربي"؛ والمغرب هو "غرب" عرب الشرق. ونحن هنا في عز التنكر للواقع الفرنسي.

وفي فلسطين، يعد المخرج الوحيد المقبول فكرياً لدى الغالبية هو تعايش دولة يهودية ودولة فلسطينية. ومن أجل هذا يجب أن يقبل العرب الوقائع. ومن أجل هذا أيضاً، يجب أن يبادر ديغول إسرائيلي إلى إخلاء مستوطنات عن

الأراضي، أي يجازف بجعل تساحال يطلق النار على اليهود كما لجأ الجيش الفرنسي إلى أطلاق النار على منظمة الجيش السري (OAS)، في باب الواد. وهكذا يبدو بوضوح أن الطريق شاق.

انهيار الاتحاد السوفييتي والعولمة

في عام 1968، هزت أزمة ثقة العالم الحديث برمته: أزمة في الغرب وأزمة في الشرق. ونادراً ما يتم التقريب بين الاثنتين. ويختلفان فقط في العائق الذي وضع أمامهما، إذ لا يمكن أن نقارن النظام الأبوي الديغولي في الدول الشيوعية بروسيا السوفييتية.

و كانت "الثلاثون المنتصرة"، من عام 1945 إلى عام 1975، حبلى بإعادة البناء والتنمية في الشرق والغرب معاً. ولكن الغرب حقق تقدماً اقتصادياً هائلاً على اقتصاد الدولة. ومنذ سنوات 1960، ساد هناك "المجتمع الاستهلاكي"، المعاكس لـ"مجتمع الندرة" الشيوعي. وأدركت الشعوب ذلك (والدعايات، كما أشرنا إليه بشأن فيشي، لم تكن مؤثرة إلّا حين كان الناس مستعدين لسماعها).

والأفكار الجديدة تنتشر عشر سنوات أو عشرين سنة، ثم فجأة يتغير المسرح.

بدأ كل شيء في كاليفورنيا على وجه الخصوص في جامعة باركلي (Berkeley)، ثم انتشرت الحركة في أوروبا، في برلين وروما. وفي براغ، سحقت الدبابات السوفيتية ربيع الطلبة. كان السوفييت لا يزالون مخيفين.

وفي باريس، كانت المظاهرات الطلابية، خلافاً لذلك، شبيهة بالمسرح: لم تكن للقادة أي رغبة في جعل قوات الأمن تطلق النار على أبنائهم أو بناتهم الذين كانوا يمثلون في شارع غي لوساك (Gay-Lussac)، " الكومونة"، أو "الثورة"، ويبنون المتاريس. وقد كان ذلك، في الحقيقة، سيكون شيئاً آخر لو كان العمال قد تظاهروا. ولكن على وجه الدقة، فقد رفض العمال المؤطرون

بالحزب الشيوعي، والكنفدرالية العامة للعمل، الاختلاط مع الطلبة (الذين كانوا آنذاك ينحدرون من الطبقات المتوسطة)، واكتفوا بشن إضرابات كلاسيكية.

كان التواطؤ بين المتمترسين في الشوارع وآبائهم في الوزارات أو الإدارات كبيراً إلى درجة أن أفكار الطلبة زعزعت النظام.

وقد لعب ديغول، من خلال انطلاقة خاطئة وعودة صحيحة، بروعة مشهده الأخير. وفهم أن الأزمنة قد تغيرت. وبعد عام، بعد استفتاء خاسر، انسحب إلى كولومبي :(Colombey) توقف رئيس الجمهورية في منتصف الليل عن أداء مهامه. " ولن نراه بعد ذلك إلّا من بعيد، في صورة مسروقة على أرض بور ايرلندية، ثم من حسن حظه مات فجأة في بيته، محققاً "نجاحاً" في الثمانين من عمره، من دون أن تكون شيخوخته غرقاً بالنسبة إليه.

وخلفه بومبيدو. ومع جيسكارديستان (Giscard d'Estaing)، (بعد الموت المفاجئ لبومبيدو)، وصلت أفكار أيار/مايو إلى السلطة في الإليزيه. وطبقها جيسكار: إصلاح الأعراف، الليبرالية، الخ. ولم يصدق هذه الأفكار الثورية إلّا اليساريون المتطرفون في إيطاليا وألمانيا. وحملوا السلاح بالألوف في "الكتائب الحمر" أو "عصابة بادر" (Bande à Baader). وفي فرنسا، كان هناك عشرة فقط من المولعين بـ"العمل المباشر". وينبغي القول إن المقاولين والسياسيين في إيطاليا أو ألمانيا، كانوا ورثة أنظمة محطمة، بينما كان رئيس الدولة في فرنسا بطلاً من الحرب العالمية...

كانت أفكار 68 في الواقع فردانية جداً وزيادة على ذلك فقد كانت نصيرة مذهب المتعة: "بعد العسر يسراً." وحين يكون المرء طيب القلب، فجميل أن يكون فوضوياً في سن العشرين. وبعضهم انتحر، كي لا يتنكر لذاته. وفي سن الخمسين، أن يكون المرء فوضوياً، فهذا يعني فقط ربح أكبر قدر ممكن من المال.

إن دانيال كوهن بنديت (Daniel Cohn-Bendit)، الذي كان يلقي الزجاجات الحارقة على المتاريس، يوجد اليوم في مقعده بصفته نائباً أوروبياً، ويشاطر

الأفكار الفوضوية اليمينية لمادلين (Madelin). ولا يمكن أن نحصي القدامى ذوي الثمانية والستين الموجودين (الآن وقد بلغوا الستين من العمر) في مناصب قيادية: وهم كثيرون جداً.

وكانت فكرة وجود "مِلكية مشتركة"، وهي إرث ثابت لأوروبا، قد صارت "بالية". وفي أيار/مايو 1981، استطاع الانتخاب المفاجأة لميتران (Mitterrand)، في فرنسا، أن يجعل الناس يأملون في عودة المِلكية العامة. ومنذ عام 1983، انحاز اليسار إلى موضة الليبرالية الفوضوية: وتخلى عن الاشتراكية، وصار "أوروبياً"، واكتشف فضائل رأس المال وحوّل الاشتراكيين إلى "مناهضين للعنصرية". وكانت جمعية "إس أو إس راسيزم" المناهضة للعنصرية التي أنشئت انطلاقاً من الإليزيه، رمز تحول الاشتراكية التأميمية إلى تيار مناهض للعنصرية على الطريقة الأميركية. ومنذ ذلك الحين، تطورت هذه الجمعية كثيراً.

وفي عام 1978، انتخب بولوني، يدعى كارول فويتيلا (Karol Wojtyla)، بابا تحت اسم يوحنا بولس الثاني. وكان ذلك استفزازاً للشيوعيين الروس، الذين حاولوا عبثاً اغتياله في ساحة القديس بطرس عام 1981. ولم يكن يحكم في الكرملين إلا العجائز: برجنيف، أندروبوف (Andropov)، تشيرنينكو (Tchernenko). وفي 11 مارس/آذار 1985، عيّن المكتب السياسي (بوليتبورو) ميخائيل غورباتشيف (51 سنة) أميناً عاماً. كان غورباتشيف يعلم أن الاتحاد السوفييتي لم يكن يستطيع أن يتحمل لا إيقاع الغرب ولا منافسته الاقتصادية، ولا سباق التسلح. وكان يعلم أنه في روسيا، حتى الشعب الشيوعي في معظمه، صار استهلاكياً أكثر فأكثر كل يوم وكان مفتوناً بالنموذج الأميركي، ويحلم بالأسواق الكبيرة أكثر من حلمه بالأماسي الكبيرة. وكان يريد الإصلاح: الـ"بيريسترويكا". ولكن التيار كان أقوى من أن يتحكم فيه.

كانت كنائس بولونيا ونقاباتها (ليش فاليسا (Lech Walesa) وبتشجيع من يوحنا بولس الثاني تتحداه جهاراً. ولم يرسل غورباتشيف الدبابات، وسحب

الجيش الأحمر من أفغانستان. وكانت شعوب أوروبا الشرقية، التي لم تؤمن قط بالماركسية، خلافاً للروس، هانئة بها.

ومنذ عام 1945، انقسمت ألمانيا (المبتورة) إلى قسمين. وقد شكلت المناطق الغربية جمهورية ألمانيا الفدرالية، وكان أشهر مستشاريها كونراد أدينور (Konrad Adenaur)، (مناهض للنازية). وفي الشرق الذي يحتله الروس، كانت هناك جمهورية ألمانيا الديمقراطية (مع مقاطعة برلين الغربية، التي لم يستطع حصار برلين أن يخضعها). وفي عام 1961، بني سور ليمنع سكان الشطر الشرقي من اللجوء إلى المقاطعة الغربية. وكان يحرس هذا السور خفر الحدود الشيوعيين الفوبوس (Vopos)، الذين كانوا يقتلون من يفر من الجنود إلى العدو دون أن يرف لهم جفن.

لكن ما الذي حدث عندما كان الفوبوس يرفضون إطلاق النار؟

حدث ذلك يوم 9 نوفمبر /تشرين الثاني 1989.

وقد نوهنا أكثر من مرة بأهمية الموافقة. وخلال بضعة أيام، هدم السور واختفت جمهورية ألمانيا الديمقراطية (والفيلم الألماني "وداعاً لينين" *(Good bye Lenine)*، يروي ذلك). ولم يعترض غورباتشيف. وتخلت جميع دول أوروبا الشرقية عن الشيوعية. وجُنَّ جنون الجنرالات المحافظين من 19 إلى 20 أغسطس/ آب، فحاولوا تنظيم انقلاب عسكري. وفشل انقلابهم وحل بوريس يلتسين محل غورباتشيف. وفي 29 أغسطس/آب، طرد يلتسين الحزب الشيوعي من السلطة.

وفي ديسمبر /كانون الأول، انفجر الاتحاد السوفييتي: وأعلنت أوكرانيا وبيلاروسيا وجميع الجمهوريات المسلمة في القوقاز وآسيا الوسطى استقلالها (تركمانستان، أوزبكستان، كازاخستان، الخ)، وكذلك الجمهوريات المسيحية (أرمينيا، جورجيا)-آخر تحولات اجتثاث الاستعمار.

وأنهك يلتسين شربُ الخمر فاستقال تاركاً مكانه لرئيس وزرائه فلاديمير بوتين، من قدامى الكاي جي بي (KGB). وقد انتُخب بوتين رئيسا وأعيد

انتخابه (2000، 2004) وحاول أن يعيد السيطرة على ما تبقى من روسيا: من بطرسبرغ إلى فلاديفوستوك، من دون أوكرانيا مع أنها كانت، في كييف، البلد المؤسس.

وحتى سنوات 1980، كان جميع الخبراء الغربيين يقدّرون بثقة أن "الشمولية" السوفياتية عصيَّة على الانهيار.

وقد وضع هذا الحدث الهائل، أي انهيار الاتحاد السوفييتي، حداً للقرن العشرين الذي كان السوفيات قد دشنوه بثورة أكتوبر/ تشرين الأول.

وفي أوروبا الغربية، كان الناس مبتهجين بذلك.

وفي الغرب، كانت الدول منخرطة، منذ معاهدة روما عام 1957، في بناء اتحاد أوروبي، سمي في البداية المجموعة الاقتصادية الأوروبية (CEE)، مزود بمؤسسات عديدة: اللجنة الأوروبية، وتتخذ من بروكسل مقراً لها، وتسيّر الصناديق المشتركة وتعتمد تعليمات ونظماً تفرض نفسها على الجميع؛ مجلس الوزراء، الذي أسس عام 1974، وهو سلطة قرار حقيقية تجمع رؤساء الدول والحكومات، وبرلمان ستراسبورغ، الذي ينتخب بالاقتراع العام منذ 1979.

وحين وصل ديغول إلى السلطة، لم يعترض على ذلك. والواقع أن جعل الدول الأوروبية تتعاون فيما بينها لهو فكرة جيدة. وتنتمي اليوم أوروبا كلها تقريباً إلى الاتحاد الأوروبي. ولكن، هناك طريقتان لرؤية الاتحاد: الطريقة البراغماتية وتتعلق بتعاون الأمم، والإيديولوجية وتتعلق بالأوروبييست، وهي قريبة من الطوبوية (Uttopie). إذ إنه لمن الطوبوية إهمال الوجود التاريخي للدول -الأمم. ولا يمكن لأوروبا أن تبنى وفق نموذج الولايات المتحدة، التي تشكل (في الواقع) أمة واحدة.

وتكمن ثروة أوروبا في كونها قد أنجبت عدة حضارات كبيرة متصلة وكونية: الانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية، الخ. ومن وجهة النظر هذه، تعتبر الحضارة الروسية (تولستوي، ديستوفسكي) حضارة أوروبية لا محالة؛ بينما الحضارة التركية، العثمانية تاريخياً، ليست كذلك.

ويتمثل التحدي الأوروبي: ألا وهو جعل كل هذه الحقائق التي شكلتها القرون تعمل معاً. وتظهر ايرباص وأريان، الخ ما يستطيعه الأوروبيون إذا ما تعاونوا. أما الإيديولوجيا، فهي على العكس، تريد تجاهل التاريخ (فحين يستند إليها الأوروبيست، فهم يتحدثون عن الإمبراطورية الكارولنجية البائدة- رعاية كاشفة!).

والواقع أن أوروبا الموسعة هي في المقام الأول منطقة اقتصادية. ولكن هذه الطوبوية لها مساوئها. ولا تزال كل الطوبويات لها مساوئ. (وحول هذا الموضوع، يجدر التمييز بين "المشاريع الكبرى" الواقعية و"الطوبويات") ويفترض كي تعمل الديمقراطية أن تكون هناك "جماعة محبين". وتوجد هذه الجماعات المحبة، التي تشكلت على مر العصور، في كل من فرنسا وانجلترا. و"أوروبا" ليست واحدة منها. وتُعاش انتخابات البرلمان الأوروبي من خلال المنشورات الوطنية. بيد أن معظم القوانين والنظم التي تسيّر اليوم حياة المواطنين هي، دون أن يعوا ذلك، تصاغ من قبل خبراء "أباراتشيك" بروكسل وباللغة الانجليزية.

وليس لأوروبا ما تجنيه من تحوّلها إلى شبه-أميركا بيروقراطية. حتى أن تجاهل الواقع هذا، قد حوّل، الاتحاد فعلاً إلى مجرد منطقة تبادل حر.

وهناك ما هو أسوأ: فبنشرهم خطاباً مناهضاً لأوروبا، فإن الأوروبييست - المنبثقين أحياناً عن مايو/أيار 68-، على غرار كوهين بانديت، يشجعون ميلاد قوميات -صغيرة مدمرة. وسيكون وهماً مدمراً، وهم "أوروبا مناطق" تختفي فيها فرنسا وتتحاور فيها بريتاني مستقلة، في ظل السلطة الخيّرة لبروكسل، مع كورسيكا وكتالونيا مستقلتين بدورهما.

وفي يوغسلافيا، بعد موت الماريشال تيتو عام 1980، تفتتت المؤسسات الفدرالية التي أبطلتها الموضة: ولم يتوحد الصرب والكروات، الذين تفصلهم عن بعضهم في سراييفو الحدود الألفية التي تميز، منذ ثيودوز (Théodose)، الشرق عن الغرب، إلّا منذ عام 1918. ولكن لم يُكتب أن وجود يوغسلافيا

كان يجب أن يقف عند حدود القرن العشرين. وكانت الفكرة الاستعمارية قد عاشت؛ وكذا الفكرة الشيوعية أيضاً، ولكن فكرة فدرالية سلافيي الجنوب (الذين يتحدثون اللغة ذاتها، وإن استعملوا أبجديات مختلفة) لم تكن فكرة سخيفة. كما أن كثيراً من الشباب، المولودين غالباً من زيجات مختلفة، يشعرون بأنهم "يوغسلافيون".

وفي يونيو/حزيران 1991، أعلن السلوفينيون والكروات استقلال جمهورياتهم. وحذت حذوهم البوسنة ومقدونيا بعد بضعة أشهر. ولم يرق ذلك للصرب المنتشرين في كل أرجاء البلاد. وكانت الحرب. وكانت قصيرة في سلوفينيا، وضارية بين صربيا وكرواتيا. وبعد أن هُزم الكروات، وافقوا على هدنة في يناير/كانون الثاني 1992.

غير أن الحرب استؤنفت في أبريل/ نيسان 1992، للسيطرة على البوسنة (ذات ساكنة مختلطة بين صرب وكروات، تزينها أقلية صغيرة مسلمة، تنحدر من العثمانيين حول سراييفو). وانتصر الكروات عام 1995 بدعم من الولايات المتحدة. فضاعفوا مساحة دولتهم، وضموا الساحل الدلماسي كله، طاردين السكان الصرب من كراجينا.

ورفضت الأمم المتحدة منح مقعد يوغسلافيا السابقة لصربيا ميلوزيفيتش (Milosevic)، التي اعتبرت مسؤولة عن حرب البوسنة. وتدخلت قوات "القبعات الزرق" (الانجليز والفرنسيين والأميركيين) وفرضت على ميلوزيفيتش اتفاقيات دايتون. وقد احتلت القبعات الزرق الفرنسيون والانجليز والأميركيون البوسنة المقسمة، فعلاً، إلى ثلاث دول (إحداها صربية، والأخرى كرواتية، والأخيرة "مسلمة" حول سراييفو). ولم تكن مآسي صربيا قد انتهت، لأن ميلوزيفيتش كانت تغلب فظاظته حذره. ويسكن في كوسوفو، وهي إحدى مقاطعات سراييفو، مهد الأمة (كان مقر البطريركية في بيك (Pec))، 80% من المسلمين الألبان. وحين انفصل هؤلاء، بدأ الجيش الصربي في طردهم. ومن

مارس/ آذار إلى يونيو/حزيران 1999، قصف الحلف الأطلسي بلغراد، مرغماً صربياً على التخلي عن كوسوفو والجلاء عنها.

كانت هناك إذن ثلاث حروب: حرب 1991؛ حرب البوسنة، الحرب الأطول؛ وحرب كوسوفو؛ عام 1999، الحرب الأقسى. واعتُقل ميلوزيفيتش ومثل أمام محكمة دولية، وتعد صربيا اليوم أصغر مما كانت عليه عند استقلالها في القرن التاسع عشر. ويعيش الكثير من الصرب خارج حدودها (في البوسنة ومقدونيا). وتحولت كوسوفو إلى محمية دولية (وكان بيرنارد كوشنير، لمدة، حاكماً لها) يسود فيها سلام هش تحافظ عليه القبعات الزرق. وكان قصف بلغراد عام 1999 هو الأول في أوروبا منذ عام 1945.

هل كان يمكن تفادي المجزرة؟ هل الإدانة دون تمييز لتبادل السكان الذي يسمى "تطهيراً عرقياً" مبررة دائماً؟ عند هذه الدرجة من الكراهية، قد يتضح أنه من المفضل الفصل بين أولئك الذين لم يعودوا يرغبون في العيش معاً (على سبيل المثال، بفضل تبادلات السكان عام 1923، يعيش اليوم اليونانيون والأتراك في مصالحة).

والراديكالية الإيديولوجية ليست أمراً جيداً أبداً. فقد خلفت هذه الحروب مئات القتلى، والانتهاكات (اغتصاب، الخ) الخاصة بالحروب الأهلية. إذ إن الغالبية في البداية عاشت الحروب في يوغسلافيا، باعتبارها حروباً أهلية قبل أن تصبح تدريجياً حروباً وطنية. وعرف التشيك والسلوفاكيون كيف ينفصلون دون حرب، وكذلك الروس والأوكرانيون. ويفسَر التدخل العنيف للروس في الشيشان، دون أن يبرر، بالرغبة في السيطرة على نفط بحر قزوين.

ويمكن أن تحدث مأساة يوغسلافيا في أماكن أخرى. ففرنسا، على سبيل المثال، توحد سكاناً أكثر اختلافاً من سكان يوغسلافيا السابقة: والفروق بين الألزاسيين-الجرمان والبريتون-السلتيين، وبين الليليين-الفلندريين والبروفانسيين-المتوسطيين، أكبر من تلك الموجودة بين الصرب والكروات! وفرنسا ليست "خالدة"؛ فهي اختراع سياسي أرادته باريس وهي ألفية. ويمكن لأحلام اليقظة

"الجهوية" أن تثبط من إرادة الفرنسيين في العيش معاً. وفي رين، تترجم اليوم اللافتات بالبرِيتونية (التي لم تتحدثها الريْن أبداً). وحين نستمع إلى خطابات جان-غي-تالاموني، نرتعد من أجل كورسيكا وفرنسا وأوروبا.

بيد أن الفرنسيين يبدون دائماً سعداء بكونهم فرنسيين. وربما كانوا فخورين أيضاً. ولكن كيف لشاب فرنسي، منحدر من الهجرة، أن يكون "فخوراً" ببلد لا يكف "التقاليديون" عن وصفه بالمتخلف والمتعفن؟

بعد سقوط البيت الشيوعي، لم يعد العالم ذا بيوت عدة. وتبقى الولايات المتحدة القوة الكبرى الوحيدة.

وقد نوهنا إلى أن الأميركيين لا يريدون بناء إمبراطورية رومانية، فمواطنو الميدل-ويست لا يعيرون أي اهتمام للعالم الخارجي. وأميركا ليست إمبراطورية، بل هيمنية. وتجدر الإشارة إلى أن موضة كلمة "عوْلمة" صادفت انهيار الاتحاد السوفييتي. وقبل عام 1989، حين كان الاتحاد السوفييتي موجوداً، لم يكن أحد يتحدث عن "العولمة". والعولمة ليست إلَّا تورية لوصف الهيمنة الأميركية".

وهذه الهيمنة عسكرية وثقافية. وهناك كليات فرنسية تقدم فيها الدروس باللغة الانجليزية. صحيح أنه يجب تعلم الانجليزية بجدية (هذه الكويني *(Koinè)*، الجديدة)؛ ولكن حين يكف شعب عن التدريس بلغته فإنه يبيد.

وهذه الهيمنة اقتصادية أيضاً. ويبدو الاتحاد الأوروبي هنا أداة بمفعولين. مفعول إيجابي في المجال الاقتصادي، حيث يحدث له أن يواجه بفعالية مطامع الشركات الأميركية (ليس هناك "شركة متعددة الجنسيات" حقيقية: فمهما انتشرت شركة كبيرة في العالم، فإنها تحتفظ بجنسية قوية). ومفعول سلبي في الميادين الثقافية أو السياسية، حيث ليست سوى ناقل للإرادات الأميركية. والاستعمال الكثيف للغة الانجليزية، وخنوع معظم بلدان الاتحاد الأوروبي خلال قضايا العراق تثبت ذلك بما يكفي.

إن الهيمنة لسيئة.

سيئة للعالم، حيث ظهرت "مناطق رمادية" فريسة للفوضى (وهي المناطق التي تخلى عنها الأميركيون).

سيئة للمهيمن ذاته، الذي يتعظّم من غياب المنافسة والمعارضة. وكان أفلاطون قد فكّر في قضية الهيمنة العالمية. (وهي لم تكن نظرية: وقريباً سوف يغزو الإسكندر العالم.) وقدّر أن الهيمنة ضارة. فمن أجل توازن العالم، كان من المفيد أن تتعايش أثينا وإسبرطة. ولا يمكن "السيطرة على طرق النفط" (بحر قزوين، العراق، فنزويلا) أن تعوض، بالنسبة للولايات المتحدة، تفكيراً حقيقياً حول العالم الخارجي.

عن مركز التجارة العالمية، وعن الديمغرافيا والمستقبل

في يناير/كانون الثاني 1991، كانت حرب الكويت تجسيداً صارخاً لهيمنة الولايات المتحدة. ولم تكن لتشنها لو كان الاتحاد السوفييتي موجوداً، إذ إن روسيا السوفييتية كانت تحمي العراق. وكان البعث وصدام حسين عميليها.

ولنلاحظ أن الكويت خلق اصطناعي تماماً للامبريالية الانجليزية (كان القصد منه قطع الطرق التقليدية إلى بحر بلاد ما بين النهرين). بيد أن غزو دولة بالسلاح وان كانت "مزيفة" ليس عملاً مقبولاً. لذا فقد كانت حرب الخليج الأولى قانونية تماماً (وقد شاركت فيها فرنسا) بأهداف محدودة. واستُردت الكويت وبقي البعث العراقي في السلطة. كان بوش الأب محنكاً.

وقبل هذا الحدث، كان استيلاء الملالي المتطرفين لآية الله الخميني على السلطة في إيران بمثابة الإنذار الساخن. وكانت الثورة الإيرانية باحتلالها السفارة الأميركية، قد أحدثت في العالم الإسلامي ضجة تضاهي تلك التي أحدثتها الثورة الفرنسية، في عالم الأنوار، باستيلائها على الباستيل... كما أن عراق صدام كان قد قاد حرباً ضارية ضد إيران الملالي.

وكان الخميني بإطلاقه فتوى ضد الكاتب سلمان رشدي، يتحدى الحداثة. كانت الماركسية تريد أن تتجاوز عام 1789؛ وكانت الاسلاموية تريد محوها. ولكن الخميني كان فارسياً، وكان لثورته قاعدة محددة ألا وهي إيران.

والاعتداء المناهض لأميركا في 11 سبتمبر/ أيلول 2001 هو أمر مختلف تماماً. كان اعتداءً حقيقياً، حتى وإن زعم العكس كتاب سخيف. وقد قارنه البعض ببيرل هاربور. ولكن المقارنة غير وجيهة. صحيح أن هناك تشابهات: عدد القتلى، المفاجأة، الصدمة. ولكن قبل ستين عاماً، كان الأمر يتعلق بحرب بين دول؛ وكان يمكن تحديد مكان المعتدي. فقد كان اليابانيون يريدون القضاء على بحرية عسكرية، وليس المدنيين تحديداً (والحقيقة أن معظم الضحايا كانوا بحارة).

أي دولة أرادت نسف برجي مانهاتن التوأمين والبنتاغون؟ ما من دولة! والقاعدة ليست حتى منظمة ممركزة. إنها خليط من مجموعات يحركها التعصب...

والقاعدة أيضاً لا تدير حرباً حقيقية. فالحرب تبحث عن تحقيق نتائج سياسية. فماهي ياترى أهداف القاعدة؟ ما الذي تطلبه القاعدة من الولايات المتحدة؟ لا شيء! وقد كانت طريقة عملها مذهلة: فتدمير أبراج مركز التجارة العالمي يُذكر، إلى درجة يصعب فيها التمييز، بأفلام هوليود الكارثة.

وكان المتطرفون المسلمون، عام 1994، قد حولوا طائرة الخطوط الجوية الفرنسية بهدف جعلها تصطدم ببرج إيفل. وقد فشلت محاولتهم، لأنهم اضطروا إلى الاعتماد على الطيارين الفرنسيين الذين حطوا بالإيرباص في مارينيان حيث تمكنت قوات التدخل التابعة للدرك الوطني (GIGN) من الانقضاض عليهم.

واستنتج المتطرفون أنه كان عليهم تكوين طيارين. والواقع أن أفراد الكومندو الذين استولوا على الطائرات الأميركية قد قادوها بأنفسهم. وللطرفة، فقد حصل أحد الانتحاريين على الشهادة الأميركية لقيادة الطائرات بعد موته.

وكانت فكرة تحويل طائرات مدنية (مليئة بالكيروزين عند إقلاعها) إلى

قنابل، فكرة شاذة، ولكنها فعالة. وقد ميعت الحرارة التي أحدثها احتراق الأبراج هيكلها المعدني وأذابته. وقد أصابت الدهشة حتى بن لادن نفسه. وقد حصل على 3000 قتيل وأثراً بصرياً "صاعقاً". وكان بن لادن، المتصل الجيد، في غاية الرضى: فقد اجتذبت الطائرة الأولى الكاميرات وتمكنت جميع التلفزيونات من أن تصور الصدمة الثانية بكل ارتياح.

وبن لادن الذي كوّنه الأميركيون، وهو المتطرف، يبقى ابن إشهار! وقد كان الأثر الاقتصادي والمالي عظيماً. وكان على الرئيس بوش الابن أن يضخ، خلافاً لمبادئة الليبرالية، ملايين الدولارات الورقية لإنقاذ الاقتصاد الأميركي.

وأظهرت مصالح الاستخبارات عجزها التام. وبفضل أقمارها الاصطناعية وحواسيبها، كانت تتنصت على كل الاتصالات في العالم. ولكن السي آي إي نسيت أن المتآمرين لا يتحدثون في الهاتف (باستثناء الجنسيات الكورسيكية). والاستخبارات تعتمد دائماً على "المخبرين"، وهم عملاء يتسللون إلى صفوف العدو. ولم يكن لدى سي آي إي مخبرون. ويُزعم أن لا أحد فيها يتحدث الفارسية (اللغة المستعملة في كابول).

وخلافاً لما كان قد حدث في بيرل هاربور، فقد ضرب التنين الأميركي في الفراغ. صحيح أنه احتل بطريقة مشروعة أفغانستان (البلد الذي كانت فيه السي آي أي منذ زمن غير بعيد تدعم طالبان ضد الروس). ولكنه بعد ذلك لم يعد يعرف ماذا يفعل.

وكانت حرب العراق الثانية خدعة.

كان صدام حسين وهو ديكتاتور اشتراكي ولائكي يشبه ستالين أكثر مما يشبه بن لادن. وكان يكره المتطرفين ولم يكن له أي اتصال بالقاعدة قبل 11 سبتمبر/ أيلول 2001... كما أنه لم يكن يملك إلّا جيشاً صغيراً، لا يملك "وسائل الدمار الشامل" وتقلص جداً منذ مغامرة الكويت.

كان غزو الجيش الأميركي للعراق، عام 2003، عملية "لا محل لها من

الإعراب" إلى درجة أن المرء يكاد يفكر، بإطلاق العنان لجنونه قليلاً، أن القاعدة هي من برمجه. فمن المستفيد منه، في الحقيقة؟

ويعد تدمير نظام معروف بإلحاده ونشر الفوضى في العراق وإهانة (مرة أخرى) المسلمين النتائج الأكثر ظهوراً له. ويجب أن يفرح بن لادن. ففرنسا الرئيس شيراك لم ترد المشاركة في هذا الجنون، الذي أقرته بالعكس معظم بلدان الاتحاد الأوروبي. وهذا يبين بشكل صارخ أن الإرادة السياسية تقوم، لا على بيروقراطية مختلة، وإنما على إرادة الأمم. فلا يكفي أن تكون قوياً، بل يجب أن تكون ذكياً ومتحمساً. وكما قال وودي آلين (Woody Allen)، في أحد أفلامه: "من حسن الحظ أن فرنسا موجودة!"

وتعتبر القاعدة ظاهرة مقلقة: فهل "تحول" إسلام معيَّن بإعادة ترتيب نفسه (الانتحار ليس إسلامياً بل بوذياً) في شكل إيديولوجية شمولية؟ فللمرة الأولى منذ قرون، يتم الاعتراض على الحداثة (ولم يفعل اليابان مايجي شيئاً سوى تقليدها). وقد نصبت القاعدة للأقوياء فخ الحروب الدينية.

وماذا عن حال العالم، بعد ذلك؟

ينبغي أن نتحدث قليلاً هنا عن الديمغرافيا. وقد نوهنا بأهميتها بأن لاحظنا، على سبيل المثال، الانفجارات السكانية التي تعود إلى الثورات النيوليتية والصناعية، وفقدان فرنسا الصدارة (القوة الأكثر سكاناً في أوروبا عام 1815، والأقل سكاناً عام 1915).

والحالة "الطبيعية" للشعوب هي الحالة التي يكون فيها للمرأة أبناء كثيرون (الديمغرافيا تهتم بالنساء) وكثيراً من الأخلاق العامة. كانت تلك هي الحالة العادية حتى القرن التاسع عشر.

والحالة الحديثة للديمغرافيا هي التي يقل فيها نسل المرأة وتضعف الأخلاق. وقد قضى الطب (ابتداء من الفترة التي صار فيها فعالاً مع باستور) تقريباً على وفيات الأطفال، منتجاً امتداداً للمعدلات يتم الخلط بينه وبين امتداد الحياة الفردية.

وفي عام 1700، كان ينبغي على المرأة أن يكون لها سبعة أبناء أو ثمانية كي يعيش منهم اثنان أو ثلاثة، إذ إن المواليد (لحسن الحظ) لم يعودوا يموتون قط تقريباً. وقد أحدث الطب في العالم ثورة أكثر مما فعلته الزراعة أو الصناعة. والأطباء، الذين هم غالباً فردانيون كبار (قسم أبوقراط)، لا يدركون ذلك قط.

ويسمى هذا الانتقال من حالة ديمغرافية إلى أخرى بـ"التحول الديمغرافي". ويتطلب هذا التحول ثلاثة أجيال أو أربعة، لأن النساء لا يدركن أن أطفالهن لم يعودوا يموتون. ويفسر هذا التفاوت "الانفجارات" الديمغرافية. وفي القرن التاسع عشر، "انفجرت" أوروبا وضخت إلى العالم عشرات الملايين من المهاجرين. وأنجزت "تحولها" حوالى عام 1960.

وكان تاريخ فرنسا الديمغرافي تاريخاً فريداً.

فقد أنجزت الأمة الكبيرة تحولها قبل بلدان أوروبا الأخرى، بسبب-أو بفضل- "الثورة الكبرى"، التي قلبت عاداتها بعمق. وهي اليوم تبدو معقمة ضد المالتوسية. وهي تواصل إنجاب العدد نفسه من الأبناء لكل امرأة تقريباً كما كان في عهد لويس فيليب. وللمفارقة، فإن معدل خصوبتها (1.90 طفل لكل امرأة) أعلى بكثير منه عند جيرانها الأوروبيين (1.30) وقريب من معدل تعويض الأجيال (في ظروف الطب الحديث، يجب أن يكون 2.10 طفل لكل امرأة لتعويض الأجيال). وقد ساهمت أيضاً قدرة فرنسا، الكبيرة منذ زمن طويل، على استيعاب الهجرة (تضاهي قدرة الولايات المتحدة)، في صحتها الديمغرافية الجيدة نسبياً.

وبعد ذلك كان الانفجار الديمغرافي للعالم الثالث. ولم تنجب نساء العالم الثالث أطفالاً أكثر من جداتهن (فكن ينجبن مثلهن سبعة أطفال أو ثمانية). ولكنهن لم يكن قد فهمن أن هؤلاء الأطفال (بفضل المستوصفات) لن يموتوا. وهكذا انتقلت الجزائر المسلمة من 2 مليون نسمة عام 1830 إلى 36 مليون نسمة حالياً.

ويعد الانفجار الديمغرافي "ادّعاءً إعلامياً" فارغاً. بيد أنه قد انتهى. و"التحول الديمغرافي" هو بصدد التحقق في كل مكان تقريباً! وكما قلنا، فالأفكار تنتشر كالأوبئة. ومنذ عام 2000، "صُدمت" (كما يقول الشباب) نساء العالم الثالث. فهن يعرفن أنه يكفي أن يكون للواحدة منهن ثلاثة أطفال. وهكذا فإن معدل الخصوبة في الجزائر اليوم، يشبه معدل الخصوبة في فرنسا. طبعاً، بما أن الرجال يشبهون الأشجار، فهناك"خمول ديمغرافي". وقد نسجت النساء الجزائريات سلوكهن على منوال الفرنسيات، ولكن ملايين المراهقين المولودين قبل التحول الديمغرافي لا يزالون يرزحون في البطالة. وسوف ندرك التحول الجزائري بعد عشرين سنة.

والحقيقة أن البشرية التي تعد اليوم 6 مليارات نسمة، لم تعد مهددة بالانفجار الديمغرافي. ولم تبق إلّا بعض البلدان تنجب الكثير من الأطفال بسبب الإيديولوجيا أو الأمل في "انتقام المهد" (عبارة اخترعت لتفسر كيف أن 600.000 فلاح فرنسي متروكين في كندا استطاعوا أن يصيروا 6 ملايين): والفلسطينيون، المسلمون واليهود المتطرفون ينتقمون بهذه الطريقة.

وإجمالاً -وهذه حقيقة مهملة-، فإن البشرية مهددة لا بالانفجار، ولكن بالانفجار الديمغرافي الداخلي. فمنذ جيلين، تنجب الصين واليابان والهند التاميلية القليل من الأبناء. إنها "الشيخوخة"، وهذه تورية (فعصرنا المتجمل لا يحب تسمية الأشياء بأسمائها) للتعبير عن نقصان المواليد.

ونقصان المواليد هذا مريع في روسيا، حيث يقابل على الأرجح "فقدان عزيمة" تلى سقوط الشيوعية. ولكنه يمس أيضاً أوروبا بشكل مأسوي (باستثناء فرنسا): فإيطاليا وإسبانيا وألمانيا ليس لديهم أبداً أكثر من طفل لكل امرأة. وعلى هذا الصعيد، فالاتحاد الأوروبي مهدد بالفناء المادي.

ولا تستطيع الهجرة التعويض هناك إلّا على الهامش. إذ إن هناك فرقاً كبيراً بين استيعاب الوافدين الجديد و"استبدال" شعب بآخر، يقطع الاستمرارية ويهدد التوريث الثقافي. وتعتبر بعض الضواحي استبدال سكان. ونحن نرى آثار ذلك.

ويلزم الوقت لاستيعابها؛ ولكن سرعة الانفجار الداخلي للأوروبيين لا تدع لهم الوقت قط. خاصة أن الحديث عن مشكلات الولادة يعتبر "رجعية "، ويؤكد الأنجلوسكسون أن خصوصيات البيوت لا تعني الدول. وهذا خطأ بالطبع: فإنجاب طفل هو فعل اجتماعي. كما أن الأطفال الأصليين هم من يستوعب الأطفال المهاجرين.

ويعبّر شعار "الإطارات" (yooppies) الشباب الأميركيين عن عقلية العصر: (عائد مضاعف، لا أطفال). وسيدفع هؤلاء الإطارات الشباب غير الواعين ثمن ذلك غالياً في شيخوختهم. إذ منذ 11 سبتمبر/أيلول 2001، لم يعد من المؤكد أن المهاجرين الشباب سيقبلون أن يجرّوا كراسيهم المتحركة.

ورغم هذه الاستفهامات، فإن النهاية المعلنة للانفجار الديمغرافي هي خبر سار بالنسبة للبشرية. فستكون الغاية المثلى أن يصل السكان إلى "النمو صفر" الديمغرافي: عن طريق الاستبدال البسيط، وإنما الأكيد، للأجيال. وينبغي التذكير بأن هذه الغاية تتطلب من النساء قبول أن يكون لكل واحدة منهن طفلان أو ثلاثة.

ويجري الحديث عن البيئة أكثر من الديمغرافيا. والبيئة ليست مجرد موضة: إنها إدراك أن موارد الأرض ليست دائمة وأن البشرية تؤثر (منذ العصر النيوليتي) على محيطها.

إن الارتفاع الفاحش لسعر برميل النفط هو، بهذا المعنى، خبر سار. وسوف يساهم هذا الارتفاع أكثر من الوعظ في فرض سلوك بيئي. وبعد الديمغرافيا والبيئة، يجدر التذكير ببعض الوقائع الجيوسياسية.

فقد دخلت الصين فجأة في الفترة المتوحشة للتكديس البدائي الرأسمالي ومدنها تعج بالأبراج الزجاجية. وقد أصبحت مصنع العالم وعليها استيراد النفط والصلب. إنه عصر "مايجي" الصين، لكنه أكثر فوضوية مما كان عليه في اليابان.

وخلفت العائلة الأبوية الصينية العائلة ذات الطفل الوحيد و"الأباطرة

الصغار" سيئي التربية والنزقين-وهذا انقلاب فظيع في التقليد الكونفوشي. وفي الشتات، تقدم مدينة سنغافورة المنارة، صورة عن حداثة صينية فائقة النشاط، ولكنها امتثالية وحزينة ومقبولة تماماً من بكين (على عكس تايوان). إذ إن الماضي ما زال يثقل كاهل الصين: فهي لا تزال "إمبراطورية الوسط"، وأكثر اليوم، حيث تخلت حكومة بكين تماماً عن أحلام اليقظة الكونية لماو تسي تونغ الذي كان يدفع بالمتعاونين الصينيين إلى أفريقيا.

وقد دخلت الهند أيضاً في الحداثة بصخب، عن طريق المعلوماتية والخدمات أكثر منها بالصناعة. ولكن هذا التطور يخص بالأساس الهند التاميلية في دكان (Dekkan)، التي تبعد أكثر فأكثر عن الشمال الهندوسي-بما يمثله ذلك من خطر انفجار شبه القارة.

أما روسيا، فإنها تتحرر بصعوبة من ركام الاتحاد السوفييتي. وقد قبلت بانفصال آسيا الوسطى وأوكرانيا. ولكنها للمفارقة تشن حرباً ضارية في الشيشان. وبخصوص هذه الحرب، فقد تحدثنا عن النفط، ولكن إذا فكرنا ملياً، فإن الأمر هنا يتعلق على الأرجح بتشنج أمبريالي شبيه بما حدث مع بريطانيا العظمى حين شنت، عام 1982، الحرب على الأرجنتين لامتلاك أرخبيل مالوينس (Malouines) التافه.

كما أن القوقاز، الذي يلتقي فيه الإيرانيون والأتراك والسلافيون والأرمن والجيورجيون، والذي يمثل حافظاً لجميع الإثنيات، ومنطقة الصراعات بين جميع الديانات، قد أصبح واحدة من المناطق الرمادية في الكوكب. ولم يستطع الجيش الأحمر السابق العظيم، الذي تفكك كلياً، إنهاء عملية احتجاز الرهائن الفظيعة في مدرسة في أوسيتيا، إلا بمجزرة يوم 3 أيلول/ سبتمبر 2004.

وغادر السكان الروس المناطق الشمالية أو السيبيرية في نزوح كبير نحو الجنوب. كما أن مغادرة المناطق الريفية الصعبة من الكوكب هي حقيقة عامة ومقلقة في العالم بأسره.

وأما عن البقية، فالمستقبل غامض. والاستشرافيون دائماً يخطئون؛ فالأمور

غير المتوقعة هي التي تحدث دائماً. وحسب وجهات النظر، يمكننا إذن أن نغذي الأمل أو نخاف.

أولاً، نأمل. فالإمكانيات العلمية عظيمة. و"حكمة الأمم" يمكن أن تتفوق على الجنون: فعلى سبيل المثال، لم تنفجر البلدان الإسلامية بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001. وربما وجدت فرنسا، البلد التاريخي القديم جداً، لها هنا دوراً على مقاسها؛ خاصة وأنها لا تزال قوة صناعية وثقافية وعسكرية لا يستهان بها.

ولكن هناك أيضاً أسباب للخوف. فالمناطق الرمادية تتضاعف، وانعدام الأمن يتزايد. وحتى صنع الحواسيب يتطلب أن تظل هناك مناطق آمنة يمكن البناء فيها بسلام. واشتعلت الحروب الدينية من جديد.

والأخطر من ذلك أيضاً أنه في قلب الحداثة، يغيب الرأي العام، والانحطاط ليس حتمياً أبداً إذا ما حافظنا على معنى الخير العام. وهناك تساؤل أساسي بالنسبة لمستقبل العالم الحديث: هل ستجد البلدان الحديثة مبررات للعيش؟ إذ إن هناك موضة معينة تهدد البشر في مجتمعاتنا المتطورة:

"فبإضعافنا حس الخير العام بينهم، وتشتيتنا للعائلات، وبقطعنا حبل الذكريات، وبتنميتنا حاجاتهم بإفراط، فإننا قد جعلناهم أقل تمدناً مما كانوا عليه." هكذا كان توكفيل يتحدث عن التأثير الضار للحداثة على الهنود.

خاتمة

تعمدنا أن لا يحتوي هذا الكتاب على فهرس للمراجع. فالمؤلفات التاريخية في الحقيقة كثيرة جداً، بحيث يستغرق ذكرها، ولو بإيجاز، من الصفحات أكثر مما يستغرقه الكتاب نفسه. ويأمل مؤلفاه بأن يفتح شهية القراء فيذهبون لشراء تلك الكتب، التي عادة ما تكون عند المكتبيين مرتبة حسب الفترات. وليس فيه مسرد أيضاً : فجميع الأسماء موجودة في، (le Petit Larousse)، أو (Robert)، في باب أسماء العلم.

وقد تعمدنا أيضاً أن لا يشمل هذا الكتاب خرائط. لا لأن المؤلفين لا يقدّرون الجغرافيا، بل على العكس، لأن ذلك يتطلب مئات الخرائط لتوضيح هذا الكتاب. والحال أنه إذا لم يكن هناك إلّا القليل من الروايات الكرونولوجية لتاريخ العالم، فهناك كتب خرائط تاريخية والكثير من كتب الخرائط العامة (فإن لم توجد، فأي معجم موسوعي). ويرجو المؤلفان من القراء، إن كانوا مهتمين، أن يتفضلوا بالرجوع إليها.

منذ قرن مضى كان الذين يحسنون القراءة في فرنسا يعرفون أيضاً كيف يتموقعون في المكان والزمان. ولم يعد الأمر كذلك.

وقد أصبح الفرنسيون وكذا جميع الغربيين، في معظمهم، أناساً بلا ماض، «فاقدي ذاكرة». وللمفارقة الساخرة، يجري الحديث عن «واجب الذاكرة» كما لم يحدث من قبل، في أزمنة النسيان هذه، إذ أنه من المعروف تماماً أنه لا يتم التركيز على ميزة إلا إذا نسيت.

ويضاف إلى هذا احتقار بورصي للمدى الطويل وثقافة «الفورية»، وسوف تفهمون أن حداثتنا تصنع مستهلكين متنقلين قابلين للتبادل و «أبناء إعلانات» أكثر مما تنتج مواطنين مسؤولين راغبين في الفهم والبناء.

هل يمكن حقاً تفكيك الأحداث دون مرجعيات تاريخية، والأحداث الأكثر حالية تتجذر دائماً في المدى الطويل؟ فعلى سبيل المثال، كيف لنا أن نحدد موقع حروب العراق دون أن نكون قد سمعنا عن حضارة ما بين النهرين؟ فالصور تصدمنا دون أن تعنينا. و نحن نرى اليوم كل شيء فوراً وعلى المباشر، لكننا لا نفهم شيئاً.

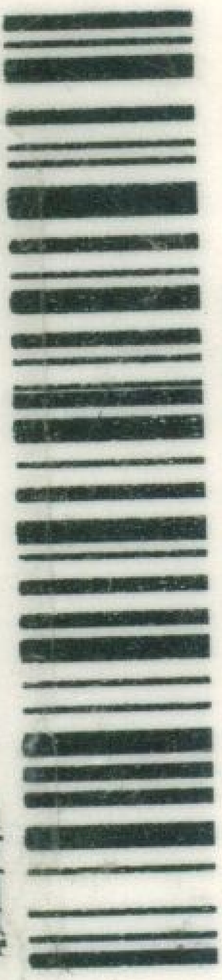
ومن هنا جاءت هذه الفكرة البسيطة والطموحة في آن معاً لتأليف كتاب موجز جداً يكون سرداً لتاريخ العالم، ولكنه كرونولوجي بصورة حازمة لجميع القراء الذين يتمنون أن «يجدوا أنفسهم فيه» ، ويحددوا مصائرهم الشخصية في التاريخ الجماعي الكبير، البطولي والمأساوي، السخيف أو المليء بالمعاني، للنوع البشري.

لذا فها هو ملخص لتاريخ الإنسانية، وهو ناقص (أولي)، ولكنه مليء بالمقاربات المفاجئة والأسئلة الوقحة؛ قصة حقيقية يستطيع القارئ أن يجد فيها تفسيرات قابلة للمناقشة لوقائع ليست كذلك. وهو موجه للجميع، باستثناء من يمتهنون التاريخ.

جان كلود بارو هو كاتب مقالات وروايات كثيرة لاقت نجاحاً وآخرها حقائق مسيحية (*Vérités Chrétiennes*)، عام 2004 منشورات فايارد.

وهو يدير قسم الثقافة العامة في القطب الجامعي ليونارد دافنتشي.

وغيوم بيغو هو مؤرخ شاب نشر عام 2000 كتاباً مهماً جداً السيناريوهات السبعة للقيامة (*Les Sept Scénarios de l'apocalypse*) عن منشورات فلاماريون.




ISBN 978-9953-71-366-3
9 789953 713663